دمشق الشام

في نصوص الرّحالين والجغرافيين والبلدانيين العرب والمسلمين



الجزء الأوّل

أحمد الإيبش   د. قتيبة الشهابي

الإشراف الفني : زهير الحمو

دمشــــق الشــــام
في نصوص الرحّالين والجغرافيين والبلدانيين العرب والمسلمين
الجزء الأول

Damascus

in the Works of Arab and Muslim Travellers & Geographers
3rd - 13th. C. A.H.

- Volume I -

Compiled by

Ahmed N. Ibesch
Dr. Koutaiba Shihabi

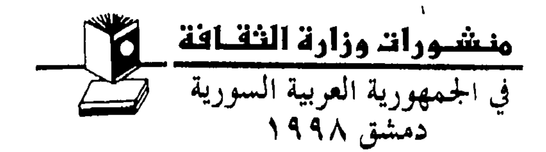
دمشق الشّام

في نصوص الرّحالين والجغرافيين والبلدانيين العرب والمسلمين

من القرن الثّالث إلى القرن الثّالث عشر للهجرة

الجزء الأوّل

أحمد الإيبش   د. قتيبة الشّهابي



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٨

دمشــق الـشــام في نصــوص الرحــالين والجغرافيين والبلدانيين العرب والمسلمين/ أحمد الايبش، قتيـبة الشــهابي . - دمشــق : وزارة الثقافة، ١٩٩٨ . - ٢ج؛ ٢٤سم .

١- ٦١١١,٩١٥ ا ي ب د ٢- العنوان ٣- الايبش
٤- الشهابي

مكتبــة الأســد

الايداع القانوني: ع - ٧٣٥/ ٥/ ١٩٩٨

عميق الشكر والإمتنان والتقدير

للسيدة الدكتورة نجاح العطار

وزيرة الثقافة

عرفانًا بفضلها في تشجيع هذا العمل وتفانيها
في رعاية الفكر والفن والتراث

والشكر الجزيل للأستاذ زهير الحمو

ولجميع العاملين في مطبعة وزارة الثقافة

على جهودهم الكريمة في إنجاز هذا الكتاب

مدخل

ما كاد القرن الأول للهجرة ينقضي حتى كانت الدولة العربية الإسلامية الفتيّة تبسط سلطانها على أرجاء عظيمة من العالم القديم في قارات آسيا وأفريقيا وأوروبا ، فقد امتدت حدود هذه الدولة الجبّارة يومها من حدود الهند والصين شرقاً إلى مياه الأطلسي غرباً ، ومن آسيا الوسطى وجبال القوقاز شمالاً إلى الصحراء الأفريقية الكبرى جنوباً . ووجد الفاتحون أمامهم آفاقاً وعوالم جديدة ، تزاحمت فيها الغرائب والعجائب واختلفت فيها الألسن وتلوّنت المشاهد الطبيعية وتغايرت الأقوام والشعوب . وبعد أن كان مرآهم حبيساً في بيئتهم الصحراوية القاسية في جزيرتهم العربية ، انفتحت على أعينهم الدنيا بأرجائها ومفاتنها ، بما فيها من بلدان وأقطار وجبال وسهول وبحار ومحيطات وأنهار ، وبكل ما هو جديد وشيّق وغريب .

أثارت هذه العوالم في نفوس الفاتحين مكامن الاطّلاع وحبّ المعرفة ، وسرعان ما انطلقت جموع الرحالين والمستكشفين والعلماء والتجّار في أعقاب جحافل الغزاة الفاتحين ، فانبسطت أمام أبصارهم وأسماعهم هذه البقاع والأقطار الجديدة ، فجالوا فيها وجاسوا بين ذراها وسهولها وقيعانها وأدوائها وفيافيها ، يدفعهم شغف العلم وشهوة الاكتشاف والمغامرة أو طلب العلم أو الربح والتجارة .

وما لبث بعض هؤلاء الرحالين والمكتشفين أن شرعوا بكتابة

أحداث رحلاتهم ووقائعها مع أوصاف البلاد والأقوام الذين صادفوهم ، وهكذا نشأ في القرن الثالث الهجري في آداب اللغة العربية صنف أدبي جديد عرف باسم «الأدب الجغرافي العربي» . وخلال بضعة قرون من السنين تراكمت نصوص هذا الأدب ، حتى ألّفت إلى نهاية العصور الإسلامية الوسيطة مكتبة أدبية جغرافية عظيمة ، تعتبر في أيامنا واحدة من أندر وأثمن كنوز تراثنا العربي الإسلامي .

تراوحت هذه المؤلفات ما بين أخبار الرحلات والرواية الشخصية للأحداث والوقائع ، وبين النصوص المختصة حصراً بالوصف الطبيعي والجغرافي للبلدان والأقطار ، ومنها ما اشتمل على أكثر من ذلك ، فأحاط بالأوصاف الجغرافية والطبوغرافية والطبيعية والبشرية مع ذكر لجميع ظواهر الطبيعة من جيولوجيا ونبات وحيوان ، ويعرف هذا النمط الأخير باسم «المؤلفات الكوزموغرافية العامة» . بينما اختصّت بعض النصوص الأخرى برحلات مخصوصة من المغرب الإسلامي ، أي شمال أفريقية والأندلس ، إلى المشرق لأداء فريضة الحج وطلب العلم ، كان أشهرها كما نعلم رحلة ابن بطّوطة الطنجي ، أعظم الرحالين العرب بلا منازع .

ومما زاد في سهولة هذه الرحلات أن جواز السفر الوحيد المطلوب آنذاك كان أحد أمرين : اللسان العربي أو النطق بالشهادتين . وكان العالم الإسلامي يومها مفتوحاً أمام من شاء على امتداد مسيرة سفر عشرة أشهر من أقصاه إلى أقصاه ، أي في لغة عصرنا الحاضر ما يزيد على ثمانية آلاف كيلومتر ، من مياه الأطلسي إلى سور الصين العظيم .

* * * * *

نتناول في هذه الدراسة الحاضرة كل ما أورده الرحالون والجغرافيون والبلدانيون العرب والمسلمون من أوصاف لمدينة دمشق العتيدة العريقة الخالدة ، أول عاصمة لهذه الدولة العظيمة ، دمشق التي ما برحت تتوضأ بالعروبة خمس مرّات كل يوم ، والتي صنعت للعرب مجدهم وخطّت بأحرف من نور باكورة تاريخهم .

واقتصرنا في الجمع على المؤلفات التي كتبت من القرن الثالث الهجري حتى نهاية القرن الثالث عشر . وقدّمنا للنصوص التي جمعناها بلمحة سريعة عن الأدب الجغرافي العربي وأدب الرحلات لدى العرب ، مع عرض سريع لجهود أشهر الباحثين في هذا المضمار ، ثم بيّنا خطتنا المتبعة في جمع هذه النصوص ودراستها وتحقيقها .

ويسرّنا اليوم أن نقدّم هذا البحث بعد شهور طويلة أمضيناها في جمعه ، ليكون إضافة جديدة ومفيدة للدراسات المتعلقة بتاريخ سورية الحبيبة وتراثها الحضاري . ونرجو أن تسنح لنا الفرصة في المستقبل القريب لاستكماله بجزء ثالث يتناول نصوص الرحالين الذين زاروا دمشق في القرن الرابع عشر الهجري ، فإن تم لنا ذلك فإنما نكون قد أدركنا كل ما نرمي إليه وأصبنا من سؤلنا غاية مبتغاه .

دمشق ، نيسان ١٩٩٨

المؤلفان

الأدب الجغرافي العربي
وأدب الرحلات عند العرب

عرف العرب السفر قبل الإسلام ومارسوا الترحال في شبه الجزيرة العربية والبلدان المتاخمة ، وقاموا برحلتي الشتاء والصيف الوارد ذكرهما في القرآن الكريم ، ومخرت سفنهم عباب المحيط الهندي حيث اتجهوا شرقاً نحو الهند وغرباً صوب أفريقية . فلما ظهر الإسلام وسّع بدوره آفاق الرحلة العربية وعدّد دوافعها ، وبقيام الدولة العربية الإسلامية الكبرى بلغت هذه الرحلة ذروتها وارتفع شأنها ، وبخاصة إبّان فترة الفتوحات وما تلاها من عصر الاستقرار والازدهار والمعرفة والحضارة .

فلمّا استهل القرن الثاني الهجري كان العرب قد امتدت فتوحاتهم وأصبح لهم ملك واسع الأرجاء ، وكانوا في بداءة هذا القرن فتحوا بلاد ماوراء النهر وبلاد الأندلس ، فانبسطت إمبراطوريتهم من حدود الهند والصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ، ومن آسيا الوسطى وجبال القوقاز شمالاً إلى الصحراء الأفريقية الكبرى جنوباً .

وكان لاختلاط العرب بالشعوب الأخرى أثر كبير في نشأة المدنية الإسلامية وتطوّرها ، فملك العرب ناصية العلم والمعرفة ، وحفظوا لأوروبا تراث اليونان ، وتقدمت على أيديهم العلوم المختلفة .

وأتيح للمسلمين في العصور الوسطى أن يحوزوا قصب السبق في ميدان الرحلات والاكتشافات والدراسات الجغرافية . وأفادت أوروبا مما كان عند المسلمين من علم بأجزاء العالم المعروفة في القرون الوسطى .

والحق أن ازدهار الحضارة العربية الإسلامية ، وسيادة المسلمين

في البر والبحر ، وطبيعة الدين الإسلامي ، كل ذلك كان من شأنه أن يشجع على الأسفار والرحلات .

* * * * *

في فجر الإسلام كان الجزء الأكبر من العالم القديم تزدهر فيه مدنية الإسلام وتدير دفته حكومة دولة عربية إسلامية . ثم فقدت هذه الدولة الإمبراطورية وحدتها السياسية منذ منتصف القرن الثالث الهجري ، ولكن روابط الدين واللغة والثقافة ظلّت تجمع بين سكان الدول الإسلامية ، فكانوا يشعرون بأنهم أبناء إمبراطورية عربية إسلامية عظيمة مترامية الأطراف .

ولقد كانت تلكْ الروابط قوية في العصور الوسطى ، ولم تكن القوميات الإقليمية قد عظم شأنها بعد . وكانت أنحاء هذا المُلك الواسع الذي أسسه المسلمون تتطلّب الدراسة والوصف ، تمهيداً لتطبيق أحكام الشريعة وتسهيلاً لمهمة الولاة . فسافر القوم لدراسة البلاد وطرقها وحاصلاتها وخَرَاَجها وما إلى ذلك ، مما لا بدّ منه للتأليف في علم «تقويم البلدان» بغية «تمصير» هذه البلدان وتعريب دواوينها وتوحيدها ، وإحلال أسس ثابتة لأصول الإدارة المدنية وجباية الضرائب وإحصاء الغلال والثروات والمكوس وكل ما يتعلق بالشؤون الإدارية والاقتصادية للولايات، وبالتالي ربطها بسلطات الإدارة المركزية في عاصمة الخلافة .

ثم لمّا ظهرت الحركات الشعوبية فيما بعد كانت الرحلات الحثيثة بين أقطار هذه الإمبراطورية العظمى شكلاً من أشكال الردود المعاكسة

للشعوبية ، وكانت الصلات الناجمة عن السفر والترحال المتبادل بمثابة التوثيق لعرى الترابط والتعاون بين أجزاء وشعوب هذه الإمبراطورية الكبرى، والتي كان العرب منها بمثابة القلب والموئل .

* * * * *

ومن الطبيعي أن تكون الرحلات والأسفار من أول السبل لطلب العلم في تلك العصور ، فقد كانت الكتب نادرة ، وكانت الدراسة العلمية تقوم مقام ما نلجأ إليه اليوم من تتبّع المراجع والمؤلفات التي تزخر بها دور الكتب الخاصة والعامة . وفضلاً عن ذلك فقد تعدّدت مراكز الثقافة في ديار العروبة والإسلام ، وكان رجال العلم ينتقلون في طلبه من إقليم إلى آخر ، يدرسون على مشاهير العلماء ويلتقون بأعلام الفقهاء والمحدّثين واللغويين ثم الأطباء والفلاسفة والكيميائيين والطبيعيين والجغرافيين والرياضيين . وهذا الضرب من الرحلات شاع تحت مفهوم «الرحلة في طلب العلم» ، وحضّت عليه التعاليم الإسلامية بتركيز كبير تحت شعار أرساه الحديث الشريف : «اطلبوا العلم ولو في الصين» . ويلخّص لنا مؤرخنا وعالمنا الاجتماعي الكبير ابن خلدون أهمية الرحلات بقوله : والرحلة لا بدّ منها في طلب العلم ، ولاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال .

* * * * *

وكـذلك كـان الحجّ من أعظم بواعث الرحـلات ، فـإن ألوف المسلمين كانوا وما زالوا يتجهون كل عام من شتّى أنحاء العالم الإسلامي إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج وزيارة قبر النبي العربي الكريم . فالحج كان ولا يزال رحلة يتشوّق إلى أدائها كافة الناس ، وليس علماؤهم أو فقهاؤهم فحسب ، وكان الحجّاج عند عودتهم إلى بلادهم يخبرون عن الطرق التي سلكوها والأحداث التي صادفوها ، وقد كان النابهون منهم يدوّنون مشاهداتهم ، ويعملون على أن ينفعوا الوافدين بتجاربهم ، تسجيلاً لفضلهم وهدايةً لغيرهم ، ولفتاً لنظر أولي الأمر إلى ما يجب إصلاحه . كما كان أهل الخير والتقوى في شتى البلاد الإسلامية يرحّبون بإخوانهم الميمّمين شطر الأراضي المقدّسة ويعنون بإقامة الرباطات وحبس الأوقاف للإنفاق منها في سبيل راحتهم .

* * * * *

واتسع نطاق التجارة عند العرب والمسلمين اتساعاً لم يبلغه عند شعب آخر قبل كشف أميركا ، فانتشرت قوافل التجّار منهم في القسم الأعظم من العالم المعروف في ذلك العهد ، وخاضت سفنهم عباب البحار والمحيطات ، وازدهرت على أيديهم الطرق التجارية بين بحار الصين وآسيا الوسطى وسواحل بحر البلطيق والأندلس وشواطئ المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط وساحل أفريقية الشرقي وجزر المحيط الهندي وصحارى السودان . ومن أشهر الرحلات البحرية التجارية التي تمت في المحيط الهندي وبحر الصين بالثلثين الأولين من القرن الثالث الهجري

رحلات سليمان التاجر العراقي وأبي زيد السِّيرافي التي دوّنت أخبارها في كتاب «أخبار الصين والهند» ، ورحلات الربّان بُزُرُك بن شهريار الرّام هُرْمُزي التي دوّن أخبارها في كتابه النفيس «عجائب الهند» .

وكان التجار يحملون السلع بين الأسواق المختلفة في العالم الممدّن حينئذ ، ويقومون بالرحلات الطويلة في هذا السبيل . وحسبُنا أن نشير إلى الكنوز الوافرة من النقود العربية والإسلامية التي عُثر عليها في روسيا وفنلندة والسويد والنرويج ، بل في سويسرا وجزيرة إيسلندة والجزائر البريطانية . وترجع قطع العملة المذكورة إلى الفترة الواقعة بين نهاية القرن الأول للهجرة وبداية القرن الخامس . ولسنا نجزم بأن كثيراً من التجار العرب والمسلمين أنفسهم قد وصلوا بالفعل إلى إيسلندة أو النرويج أو الجزر البريطانية ، ولكن كتب الرحلات وتقويم البلدان عندهم تشير إلى تردّدهم على جنوب روسيا ، وإلى وصولهم أوروبا الوسطى . ويشهد ذلك كله بما كان للمسلمين من سيادة تجارية في تلك البقاع .

وقد كتب المقدّسي بياناً بالسلع التي كان المسلمون يحصلون عليها من جنوبي روسيا والبلاد الأوروبية الشمالية ، وقوامها أنواع الفراء والجلود والشمع والنشّاب والقلانس والغراء والعسل والسيوف والدروع والأغنام والبقر ، كل ذلك فضلاً عن الرقيق من الصقالبة . أما أهم ما كان يحمله التجار المسلمون إلى تلك الأقاليم فالمنسوجات بأنواعها وبعض التحف المعدنية ثم الفاكهة . ومن يقرأ نصوص الرحلات يلمس عظم تجارة المسلمين في شرقي أفريقية ووسطها وإقليم غانة وفي بحار الصين وجزر الهند الشرقية . وحسبُنا ما ذكره ابن جبير وابن بطوطة من أن التجار في عدن كانت لهم ثروات طائلة ، وكان بعضهم يملك المراكب العظيمة لنقل

سلعهم . وكان الرحالون والتجار العرب والمسلمون يزورون القسطنطينية والمدن التجارية في شبه جزيرة إيطاليا ، وكانت للمنسوجات الشرقية والسجاد سوق رائجة في أوروبا .

ومن الطريف أن بعض هؤلاء الرحالين كانوا يجمعون بين التجارة وطلب العلم ، ومنهم المقدّسي الذي عقد العزم على السفر بتجارة إلى ساحل أفريقية الشرقي طمعاً بالأرباح الفاحشة والثروات الكبرى ، ومنهم ياقوت الحموي الذي كان ممن ارتحلوا للتجارة وطلب العلم .

ويقدم لنا الإدريسي صورة حيّة عن مدينة سيراف وعن نشاطها التجاري البحري ، فيقول : هي على ساحل البحر الفارسي ، وهي مدينة كبيرة ، وبها تجار مياسير . وأهلها مولعون بكسب المال واستجلابه على أي وجه أمكن ، وهم أكثر عباد الله تغرّباً وتجوّلاً في الآفاق ، حتى أن الرجل منهم يتجوّل العام والعشرين ، ولا يرجع إلى أهله ولا يكترث بمن خلفه .

* * * * *

وكان بعض خلفاء العرب وأمرائهم يوفدون الرسل والسفراء إلى غيرهم من أمراء الأمم الأخرى من باب جمع المعلومات والبيانات أو تمهيداً لإقامة علاقات «ديبلوماسية» أو أحلاف سياسية ، فدعا ذلك أحياناً إلى القيام برحلات تكليفية طريفة إلى أصقاع لا يألفها المسلمون . من ذلك مثلاً المهمة الرسمية التي أوكلها الخليفة العبّاسي الواثق بالله في عام

٢٢٧ هـ إلى سلاّم الترجمان لزيارة حصون جبال القوقاز ، ومنها السفارة الأندلسية التي قام بها التاجر ابراهيم بن يعقوب الموسوي نحو عام ٢٦٣ هـ إلى أوتو الأكبر إمبراطور الجرمان ، ومن المحتمل أن يكون بعض أعضاء تلك السفارة مصدر ما كتبه القزويني عن بعض البلاد الألمانية . ومن ذلك أيضاً رحلة ابن فضلان عام ٣٠٩ هـ بتكليف من الخليفة المقتدر إلى جنوبي روسيا وبلاد الخزر والصقالبة وإلى بعض أقطار أوروبا الشمالية .

* * * * *

وطبيعي أن كثيرين من المسلمين كانوا يرحلون سعياً في طلب الرزق ، ويكفينا أن نشير إلى الخيّاط البغدادي الذي قابله الرحالة ابن فضلان في إقليم الفولغا . ثم كان أعلام الفنانين ومهرة الصنّاع ينتقلون من إقليم إلى آخر لينتفع الأمراء بجهودهم ، أو كانوا يؤمرون بالسفر إلى بعض الأطراف النائية للاشتراك في إشادة المنشآت الجديدة أو المساهمة في تجديد بناء أو زخرفة عمارة أو إنتاج التحف الفنيّة النفيسة .

ولسنا ننسى في هذا المقام أن إكرام الضيف عند الشرقيين ، وبساطة العيش في القرون الوسطى ، وحث الإسلام على السفر بتخفيف بعض الواجبات الدينية على المسافرين ، من إسقاط لفرض الصيام ومن قصر وجمع لفرض الصلاة ، كل ذلك سهّل الرحلات وشجّع على القيام بها .

* * * * *

ومن المؤكد أن إباحة تعدّد الزوجات في الإسلام كانت تخفف بعض عوائق الأسفار ، ولا تترك الرحالين المسلمين محل شك أو انتباذ أو مصدر متاعب اجتماعية ، فكان كثير منهم يتزوّج في البلاد التي ينزل فيها فترة من الزمن . ومن الطريف في هذا الصدد أن الرحالة الشهير ابن بطوطة الذي ترك زوجته المغربية بدمشق ، كان قد تزوج في مصر مرتين أو أكثر ، وكانت له في جزائر الملديف أربع زوجات ، وكذلك أعجبه في مدينة زبيد باليمن أن نساءها كن لا يتمنّعن عن الزواج بالغريب ، وإذا شاء الزوج السفر وتركها فهي لا تطالبه بشيء ، بل لو كان لها منه ولد لكفلته وقامت على تربيته خير قيام حتى يرجع أبوه .

* * * * *

وهكذا نرى أن العرب والمسلمين في العصور الوسطى أتيح لهم القيام بكثير من الرحلات والأسفار ، والحق أن ما كتبه المؤلفون المسلمون فيما بين القرنين الثالث والتاسع للهجرة عن الرحلات كثير جداً ، ولكن المعروف أن الرحالين لم يكتبوا أخبار رحلاتهم في مؤلفات قائمة بذاتها إلا نادراً ، كما فعل ابن فضلان وابن جبير وابن بطوطة . أما معظمهم فقد أدمجوا حديث تلك الرحلات فيما ألّفوه من كتب التاريخ أو تقويم البلدان . كما أشار بعض المؤلفين إلى رحلات قام بها غيرهم ، ولم يصل إلينا شيء عنها من تأليف أصحابها أنفسهم .

وفضلاً عن هذا كله فثمّة رحلات قام بها الملاّحون التجار ، ضاعت أخبارها أو لم يدوّنها أصحابها ، وإن كانوا من المصادر التي نقل

عنها المؤرخون والجغرافيون الكثير من وصف البلاد النائية ، والتي يرجع إليها ما نراه من قصص البحر في الأدب العربي مثل قصة السندباد البحري .

ولدى استعراض أخبار الرحالين المسلمين ، يظهر لنا أن المجهولين منهم أكثر ممن حفظ التاريخ أسماءهم ، فمعظمهم لم يُعن بتدوين أخبار أسفاره ، واستطاع نفر قليل منهم أن ينتفع بها بالكتابة في التاريخ وعلم تقويم البلدان ، ووفّق أفراد معدودون لتدوين أحاديث الرحلات التي قاموا بها ولسرد مشاهداتهم العجيبة في البلاد التي تجوّلوا فيها .

* * * * *

وأما شأن هذه الرحلات في تطوّر العلم والمعرفة فما من شك في أن المسلمين ساهموا في التعريف بالشرق الأقصى وأفريقية فضلاً عن آفاق دولتهم نفسها .

فالرومان كانوا يتخيّلون وجود الصين ، ولكن الرحالين المسلمين عرفوها وكتبوا عنها منذ بداءة العصور الوسطى أخباراً أيّدتها رحلة ماركو پولو البندقي في القرن الثالث عشر الميلادي . وكان الرومان لا يعرفون من قارة أفريقية إلا سواحلها الشمالية ، أما المسلمون فقد عبروا الصحراء وعرفوا مجاهل هذه القارّة التي ظل الأوروبيون حتى القرن الثامن الميلادي يقفون عند سواحلها فلا تطول أعناقهم إلى ما ورائها .

أما الجزيرة العربية والعراق وإيران فطبيعي أن يكون المسلمون المرجع الأساسي في وصفها الجغرافي والعمراني والاجتماعي ، إلى غير

ذلك مما لم يصل إليه الغربيون قبل العصور الحديثة .

* * * * *

وحسبُنا لتبيان فضل الرحالين المسلمين أن ينتهي بنا المطاف إلى أن دراستهم على نحو وافٍ دقيق أمر لا بد منه لكل باحث في تاريخ التجارة أو النظم السياسية أو التاريخ الاجتماعي للشعوب الإسلامية والأمم الأخرى التي اتصلت بها ، فإن ما كتبه الرحالون المسلمون من وصّافين وجغرافيين كنز لا ينضب معينه ، يضم الوثائق العظيمة الشأن في تاريخ الإنسانية . وفي استطاعة الباحث أن يستخرج منها شتى الحقائق ومختلف ضروب المعرفة ، مطمئناً إلى نتائج بحثه إن هو أقبل على دراستها بعين الناقد الخبير ، مقابلاً ما جاء فيها على نصوص المعاصرين لمؤلفيها من رحالي الأمم الأخرى .

* * * * *

وتمتاز قصص الرحلات العربية والإسلامية عامة بظهور شخصيات الرحالة فيها ، فإن أكثرهم لا يقفون عند وصف مراحل أسفارهم وصفاً عاماً، بل يعنون بتقييد الظواهر الاجتماعية غير المألوفة في أقاليمهم . ثم إنهم يحرصون على لقاء أعلام البلاد التي يجتازونها من علماء وأدباء ورؤساء وأعيان ، إلى جنب تعرّفهم إلى طبقات الشعب المختلفة .

* * * * *

كان المستشرق الروسي ڤلاديمير مينورسكي V. Minorsky قد كتب أن جغرافيي العرب قد ملأوا الفراغ وسدّوا الثغرة الزمنية بين عهد بطليموس العالم اليوناني وعهد ماركو پولو العالم البندقي ، وأن أخبار رحّالي العرب وقصصهم أكثر تنوّعاً وأشد حيوية مما نجده مسطوراً في كتب علماء اليونان وجداولهم ، وأن علومهم التي ضمّنوها كتبهم تمتاز بأنها أعظم اختياراً ونقداً وأكثر تفاصيل مما ورد في كتابات الرحّالة البندقي الكبير ماركو پولو .

* * * * *

وكان ما كتبه الرحالون المسلمون عن البحار مصدراً للقصص البحرية العربية ، وهي على قلّة عددها من أبدع القصص البحرية في آداب العالم على الإطلاق . وحسبُنا أن نشير هنا إلى قصّة السندباد البحري وقصة عبد الله البرّي . والثابت أن كثيراً من وقائع القصص البحرية منقول من كتب الرحلات وكتب العجائب . بل نرى أن كتب الرحلات كانت مصدراً للعديد من الجغرافيين ، فمن ذلك أن ابن الفقيه الهَمْداني نقل في كتابه «مختصر كتاب البلدان» أجزاء كبيرة من رحلة أبي زيد السِّيرافي .

وفضلاً عن ذلك كله فإن بعض الرحالين والملاّحين المسلمين كان لهم شأن عظيم في مساعدة أعلام الرحالين الغربيين في مجاهل أفريقية والمحيط الهندي في نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة . ولا أدل على ذلك من أن الرحالة البرتغالي ڤاسكو دا غاما لم يكن ليتمكن حقاً من اكتشاف طريق الهند بالالتفاف حول رأس الرجاء الصالح ، لولا استناده

على المعلومات المستقاة من وقائع رحلات الملاّح العربي الشهير أحمد ابن ماجد .

* * * * *

وأما أشهر الرحالين الباكرين في أدبنا الجغرافي العربي والإسلامي فهم :

سلاّم الترجمان ، سليمان التاجر العراقي ، ابن وهب القرشي ، أبو زيد السِّيرافي ، بُزُرُك بن شهريار الناخُذاه الرّام هُرْمُزي ، الملاّح عبهرة الكرماني ، أحمد بن فضلان ، أبو دُلَف مسعر بن المهلهل .

وأشهر الجغرافيين العرب والمسلمين في القرنين الثالث والرابع للهجرة :

ابن خُرَّدَاذْبه ، اليعقوبي ، ابن الفقيه الهمذاني ، ابن رُسْتِه ، الحسن بن أحمد الهَمْداني ، المسعودي ، البَلْخي ، الإصطخري ، ابن حَوْقل ، المقدّسي ، الجيهاني ، ابن طاهر المقدسي ، ابن المنجّم ، المهلّبي ، الخوارزمي .

وأشهر الرحّالين والجغرافيين العرب والمسلمين في العصور الإسلامية الوسيطة :

الفتية المغرّرون ، محمد بن قو سلطان مالي ، البِيْروني ، ناصر خُسْرو المَرْوَزي ، ابن بطلان ، أبو عُبَيد البكري ، الشريف الإدريسي ، أبو حامد الغرناطي ، ابن جُبَير ، السّمعاني ، الهَروي السائح ، الطُوسي ، ياقوت الحموي ، عبد اللطيف البغدادي ، ابن سعيد ، القزويني ،

العَبْدَري ، ابن شدّاد ، ابن رُشَيْد الفِهري ، شيخ الربوة الدمشقي ، أبو الفداء ، ابن فضل الله العمري ، ابن بطّوطة ، ابن خلدون ، خليل ابن شاهين الظاهري ، الحِميَري ، ليون الأفريقي .

وغيرهم كثير جداً .

أعمال أشهر الباحثين في هذا المجال

كان المستشرقون الأوروبيون أول من اهتم بدراسة ونشر نصوص الأدب الجغرافي العربي ، فمنذ القرن الحادي عشر للميلاد بدأت في إسپانيا ترجمة المصنّفات العربية في الفلك والرياضيات إلى اللغة اللاتينية ، وسرعان ما أصبحت أسماء الغوريثمي Algorithmi (أي الخوارزمي) والفراغانوس Alfraganus (أي الفرغاني) والباتغنيوس Albategnius (أي البتّاني) معروفة لدى الجميع ، بل واشتهرت بهذه الصيغ أكثر مما بأسمائها الشرقية الأصلية . وساعدت هذه الترجمات على تطور العلم في أوروپا الوسيطة ، وهي المسؤولة عن تثبيت الشكل اللاتيني للمصطلحات العلمية العربية التي وجدت طريقها إلى عدد من العلوم ولا زالت مستعملة إلى الآن .

وأول نص عربي على الإطلاق في الجغرافيا الوصفية تم طبعه في أوروپا كان كتاب الجغرافي العربي المغربي الكبير الشريف الإدريسي «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» ، وكان ذلك بمطبعة الميديتشي بفلورنسا في

عام ١٥٩٢ م . ومنذ ذلك الحين بدأ يظهر الكثير من النصوص العربية المحققة بشكل علمي دقيق وطبعات قيّمة نفيسة . وفي القرن التاسع عشر بلغت هذه النشرات ذروتها ، وفي غضون بضعة عقود من السنين نشرت من هذه النصوص عشرات وعشرات . وكانت المحافل العلمية في أوروبا تتلهّف لصدور نص جديد لكي تتناوله بالدرس والنقد والبحث العلمي ، ومراراً ما كان الكتاب الواحد يعاد نشره مرّات ومرّات على أيدي عدد غير يسير من الباحثين .

ومن أشهر المستشرقين الفرنسيين الذين عملوا في هذا المجال : دى ساسي ، دى سلان ، رينو ، دى ڤو ، راڤيس ، دى مينار ، دى كورتيّ ، فيرّان ، شيفر ، بلاشير . ومن المستشرقين الألمان : ڤستنفلد ، زاپيل ، ياكوب ، مولر ، كريمر ، شڤارتس ، شپرنگر ، فلايشر ، ميلر ، بروكلمان . ومن النمساويين : فون مجيك . ومن الدنماركيين : ميرن . ومن الهولنديين : دى خويّه ، كرامرز . ومن الطليان : أماري ، نالّينو ، ريتسيتانو ، كوداتسي . ومن الإسپان : خينيس ، دوبلر ، بالنثيا . ومن الروس : فرين ، روزن ، بارتولد ، مدنيكوف ، مينورسكي ، كراتشكوڤسكي . ومن الإنكليز : أوسلي ، كِب ، مركوليوث .

في عام ١٨٧٠ بدأ العلاّمة الهولندي ميخيل دى خُويّه تنفيذ فكرته بنشر سلسلة «مكتبة الجغرافيين العرب» التي اكتمل عقدها بظهور الجزء الثامن في لايدن عام ١٨٩٤ ، وعنوان هذه السلسلة باللاتينية :

Bibliotheca Geographorum Arabicorum

ومن ضمن هذه السلسلة صدرت مجموعة من عيون الأدب الجغرافي العربي ، فتخلّد معها اسم هذا الباحث العظيم دى خُويّه .

وأعظم دراسة تحليلية للأدب الجغرافي العربي ولمصادره ولنقد الأبحاث الصادرة عنه كانت للمستشرق الروسي الكبير إغناتي يوليانوڤيتش كراتشكوڤسكي ، الذي أتمّها في لينينغراد عام ١٩٤٣ أثناء الحرب العالمية الثانية ، وطبعت بموسكو عام ١٩٥٧ . وقام بنقل هذه الدراسة إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم ، وصدرت عن لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة عام ١٩٦٥ بعنوان : تاريخ الأدب الجغرافي العربي . وهي اليوم تعدّ بحق أول مرجع يعتمد عليه الباحث العربي في هذا المجال ، ولا يدانيها في اتساع مادتها وجودة بحثها أي مرجع آخر .

وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى نشطت بالعالم العربي حركة نشر مصادر عيون التراث العربي ، وتعاظم ذلك مع تنامي الحركة القومية العربية في الخمسينات والستينات خاصة . ومن أشهر الهيئات العلمية التي أسهمت في هذا المجال بمصر : دار الكتب المصرية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، دار المعارف ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، معهد المخطوطات العربية . وفي سورية : المجمع العلمي العربي ، وزارة الثقافة ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية . وفي لبنان : الجامعة اللبنانية ، المعهد الألماني للدراسات الشرقية ، المطبعة الكاثوليكية . وفي العراق : المجمع العلمي العراقي ، مكتبة المثنى . وكذلك صدرت في المغرب العربي ودول الخليج العربي منشورات أخرى مماثلة .

وأشهر الباحثين العرب الذين قاموا بتأليف دراسات تحليلية نقدية حول مصادر الأدب الجغرافيي العربي : زكي محمد حسن ، صلاح الدين المنجد ، عبد الرحمن حميدة ، وغيرهم كثير جداً .

أما في أيامنا الحاضرة فأهم مشروع لإعادة نشر هذه المصادر هو

الذي يقوم به معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية التابع لجامعة فرانكفورت ، تحت عنوان : سلسلة الجغرافيا الإسلامية ، والتي يشرف عليها الباحث التركي فؤاد سزگين . وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن ما يتجاوز المائة مجلد .

أهمية هذا البحث
ومنهجنا في إعداده

لا شك أن نصوص الرحالين والجغرافيين والبلدانيين العرب والمسلمين تؤلف مصدراً هاماً وأساسياً لا غُنْية عنه لكل من يتصدّى للبحث في التاريخ المدني والعمراني والاجتماعي لأي قطر أو مدينة من العالم العربي والإسلامي . وإذا كان لكل مدينة وقطر مؤرخوهما المحلّيون ، فإن نظرة الرحالين من أقطار وبلاد أخرى تمتاز على أولئك بشموليتها واستجلائها خصائص المكان ، وتفحّصها لكل ما هو جديد وغريب مما يغفله في العادة أبناء القطر ذاته ، على اعتباره مألوفاً لديهم لا يسترعي الانتباه .

أضف إلى ذلك سلاسة السرد وتشويق أحداث الرحلة أو وصف العيان ، مما يضفي على النص رونقاً وجاذبية لا نجدهما في تواريخ البلدان وكتب الفضائل ومصنّفات الجغرافيا الإقليمية الرصينة . ناهيك عن الفوائد الجلّى التي تجتنى من هذه النصوص للمهتمين بالطبوغرافيا التاريخية لمدينة

دمشق ، وتبيان بعض أسماء الأماكن القديمة وأوصافها ، مما أحاله الزمان وغيّر من معالمه ورسومه على تكرار العصور .

وهذا الصنف من مصادر الرحالين والجغرافيين طالما كنا رجعنا إلى نصوصه كمصادر أساسية وأولية في أبحاثنا عن تراث سورية وتاريخها الحضاري ، ولمسنا عن كثب مدى أهمية هذه النصوص وفائدتها ، ومقدار الحاجة إلى جمعها وتحقيقها بأسلوب علمي حديث ، مع استقصاء النادر والمفقود منها مما قد لا يكون متاحاً بين أيدي الباحثين . فها نحن اليوم نفرد للبحث بهذا الموضوع كتابنا هذا ، ونحاول غاية الجهد لإيفاء الموضوع حقه ، ولإغناء مكتبة التراث الأدبي الجغرافي العربي بسفر جديد نافع .

* * * * *

وكإطار لهذا البحث ، جَهِدنا أن نجمع كل ما يندرج من نصوص قديمة ، مطبوعة كانت أم مخطوطة ، مما كتبه الرحّالون والجغرافيون ومؤرخو البلدان من العرب والمسلمين . واستثنينا من ذلك أعمال البلدانيين الدمشقيين الذين تركوا لنا كتباً ونصوصاً موسّعة مفصّلة عن الخَطَط والتأريخ العمراني للمدينة ، مما يتجاوز حجمه الإمكانية المتاحة ضمن هذا البحث ، ويأخذ بحد ذاته اتجاهاً اختصاصياً مستقلاً فيخرج بالتالي عن نطاق بحثنا .

ويلاحظ القارئ أن استثناءً واحداً قد صدر لدينا بهذا الخصوص ، وهو نقلنا لبعض النصوص المطوّلة من كتاب «نزهة الأنام في محاسن

الشـام» للبـدري . والداعي في ذلك يعـود إلى ثلاثة أمـور : الأول أن هذا المؤرخ أمضى معظم حياته في مصر ، مما نفى عنه صفة المؤرخ الدمشقي بالمعنى الدقيق . والثاني أن للكتاب صفة النص في الجغرافيا الإقليمية ، لا في الخَطَط والتأريخ العمراني كالمؤرخين الدمشقيين المعنيين . والثالث : أن الطبعة القديمة للكتاب ، والحديثة المنقولة عنها ، على قدر من الغثاثة والسقم يقتضي إعادة نشر النص بصورة علمية صحيحة .

وشرعنا في الجمع بدءاً من آثار مؤلفي القرن الثالث للهجرة ، على اعتبار أن أقدم هذه النصوص يرجع إليه ، فلم تصلنا في الواقع أية نصوص مشابهة كتبت في القرون السابقة . على أننا لم نصل في الجمع إلى يومنا الحاضر كما هو المفروض منطقياً ، بل توقفنا عند ختام القرن الثالث عشر الهجري (أي حتى عام ١٣٠٠ للهجرة ، الموافق لعام ١٨٨٣ للميلاد) ، وسبب ذلك أنه بعد هذا التاريخ بدأت تظهر مؤلفات ونصوص رحلات مطولّة لا تتسع لها صفحات كتابنا هذا . ولنفس السبب الذي دعانا إلى اطّراح نصوص البلدانيين الدمشقيين قمنا أيضاً باطّراح هذه المؤلفات والنصوص .

غير أننا ، إتماماً للفائدة وحثّاً للآخرين على تكملة ما بدأناه ، قمنا بإعداد قائمتين اثنتين في آخر هذا الكتاب تتضمنان ما يلي :

١ - القائمة الأولى : بالمؤلفات البلدانية المختصة بخطط دمشق والشام لمؤلفين دمشقيين وشاميين حتى الثلث الأول من القرن العشرين .

٢ - القائمة الثانية : بمؤلفات الرحلات التي تضم نصوصاً عن دمشق والشام لمؤلفين عرب في القرن الرابع عشر الهجري .

وكذلك لم نعمد إلى استقصاء ما ورد عن دمشق في مصادر التواريخ الحولية المرتبة على السنوات والحوادث ، أو في مجاميع الأدب العامة وموسوعاته ، أو في الدواوين والنصوص الشعرية العامة . واستثنينا من ذلك بعض الأشعار المختصة بذكر أسماء بعض الأماكن الهامة بدمشق ، كما فعلنا بنصيّ النابلسي وابن خُداويردي .

والمتتبّع لهذه المصادر المذكورة ، وما أكثرها ، يعثر على الكثير من الأخبار التاريخية والأدبية المتعلقة بدمشق ، غير أن ذلك كله يخرج عن اختصاص كتابنا هذا ، الذي يقتصر في الجملة على نصوص الوصف المتعلقة بالمدينة وعلى سرد وقائع الرحلات القاصدة إليها .

* * * * *

هذا وقد صدرت في عصرنا الحاضر مجموعة من الدراسات تحاكي في أسلوبها منهجنا هذا ، فممّن نحا إلى نفس هذه الأبحاث المجتزأة عن بعض الأقطار العربية : الباحث اليمني القاضي اسماعيل ابن علي بن الأكوع الذي استخرج البلدان اليمانية من معجم ياقوت الحموي ، والدكتور عبد الله يوسف الغنيم الذي انتزع جغرافية مصر من كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري ، والدكتور كامل جميل العسلي الذي جمع نصوص الرحالين العرب في وصف بيت المقدس ، والباحثان الحلبيان الدكتور شوقي شعث والأستاذ فالح بكّور اللذان جمعا مؤخراً نصوصاً عن مدينة حلب في كتب البلدانيين العرب .

وهذه لعمري سنّة حسنة ، حبّذا لو اتّبعها أبناء باقي المحافظات

العربية السوريّة وأبناء الأقطار العربية الأخرى ، للخروج بمجاميع مماثلة عن كل ديار الوطن العربي الكبير على كامل امتداده .

وحتى فيما يتصل بالبحث في موضوعنا بالذات عن دمشق ، فقد سبق أن ظهرت بعض الدراسات المماثلة ، كان أولاها أطروحة جامعية لربيعة البيطار بعنوان : «دمشق كما ذكرها الرحّالة العرب» ، وكذلك كتاب أستاذنا العلاّمة الدكتور صلاح الدين المنجّد : «مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين المسلمين» الصادر في بيروت عام ١٩٦٧ ، الذي أفدنا منه الكثير وأفلحنا في الزيادة عليه بما يقارب الضعف ، وفي توسيع حلقة البحث والتحقيق ضمن الموضوع ، فأتممنا بالتالي ما كان بدأه أستاذنا الكبير قبل نيّف وثلاثين عاماً ، ولنا في ذلك الفخر وله فضل السَّبق والريادة .

* * * * *

والجدير بالذكر أن عملنا هذا يبقى بحاجة إلى رديف له يتناول نصوص الرحالين الغربيين الذين زاروا دمشق في نفس الفترة مجال البحث ، بغية عقد المقارنة بين ما كتبوه وما كتبه رحّالونا . وكنا قد عثرنا على مجموعة كبيرة من هذه النصوص النادرة ، التي تغطي الفترة الممتدة من القرن السابع الميلادي إلى القرن التاسع عشر ، ونشرنا منها سبعة نصوص لكل من : الرحالة الإنكليزي جون موندڤيل ، والرحالة البورغوندي برتراندون دى لا بروكيير ، وثلاثة من الرحالين الفرنسيين هم پيير بولون دى مان وجان تيڤنو ولوران دارڤيو ، والرحالة البرتغالي سيباشتياو مانريكة ،

والرحالة السكوتلندي جون پورتر . ونرجو أن تتاح لنا الفرصة قريباً لنشر جميع هذه النصوص في كتاب واحد ، لنكمل به أركان هذه الدراسة الحاضرة .

* * * * *

وبوجه العموم فالموضوع غني جداً ، وكتب الجغرافيا والرحلات ومصادر الأدب الجغرافي العربي والدراسات المتعلقة بها يكاد لا يطالها العدّ والحصر وتبلغ المئات ، وفهرستها بيبليوغرافياً بحاجة إلى مجلّد ضخم قد يصل إلى حجم كتابنا هذا .

ونتمنى في الختام أن يكون في عملنا هذا خطوة تتبعها خطوات ، سواء من قبلنا أو من غيرنا ، في سبيل التعريف بالمزيد من عيون أدبنا الجغرافي العربي وفرائده ، واستجلاء المزيد والمزيد من مآثر حضارتنا العربية التليدة .

* * * * *

كتاب عجايب الهند

برّه وبحره وجزايره

تأليف

بُزُرْك بن شَهْرِيار الناخُذاه الرامَهُرْمُزي

LIVRE DES MERVEILLES DE L'INDE

PAR

le capitaine BOZORG FILS DE CHAHRIYÂR DE RÂMHORMOZ.

TEXTE ARABE

PUBLIÉ D'APRÈS LE MANUSCRIT DE M. SCHEFER, COLLATIONNÉ SUR LE MANUSCRIT DE CONSTANTINOPLE,

PAR

P. A. VAN DER LITH.

TRADUCTION FRANÇAISE

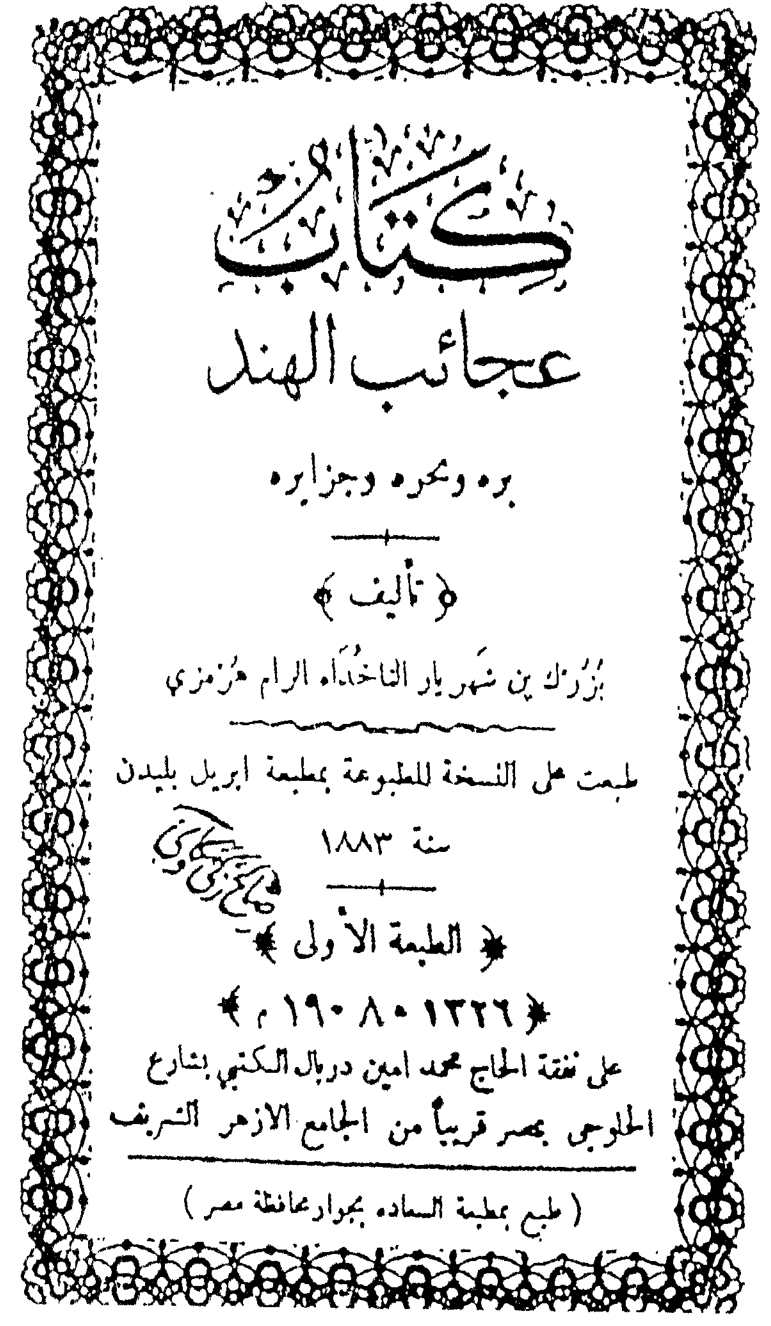
PAR

L. MARCEL DEVIC.

Avec quatre planches coloriées tirées du manuscrit arabe de Hariri de la collection de M. Schefer, et une carte

Publication dédiée au sixième Congrès des Orientalistes.

LEIDE. — E. J. BRILL.
1883—1886.



كتاب

عجائب الهند

بره وبحره وجزايره

﴿ تأليف ﴾

بزرك بن شهريار الناخذاه الرام هرمزي

طبعت على النسخة المطبوعة بمطبعة ابريل بليدن

سنة ١٨٨٣

﴿ الطبعة الأولى ﴾

﴿ ١٣٢٦ - ١٩٠٨ م ﴾

على نفقة الحاج محمد امين دربال الكتبي بشارع

الحلوجي بمصر قريباً من الجامع الازهر الشريف

(طبع بمطبعة السعاده بجوار محافظة مصر)

لجنة التأليف والترجمة والنشر

اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكى

تاريخ
الأدب الجغرافى العربى

نقله إلى اللغة العربية

صلاح الدين عثمان هاشم

قام بمراجعته

إيغور بليايف

القسم الأول

اختارته

الإدارة الثقافية

مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق



رسالة ابن فضلان

أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد

في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة

سنة ٣٠٩ هـ - ٩٢١ م

حققها وعلق عليها وقدم لها

الدكتور سامي الدهان

عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

- ١ -

أبو عُبيد البغدادي
القاسم بن سلاّم
(توفي ٢٢٤ هـ/ ٨٣٨ م)

القاسم بن سلاّم الهروي الأزْدي الخُزاعي، الخراساني البغدادي، أبو عُبيد. من كبار العلماء بالحديث واللغة والفقه، من أهل هراة، ولد بها سنة ١٥٧ هـ وفيها تعلّم، وأصله رومي. ولي قضاء طرسوس ثماني عشرة سنة. ورحل إلى مصر سنة ٢١٣ هـ، وقدم بغداد، وكان شيخ البلاذُري. وفسّر بها غريب الحديث، واشتغل بالتأديب، فسمع الناس من كتبه. وحجّ فتوفي عام ٢٢٤ هـ.

وكان منقطعاً للأمير عبد الله بن طاهر، كلما ألف كتاباً أهداه إليه، فيُجري له عشرة آلاف درهم. من كتبه: الغريب المصنّف في غريب الحديث، أدب القاضي، فضائل القرآن، الأمثال، المذكرّ والمؤنّث، المقصور والممدود، الأجناس من كلام العرب. وكتبه كلّها جيّدة، وقال الجاحظ فيه: « لم يكتب الناس أصحّ من كتبه، ولا أكثر فائدة ».

ومن أخصّ كتبه « كتاب الأموال »، ويُعتبر من أحسن ما ألّف في هذا الباب. وقد تحدّث في كتابه هذا عن فتح دمشق وأمر الخَراج فيها.

ومنه نقلنا النصّ المتعلّق بها. وقد نُشر كتاب الأموال في القاهرة عام ١٣٥٣هـ بعناية محمد حامد الفقي.

المصادر:

مقدّمة كتاب الأموال للبغدادي والنصوص الواردة فيها
تذكرة الحفّاظ للذهبي٢ / ٥
تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ٧ / ٣١٥
وفيّات الأعيان لابن خلكان ١ / ٤١٨
طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ٢١٧
غاية النهاية لابن الجزري ٢ / ١٧
طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ١ / ٢٥٩
مختصر طبقات الحنابلة للنابلسي ١٩٠
تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٢ / ٤٠٣
طبقات الشافعيّة الكبرى للسبكي ١ / ٢٧٠
دائرة المعارف الإسلاميّة ١ / ٣٧٥
مفتاح السعادة لطاش كبري زاده ٢ / ١٦٧
الأعلام للزركلي ٦ / ١٠
مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجّد ٧

فتح دمشق

وقد كان أمرُ دمشق في فتحها على نحوٍ من هذا :

٤٧٦ - حدّثنا أبو أيوب الدمشقي، حدّثنا الحسن بن يحيى الخشني، عن زيد بن واقد، عن بسر بن عبيد الله، عن واثلة بن الأسقع الليثي قال :

لمّا نزل خالد بن الوليد مرج الصُفَّر[1] ركبتُ فرسي ثم أقبلتُ حتى انتهيتُ إلى باب الجابية - قال أبو عبيد : وهو باب من أبواب دمشق - فخرجتْ خيلٌ عظيمة، فأمهلتُها حتى إذا كانت بيني وبين دير ابن أبي أوفى حملتُ عليهم من خلفهم وكبّرتُ. فظنّوا أنهم قد أُحيط بمدينتهم، فانصرفوا راجعين.

وشددتُ على عظيمهم فدعستُهُ بالرمح، فوقع، وضربتُ بيدي إلى برذونه[2] فأخذتُ بلجامه، فركضتُ، فلما رأوني وحدي أقبلوا عليَّ، فالتفتُّ، فإذا رجلٌ قد ندر من بين أيديهم، فرميت بالعنان على قربوس[3] السرج، ثم عطفتُ عليه فدعستُه بالرمح، فقتلته، ثم عُدْتُ إلى البرذون واتبعوني ثمّ كذلك، حتى واليتُ بين ثلاثة. فلما رأوا ما أصنعُ انطلقوا

---

(١) مرج الصُفَّر سهل واسع قبلي دمشق، حدّده ابن طولون بين قريتي الكسوة وغباغب.

(٢) البرذون : دابّة الحمل الثقيلة، أو خلاف العربي من الخيل.

(٣) القربوس : القسم المرتفع من السرج في مقدّمته ومؤخرته.

راجعين، وأقبلتُ حتى أتيتُ الصفَّر. ثم أتيتُ خالد بن الوليد فذكرت له ما صنعتُ، وعنده عظيمُ الروم قد كان خرج إليه يلتمس الأمان لأهل المدينة، فقال له خالد: هل علمتَ أن الله قد قتلَ فلاناً - يعني خليفته - ؟ فقال بالروميّة: مثانوس[1] - يعني معاذ الله. فأقبل واثلة بالبرذون. فلما نظر إليه عظيم الروم عرفه. فقال أتبيعني السرج ؟ قال: نعم. قال: لك عشرة آلاف. فقال خالد لواثلة: بعه.

فقال واثلة: بِعْهُ أنتَ أيّها الأمير. فباعه.

قال: وسلّمَ إليّ سَلَبَهُ كلّه، ولم يأخذ منه شيئاً.

قال أبو عُبيد: فأرى في هذا الحديث المراوضة في طلب الأمان، ولم يستحكم، وقد صار آخر أمرها إلى الصلح.

٤٧٧ - حدّثني أبو مسهر عن يحيى بن حمزة، عن أبي المهلّب الصنعاني، عن أبي الأشعث وأبي عثمان الصنعانيين:

أن أبا عُبيدة بن الجرّاح أقام بباب الجابية فحاصرهم أربعة أشهر.

٤٧٨ - قال أبو مِسهر: حدثنا سعيد بن عبد العزيز قال:

دخلها يزيد بن أبي سفيان من الباب الصغير قسراً، ودخلها خالد بن الوليد من الباب الشرقي صُلْحاً، فالتقى المسلمون بالمقسلاّط[2]،

---

(١) لم نجد في معاجم اليونانية الحديثة هذه اللفظة، ولعلّها وردت مصحّفة. وأما لفظة «معاذ الله» فهي في اليونانية: ثيوس فيلاكسوي.

(٢) أصلها من كلمة Macella اللاتينية وتعني الأسواق المسقوفة، وقد حدّد المنجّد موقعها

فأمضوها كلّها على الصلح .

قـال أبو عُبيد : وكذلك لو أنّ أهل مدينة من المشـركين ، عـاقـد رؤسـاؤهـم المسلمين عـقداً وصـالحـوهـم على صلح ، فإن الأخذ بالثقـة والاحتياط أن لا يكون ذلك ماضياً على العوام إلاّ أن يكونوا راضين به .

كتاب الأموال ، ص ١٧٦ - ١٧٧

كتاب صلح خالد بن الوليد إلى أهل دمشق

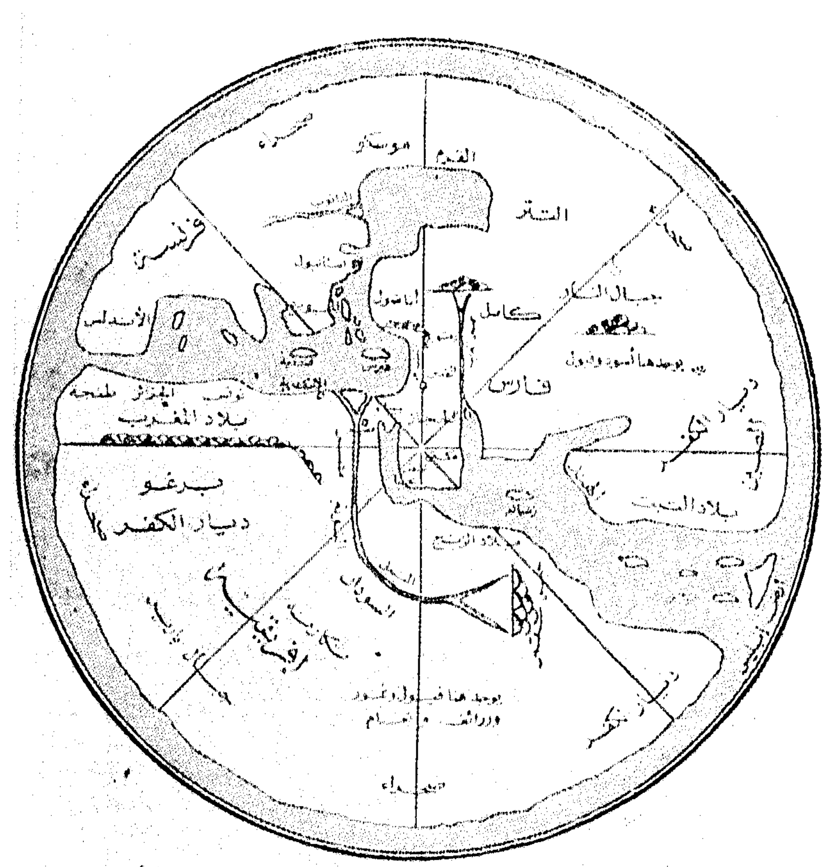
٥١٩ - حدثنا محمد بن كثير ، عن الأوزاعي ، عن ابن سراقة ، أن خالد بن الوليد كتب لأهل دمشق :

« هذا كتاب من خالد بن الوليد لأهل دمشق : إنّي قد أمّنتهم على دمائهم وأموالهم وكنائسهم » .

قال أبو عبيد : وقد ذكر فيه كلاماً لا أحفظه . وفي آخره : « شهد أبو عبيدة بن الجرّاح ، وشُرَحبيل بن حسنة ، وقُضاعي بن عامر ، وكُتب سنة ثلاث عشرة » .

كتاب الأموال ، ص ٢٠٧

= بعد رأس البزوريّة بقرب مئذنة الشحم في الطريق المستقيم (La Via Recta) .



٢٣٣ ـ خريطة عربية وضعت في أواسط القرن الثاني عشر من الميلاد (رسمها يونس الأفندي في القاهرة)

- ٢ -

الخُوارزمي
أبو عبد الله محمد بن موسى
(توفي بعد ٢٣٢ هـ/ ٨٤٧ م)

رياضي فلكي جغرافي مؤرّخ، من أهل خوارزم، يُنعت بالأستاذ، طبَّقت شهرته الآفاق شرقاً وغرباً، وقد أطلق المؤرّخ البريطاني جورج سارتون في مقدّمته لتاريخ العلم اسم «عصر الخوارزمي» على النصف الأول من القرن التاسع، لأنه «أكبر رياضيي عصره، وواحد من أكبر رياضيي جميع العصور على الإطلاق إذا أخذنا في الحسبان اختلاف الظروف». وكانت رسالته في الحساب وكتابه «المختصر في حساب الجبر والمقابلة» هما سبب وصول اسمه إلى أوروپا، حيث عُرف باسم: الغوريثمي Algorithmi ويعود إليه الفضل في نقل منهج الحساب الهندي إلى الشرق والغرب.

ورغم الأهمية البالغة لمؤلّفات الخوارزمي فإن المعلومات عن شخصيّته شحيحة للغاية، والمعروف أن الخليفة العبّاسي المأمون قد جعله قيّماً على خزانة كتبه، وعهد إليه بجمع الكتب اليونانية وترجمتها، وأمره باختصار كتاب «المجسطي» لبطليموس، فاختصره وسمّاه «السِّند هند» أي الدهر الداهر، فكان هذا الكتاب كما يقول الجغرافي المستشرق مالتهِ برون

Malte Brun أساساً لعلم الفلك بعد الإسلام.

أما في علوم الجغرافيا فقد أرسى الخوارزمي لنفسه مكانة سامية بمصنّفه الشهير «صورة الأرض»، الذي اعتُبر فاتحة عهد جديد في ميدانه الخاص به، وإن تكن شهرة مؤلّفه لا تقوم على مؤلّفاته الجغرافيّة. واسم «صورة الأرض» هو الترجمة المتعارف عليها في ذلك العصر للفظ «جغرافيا» اليوناني، ولا غرو فإن مذهب الخوارزمي نفسه في الجغرافيا ينتمي بالأصل إلى المدرسة اليونانيّة التي تعتمد الزيوج (أي الجداول الجغرافيّة لقيم الأطوال والعروض بحسب الأقاليم والمدن).

ويبدو أن كتاب الخوارزمي المذكور قد حمل عدّة أسماء، فمثلاً يذكره الجغرافي أبو الفداء في القرن الرابع الهجري باسم «رسم الربّع المعمور». وعلى أي حال فالثابت أنه قد أتمّ تأليفه عقب وفاة المأمون، بين عامي ٢٢١ - ٢٣٢ هـ كما أثبت المستشرق بارتولد Bartold. ونظراً لغلبة الفلك والرياضة على الخوارزمي فقد وضع كتابه في الجغرافيا على هيئة «زيج»، أي جداول فلكيّة كما تقدّم. والكتاب ليس بترجمة لبطليموس ولكنه ترتيب لمادّته على هيئة جداول مع إضافات واسعة من ميدان الجغرافيا العربيّة وطائفة من التعديلات الأخرى، ويبدو جليّاً من خلال ذلك أن تبويب الخوارزمي لمادّته يختلف اختلافاً بيّناً عن نهج بطليموس.

هذا ويسترعي النظر بصورة خاصّة تقسيم الخوارزمي للأقاليم السبعة حسب درجات العرض، وهو تقسيم يختلف عن كل التقاسيم الأخرى المعروفة لدى العرب، ويعتمد أساساً على حسابات العلماء اليونان. وإذا كان الخوارزمي قد أبدى الكثير من الجرأة العلمية في تقسيمه الجديد للأقاليم فإنه قد أظهر أيضاً الكثير من الأصالة والإبتكار في

خارطاته التي تختلف اختلافاً تاماً عن الخارطات المعروفة لدينا من العهود اللاحقة، وتقوم أهميتها قبل كل شيء على أنها تمثّل أقدم ما وصل إلينا من آثار الكارتوغرافيا (علم رسم الخرائط) العربيّة.

ومما يجدر ذكره أن تأثير هذا الكتاب على العلوم الجغرافيّة العربيّة كان هائلاً، وتبعه فيه الكثيرون ومنهم سُهراب كما سيمرّ بنا في مكانه.

وتاريخ وفاة الخوارزمي غير معروف، وقد ورد آخر ذكر له مقترناً بوفاة الخليفة العبّاسي الواثق بالله عام ٢٣٢ هـ، ويعتقد المستشرق الإيطالي كارلو نلّينو Carlo Nallino أنه قد توفي عقب ذلك بقليل.

وقد قام بنشر كتاب الخوارزمي المذكور «صورة الأرض من المدن والجبال والبحار والجزائر والأنهار» المستشرق النمساوي هانز فون مْجِيْك Hans Von Mzhik، وطُبع في مطبعة آدولف هولتس هاوزن بڤيينّا عام ١٩٢٦، مع مقدّمة باللغة الألمانية. وعن هذه الطبعة أخذنا النص المتعلّق بدمشق.

المصادر:

صورة الأرض للخوارزمي، مقدّمة فون مْجِيْك بالألمانيّة
الفهرست لابن النديم ٢٧٥
دائرة المعارف الإسلاميّة: مبحث الخوارزمي لڤيدمان ٩/ ١٨
كشف الظنون لحاجي خليفة ٥٧٩
تاريخ سنيّ ملوك الأرض لحمزة الأصفهاني ١٢١
تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوڤسكي ١/ ٩٨

من فصل
المدن التي في الإقليم الرابع

العدد	العدد كما تجده*	أسماء المدن	العرض درج	العرض دقائق	الطول درج	الطول دقائق
(٢٦٥)		لبنان صيداء على البحر	يط	ل	لح	مه
(٢٦٦)	[١٧٩]	اطرابلس على البحر	س	له	لد	Ω
(٢٦٧)	[١٨٠]	اللاذقيّة على البحر	سا	Ω	لد	Ω
(٢٦٨)		المثقّب على البحر	س	ل	لو	ك
(٢٦٩)	[١٧٧]	دمشق على حدّ الجبل **	س	Ω	لح	Ω
(٢٧٠)	[١٨١]	حمص	سا	Ω	لد	Ω

صورة الأرض ١٩

---

* العدد كما تجده في كتاب عجائب الأقاليم.

** بحساب الجُمّل تكون قيم الموقع الجغرافي لمدينة دمشق كما يلي: الطول = ٦٠ درجة، حيث (س = ٦٠)؛ والعرض = ٣٨، حيث (لح = ٣٠ + ٨). وأما الرمز Ω الوارد في حقل الدقائق فهو رمز قيمة الصفر. ويُلاحظ أن هناك اختلافاً في القيم لدى سهراب كما سيمر في حينه.

من فصل
الإقليم الرابع وما فيه من العيون والأنهار

[بردى]: نهر من جبل الثلج، أوله عند طول (يط مه) والعرض (لب يه) - (١٨٩٨)، ومصبّه في مدينة دمشق ويجوزها بقليل إلى بحيرة يصبّ فيها.

صورة الأرض ١٢٥

DAS KITAB
ʿAǦĀʾIB AL-AḲĀLĪM AS-SABʿA
DES SUHRĀB

Herausgegeben

NACH DEM HANDSCHRIFTLICHEN UNIKUM

DES BRITISCHEN MUSEUMS IN LONDON

/COD. 23379 ADD./

VON

HANS v. MŽIK

MCMXXX

Otto Harrassowitz · Leipzig

- ٣ -

الخليفة المتوكّل العبّاسي
جعفر بن المعتصم بن هارون الرشيد
(توفي ٢٤٧ هـ/ ٨٦١ م)

الخليفة العباسي المتوكل على الله ، أبو الفضل جعفر بن محمد ، بويع له بالخلافة عام ٢٣٢هـ ، وتوفي مقتولاً عام ٢٤٧هـ . وهو طبعاً لم يكن بالرحالة ولا الجغرافي ، ولكنه قام برحلة إلى دمشق اشتهرت في مـ ر التاريخ الإسلامي وارتبط ذكرها بشكل أساسي في سيرته .

والواقع أن هذه الرحلة تقف من ورائها أسباب وغايات سياسية ، وتشكّل حلقة أساسية من سلسلة الصراع على السلطة بين الخلفاء العباسيين وقادة جيوشهم من الترك ، ذلك الصراع الذي كاد يذهب طعمته الخليفة المعتصم ، ثم راح المتوكل نفسه ضحية له كما سنرى .

ابتدأت حدّة هذا الصراع تتنامى عندما أقدم المتوكل على تصفية القائد الطاغية إيتاخ الذي كان ينوي كما تذكر المصادر القضاء على الخليفة ، وزاد على ذلك بأن أخذ في إقصاء الترك عن المناصب الهامة وشرع في إيجاد جبهة عربية لمقاومة نفوذهم ، وبدّل ولاية العهد من ابنه المنتصر إلى المعتزّ لكون الأول ميّالاً إليهم بالأصل .

غير أن أعماله تلك أوغرت صدور القادة الترك عليه ، واستمالوا إليهم ابنه المنتصر الذي شرع في مناصرتهم ، ووجدوا حجّة قوية في محاربته وتأليب الناس ضدّه عندما قرر هدم قبر الإمام الحسين (عليه السلام) وتسويته بالأرض . فبات المتوكل ها هنا يحسب لهم ألف حساب ويخشى جانبهم أكثر من قبل ، ولما ازدادت عليه حدّة الضغوط قرّر وهو في عصر قوته أن يغادر سامرّاء ويلتمس عاصمة جديدة يمارس منها حكمه ، واستقر رأيه أخيراً أن تكون تلك العاصمة دمشق ، ولو أن بعض المؤرخين كاليعقوبي يعزون سبب هذا القرار إلى أنه «وُصف له برد هوائها وكان محروراً» .

رحلة المتوكل إلى دمشق

ذو القعدة ٢٤٣هـ - ربيع الثاني ٢٤٤هـ

عزم المتوكل على المسير إلى دمشق فكتب إلى أحمد بن محمد ابن مدبِّر يأمره باتخاذ القصور وإعداد المنازل ، وكتب في إصلاح الطريق وإقامة المنازل والمرافد . ثم سار بحاشية كبيرة متوجهاً إليها عن طريق الموصل ، وكان خروجه كما ذكر اليعقوبي يوم الإثنين لعشر بقين من ذي القعدة عام ٢٤٣هـ ، فأدركه عيد الأضحى في مدينة بلد شمال الموصل ، فضحّى وأقام شعائر العيد . وبعد ذلك استمر في مسيره نحو دمشق ، فوصلها يوم الأربعاء لثمان بقين من صفر عام ٢٤٤ هـ ، ونزل بالقصور التي بنيت له بداريّا .

وتكاد المصادر تجمع على أن دمشق ومنطقتها قد أعجبت المتوكل أول الأمر ، وأنه أمر بالبناء فيها ونقل دواوين الحكومة إليها . إلا أنه سرعان ما عاد فاستوبأ البلد لجملة من العوامل الطبيعية ، فهي كما ذكر الطبري : الهواء بها بارد نديّ والماء ثقيل والريح تهب فيها مع العصر فلا تزال تشتد حتى يمضي عامة الليل ، وهي كثيرة البراغيث وغلَت فيها الأسعار ، وحال الثلج بين السابلة والميرة .

ويرى بعض الباحثين المعاصرين في أيامنا أن هذه الأسباب لم تكن بالفعل هي الموجب لعودة المتوكل عن دمشق إلى سامرّاء ورفضه الإقامة فيها خلال مدّة بسيطة من الزمن لم تتجاوز الشهرين فقط (٣٨يوماً كما قال اليعقوبي) . وبخاصة أن المتوكل كان قد نزل بداريّا على بعد ساعة من دمشق ، بين صفر وربيع الثاني من عام ٢٤٤هـ ، الموافقين لحزيران وتموز أي في منتصف فصل الصيف حيث لا أمطار ولا ثلوج في إقليم دمشق بكامله .

ويبدو أن أسباباً أخرى كانت وراء اتخاذ المتوكل لقرار العودة عن دمشق إلى سامرّاء ، لعل أهمها تأثير القادة الترك أنفسهم والذين صحبوا المتوكل في رحلته إلى دمشق ، فقد اقتنع هؤلاء بأن المتوكل ما قصد من اللجوء إلى دمشق إلا تصفيتهم والخلاص من نفوذهم المتعاظم يوماً بعد يوم ، فأرادوا استباق الأحداث وأخذوا يختلقون له المتاعب والصعاب ، فشغبوا عليه بل ذهبوا إلى أكثر من هذا حيث دبّروا مؤامرة لقتله في دمشق والخلاص منه قبل أن يتخلص هو منهم . وكانت البداية في زرع بذور الشقاق بينه وبين القائد التركي بُغا الذي كان من أخلص أعوانه حقاً ، فإن تم لهم ذلك يكونوا قد جرّدوا المتوكل من سنده الأكبر وصار من السهل

القضاء عليه منفرداً .

فهكذا لم يحقق المتوكل بدمشق ما أراده ، وتأكد أن عمله هذا لن يجدي نفعاً وأنه بات ينبغي له العودة إلى سامرّاء عاصمته السابقة ، فكان هذا ما فعله ووصلها في جمادى الآخرة من عام ٢٤٤ هـ . ولمّا عاد إلى سامرّاء لم يشأ السكنى بين القادة الأتراك ، بل أنشأ لنفسه ضاحية جديدة في الماحوزة عرفت باسم «المتوكليّة» أو «الجعفريّة» نسبة إليه ، وأنفق عليها أموالاً جزيلة قدّرت بحوالي مليوني دينار .

وبالجملة عاش المتوكل البقية الباقية من حياته وخلافته أسيراً لرغبات القادة الأتراك ، حتى اعتُبر عصره مؤشراً حقيقياً لانحسار سيادة الخلافة العباسية وبقائها مجرد خلافة إسمية مهلهلة ، وصحّ قول الشاعر فيه :

خليفةٌ في قفصٍ   بين وصيفٍ وبُغا
يقول ما قالا له   كما تقول الببّغا

وسرعان ما نفذ القضاء بالمتوكل فلاقى حتفه مقتولاً لأربع خلون من شهر شوّال عام ٢٤٧ هـ وقتل معه وزيره الفتح بن خاقان ، وأسدل الستار نهائياً على عصر السيادة العباسية الفعلية على العراق والشام والحجاز ومصر ، التي لم يُقدّر لها من البقاء أكثر من قرن ونيّف .

* * * * *

وأما النص المقتضب الذي وصفت به دمشق أعلاه فإن دلّ على شيء فإنما على حال الزراية التي أضحت المدينة تعيشها إبّان حكم بني العباس ، إثر أن أعملوا فيها جهدهم في الحرق والتدمير والتخريب يوم سقطت دولة بني أمية على يد عبد الله بن علي العباسي عام ١٣٢هـ . وبقيت دمشق على هذا الحال نيّفاً وأربعة قرون حتى كان عهد نور الدين محمود بن زنكي فأعاد إليها رونقها وبهاءها ، كما سيمر بنا في نص الوهراني من هذا الكتاب ، وبعده عهد بني أيوب كما سنرى في نص ابن جبير ، ثم عهد المماليك كما سنرى في نصّي ابن فضل الله العمري وابن بطوطة وغيرهما .

وكذلك مما يتعلق برحلة المتوكّل أن بعض المؤرخين في عصرنا حاولوا نسبة بعض آثار بساتين اللّوّان بين المزّة وكفرسوسية جنوب غرب دمشق إلى بقايا القصور التي عمّرت للخليفة المتوكل آنذاك . فقد ذكر محمد أديب تقي الدين الحصني في كتابه «منتخبات التواريخ لدمشق» أن اسم «اللّوّان» ما هو إلا تحريف لـ «الإيوان» ، قائلاً إنها من بعض بقايا قصور الخلفاء العباسيين التي كانت بين المزّة وداريّا .

بينما ذكر الباحث أحمد وصفي زكريا في كتابه «الريف السوري» : أرض اللّوّان ، نقول إنها كانت فيما مضى قرية مستقلّة ، وكان الخلفاء الأمويون ثم العبّاسيون (المأمون والمتوكل) ، وبعدهم نائب السلطنة المملوكية الشهير تنكز في القرن الثامن الهجري ، بنوا فيها قصوراً لطيب هوائها وثمارها . ثم دثرت هذه القرية مع قصورها ، وتقسّمت أراضيها بين المزّة وكفرسوسية وداريّا .

ونعتقد أن في هذه الآراء بعض تجاف عن الصواب ، فيما يتعلق

باشتقاق التسمية على الأقل ، وكنا بيّنا رأينا فيها بكتابنا «معالم دمشق التاريخية» ، فلينظر في مكانه .

المصادر :

تاريخ اليعقوبي ٤٩٢-٤٩١/٢
تاريخ الأمم والملوك للطبري ، القسم الثالث ١٢/ ١٤٣٦-١٤٧١
تاريخ مختصر الدول لابن العبري ١٤٢-١٤٣
مروج الذهب للمسعودي ٥/ ٣١-٣٦
الرحلة المتوكلية إلى دمشق لجودة ٩-٢٥
منتخبات التواريخ لدمشق للحصني ١٠٥٨
الريف السوري لزكريا ٢/ ١٢٥ ، ١٦٠
معالم دمشق التاريخية للإيبش والشهابي ٤٧٢

- ٤ -

الجـاحظ

عمرو بن بحر

(توفي ٢٥٥ هـ/ ٨٦٩ م)

أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي، الشهير بالجاحظ لجحوظ في عينيه، أشهر أئمّة الأدب العربي، ورئيس الفرقة الجاحظيّة من المعتزلة. ولد في البصرة عام ١٦٣ هـ وتوفي بها عام ٢٥٥هـ.

مؤلفاته في الأدب كثيرة جداً، أخصّها: البيان والتبيين، الحيوان، البخلاء، المحاسن والأضداد، التاج في أخلاق الملوك، الحنين إلى الأوطان، العثمانية. وقد ألّف كتاباً في «البلدان» فقُد ولم يصل إلينا، وأتى فيه بذكر دمشق. والنصّ الوحيد الذي وصلنا منه نقله ياقوت الحموي في «معجم الأدباء»، وقد قيل إن ابن الفقيه الهمذاني اقتبس كتاب الجاحظ في البلدان وضمّنه كتابه «البلدان».

وكان الجاحظ قد سافر في البلدان، ومنها دمشق وأنطاكية ومصر. وتبدو آثار هذه الأسفار في كتابه «الحيوان» بعد أن فُقد كتابه عن البلدان.

المصادر :

التنبيه والإشراف للمسعودي (ط الصاوي) ٤٩٠
مروج الذهب للمسعودي ١/ ٢٠٦
أحسن التقاسيم للمقدسي ٢٤١
معجم الأدباء لياقوت ٦ / ٥٦
وفيّات الأعيان لابن خلكان ١ / ٣٨٨
مسالك الأبصار لابن فضل اللّه العمري ١ / ١٩٣
تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ١ / ١٢٨
تاريخ آداب اللغة العربية لبروكلمان ١ / ١٨٥ والذيل ١/ ٢٣٩
الأعلام للزركلي ٥ / ٢٣٩
مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجّد ١٥

مسجد دمشق

حكى الجاحظ في كتاب البلدان قال:

قال بعض السلف[1]: «ما يجوز أن يكون أحدٌ أشدّ شوقاً إلى الجنّة من أهل دمشق لما يرونه من حسن مسجدهم».

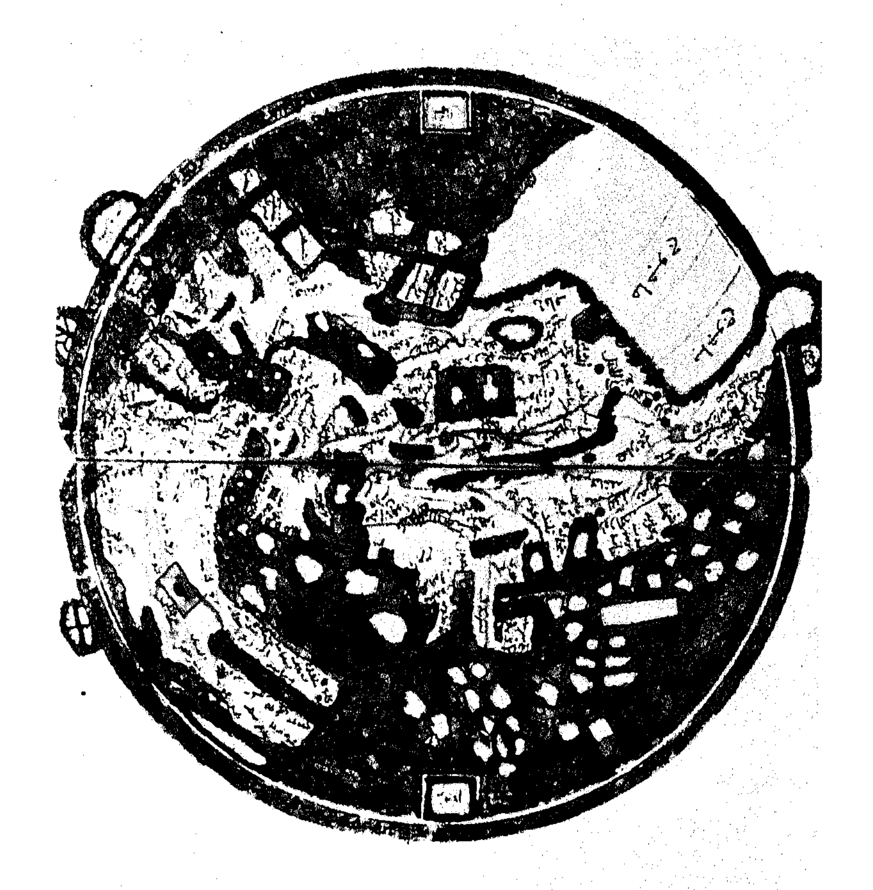
مسالك الأبصار للعمري ١/ ١٩٣

«وقول الدمشقيين ما تأمّلنا قط تأليف مسجدنا، وتركيب محرابنا وقبّة مصلاّنا إلا أثار لنا التأمّل، واستخرج لنا التفرّس بين غرائب حسن لم نعرفها، وعجائب صنعة لم نقف عليها، وما ندري أجواهر مقطعاته أكرم في الجواهر، أم تنضيد أجزائه في تنضيد الأجزاء».

الحيوان للجاحظ ١/ ٢٩

---

(١) رواه الوليد بن مسلم عن ابن ثَوْبان. أنظر مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري ١/ ١٩٣.



٢٨ـ خريطة العالم المنسوبة إلى الكندي والسرخسي

- ٥ -

ابن خُرَّداذْبه
أبو القاسم عُبيد اللّه بن عبد الله
(توفي على الأرجح ٢٧٢ هـ / ٨٨٥ م)

ابن خرداذبه (بضم الخاء وتشديد الراء المفتوحة وسكون الذال وكسر الباء قبل الهاء الأخيرة) أقدم الجغرافيين المسلمين في العهد العبّاسي. ولد في خُراسان عام ٢٠٥ هـ وشبّ وتعلّم في بغداد، وقد اعتنق الإسلام بعد كان مجوسيّاً، وكان والده والياً على طبرستان جنوبي بحر قزوين، وإلى جانب العلوم التي تلقّاها أخذ الموسيقى والأدب عن إسحاق الموصلي، تولّى البريد والأخبار في بلاد الجبل (ميديا بإيران) في عهد الخليفة المعتمد العبّاسي، فأتيح له أن يجمع معلومات صحيحة عن المسافات والبلاد. ألّف كتاب «المسالك والممالك» سنة ٢٣٢ هـ فعني فيه خاصّة بذكر المسافات بين البلدان.

ذكره المسعودي فقال: إنه أحسن كتاب في موضوعه. وطعن عليه أبو الفرج الأصفهاني فقال: إنه قليل التصحيح لما يرويه ويضمّنه كتبه. ورأى المقدسي أن كتابه مختصر جداً لا يحصل منه كبير فائدة. وكان كتابه لا يفارق ابن حوقل، وقد اقتبس اسم كتابه ثلاثة من الجغرافيين الذين

جاؤوا بعده: الجيهاني وابن حوقل والبكري.

يفيدنا نص ابن خرداذبه بتحديد المسافات التي كانت بين دمشق وكورها وأقاليمها في القرن الثالث الهجري، ومنه يتبيّن أن كورة دمشق كانت تمتد من لبنان إلى البلقاء. هذا وقد نشر كتاب المسالك والممالك المستشرق الهولندي ميخيل دى خُويّه M. J. De Goeje، مع مقدّمة باللغة الفرنسية وطبع بمطبعة بريل في لايدن بهولاندة عام ١٨٨٩ م.

المصادر:

مقدّمة كتاب المسالك والممالك بالفرنسية لدى خويّه

مروج الذهب للمسعودي ٢ / ٧٠

كتاب الأغاني للأصفهاني ١ / ٣٦

أحسن التقاسيم للمقدسي ٤

المسالك والممالك لابن حوقل ٥

الفهرست لابن النديم ١ / ٢١٢

تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ١ / ١٥٥

تاريخ آداب اللغة العربية لبروكلمان، الذيل ١ / ٤٠٤

جهود المسلمين في الجغرافيا لنفيس أحمد ٤٤

الحضارة الإسلامية لآدم متز ٢ / ١

مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجّد ١١

الرحلة والرحّالة المسلمون لأحمد رمضان ٥٥

الطريق من حمص إلى دمشق

من حمص إلى جُوسيَة ستّة عشر ميلاً، ثم إلى قَاراَ ثلاثون ميلاً، ثم إلى النَّبْك إثنا عشر ميلاً، ثم إلى القُطَيِّفَة عشرون ميلاً، ثم إلى دِمَشْق أربعة وعشرون ميلاً. ودمشق هي إرَمُ ذاتُ العِماد، وكانت قبلُ دار نوحٍ صلّى اللّه عليه، ومن جبل لُبْنان كان مبتدأ سفينته، واستوتْ على الجُوديّ جبل قَرْدَى. ولمّا كثر ولد نوح نزلوا بابِل السواد في مُلْك نِمْرُود بن كُوْش، وهو أوّل ملك كان في الأرض.

كورة دمشق وأقاليمها

سهل الغُوطَة، وإقليم سَنِير، ومدينة بَعْلَبَكّ، والبِقاع، وإقليم لُبْنَان، وكورة جُونيَة، وكورة طَرَابُلُس، وكورة جُبَيل، وكورة بَيْروت، وكورة صَيْداَ، وكورة البَثَنِيَّة، وكورة حَوْران، وكورة الجَوْلان، وظاهر البَلْقاء، وجبل الغَوْر، وكورة مَآب، وكورة جِبَال، وكورة الشَرَاة، وكورة بُصْرَى، وكورة عَمّان، والجابِيَة.

قال حسّان بن ثابت:

مِنْ دُون بُصْرَى ودُونَها جَبَلُ ... الثَّلْجِ عَلَيْهِ السَّحابُ كالقِدَرِ

وقال آخر:

سَلِّمْ على دِمَنٍ أقْوَتْ بعَمَّانِ ... واستَنْطقِ الرَّبْعَ هَلْ يَرْجِعْ بِتِبْيانِ

وخَراجُ دمشق أربع مائة ألف دينار ونَيِّف.

الطريق من دمشق إلى طَبَرِيّة

من دمشق إلى الكُسْوَة إثنا عشر ميلاً، ثم إلى جاسِم أربعة وعشرون ميلاً.

قال حسّان بن ثابت:

قد عفَا جاسِمٌ إلى بيتِ راسٍ فالجَوابي فحارِثُ الجَوْلانِ

ثم إلى فِيْق أربعة وعشرون ميلاً، ثم إلى طَبَرِيّة مدينة الأُرْدُنّ ستة أميال.

المسالك والممالك ٧٦ - ٧٨

الطريق من الرّقّة إلى حِمْص ودمشق على الرُّصَافة

من الرّقّة إلى الرُّصافة أربعة وعشرون ميلاً، ثم إلى الزَّرّاعة أربعون ميلاً، ثم إلى القَسْطَل ستة وثلاثون ميلاً، ثم إلى سَلَمِيّة ثلاثون ميلاً، ثم إلى حِمْص أربعة وعشرون ميلاً، ثم إلى شَمْسِين ثمانية عشر ميلاً، ثم إلى قارا إثنان وعشرون ميلاً، ثم إلى النَبْك إثنا عشر ميلاً، ثم إلى القُطَيفة عشرون ميلاً، ثم إلى دمشق أربعة وعشرون ميلاً.

المسالك والممالك ٩٨

الطريق من حمص إلى دمشق على بعلبك
وهو طريق البريد

من حمص إلى جُوسِيَة أربع سكك، ثم إلى بعلبكّ ستّ سكك، ثم إلى دمشق تسع سكك.

المسالك والممالك ٩٨

الطريق من الكوفة إلى دمشق

من الحِيْرَة إلى القُطْقُطانَة، ثم إلى البُقْعة، ثم إلى الأبيض، ثم إلى الحوشي، ثم إلى الجمع، ثم إلى الخطى، ثم إلى الجُبّة، ثم إلى القلوفي، ثم إلى الروادي، ثم إلى السَّاعِدَة، ثم إلى البقيعة، ثم إلى الأعْناك، ثم إلى أذْرِعات، ثم إلى منزل، ثم إلى دمشق.

المسالك والممالك ٩٩

KITÂB AL-MASÂLIK WA'L-MAMÂLIK

(LIBER VIARUM ET REGNORUM)

AUCTORE

Abu'l-Kâsim Obaidallah ibn Abdallah

IBN KHORDÂDHBEH

ET EXCERPTA E

KITÂB AL-KHARÂDJ

AUCTORE

Kodâma ibn Dja'far

QUAE CUM VERSIONE GALLICA EDIDIT, INDICIBUS ET GLOSSARIO INSTRUXIT

M. J. DE GOEJE.

LUGDUNI-BATAVORUM
APUD E. J. BRILL
1889.

- ٦ -

ابن قتيبة
عبد الله بن مسلم
(توفي ٢٧٦ هـ/ ٨٨٩ م)

عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّيْنَوَري ، أبو محمد ، من أقطاب أئمة الأدب ومن المصنّفين المكثرين . ولد ببغداد عام ٢١٣ هـ وسكن الكوفة ، ثم ولي قضاء الدِّيْنَوَر من أعمال همذان مدة فنسب إليها . وتوفي ببغداد .

من أشهر مؤلفاته : «أدب الكاتب» و«المعارف» و«عيون الأخبار» و«الإمامة والسياسة» و«كتاب المعاني» و«الشعر والشعراء» و«الأشربة» ، وغيرها .

أما كتابه «المعارف» فهو من المؤلفات الجامعة لألوان المعرفة ، ولنا أن نشبهه بدائرة معارف ميسّرة لأبناء عصره ، قدّم فيه مؤلفه حصيلة المعارف الأدبية والتاريخية والعلمية الشائعة آنذاك ، مما يلزم معرفته لحضور مجالس الملوك والأشراف .

وأول نشرة علمية للكتاب كانت على يد المستشرق الألماني فرديناند ڤستنفلد عام ١٨٥٠ ، ثم تلتها طبعة مصرية بعناية محمد اسماعيل

الصاوي بالقاهرة عام ١٩٣٤ ، وأخيراً صدرت في القاهرة عام ١٩٦٠ بمطبعة دار الكتب طبعة علمية فاخرة بتحقيق الدكتور ثروت عكاشة ، الذي نال بعمله في هذا الكتاب درجة الدكتوراة في الآداب من جامعة باريس . والحق أن هذه الطبعة النفيسة تبقى حتى يومنا الحاضر أرفع مثال لفن الطباعة والتنضيد باللغة العربية بلا منازع ، ونحن على كثرة انتيابنا دور الكتب العربية وتنقيبنا في نوادرها لم نر ما يدانيها في جمالها ورونقها ودقة ترتيبها .

وفي فصل «المساجد» ذكر ابن قتيبة المسجد الأموي باقتضاب .

المصادر :

كتاب المعارف لابن قتيبة ، مقدمة عكاشة ٣-١٠٠

وفيات الأعيان لابن خلكان ١/ ٢٥١

لسان الميزان لابن حجر العسقلاني ٣ / ٣٥٧

الأعلام للزركلي ٤/ ٢٨٠

من فصل
المساجد

و بنى مسجد دمشق الوليد بن عبد الملك سنة ثمان وثمانين .

كتاب المعارف ٥٦٥

* * * * *

المعارف

لابن قتيبة الدينوري

المتوفى سنة ٢٧٦ هجرية

صححه وعلق عليه وراجعه على نسخة جوتنجن ونسخة خطية أخرى

فى دار الكتب المصرية

محمد اسماعيل عبد الله الصاوى

طبع بنفقة

السيد علي محمد عبد اللطيف

صاحب المكتبة الحسينية المصرية

بشارع المشهد الحسينى بمصر

الطبعة الأولى

١٣٥٣ هـ — ١٩٣٤ م

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة باريس

رسالة مقدمة للحصول على درجة دكتوراه الجامعة

المعارف

لابن قتيبة

أبي محمد عبد الله بن مسلم

حققه وقدم له

ثروت عكاشه

دكتور فى الآداب

القاهرة

مطبعة دار الكتب

١٩٦٠



- ٧ -

البَلاذُري
أبو العبّاس أحمد بن يحيى بن جابر
(توفي ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م)

أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البَلاذُري، من أوائل المؤرّخين العرب الذين تركوا آثاراً أساسية هامّة، وكان له عدا التاريخ اهتمام بالجغرافية والأنساب والشعر. ولد في بغداد بأواخر القرن الثاني للهجرة، واتّصل بالمأمون في أول حياته ثم بالمستعين والمعتزّ في أواخرها، وجالس المتوكّل العبّاسي ومات في أيام المعتمد، وله في المأمون مدائح. وكان يجيد الفارسيّة وترجم عنها كتاب «عهد أردشير»، وأصيب في آخر عمره بذهول شبيه بالجنون فشُدَّ بالبيمارستان إلى أن توفي عام ٢٧٩ هـ.

نسبته إلى حَبّ البَلاذُر (Anacardium)، وهو من النباتات الطبية المستعملة لتقوية الحفظ (الذاكرة)، ولكن الإكثار منه يؤدي إلى الجنون كما يُحكى. قيل إن البلاذري كان يفرط في أكله فكان سبب علّته، غير أن كراتشكوفسكي يدعو إلى طرح هذا الرأي، بدعوى أنه من غير المألوف لدى العرب إضافة النسبة عقب وفاة صاحبها، فضلاً عن أن جدّه قبله كان يحمل هذا اللقب.

وللبلاذري كتابان جيّدان هما: القَرابة وتاريخ الأشراف، وقد اشتهر باسم «أنساب الأشراف»، والآخر «فتوح البلدان»، يرجّح أنه ألّفه بعد عام ٢٥٥ هـ، وهو آخر ما وصلنا من مؤلّفات فتوح البلدان، فالبلاذري كما قيل كان خاتمة مؤرّخي الفتح، وكتابه المعنون أهم مصدر من المصادر التاريخية وأكثرها صحّة عن الفتوح العربية، حتى قال المسعودي عنه في مقدّمة مروج الذهب: «لا نعلم في فتوح البلدان أحسن منه». وقد نقل منه ياقوت في معجم البلدان نقولاً كثيرة، واعتمد عليه وجعله من مصادره.

وقد تكلّم البلاذري في فتوح البلدان عن دمشق، ونصّه مهم جداً لمعرفة أخبار فتحها.

وأول من نشر كتاب فتوح البلدان كاملاً المستشرق الهولندي ميخيل دى خُويّه M. J. De Goeje في لايدن بهولاندة، في ثلاثة أقسام من سنة ١٨٦٣ إلى ١٨٦٦م، مع مقدّمة باللاتينية، وصدر بعنوان:

Liber Expugnationis Regionum

كما أعاد نشره المستشرق الألماني آلڤَرْت Ahlwardt عام ١٨٨٣م، كما تُرجم إلى الإنكليزيّة والألمانيّة واللاتينيّة والفرنسيّة، ونشر قطعاً منه كل من المستشرق الفرنسي رينو Reinaud، والمستشرق الإيطالي أماري Amari. ولقد أعيد نشره مراراً في العالم العربي، وخير طبعة صدرت له هي التي نشرها أستاذنا العلاّمة الدكتور صلاح الدين المنجّد في القاهرة عام ١٩٥٦م عن مكتبة النهضة المصريّة، وعنها أخذنا النصّ.

ومما يجدر ذكره أن للبلاذري كتاباً ثالثاً هو «كتاب البلدان الكبير» لم يتمّه، ولم يصلنا هذا الكتاب.

المصادر :

معجم الأدباء لياقوت ٥/ ٩٢
معجم البلدان لياقوت ٥/ ٩٣
تاريخ دمشق لابن عساكر : ترجمة البلاذري
الفهرست لابن النديم ١١٣
لسان الميزان لابن حجر العسقلاني ١/ ٣٢٢
سير أعلام النبلاء للذهبي : ترجمة البلاذري
الوزراء والكتّاب للجهشياري ٢٥٦
الموسوعة الإسلامية : مادة (البلاذري) لبيكر
تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ١/ ١٦١
أعلام التاريخ والجغرافية عند العرب للمنجّد ١/ ١١- ٣٩
مقدّمة د. المنجّد على نشرته لكتاب فتوح البلدان
مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجّد ٣٣
الأعلام للزركلي ١/ ٢٥٢

يوم مرج الصُفَّر

٣٢٧ - قالوا: ثم اجتمعت الروم جمعاً عظيماً وأمدّهم هرقلُ بمددٍ. فلقيهم المسلمون بمرج الصُفَّر[١] وهم متوجّهون إلى دمشق، وذلك لهلال المحرّم سنة أربع عشرة. فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى جرت الدماء في الماء وطحنت بها الطاحونة، وجُرِح من المسلمين زهاء أربعة آلاف. ثم ولّى الكفرةُ منهزمين مفلولين لا يلوون على شيء، حتى أتوا دمشق وبيت المقدس. واستُشهد يومئذ خالد بن سعيد بن العاصي بن أميّة، ويكنّى أبا سعيد. وكان قد أعرس في الليلة التي كانت الوقعة في صبيحتها بأم حكيم بنت الحارث بن هشام المخزومي امرأة عِكْرمة بن أبي جهل، فلما بلغها مصابه انتزعت عمود الفُسْطاط[٢] فقاتلت به. فيقال إنها قَتَلت يومئذ سبعة نفر وإن بها لَرَدْعَ الخَلُوق[٣].

٣٢٨ - وفي رواية أبي مِخْنَف أن وقعة المرج بعد أجنادين بعشرين ليلة، وأن فتح مدينة دمشق بعدها، ثم بعد فتح مدينة دمشق وقعةُ فِحْل. ورواية الواقدي أثبت.

---

(١) تقدّم ذكره في نص القاسم بن سلاّم البغدادي، وهو سهل واسع قبلي دمشق، يبعد عنها نحو ٣٨ كيلومتراً. حدّده ابن طولون بين قريتي الكسوة وغباغب. كما حدّد دهمان موقعه: يحدّه شمالاً قريتا الطيبة وزاكية، وغرباً شقحب، وجنوباً الزريقيّة، وشرقاً عالقين.

(٢) الفُسطاط: بيت الشعر الكبير.

(٣) ردع الخلوق: أي أثر الطيب، فالردع هو الأثر أو البقيّة، والخلوق الطيب من الزعفران.

وفي يوم المرج يقول خالد بن سعيد بن العاصي :

مَنْ فارسٌ كرهَ الطعانَ يُعيرُني   رُمحاً إذا نزلوا بمرجِ الصفُّرِ

وقال عبد الله بن كامل بن حبيب بن عُمَير بن خُفَاف بن امرىء القيس ابن بُهْثَة بن سُلَيْم :

شَهِدَتْ قبائلُ مالكٍ وتَغَيَّبَتْ   عنّي عُمَيرةُ يومَ مرج الصفُّرِ

يعني مالك بن خُفَاف .

٣٢٩ – وقال محمد بن هشام الكلبي : استُشهد خالد بن سعيد يوم المرج ، وفي عنقه الصَّمصامة سيفهُ(١) . وكان النبي (ص) وجّهه إلى اليمن عاملاً ، فمرَّ برهط عمرو بن معدي كرب الزبيدي من مَذْحِجٍ ، فأغار عليهم ، فسبا امرأة عمرٍو وعدّةً من قومه ، فعرض عليه عمرو أن يمنَّ عليهم ويسلموا ، ففعل وفعلوا ، فوهب له عمرو سيفه الصَّمصامة وقال :

خليلٌ لم أهَبْه مِنْ قلاه   ولكنَّ المواهب للكرام
خليلٌ لم أخُنْه ولم يخُنّي   كذلك ما خِلالي أو نِدامي
حبَوتُ به كريماً من قريش   فسُرَّ به وصينَ عن اللّيام

---

(١) الصمصام هو السيف الصارم لا ينثني ، وأشهر ما عُرف به سيف عمرو بن معدي كَرِب الزبيدي فارس اليمن والعرب في الجاهليّة والإسلام (توفى ٢١ هـ) .

قال: فأخذ معاويةُ السيف من خالد يوم المرج حين استُشهد فكان عنده، ثم نازعه فيه سعيد بن العاصي بن أُمية فقضى له به عثمان، فلم يزل عنده. فلما كان يوم الدار وضُرب مروان على قفاه وضُرب سعيد فسقط صريعاً، أخذ الصَّمصامةَ منه رجلٌ من جُهَيْنة فكان عنده. ثم إنه دفعه إلى صَيْقَلٍ ليجلوَه، فأنكر الصيقل أن يكون للجُهَني مثله، فأتى به مروان بن الحكم وهو والي المدينة. فسأل الجُهَني عنه فحدّثه حديثه فقال: أما واللّه لقد سُلبتُ سيفي يوم الدار، وسُلِب سعيد بن العاصي سيفه. فجاء سعيد فعرف السيف فأخذه وختم عليه، وبعث به إلى عمرو بن سعيد الأشْدَق وهو على مكّة. فهلك سعيد، فبقي السيف عند عمرو بن سعيد. ثم أصيب عمرو بن سعيد بدمشق وانتُهب متاعه، فأخذ السيفَ محمد بن سعيد أخو عمرو لأبيه. ثم صار إلى يحيى بن سعيد. ثم مات فصار إلى عنبَسَة بن سعيد بن العاصي. ثم إلى سعيد بن عمرو بن سعيد. ثم هلك فصار إلى محمد بن عبد اللّه بن سعيد، وولده ينزلون ببارق. ثم صار إلى أبان بن يحيى بن سعيد، فحلاّه بحلية ذهب فكان عنده أم ولد له. ثم إن أيوب بن أبي أيوب ابن سعيد بن عمرو بن سعيد باعه من المهدي أمير المؤمنين بنيّف وثمانين ألفاً، فردَّ المهدي حليته عليه. ولمّا صار الصَّمصامة إلى موسى الهادي أمير المؤمنين أُعجب به وأمر الشاعر، وهو أبو الهول، أن ينعته فقال:

حازَ صَمْصَامةَ الزُّبيديّ عمروٍ ... خيرُ هذا الأنام موسى الأمينُ
سيفُ عمروٍ وكان فيما علمنا ... خيْرَ ما أُطبقت عليه الجفونُ
أخضرُ اللون بين حدّيْه بُرْدٌ ... من ذُعافٍ تميس فيه المنونُ
فإذا ما سَلَلْتَه بهَرَ الشمـ ... ـس ضياءً فلم تكَد تستبينُ

ما يبالي إذا الضَّريبـة حانت   أشِمالٌ سطَتْ به أم يمينُ
نِعْمَ مِخراقُ ذي الحفيظةِ في الهيـجا يُعَصًّا به ونِعْمَ القرينُ

ثم إن أمير المؤمنين الواثق بالله دعى له بصَيْقَل وأمره أن يُسْقِنَه، فلمّا فعل ذلك تغيَّر.

فتح مدينة دمشق وأرباضها

٣٣٠ - قالوا: لمّا فرغ المسلمون من قتال مَن اجتمع لهم بالمرج أقاموا خمس عشرة ليلة، ثم رجعوا إلى مدينة دمشق لأربع عشرة ليلة بقيت من المحرّم سنة أربع عشرة، فأخذوا الغوطة وكنائسها عَنوة. وتحصّن أهل المدينة وأغلقوا بابها. فنزل خالد بن الوليد على الباب الشرقي في زهاء خمسة آلاف ضمّهم إليه أبو عُبيدة. وقوم يقولون إن خالداً كان أميراً، وإنما أتاه عزله وهم محاصرون دمشق. وسُمِّي الديرُ الذي نزل عنده خالدٌ: «دير خالد»(١). ونزل عمرو بن العاص على باب توما. ونزل شُرَحْبيل على باب الفراديس. ونزل أبو عبيدة على باب الجابية. ونزل يزيد بن أبي سُفيان على الباب الصغير إلى الباب الذي يُعرف بكَيْسان. وجُعل أبو الدرداء

(١) دير خالد المذكور يقع في أيّامنا لصيق مقام الشيخ أرسلان خارج باب توما، وقد أقام فيه خالد مسجداً صلّى فيه أثناء حصار دمشق، والثابت أنه أول مسجد أقيم بدمشق. أنظر: مسجد خالد بن الوليد بدمشق لأحمد الإيبش، الحوليات الأثريّة السورية، عدد ٣٥ (١٩٨٥).

عويمر بن عامر الخزرجي على مَسْلَحَةٍ(١) ببَرْزَة .

وكان الأسقف الذي أقام لخالد النُزُل في بدأته ربما وقف على السور فدعا له خالد، فإذا أتى سلّم عليه وحادثه. فقال له ذات يوم: يا أبا سُليمان! إنّ أمركم مقبلٌ، ولي عليك عدّة، فصالحني عن هذه المدينة، فدعا خالد بدواة وقرطاس فكتب:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها: أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يُهدم ولا يُسكن شيء من دورهم. لهم بذلك عهد اللّه وذمّة رسوله، صلّى اللّه عليه وسلّم، والخلفاء والمؤمنين، لا يُعرضُ لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية».

ثم إن بعض أصحاب الأسقف أتى خالداً في ليلة من الليالي فأعلمه أنها ليلة عيد لأهل المدينة، وأنهم في شُغل، وأنّ الباب الشرقي قد رُدِم بالحجارة وتُرك، وأشار عليه أن يلتمس سُلّماً. فأتاه قوم من أهل الدير الذي عند عسكره بسُلّمين فرقى جماعة من المسلمين عليهما إلى أعلى السور، ونزلوا إلى الباب وليس عليه إلا رجل أو رجلان. فتعاونوا عليه وفتحوه، وذلك عند طلوع الشمس(٢).

وقد كان أبو عُبيدة بن الجرّاح عانى فتح باب الجابية وأصعد جماعة

---

(١) المَسْلَحَة أو المسلح: موضع السلاح، وكل ثغر أو مخفر للجند لمراقبة العدو.

(٢) المتعارف عليه لدى مؤرّخي الفتوح أن خالداً تمكّن من اقتحام الباب الشرقي مساء يوم الأحد الخامس عشر من رجب عام ١٤ هـ/ ٣ ايلول ٦٣٥ م.

من المسلمين على حائطه، فانصبّ مقاتلةُ الروم إلى ناحيته فقاتلوا المسلمين قتالاً شديداً، ثم إنّهم ولّوا مدبرين. وفتح أبو عُبيدة والمسلمون معه باب الجابية عَنوةً، ودخلوا منه. فالتقى أبو عبيدة وخالد بن الوليد بالمقْسلاّط، وهو موضع النحّاسين بدمشق، وهو البَرِيْص(1) الذي ذكره حسّان بن ثابت في شعره حين يقول:

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ البَرِيْصَ عليهمُ بَرَدَى يُصَفِّقُ بالرَّحيقِ السَّلْسَلِ

وقد رُوِي أن الروم أخرجوا ميّتاً لهم من باب الجابية ليلاً، وقد أحاط بجنازته خلقٌ من شجعانهم وكُماتهم، وانصبّ سائرهم إلى الباب فوقفوا عليه ليمنعوا المسلمين من فتحه ودخوله إلى رجوع أصحابهم من دفن الميّت، وطمعوا في غفلة المسلمين عنهم، وإنّ المسلمين بدروا بهم، فقاتلوهم على الباب أشدّ قتال وأبرحه حتى فتحوه في وقت طلوع الشمس.

فلمّا رأى الأسقف أن أبا عُبيدة قد قارب دخول المدينة بدر إلى خالد فصالحه وفتح له الباب الشرقي، فدخل والأسقف معه ناشراً كتابه الذي كتبه له. فقال بعض المسلمين: واللّه ما خالد بأمير فكيف يجوز صلحه؟ فقال أبو عبيدة: إنه يجيز على المسلمين أدناهم. وأجاز صلحه وأمضاه، ولم يلتفت إلى ما فُتِح عنوة، فصارت دمشق صلحاً كلها. وكتب أبو عبيدة بذلك إلى عمر وأنفذه، وفُتحت أبواب المدينة فالتقى القوم جميعاً.

---

(1) البريص: قصر قديم كان وسط دمشق عند محلّة مئذنة الشحم في أيامنا، ذكره المسعودي.

٣٣١ - وفي رواية أبي مِخْنَف وغيره أن خالداً دخل دمشق بقتال، وأن أبا عبيدة دخلها بصلح، فالتقيا بالزيَّاتين. والخبر الأول أثبت.

٣٣٢ - وزعم الهيثم بن عدي أن أهل دمشق صولحوا على أنصاف منازلهم وكنائسهم.

٣٣٣ - وقال محمد بن سعد: قال أبو عبد الله الواقدي: قرأت كتاب خالد بن الوليد لأهل دمشق فلم أر أنصاف المنازل والكنائس. قد رُوي ذلك ولا أدري من أين جاء به من رَواه. ولكن دمشق لمّا فتحت لحق بَشَرٌ كثير من أهلها بِهِرَقْل وهو بأنطاكية، فكثرت فضولُ منازلها فنزلها المسلمون.

٣٣٤ - وقد روى قوم أن أبا عبيدة كان بالباب الشرقي وأن خالداً كان بباب الجابية. وهذا غلط (١).

---

(١) ذكر د. المنجّد في نشرته لفتوح البلدان أن على هامش إحدى النسخ المخطوطة: يقول محمد بن عساكر: قد اعتمد المؤلف على الرواية في فتح دمشق من باب الجابية عنوة بيد أبي عبيدة رضي الله عنه، وأكّد ذلك بقوله هنا، والخبر الأول أثبت، وهو على الحقيقة أضعف الروايات في فتح دمشق. والصحيح الثابت بالأخبار والآثار أن خالداً رضي الله عنه دخلها من الباب الشرقي قسراً ودخلها أبو عبيدة سلماً من باب الجابية. هذا من حيث صحة الأخبار، وأما من حيث دلالة الآثار فإن جامع دمشق لم يكن بيد المسلمين منه قبل عمارته إلا الجانب الشرقي بحكم السيف، ودليلنا أن المقصورة التي تنسب إلى الصحابة والسبع القرأة به أيضاً، ولم تزل الكنيسة من غربه إلى أن هدمها الوليد بن عبد الملك لمّا عزم على بنائه في خلافته. وفي رواية =

٣٣٥ - قال الواقدي: وكان فتحُ مدينة دمشق في رجب سنة أربع عشرة. وتاريخ كتاب خالد بصلحها في شهر ربيع الآخر سنة خمس عشرة. وذلك أن خالداً كتب الكتاب بغير تاريخ، فلما اجتمع المسلمون للنهوض إلى من تجمَّع لهم باليرموك أتى الأسقف خالداً فسأله أن يجدّد له كتاباً ويُشهد عليه أبا عبيدة والمسلمين. ففعل، وأثبت في الكتاب شهادة أبي عُبيدة ويزيد بن أبي سفيان وشرُحبيل بن حسنة وغيرهم، فأرّخه بالوقت الذي جدّده.

٣٣٦ - وحدثني القاسم بن سلام قال: حدثّنا أبو مسهر، عن سعيد ابن عبد العزيز التنوخي قال: دخل يزيدُ دمشق من الباب الشرقي صلحاً فالتقيا بالمقسلاّط، فأُمضيت كلها على الصلح.

٣٣٧ - وحدثني القاسم قال: حدثنا أبو مسهر، عن يحيى ابن حمزة، عن أبي المهلّب الصنعاني، عن أبي الأشعث الصنعاني أو أبي عثمان الصنعاني أن أبا عُبيدة أقام بباب الجابية محاصراً لهم أربعة أشهر.

٣٣٨ - حدثني أبو عبيد قال: حدثّنا نعيم بن حماد، عن ضمرة ابن ربيعة، عن رجاء بن أبي سلمة قال: خاصم حسان بن مالك عجم أهل دمشق إلى عمر بن عبد العزيز في كنيسة كان رجل من الأمراء أقطعه إياها.

= المؤلف أولاً من أن خالداً أتى بمسلمين من الدير المجاور لعسكره، فرقى أصحابه فيهما إلى سور الباب الشرقي دليل يقوي ما ذكرناه هنا.

فقال عمر: إن كانت من الخمس العشرة الكنيسة التي في عهدهم فلا سبيل لك عليها.

قال ضَمْرة عن علي بن أبي حَملةَ: خاصمنا عجم أهل دمشق إلى عمر بن عبد العزيز في كنيسة كان فلان قطعها لبني نصر في دمشق، فأخرجنا عمر عنها وردّها إلى النصارى. فلما ولي يزيد بن عبد الملك ردّها إلى بني نصر.

٣٣٩ - حدثنا أبو عُبيدة قال: حدثنا هشام بن عمار، عن الوليد بن مسلم، عن الأوزاعي أنه قال: كانت الجزية بالشام في بدءِ الأمر جَرِيباً[١] وديناراً على كل جمجمة. ثم وضعها عمر بن الخطّاب على أهل الذهب أربعة دنانير وعلى أهل الورِق[٢] أربعين درهماً، وجعلهم طبقات لغنى الغني وإقلال المقلّ وتوسط المتوسط.

قال هشام: وسمعت مشايخنا يذكرون أن اليهود كانوا كالذمّة للنصارى، يؤدّون إليهم الخراج فدخلوا معهم في الصلح.

وقد ذكر بعض الرواة أنّ خالدَ بن الوليد صالح أهل دمشق فيما صالحهم عليه على أن ألزم كلّ رجل من الجزية ديناراً وجريب حنطة وخلاً وزيتاً لقوّات المسلمين.

---

(١) الجَريب: مكيال قدر أربعة أقفزة، والقَفِيْز مكيال قديم يعادل بالتقدير الحديث أربع عشرة أوقيّة ونصف الأوقيّة. والمقصود به هنا: جريب الحنطة، كما سيرد أدناه.

(٢) الورِق: الفضة.

٣٤٠ - حدثنا عمرو الناقد، حدثنا عبد الله بن وهب المصري، عن عمر بن محمّد، عن نافع، عن أسلم مولى عمر بن الخطاب، أن عمر كتب إلى أمراء الأجناد يأمرهم أن يضربوا الجزية على كل من جرت عليه الموسى[(١)] وأن يجعلوها على أهل الوَرِق على كل رجل أربعين درهماً، وعلى أهل الذهب أربعة دنانير، وعليهم من أرزاق المسلمين من الحنطة والزيت مديان[(٢)] حنطة وثلاثة أقساط زيتاً، كل شهر لكل إنسان بالشام والجزيرة، وجعل عليهم وَدَكاً[(٣)] وعسلاً لا أدري كم هو، وجعل لكل إنسان بمصر في كل شهر أردباً[(٤)] وكسوة، وضيافة ثلاثة أيام.

٣٤١ - وحدّثنا عمرو بن حماد بن أبي حنيفة قال: حدثنا مالك بن أنس، عن نافع، عن أسلم، أن عمر ضرب الجزية على أهل الذهب أربعة دنانير، وعلى أهل الوَرِق أربعين درهماً، مع ذلك أرزاق المسلمين وضيافة ثلاثة أيام.

٣٤٢ - وحدثني مصعب، عن أبيه، عن مالك، عن نافع، عن اسلم بمثله.

---

(١) أي البالغ من الرجال.

(٢) لعلّ المراد بها: مُدّان، والمدّ مكيال يعادل عند أهل الحجاز رطلاً وثلث.

(٣) الوَدَك: الدسَم والدهن من اللحم.

(٤) الإرْدَبّ: كيل كبير للحبوب، يعادل ١٥٠ كيلوغراماً.

٣٤٣ - قالوا: لمّا وُلي معاوية بن أبي سفيان أراد أن يزيد كنيسة يوحنّا في المسجد بدمشق. فأبى النصارى ذلك، فأمسك. ثم طلبها عبد الملك بن مروان في أيامه للزيادة في المسجد، وبذل لهم مالاً فأبَوا أن يُسلّموها إليه. ثم إنّ الوليد بن عبد الملك جمعهم في أيامه، وبذل لهم مالاً عظيماً على أن يعطوه إيَّاها فأبَوا. فقال: لئن لم تفعلوا لأهدمنّها. فقال بعضهم: يا أمير المؤمنين! إنّ من هدم كنيسة جُنّ وأصابته عاهة. فأحفظه قوله، ودعا بمعول وجعل يهدم بعض حيطانها بيده، وعليه قباء خزّ[1] أصفر. ثم جمع الفَعَلَة والنقَّاضين فهدموها، وأدخلها في المسجد. فلما استُخلف عمر بن عبد العزيز شكا النصارى إليه ما فعل الوليد بهم في كنيستهم. فكتب إلى عامله يأمره بردّ ما زاده في المسجد عليهم. فكره أهلُ دمشق ذلك وقالوا: يُهدم مسجدنا بعد أن أذّنا فيه وصلّينا ويُرَدُّ بيعةً؟. وفيهم يومئذ سليمان بن حبيب المحاربي وغيره من الفقهاء. وأقبلوا على النصارى فسألوهم أن يُعْطَوا جميع كنائس الغوطة التي أخذت عَنوةً وصارت في أيدي المسلمين، على أن يصفحوا عن كنيسة يوحنّا، ويُمسكوا عن المطالبة بها. فرضوا بذلك وأعجبهم. فكتب به إلى عمر فسرّه وأمضاه.

وبمسجد دمشق في الرواق القبلي مما يلي المئذنة، كتابٌ في رخامة بقرب السقف: «مما أمر ببنيانه أمير المؤمنين الوليد سنة ست وثمانين».

---

(١) القَبَاء ثوب يُلبس فوق القميص ويُتمنطق عليه. والخزّ هو الإبريسَم، أي أحسن الحرير.

٣٤٤ - وسمعت هشام بن عمّار يقول: لم يزل سور مدينة دمشق قائماً حتى هدمه عبد الله بن علي بن عبد اللّه بن العبّاس بعد انقضاء أمر مروان وبني أميّة(١).

٣٤٥ - وحدّثني أبو حفص الدمشقي، عن سعيد بن عبد العزيز، عن مؤذّن مسجد دمشق وغيره قالوا: اجتمع المسلمون عند قدوم خالد على بُصرى ففتحوها صلحاً، وانبثّوا في أرض حوران جميعاً فغلبوا عليها. وأتاهم صاحب أذرِعات(٢) فطلب الصلح على مثل ما صولح عليه أهل بُصرى على أنّ جميع أرض البَثَنِيّة(٣) أرض خَراج، فأجابوهم إلى ذلك. ومضى يزيد ابن أبي سفيان حتى دخلها، وعقد لأهلها. وكان المسلمون يتصرّفون بكورتيْ حوران والبَثَنِيّة. ثم مضوا إلى فلسطين والأردُنّ وغزوا ما لم يكن فُتح. وسار يزيد إلى عَمّان ففتحها فتحاً يسيراً بصلح على مثل صُلح بُصرى، وغلب على أرض البلقاء. ووُلّي أبو عُبيدة وقد فُتح هذا كلّه، فكان أمير الناس حين فُتحت دمشق، إلا أن الصلح كان لخالد، وأجاز صُلحه. وتوجّه يزيد بن أبي سفيان في ولاية أبي عبيدة ففتح عَرَنْدَل(٤)

(١) وكان ذلك عام ١٣٢ هـ.

(٢) أذرِعات: ذكرها ياقوت (١/ ١٣٠): بلد في أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمّان، ونقل عن ابن عساكر: مدينة بالبلقاء. وهي اليوم مدينة درعا جنوب سورية، قاعدة حوران.

(٣) البَثَنِيّة من أقاليم حوران جنوب سورية، بين دمشق ودرعا (ياقوت ١/ ٣٣٨).

(٤) ذكرها ياقوت (٤/ ١١١): عُرَنْدَل قرية من أرض الشرَاة من الشام.

صلحاً، وغلب على أرض الشَّرَاة[1] وجبالها.

قال: وقال سعيد بن عبد العزيز أخبرني الوضين أن يزيداً أتى بعد فتح مدينة دمشق صيدا وعِرْقَة[2] وجُبَيْل وبيروت وهي سواحل، وعلى مقدّمته أخوه معاوية، ففتحها فتحاً يسيراً وجلا كثيراً من أهلها، وتولّى فتح عِرْقَة معاوية نفسه في ولاية يزيد. ثم إنّ الروم غلبوا على بعض هذه السواحل في آخر خلافة عمر بن الخطاب أو أول خلافة عثمان بن عفّان فقصد لهم معاوية حتى فتحها، ثم رَمَّها وشحنها بالمقاتلة وأعطاهم القطائع.

٣٤٦ - قالوا: فلمّا استُخلف عثمان وولّى معاويةَ الشام وجّه معاويةُ سفيانَ بن مُجيب الأزدي إلى أطْرابُلس، وهي ثلاث مدن مجتمعة[3]، فبنى في مرج على أميال منها حصناً سُمّي حصن سُفيان، وقطع المادة عن أهلها من البحر وغيره وحاصرهم، فلمّا اشتدّ عليهم الحصار اجتمعوا في أحد الحصون الثلاثة وكتبوا إلى ملك الروم يسألونه أن يمدّهم أو يبعث إليهم بمراكب يهربون فيها إلى ما قِبَله. فوجّه إليهم

---

(١) الشَّراة: ذكرها ياقوت (٣/ ٣٣٢): صُقْع بالشام بين دمشق ومدينة الرسول. وهي سلسلة جبال صخريّة تمتدّ من شمال الحجاز إلى فلسطين والأردن.

(٢) ذكرها ياقوت (٤/ ١٠٩): بلدة في شرقي طرابلس. وهي معروفة اليوم.

(٣) اسم طرابلس المتعارف عليه اليوم باللاتينية: Tripoli ، والمشتهر أن هذا الاسم مشتقّ من اليونانية: Tria-Poli ، حيث أن Tria تعني ثلاث، و Polis مدينة. فيكون المعنى: ثلاث مدن. وهذا ما ذهب إليه البلاذري أعلاه.

بمراكب كثيرة فركبوها ليلاً وهربوا. فلمّا أصبح سفيان - وكان يبيت كل ليلة في حصنه ويحصّن المسلمين فيه، ثم يغدو على العدو - وجد الحصن الذي كانوا فيه خالياً فدخله. وكتب بالفتح إلى معاوية، فأسكنه معاوية جماعة كبيرة من اليهود. وهو الذي فيه المينا اليوم. ثم إنّ عبد الملك بناه بعدُ وحَصَّنَه.

٣٤٧ - قالوا: وكان معاوية يوجّه في كل عام إلى أطْرابُلُس جماعة كثيفة من الجُنْد يشحنها بهم فإذا انغلق البحر قفل وبقي العامل في جُمَيِّعَة منهم يسيراً، فلم يزل الأمر فيها جارياً على ذلك حتى ولّي عبد الملك، فقدم في أيامه بطريق من بطارقة الروم ومعه بشرٌ منهم كثير، فسأل أن يُعطى الأمان على أن يقيم بها ويؤدّي الخراج، فأجيب إلى مسألته. فلم يلبث إلا سنتين أو أكثر منهما بأشهر حتى تحيَّن قفول الجند عن المدينة، ثم أغلق بابها وقتل عاملها وأسر مَن معه من الجند وعِدَّة من اليهود ولحق وأصحابه بأرض الروم. فقدر المسلمون بعد ذلك عليه في البحر وهو متوجّه إلى ساحل للمسلمين في مراكب كثيرة فقتلوه، ويقال: بل أسروه وبعثوا به إلى عبد الملك فقتله وصلبه.

وسمعت من يذكر أن عبد الملك بعث إليه من حَصَرَه بأطرابلس، ثم أخذه سلماً وحمله إليه فقتله وصلبه. وهرب من أصحابه جماعة فلحقوا ببلاد الروم.

وقال عليّ بن محمد المدائني، قال عتاب بن إبراهيم: فتح أطرابلس سفيانُ بن مُجيب، ثم نقض أهلها أيام عبد الملك، ففتحها الوليد بن عبد الملك في زمانه.

٣٤٨ - وحدثّني أبو حفص الشامي، عن سعيد، عن الوَضين قال: كان يزيد بن أبي سفيان وجّه معاوية إلى سواحل دمشق، سوى أطرابلس فإنه لم يكن يطمع فيها. فكان يقيم على الحصن اليومين والأيام اليسيرة، فربّما قوتل قتالاً غير شديد، وربما رمى ففتحها.

قال: وكان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحلٍ رتّبوا فيها على قدر من يحتاج لها إليه من المسلمين، فإن حدث في شيء منها حَدَثٌ من قِبل العدو، سرّبوا إليها من الأمداد. فلما استُخلف عثمان ابن عفّان رضي اللّه عنه كتب إلى معاوية يأمره بتحصين السواحل وشَحْنها، وإقطاع من يُنْزِله إيّاها القطائعَ ففعل.

٣٤٩ - وحدثني أبو حفص عن سعيد بن عبد العزيز قال: أدركتُ الناس وهم يتحدّثون أنّ معاوية كتب إلى عمر بن الخطاب بعد موت أخيه يزيد يصف له حال السواحل. فكتب إليه في مرمّة[1] حصونها، وترتيب المُقاتلة فيها، وإقامة الحرس على مناظرها، واتخاذ المواقيد لها. ولم يأذن له في غزو البحر. وأنّ معاوية لم يزل بعثمان حتى أذن له في الغزو بحراً، وأمره أن يُعدّ في السواحل إذا غزا أو أغزى جيوشاً سوى من فيها من الرتب، وأن يقطع الرتب أرضين، ويعطيهم ما جلا عنه أهله من المنازل، ويبني المساجد ويكبّر ما كان ابتني منها قبل خلافته. قال الوَضين: ثم إن الناس بعدُ انتقلوا إلى السواحل من كلّ ناحية.

---

(١) أي ترميمها وإصلاحها.



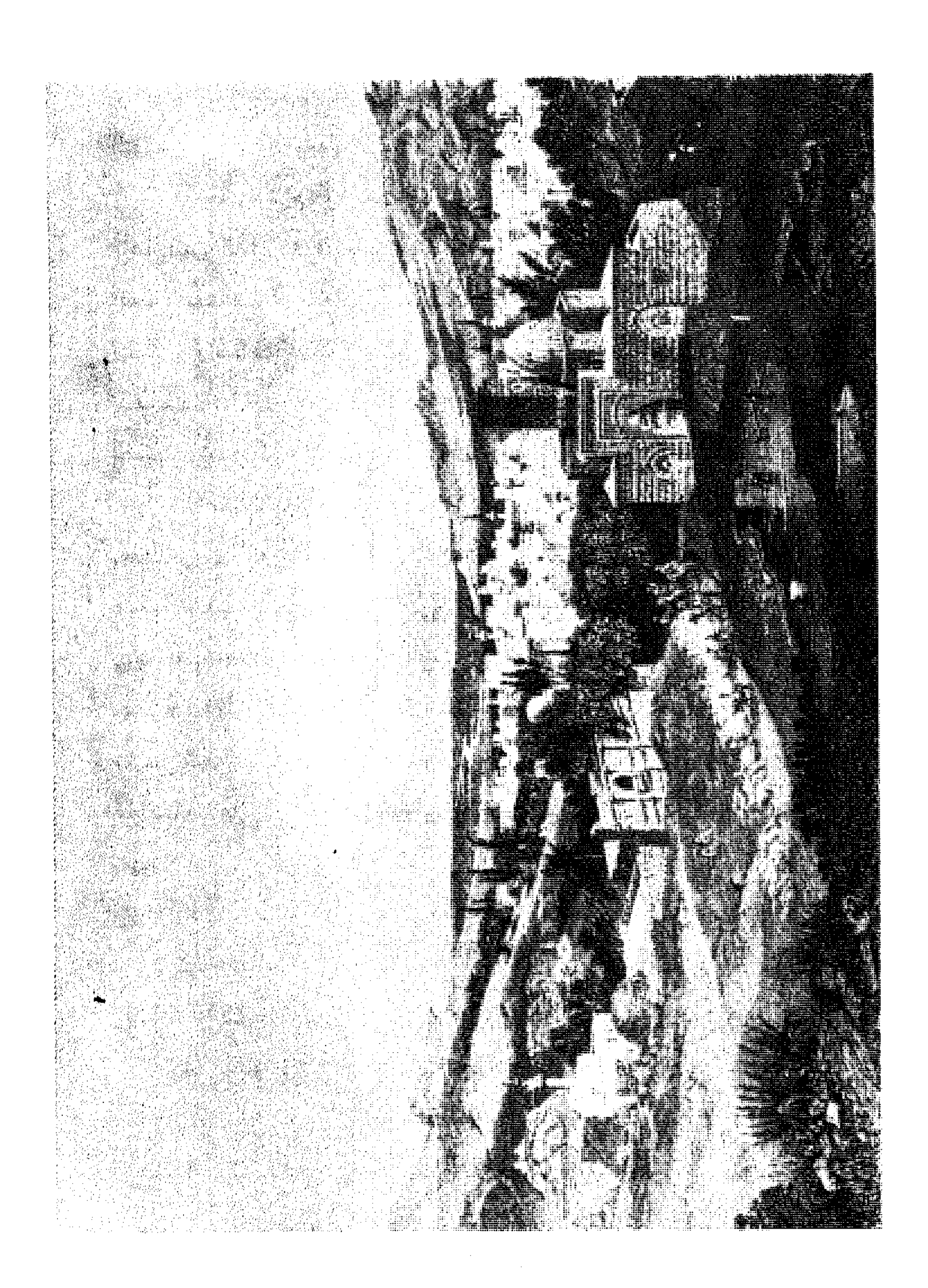
٣٥٠ - حدثني العبّاس بن هشام الكلبي، عن أبيه، عن جعفر ابن كلاب الكلابي أن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه ولّى عَلْقمَةَ بن عوف ابن الأحوص بن جعفر بن كلاب حوران، وجعل ولايته من قِبَل معاوية. فمات بها. وله يقول الحُطيئة العبسي - وخرج إليه فكان موته قبل وصوله، وبلغه أنه في الطريق يريده، فأوصى له بمثل سهم من سهام ولده - :

فما كان بيني لو لقيتُك سالماً وبين الغنى إلاّ ليالٍ قلائلُ

٣٥١ - وحدثني عدة من أهل العلم منهم جارٌ لهشام بن عمّار أنه كانت لأبي سفيان بن حرب أيام تجارته إلى الشام في الجاهلية ضيعة بالبلقاء تدعى بقُبُّش، فصارت لمعاوية وولده. ثم قُبضت في أول الدولة وصارت لبعض ولد أمير المؤمنين المهدي رضي اللّه عنه. ثم صارت لقوم من الزيّاتين يُعرفون ببني نعيم من أهل الكوفة.

٣٥٢ - حدثني عباس بن هشام، عن أبيه، عن جدّه قال: وَفَدَ تميم ابن أوس أحد بني عبد الدار بن حبيب من لخم، ويكنّى أبا رقية، النبي (صلعم) ومعه أخوه نُعَيْم بن أوس، فأقطعهما رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم حبرى وبيت عينون ومسجد إبراهيم عليه السلام، فكتب بذلك كتاباً. فلما افتتح الشام دفع ذلك إليهما. فكان سليمان بن عبد الملك إذا مرّ بهذه القطعة لم يعرج وقال: أخاف أن تصيبني دعوة النبي (صلعم).

٣٥٣ - وحدثّني هشام بن عمّار أنه سمع المشايخ يذكرون أنّ عمر



بن الخطاب، عند مقدمه الجابية من أرض دمشق، مرّ بقوم مجذّمين من النصارى، فأمر أن يُعطوا من الصدقات، وأن يُجرى عليهم القوت.

وقال هشام: سمعت الوليد بن مسلم يذكر أن خالد بن الوليد شرط لأهل الدير الذي يُعرف بدير خالد شرطاً في خراجهم بالتخفيف عنهم حين أعطوه سُلّماً صعد عليه. فأنفذه لهم أبو عُبيدة.

ولما فرغ أبو عبيدة من أمر مدينة دمشق سار إلى حمص فمر ببَعْلَبَكّ، فطلب أهلها الأمان والصلح، فصالحهم على أن أمّنهم على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وكتب لهم:

« بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب أمانٍ لفلان بن فلان وأهلِ بعلبك رومِها وفُرْسها وعَرَبها، على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ودورهم، داخل المدينة وخارجها، وعلى أرحائهم، وللروم أن يرعوا سرحهم ما بينهم وبين خمسة عشرة ميلاً، ولا ينزلوا قرية عامرة. فإذا مضى شهر ربيع وجمادى الأولى ساروا إلى حيث شاؤوا. ومَنْ أسلم منهم فله مالنا وعليه ما علينا، ولتجّارهم أن يسافروا إلى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها، وعلى مَن أقام منهم الجزية والخراج. شهد الله، وكفى بالله شهيدا».

فتوح البلدان ١/ ١٤١ - ١٥٤

- ٨ -

ابن الفقيه الهمذاني
أبو بكر أحمد بن محمد بن اسحاق
(توفي بعد سنة ٢٩٠ هـ/ ٩٠٣م)

ابن الفقيه الهمذاني محدّث وجغرافي من القرن الثالث الهجري، ولد في همذان وارتحل وكتب الكثير عن بلدان العالم الإسلامي وخاصّة عن بلاد العرب والحجاز. ألّف كتاب «البلدان» بعد وفاة الخليفة المعتضد، ودوّن فيه أخبار رحلاته فوصف فيه الأرض والبحار في الصين والهند وبلاد العرب التي خصّ منها البصرة والكوفة، فضلاً عن مصر والمغرب وباقي العراق. ومما يدلّ على أهمية المعلومات التي ذكرها ابن الفقيه في مصنّفه أن المقدسي وياقوت الحموي قد ذكراه كثيراً في كتبهما واقتبسا منه.

وقد جعل ابن الفقيه كتابه هذا في خمسة مجلّدات كما روى المقدسي، أو ألف ورقة كما ذكر ابن النديم. والمعروف أنه ألّفه حوالي عام ٢٧٩ هـ وأتمّه قرابة عام ٢٩٠ هـ. غير أن هذا الكتاب لم يصل إلينا، بل وصلنا مختصر له بعنوان «مختصر كتاب البلدان»، لعلي بن جعفر الشيرازي من أبناء القرن الخامس الهجري، وقد أتمّه عام ٤١٣ هـ.

ويذكر المقدسي أن الهمذاني لم يذكر في كتابه إلا المدائن

العظمى، وأنه أدخل في كتابه ما لا يليق به من العلوم، مرّة يزّهد في الدنيا وتارة يرُغّب فيها، ودفعة يبُكي وحيناً يضُحك ويُلهي. ويقول إن كتابه قد أخذ أحسن ما في كتاب البلدان للجاحظ. ويضيف ابن النديم أن الهمذاني سلخ أيضاً كتاب الجيهاني.

ونجد في المختصر الذي وصل إلينا معلومات جغرافية وتاريخية وسياسية واقتصادية بالإضافة إلى مسالك البلدان.

هذا وقد قام بنشر المختصر المستشرق الهولندي العلاّمة دى خُوْيّه De Goeje في مطبعة بريل في لايدن بهولاندة عام ١٨٨٥م، مع دراسة وحواشٍ بالعربية واللاتينية.

ومن هذه الطبعة أخذنا النصّ الخاص بدمشق.

المصادر:

الفهرست لابن النديم ١/ ٢١٩

أحسن التقاسيم للمقدسي ٣، ٤

جهود المسلمين في الجغرافيا لنفيس أحمد ٤٨

تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ١/ ١٦٢

مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجّد ٢٢

تاريخ آداب اللغة العربية لبروكلمان، الذيل الأول ٤٩٥

الرحلة والرحّالة المسلمون لأحمد رمضان ٨٥

القول في الشام

قال: سمّيت الشام شاماً لأنها شأمة للكعبة. وقالوا: سمّيت لشامات بها حمر وسود.

وقال ابن الأعرابي: إذا جُزتَ جبلي طيّء، يقال لأحدهما سَلْمَى وللآخر أجَأ، فقد أشأمت حتى تجوز غَزّة ودمشق وفلسطين والأردن وقنّسرين من عمل العراق. وقالوا: الشام من الكوفة إلى الرملة، ومن بالس إلى أيْلَة.

وقال عبد الله بن عمرو: قُسم الخير عشرة أجزاء، فجُعل منها تسعة أعشار في الشام وجزء في سائر الأرضين.

وقال وهب الذّماري: إن اللّه جلّ وعزّ أوحى إلى الشام أنّي باركتكِ وقدّستكِ وجعلْتُ فيك مقامي وإليك محشرَ خلقي، فاتّسعي لهم كما يتّسع الرّحم، إن وُضع فيه اثنان وسعهما وإن وُضع ثلاثة وسعهم، وعيني عليكِ من أوّل السنين إلى آخر الدهر مَنْ عَدِمَ فيك المال لم يعدم الخبز والزيت.

وروى جُبَير بن نُفَير الحضرميّ قال: شكتْ الشام إلى ربّها فقالت: يا ربّ! فضّلت الأرضين عليّ بالجبال والأنهار وتركتني كظهر الحمار. فأوحى اللّه عزّ وجلّ إليها أن المسكين يشبع فيك وعيني عليك ويدي إليك.

وفي خبر آخر قال: قال رسول اللّه (صلعم): الشام صفوة اللّه من بلاده، وإليه يجتبي صفوتَه من عباده، يا أهل اليمن عليكم بالشام فإن صفوة اللّه من الأرض الشام.

وقال الحجّاج لابن القريّة: أخبرني عن مُكْران. قال: ماؤها وَشَل

وتمرها دَقَل وسهلها جَبَل ولصُّها بَطَل، إن كثر بها الجيش جاعوا وإن قلّوا ضاعوا. قال: فأخبرني عن خُراسان. قال: ماؤها جامد وعدوّها جاهد وبأسهم شديد وشرّهم عنيد. قال: فأخبرني عن اليَمَن. قال: أرض العَرَب وأهل بيوتات وحَسَب. قال: فأخبرني عن عُمَان. قال: حرُّها شديد وصيدها عتيد وأهلها بهائم ليس بها رائم. قال: فأخبرني عن البحرين. قال: كناسة بين مصرين، كثيرة جبالها جهلة رجالها. قال: فأخبرني عن مكّة. قال: رجالهم علماء وفيهم جفَاء، ونساؤها كُساة عُراة. قال: فأخبرني عن المدينة. قال: رسخ العلم فيها ثم علا، وانتشر منها في الآفاق. قال: فأخبرني عن اليَمَامة. قال: أهل جفاء وجَلَد وثَروة وعدد وصبر ونُكر. قال: فأخبرني عن البَصرة. قال: حرُّها شديد وماؤها مالح وحِبها صالح، مأوى كلّ تاجر وطريق كلّ عابر. قال: فأخبرني عن واسط. قال: جنَّة بين حَماة وكَنَّة تحسدانها، ودِجلة والزاب يتباريان عليها. قال: فأخبرني عن الكوفة. قال: سفلت عن برد الشام وارتفعت عن حرّ اليمن، فطاب ليلها وكثُر خيرها. قال: فأخبرني عن الشام. قال: عروس في نسوة جلوس كلُّهن يُزِفْنَها و يرفدنها.

وقال عديّ بن كعب في قوله ﴿ونَجَّيناه ولُوطاً إلى الأرض التي بَاركْنا فيها للعَالمين﴾(1)، قال: الشام.

مختصر كتاب البلدان ٩١-٩٣

(١) سورة الأنبياء - ٢١.

القول في دمشق

قال الكلبيّ: دِمَشْقُ بناها دمشق بن قاني بن مالك بن أرفخشذ ابن سام بن نوح(١).

وقال الأصمعيُّ: أُخِذَت دمَشقُ من دَمْشَقوها، أي أسرعوها.

وقال كعب في قول اللّه عزّ وجلّ ﴿والتِّينِ﴾ قال: الجبل الذي عليه دمشق، ﴿والزَّيتُون﴾ قال: الذي عليه بيت المقدس. ﴿وطُورِ سِينِين﴾ حيث كلّم اللّه موسى عليه السلام، ﴿والبَلَد الأمين﴾ مكّة.

وقال كعب: مَرْبَضُ ثُورٍ في دمشق خير من دار عظيمة بحمص.

قال في قوله عزّ وجلّ ﴿لمْ يُخْلَق مثلُها في البلاد﴾ قال: دمشق.

وقال كعب: معقل المسلمين من الملاحم دمشق، ومعقلهم من الدجّال نهر أبي فُطْرُس، ومن يأجوج و مأجوج الطور.

وقال هارون الرشيد للحسين بن عمّار: ولّيتُك دمشق وهي جنَّة تحيط بها غُدُر تتكفّأ أمواجُها على رياض كالدراري، فما بَرِحَ بك التعدّي لأرفاقهم أن جعلتَها أجرد من الصخر وأوحش من القفر.

قال: واللّه يا أمير المؤمنين ما قصدتُ لغير التوفيق من جهته، ولكنّي رأيت أقواماً ثَقُلَ الحقُّ على أعناقهم فتفرّقوا في ميادين التعدّي، ورأوا المراغمة بترك العمارة أوقع بأضرار السلطان، وأرادوا بذلك المشقّة على الولاة، وإنْ سَخِط أمير المؤمنين فقد أخذ بالحظّ الأوفر من مساءَتي.

فقال الرشيد: هذا أجزلُ كلام سُمع من خائف.

---

(١) للتوسّع في هذه الروايات أنظر كتابنا: معالم دمشق التاريخيّة، ص ٢٠٤.

وقال الأصمعي: جِنانُ الدنيا ثلاث: غُوطةُ دمشق، ونهر بَلْخ، ونهر الأبُلَّة. وحُشُوش الدنيا ثلاثة: الأبُلَّة، وسِراف، وعُمان.

وقال: عروسا الدنيا الرَيُّ ودمشق.

وقال يحيى بن أكثم: ليس في الأرض بقعة أنزه من ثلاث بقاع: قهندز سمرقند، وغوطة دمشق، ونهر الأبُلَّة.

وقال المدائنيّ: دمشقُ مدينتها الغوطة، وكوَرها إقليم سَنِير، وكورة جُبَيْل، وبَيْروت، وصَيْدا، وبَثَنِيَّة، وحوران، وجولان، وظاهر البلقاء، وجبرين الغَوْر، وكورة مآب، وكورة جِبَال، وكورة الشَّراة، وبُصْرَى، وعَمّان، والجابية، والقريتان، والحولَة، والبقاع. والسواحل منها ستَّة: صيدا وبيروت وأطرابُلُس وعَرْقَة وصُور. منبرها إلى دمشق وخَرَاجُها إلى الأردن. وخَرَاج دمشق أربع مائة ألف ونيّف. ودمشق هي أربعة أخماس صلح، وخُمس عَنْوةً وهو خُمْس خالد بن الوليد. وفُتِحت سنة ١٤ في رجب للنصف منه في خلافة عمر بن الخطّاب.

وقال البُحتُري في دمشق:

أمّا دمَشْقُ فقَدْ أبْدَتْ مَحاسِنَها ... وقَدْ وفَى لَكَ مُطْرِيها بما وَعَدَا
إذا أرَدْتَ مَلأتَ العَيْنَ من بَلَدٍ ... مُستَحْسَنٍ وزمانٍ يُشْبِهُ البَلَدَا
تُمْسِي السَّحابُ على أجْبالها فِرَقاً ... ويُصْبِحُ النَّوْرُ في صَحْرائها بَدَدَا
فلَسْتَ تُبْصِرُ إلا واكفاً خَضِلاً ... أو يانعاً خَضِراً أو طائراً غَرِدا
كأنَّما القَيْظُ ولَّى بَعْدَ جَيْئَتِهِ ... أوِ الرَّبيعُ دَنَا من بَعْدِ ما بَعُدَا

وقال أبو تمّام :

لولا حدائـقُها وأنّـي لا أرَى   عَرْشاً هناك ظَنَنْتُها بَلْقِيسـا
وأرى الزّمانَ غَدَا عليك بوَجهـه   جَذْلانَ بَسّاماً وكانَ عَبُوسا
قد نُوِّرَتْ تلك البُطُونُ وقُدِّسَتْ   تلك الظُّهُورُ بقُرْبِهِ تَقْدِيسـا

وقالوا عجائبُ الدنيا أربعة : قنطرة سَنْجَة ، ومنارة الإسكندريَّة ، وكنيسة الرُّها ، ومسجد دمشق .

ولمدينة دمشق ستَّة أبواب : باب الجابية ، وباب الصغير ، وباب كَيْسان ، وباب الشَرْقيّ ، وباب توما ، وباب الفَراديس . هذه التي كانت على عهد الروم .

ولمّا أراد الوليد بن عبد الملك بناء مسجد دمشق دعا نصارى دمشق فقال : إنّا نريد أن نزيد في مسجدنا كنيستكم هذهـونعطيكم موضعَ كنيسة حيث شئتم . فحذّروه ذلك ، وقالوا : إنّا نجدُ في كتابنا أنّه لا يهدمُها أحدٌ إلا خنُق . فقال الوليد : فأنا أوّلُ من يهدمها . فقام عليها ، وعليه قِباءٌ أصفر فهدمها بيد ، وهدمَ الناس معه ، ثم زاد في المسجد .

فلمّا هدمها كتب إليه ملك الروم : إنّكَ هدمتَ الكنيسة التي رأى أبوك تركها ، فإن كان حقّاً ما عملتَ فقد أخطأ أبوك ، وإن كان باطلاً فقد خالفتَ أباك .

فلم يعرف الوليدُ جواباً . فاستشار الناس وكتب إلى العراق ، فقال الفرزدق : أجبْه بقول اللّه جلّ وعزّ : ﴿ وداودَ وسلَيْمَانَ إذْ يَحكمان في الحَرْثِ إذْ نَفَشَتْ فيهِ غنَمُ القَوْمِ وكنّا لحُكمهم شاهدين * ففهّمنا سلَيْمان

وكُلاً آتَيْنا حُكْماً وعِلْماً ﴾(١). وكتب إليه الوليد بذلك فلم يُجبْه.

والوليد ممن زاد في المساجد وبناها، فبنى المسجد الحرام، ومسجد المدينة، ومسجد قُبا، ومسجد دمشق. وأولّ من حفر المياه في طريق مكّة إلى الشام، وأولّ من عمل البيمارستانات للمرضى. وقدم الشام وأخذ في بناء مسجد دمشق، وأنفق عليه خراج المملكة سبع سنين ليكون ذكراً له. وفرغ من المسجد في ثماني سنين، فلمّا حُمل إليه حساب نفقات مسجد دمشق على ثمانية عشر بعيراً أمر بإحراقها.

قال في كتاب المسالك والممالك: أنفق على مسجد دمشق خراج الدنيا ثلاث مرّات، وبلغ ثمن البقل الذي أكله الصنّاع في مدّة أيام العمل ستة آلاف دينار.

وهذا المسجد مقعد عشرين ألف رجل، وإنّ فيه ستّ مئة سلسلة ذهب للقناديل.

قال زيد بن واقد: وكّلني الوليد على العمّال بمسجد دمشق فوجدنا فيه مغارة، فعرّفنا الوليدَ ذاك. فنزله في الليل فإذا هي كنيسة لطيفة ثلاثة أذرع في مثلها، وإذا فيها صندوقٌ وفيه سفط مكتوب عليه: هذا رأس يحيى ابن زكرياء. فرأيناه، فأمر به الوليد أن يُجعل تحت عمود معيَّن، فجُعل تحت العمود المُسَفَّط الرابع الشرقيّ، ويُعرف بعمود السكاسك.

وقال أبو مهران: رأس يحيى بن زكرياء تحت عمود السكاسك.

وقال زيد أيضاً: رأيتُ رأس يحيى بن زكريّاء حين وُضع تحت العمود، والبشرة والشعرة لم تتغيّر.

---

(١) - سورة الأنبياء: ٧٨ - ٧٩.

قالوا: فمن عجائب مسجد دمشق أن لو بقي الرجل فيه مئة سنة لكان يرى فيه في كلِّ وقت أعجوبة لم يرها قبل.

وقال كعب: ليُبْنَيَنَّ في دمشق مسجدٌ يبقى بعد خراب الأرض أربعين عاماً.

والمئذنة التي بدمشق كانت ناطوراً للروم في كنيسة يحيى. فلمّا هدم الوليدُ الكنائس وأدخلها المسجد تُركت على حالها. وهدم الوليد عشرة كنائس واتَّخذها مسجداً.

ولمّا وُلّي عمر بن عبد العزيز الخلافة قال: إنّي أرى في مسجد دمشق أموالاً أُنفقت في غير حقّها، فأنا مُسْتَدْرِك ما استدركتُ منها ورادُّها إلى بيت المال، أنزعُ هذا الرّخام والفسيفساء وأطيّنه، وأنزعُ هٰذه السلاسل وأصيّر بدلها حبالاً. فاشتدّ ذلك على أهل دمشق، فخرج أشرافُها إليه، وكان فيهم يزيد بن سمعان وخالد بن عبد اللّه القسريّ. فقال خالد لهم: دعوني والكلام. قالوا: تكلَّمْ.

فلمّا دخلوا عليه قال له خالد: بلغَنا أنك هممتَ بمسجدنا بكذا وكذا.

قال: نعم.

قال: واللّه ما ذلك لك.

قال: فلمن ذاك؟ لأمِّك الكافرة؟ وكانت أمّه نصرانيّة.

فقال: إن تكُ كافرة فقد ولدتُ مؤمناً.

فاستحيى عمر وقال: صدقتَ.

وورد على عمر رسل الروم، فدخلوا مسجد دمشق لينظروا إليه، فرفعوا رؤوسهم إلى المسجد فنكّسَ رئيس منهم رأسه واصفرّ لونه، فقالوا له في ذلك. فقال: إنّا كنا معاشرَ أهل روميَّة نتحدّث أن بقاء العرب قليل، فلمّا رأيتُ ما بنوا علمتُ أن لهم مدّة سيبلغونها. فأُخبر عمر بذلك فقال: أرى مسجدكم هذا غيظاً على الكفّار. فترك ما همَّ به من أمر المسجد.

والمسجد مبنيٌّ بالرخام والفسيفساء، مسقّف بالسّاج، منقوش باللازورد والذهب، والمحرابُ مرصّع بالجواهر المثمَّنة والحجارة العجيبة.

وبنى معاوية الخَضْراءَ بدمشق في زمن عثمان بن عفّان. وأُمِّر على الشام وهو ابن ثمان وثلاثين سنة، واستُخْلِفَ وهو ابن ثمان وخمسين سنة، وتوفّي لثمان وسبعين سنة.

وهو أول من اتَّخذ المحاريبَ والمقاصيرَ والشُّرَط والحَرَس والخصيان، وأصفى الأموال. وقد أنكر قوم بناء الدور والأبنية والنفقة والتبذير عليها، وهذا طلحة بنى داره بالآجرّ والقَصَّة[1] وأبوابه ساج[2]، وبنى عثمان بن عفَّان بالحجارة المنقوشة المطابقة وخشب الصنوبر والساج، وحُمل له من البصرة في البحر، ومن عدن في البحر، وحُمل له القَصَّة من بطن نَخْل.

وبنى الزُّبير أربعة دور: داراً بمصر وأخرى بالاسكندرية، وأخرى بالكوفة وأخرى بالبصرة، وأنفق زيد بن ثابت على داره ثلاثين ألف درهم.

---

(١) القَصَّة هي الجصّ المستخدم في البناء والزخرفة.

(٢) الساج شجر ينمو في آسيا الجنوبية، ويستخدم خشبه الثمين في القصور.

وقال كعب الحَبْر : أربع مدائن من مدائن الجنَّة : حمص ودمشق وبيت جبْرين وظُفار اليمن . وأجناد الشام أربعة : حمص ودمشق وفلسطين والأردن .

ولقي كعب رجلاً فقال : مِن أين أقبل الرجل ؟

قال : من الشام .

قال : أفمن أهله أنت ؟

قال : نعم .

قال : فلعلَّك من الجند الذين ينظر اللّه إليهم كل يوم مرتين ؟

قال : وأيُّ جندٍ هُم ؟ قال : جند فلسطين .

قال : لا .

قال : فلعلَّك من الجند الذين يلقون اللّه في الثياب الخضر ؟

قال : وأيُّ جُنْدٍ هم ؟

قال : جند الأردن .

قال : لا .

قال : فلعلّك من الجند الذين يستظلُّون تحت العرش يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه ؟

قال : وأيُّ جندٍ هم ؟

قال : جند دمشق .

قال : لا .

قال : فلعلّك من الجند الذين يبعث اللّه منهم سبعين ألف نبي ؟

قال: وأيُّ جند هم؟

قال: جند حمص.

قال: لا.

قال: فمن أين أنت؟ قال: من قنّسْرين. قال: ليست تلك من الشام، تلك قطعة من الجزيرة يفرق بينهما الفُرات.

مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه الهمداني، ص ١٠٤ - ١٠٩

وبدمشق لُبْنان، وهو الجبل الذي يكون عليه العُبّاد والأبدال، وعليه من كلّ الثمر والفواكه، وفيه عيون كثيرة عذبة. وهو متّصل ببلاد الروم.

وعند باب دمشق جَيْرُون، وهي من بناء سليمان بن داود. وهي سقيفة مستطيلة على عُمُد، وحولها مدينة تُطيف بجيرون. قال أبو عُبيدة: الجيرون عمود عليه صومعة، وهو من البناء المذكور، ومن البناء المذكور الأبْلَق الفَرْد والوَرْد أيضاً قصرٌ بناه سليمان بن داود.

مختصر كتاب البلدان ١١٢

[قول لهارون الرشيد]

وكان هارون الرشيد يقول: الدنيا أربعة منازل، قد نزلت منها ثلاثة: أحدها دمشق، والآخر رقّة، والثالث الريّ. ولم أر في هذه المواضع موضعاً أحسن من السَّربان، شارعاً في مدينة الريّ في وسطه نهر وعن جنبيه أشجار ملتفّة متّصلة، وفيما بينها سوق. والمنزل الرابع سمرقند.

مختصر كتاب البلدان ٢٧٣

[أبيات للحسن بن هانیء]

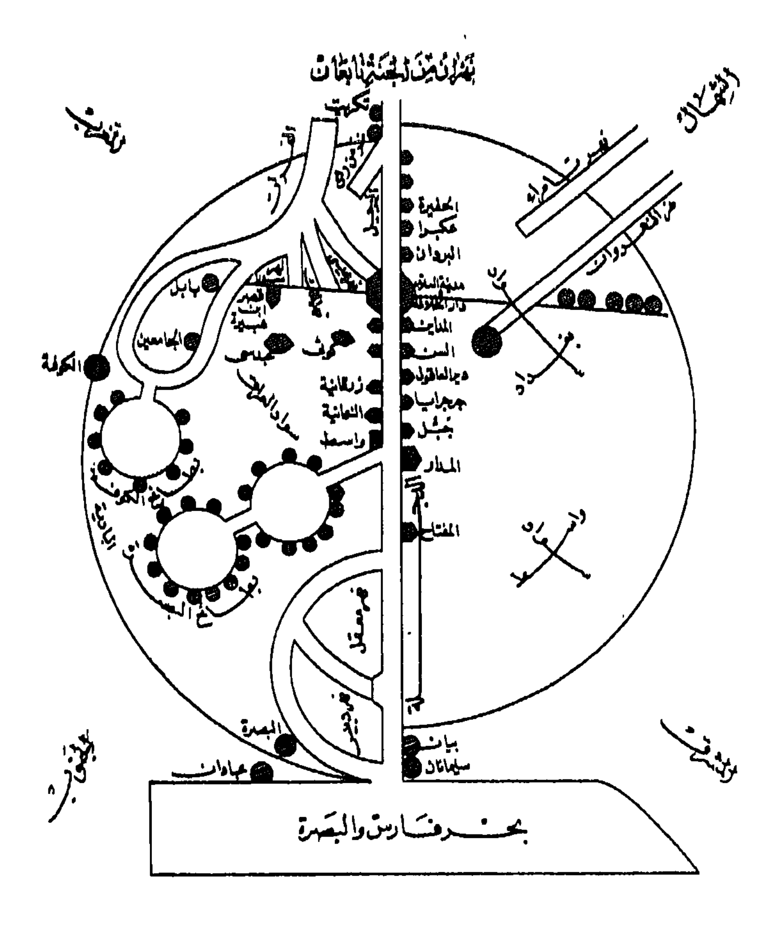
أَلا كُلُّ بَصْرِيٍّ يَرَى أَنَّما العُلَى ... مُكَمَّمَةٌ سُحْقٌ لَهُنَّ جَرِينُ
فإنْ يَغْرِسُوا نَخْلاً فإنَّ غِراسَنا ... ضِرابٌ وطَعْنٌ في النُّحُورِ سَخِينُ
فإنْ أكُ بَصْرِيّاً فإنَّ مُهاجَرِي ... دِمَشْقُ ولكنَّ الحَديثَ شُجُونُ
لأزْد عُمَانَ بالمُهَلَّبِ ثَرْوَةٌ ... إذا افْتَخَرَ الأقْوامُ ثُمّ تَلِينُ
وبَكْرٌ تَرَى أنَّ النُّبُوَّةَ أُنْزِلَتْ ... على مَسْمَعٍ في الرَّحْمِ وهو جَنِينُ
ولا لُمْتُ قَيْساً في قُتَيْبَةَ بَعْدَها ... وفَخْراً بهِ إنَّ الحَدِيثَ فُنُونُ

مختصر كتاب البلدان ١٢٢

صورة العراق

للبلخي (المتوفى سنة ٣٢٢ هـ - ٩٣٤ م)

هو احمد بن سهل البلخي المعروف بأبي زيد البلخي المتوفى عام ٣٢٢ (٩٣٤م)، جغرافي عربي ولد في شامستيان من اعمال بلخ، درس الفلسفة على الكندي وعاش في رعاية ابي علي الجيهاني وزير السامانيين، لم يجب البلاد الاسلامية ودون ما وصل اليه من معلومات جغرافية عن العالم في كتاب سماه "صور الاقاليم" ويدل على تحرره مما كان عليه هذا العلم عند اليونان، وقد نسب اليه صاحب كتاب الفهرست اسماء ٤٢ مصنفاً له لقد فقدت كلها في عهد متقدم، اما الحاجي خليفة فلم يصل الى علمه سوى نسخة من هذه المصنفات ومن بينها كتاب "صور الاقاليم" وقد ذكره كل من المقدسي ٣٧٥ هـ (٩٨٥م) وحمد الله المتوفى ٧٤٠ هـ (١٣٣٩م)، وقد نسب الى البلخي كتاب "البدء والتاريخ" خطأ منذ القديم، اي ما قبل القرن الثالث عشر الميلادي، اما مؤلفه الحقيقي فهو مطهر بن طاهر المقدسي (طبع من هذا الكتاب خمسة اجزاء ومعها ترجمة الى اللغة الفرنسية بقلم الاستاذ كليمان هوار، باريس ١٨٩٩/١٩٠٩).



- ٩ -

اليعقوبي
أحمد بن أبي يعقوب بن واضح
(توفي حوالي ٢٩٢ هـ/ ٩٠٥ م)

هو أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي، رحّالة ومؤرّخ وجغرافي شهير، كان جدّه من موالي الخليفة المنصور، ولد ببغداد وغادرها في صغره فعاش طويلاً بأرمينيا وخراسان وزار الهند وفلسطين، وأقام في كنف الطولونيين أثناء مقامه الطويل بمصر والمغرب.

وقد ألّف اليعقوبي « كتاب البلدان »، الذي جمع فيه كل ما رأى وسمع، وهو أقدم الكتب التي وصلت إلينا من نوعه. وقد ذكر في مقدّمته: «إنّي عُنيت في عنفوان شبابي وعند احتيال سنّي وحدّة ذهني بعلم أخبار البلدان ومسافة ما بين كل بلد وبلد، لأني سافرت حديث السن واتّصلت أسفاري ودام تغرّبي، فكنت متى لقيت رجلاً من تلك البلدان سألته عن وطنه ومِصْره. . . وزرعه ما هو وساكنيه مَن هم عرب أو عجم. . . وشرب أهله ولباسهم ودياناتهم ومقالاتهم. . . ».

هذا وقد صدرت لكتاب البلدان طبعات عديدة في أوروبا بالقرن الماضي، أحسنها طبعة المستشرق الهولندي دى خُوْيّه De Goeje في لايدن بهولاندة عام ١٨٩٢م بذيل كتاب « الأعلاق النفيسة » لابن

رسته، مع مقدّمة باللغة اللاتينيّة. وبعدها صدرت ترجمة نموذجية للكتاب باللغة الفرنسية قام بها المستشرق الفرنسي گاستون ڤييت G. Wiet عام ١٩٣٧م تحتوي على تعليقات وافية.

ولليعقوبي كتب أخرى جيّدة، منها: تاريخ اليعقوبي، انتهى به إلى خلافة المعتمد على الله العبّاسي، نشره المستشرق الهولندي مارتن هوتسما M. T. Houtsma في لايدن بهولاندة. ومنها أيضاً: أخبار الأمم السالفة، ومشاكلة الناس لزمانهم.

هذا وقد اختلف المؤرّخون في سنة وفاته، فقال ياقوت: سنة ٢٨٤ هـ، ويُرجَّح أنها بعدعام ٢٩٢ هـ، لورود أبيات لليعقوبي نظمها في هذه السنة المذكورة.

ويفيدنا نصّ اليعقوبي بذكر المسافات بين مدن الشام، وفتح دمشق، وكور جُنْد دمشق، ومنازل القبائل العربية فيها، وقيمة خراج دمشق.

المصادر:

معجم الأدباء لياقوت الحموي ٥/ ١٥٣

تاريخ اليعقوبي: مقدّمة دى خُويّه، طبعة لايدن

الحضارة الإسلامية لآدم متز ٢/ ٣

تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوڤسكي ١/ ١٥٨

مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجّد ١٧

الرحلة والرحّالة المسلمون لأحمد رمضان ٧١

دمشق

ومن حمص إلى مدينة دمشق أربع مراحل، فالمرحلة الأولى جُوسِيَة وهي من حمص، والثانية قارا وهي أول عمل جند دمشق، والثالثة القُطيفة وبها منازل لهشام بن عبد الملك بن مروان، ومنها إلى مدينة دمشق. ومَنْ سلك من حمص على طريق البريد أخذ من جوسية إلى البقاع ثم إلى مدينة بعلبَكّ، وهي إحدى مدن الشام الجليلة، وبها بنيان عجيبٌ بالحجارة، وبها عينٌ عجيبةٌ يخرج منها نهر عظيم، وداخل المدينة الأجنّة والبساتين. ومن مدينة بعلبك إلى عقبة الرُّمان، ثم إلى مدينة دمشق.

ومدينة دمشق مدينة جليلة قديمة. وهي مدينة الشام في الجاهليّة والإسلام، وليس لها نظير في جميع أجناد الشام في كثرة أنهارها وعماراتها. ونهرها الأعظم يُقال له بَرَدا.

افتُتحت مدينة دمشق في خلافة عمر بن الخطّاب سنة أربع عشرة. افتتحها أبو عبيدة بن الجرّاح من بابٍ لها يُقال له باب الجابية صلحاً بعد حصار سنة، ودخل خالد بن الوليد من باب لها يُقال له باب الشرقي بغير صلح. فأجاز أبو عبيدة الصلح في جميعها، وكتبوا إلى عمر بن الخطاب فأجاز ما عمل به أبو عُبيدة.

وكانت دمشق منازل ملوك غسّان، وبها آثار لآل جَفْنَة(١).

---

(١) آل جفنة: ملوك الغساسنة في ديار الشام قبل الإسلام، وهم سلالة عربية يمنيّة الأصل. أشهر ملوكهم الحارث بن جبَلَة، و المُنذر بن الحارث، وآخرهم جبَلَة بن الأيهم.

والأغلب على مدينة دمشق أهل اليمن، وبها قومٌ من قيس.

ومنازل بني أميّة وقصورهم أكثر منازلها، وبها خضراء مُعاوية وهي دار الإمارة. ومسجدها الذي ليس في الإسلام أحسن منه بالرخام والذهب بناه الوليد بن عبد الملك بن مروان في خلافته.

ولجند دمشق من الكور:

الغوطة، وأهلها غسّان وبطون من قيس، وبها قوم من ربيعة.

وحَوران، ومدينتها بُصرى، وأهلها قوم من قيس من بني مُرَّة، خَلا السُّويدا فإن بها قوماً من كلب.

والبَثنيَّة، ومدينتها أذرعات، وأهلها قوم من يمن ومن قيس.

والظاهر، ومدينتها عمّان.

والغَور، ومدينتها أريحا. وهاتان المدينتان بأرض البلقاء، وأهلهما قوم من قيس، وبها جماعة من قريش...

وجِبال، ومدينتها عَرَنْدل، وأهلها قوم من غسّان ومن بَلْقَين وغيرهم.

ومآب وزُغَر، وأهلها أخلاط من الناس، وبها القرية المعروفة بمُؤتَة التي قُتل فيها جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة وعبد الله بن رَواحة.

والشَّراة، ومدينتها أذْرُح، وأهلها موالي بني هاشم، وبها الحُمَيْمَة منازل علي بن عبد الله بن العبّاس بن عبد المطّلب وولده.

والجَوْلان، ومدينتها بانيَاس، وأهلها قوم من قيس أكثرهم بنو مُرَّة، وبها نفر من أهل اليمن.

وجبل سَنِير، وأهلها بنو ضبَّة، وبها قوم من كَلْب.

وبَعْلَبَكّ، وأهلها قوم من الفُرس، وفي أطرافها قوم من اليمن.
وجبل الجَلِيل، وأهلها قوم من عامِلَة.
ولُبنان صَيْداً، وبها قوم من قريش ومن اليمن.

كتاب البلدان لليعقوبي، طبعة لايدن، ص ٣٢٥

ولجُنْد دمشق من الكُوَر على الساحل كورة عِرْقَة، ولها مدينة قديمة فيها قوم من الفرس ناقلة، وبها قوم من ربيعة من بني حَنِيفَة.

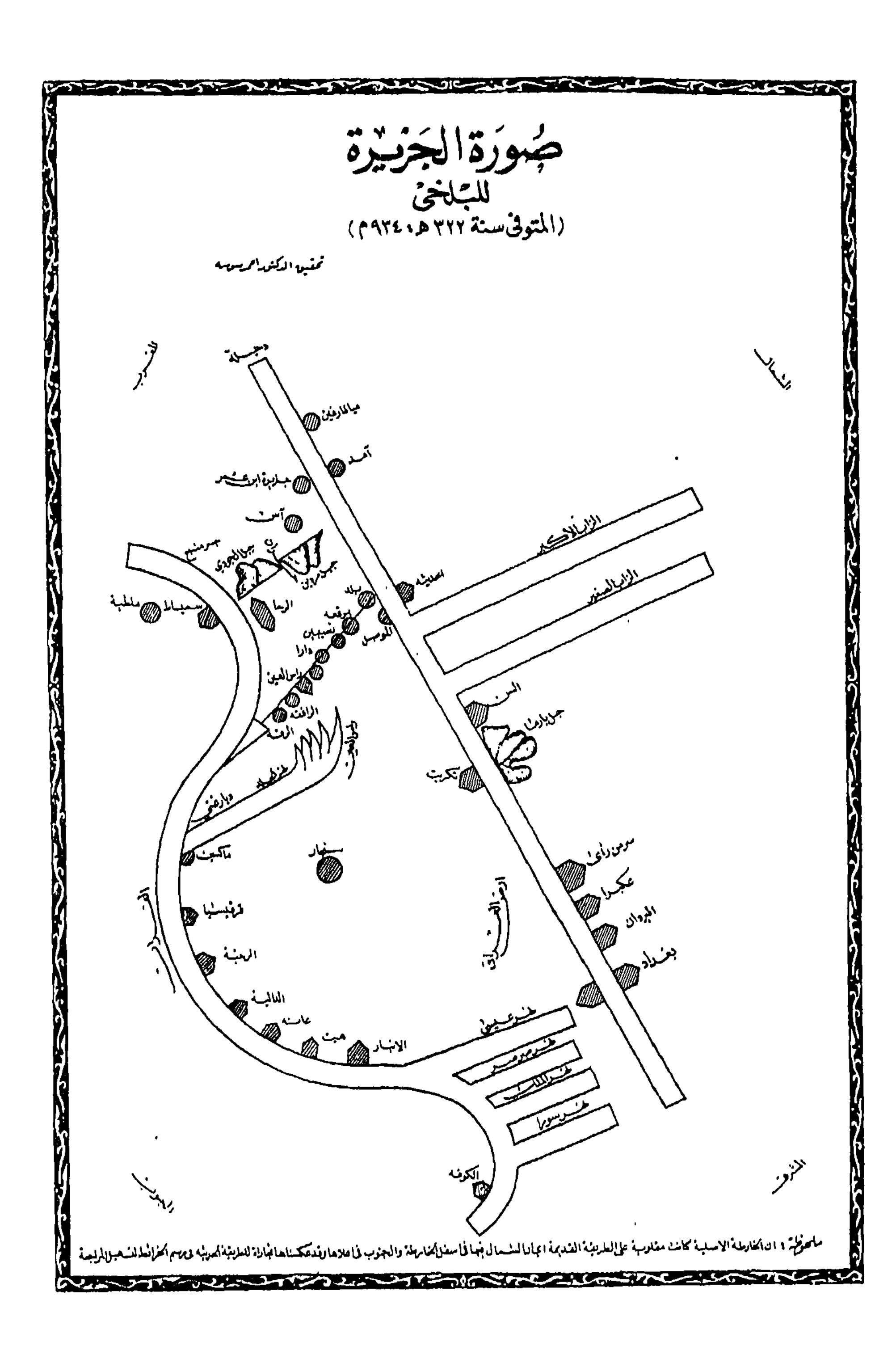
ومدينة أطْرابُلُس وأهلها قوم من الفُرس، كان معاوية بن أبي سفيان نقلهم إليها. ولهم مينا عجيب، يحتمل ألف مركب.

وجُبَيْل وصيدا وبَيْروت، وأهل هذه الكور كلّها قوم من الفرس نقلهم إليها معاوية بن أبي سفيان.

وكلّ كورة دمشق افتتحها أبو عبيدة بن الجرّاح في خلافة عمر ابن الخطّاب سنة أربع عشرة.

وخَرَاج دمشق سوى الضياع يبلغ ثلثمائة ألف دينار.

كتاب البلدان لليعقوبي، طبعة لايدن، ص ٣٢٧



صورة الجزيرة
للبلخي
(المتوفى سنة ٣٢٢ هـ، ٩٣٤م)
دجلة
الشمال
ميافارقين
آمد
جزيرة ابن عمر
الزاب الاكبر
الزاب الصغير
الحديثة
بلد
الموصل
نصيبين
دارا
الرها
سميساط
ملطية
الرقة
الرافقة
السن
تكريت
سر من رأى
عكبرا
البردان
بغداد
سنجار
قرقيسيا
الرحبة
الدالية
عانة
هيت
الانبار
نهر عيسى
نهر صرصر
نهر الملك
نهر سورا
الكوفة
الجنوب
الشرق
ملحوظة: ان الخارطة الاصلية كانت مقلوبة على الطريقة القديمة ايجابا الشمال فيها في اسفل الخارطة والجنوب في اعلاها وقد عكسناها مجاراة للطريقة الحديثة في رسم الخرائط لتسهيل المراجعة

- ١٠ -

ابن رُسْتَهْ
أبو علي أحمدَ بن عمر

(أواخر القرن الثالث الهجري)

ابن رُسْتِه، أحمد بن عمر، أحد الرحّالين الجغرافيين الفُرس في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، لا يُعرف عن حياته إلا القليل وهو أن أصله من أصفهان وأنه كان بالحجاز على ما يظهر في عام ٢٩٠ هـ. تأثّر في كتابته بالفرغاني وأبي معشر وكذلك بابن خُرداذبه صاحب كتاب «المسالك والممالك»، كما يُعتبر ابن رسته أستاذاً للكوزموغرافي القزويني. وأما اسم «رُسته» بالفارسية فيعني: شجاع.

صنّف ابن رُسته موسوعته «الأعلاق النفيسة» وهو مقيم في مسقط رأسه أصفهان، ولذا فقد كان لها الحظّ الأوفر من عنايته عندما شرع في وصف المدن والممالك. ويعتقد كراتشكوفسكي أنه قد ألّف كتابه هذا ما بين عامي ٢٩٠ - ٣٠٠ هـ. ولم يتبقّ من هذه الموسوعة الضخمة سوى الجزء السابع في الفلك والجغرافيا، وهو مخطوط فريد محفوظ في مكتبة المتحف البريطاني بلندن.

وتبدأ الجغرافيا الطبيعية لديه بوصف مكّة والكعبة مع تحديد

الأبعاد بدقّة متناهية، ويلي وصف المدينة قسم مكرّس لجميع صنوف العجائب من العالمين النباتي والحيواني وللمباني الشهيرة، ثم يعقب هذا وصف البحار والأنهار والأقاليم السبعة بما فيها من المدن المشهورة. وفي وصفه للأقطار يُفرد أهمية خاصّة لإيران، ولكنّه لا يُهمل الكلام على بلاد العرب الجنوبيّة ومدينة صنعاء ومصر والعراق، وبخاصّة بغداد عاصمة الخلافة العبّاسيّة. وفي ما يتعلّق بالقسطنطينيّة عاصمة البيزنطيين يحدّثنا عن موكب الأمبراطور المهيب إلى أياصوفيا، ثم يصف الكنيسة نفسها وساعتها القديمة المشهورة.

ويبدو أن ابن رسته لم يتعمّق في رحلاته ببلاد الشام، إذ أن ما ذكره عنها لا يتعدّى المعطيات التعريفيّة العامّة، ولا يبعد أن يكون منقولاً.

وأول من نشر فقرات من الأعلاق النفيسة كان المستشرق خفولسون Chwolson مع ترجمة روسيّة عام ١٨٦٩م، ثم قام بنشر مخطوطة المتحف البريطاني بأكملها المستشرق الهولندي دى خُويّه De Goeje مع مقدّمة باللغة اللاتينية وحواش بالعربيّة واللاتينيّة، وطبعت في مطبعة بريل في لايدن بهولاندة عام ١٨٩٢م، وذلك ضمن سلسلة «المكتبة الجغرافيّة العربيّة» التي يشرف عليها المستشرق المذكور (الجزء ٧). كما نشر مع نصّ الأعلاق النفيسة كتاب البلدان لأحمد بن علي بن واضح الكاتب اليعقوبي.

ومن هذه الطبعة أخذنا النصوص المتعلّقة بدمشق.

المصادر :

الأعلاق النفيسة لابن رسته، مقدّمة دى خُوْيّه باللاتينيّة

تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ١/ ١٦٤

دراسات الإستشراق في أوروپا وروسيا لبارتولد ١/ ١٩٤٠

الرحلة والرحالة المسلمون لأحمد رمضان ٨٩

الإدريسي في الجغرافيا العربيّة لأحمد سوسة ١/ ٩٩

C. Brockelmann: Geschichte der Arabische Litteratur; Supp. I, S. 406.

Blachère: R.: Extraits des principaux géographes arabes du moyen age. Paris, 1932. p. 34 - 44.

من فصل
صفة الأنهار

ومخرج نهر الأُرُنْد(١) من أرض جبال دمشق مما يلي البريّة، ويجتاز بأنطاكيّة ومصبّه في بحر الشأم. ومخرج بَرَدَى نهر دمشق من جبال دمشق ويجتازها فيسقيها ويسقي غُوطة دمشق ثم ينصبّ في بحيرة دمشق.

الأعلاق النفيسة ٩١

كور الشأم

حَلَب وقنَّسرين وأنطاكية وشَيْزَر وحَماة وحمص وفاميَة وبعلبكّ ودمشق والطبريّة والرملة وايليا. ومن الشأم كور تسمّى الثغور الشاميّة، وهي أَذَنَة والمَصِّيصة وطَرَسُوس وعين زَرْبة والهارونيّة والكنيسة السوداء والعواصم وأنطاكية وتِيزِين وقُورُس ومَنْبِج ودُلُوك ورَعْبَان. وكان أيام عمر بن الخطّاب (رضه) يرد عليه وفود اليمن وغيرهم من العرب، فإذا اجتمعوا أمّرعليهم والياً وأمضاهم إلى ناحية الشأم، فجنّد عمر الشأم أربعة أجناد متفرّقة في أيدي عمّاله، وهم: أبو عبيدة بن الجراّح، وخالد بن الوليد،

---

(١) أي نهر العاصي، وهو اسمه باللاتينيّة Orontes .

ويزيد بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص. فبقيت الشأم على ذلك التجنيد حتى زاد فيها يزيد بن معاوية قنَّسرين، وكانت من أرض الجزيرة. فصارت أجناد الشام أربعة: جند فلسطين وهي الرّملة، وجند الأردن وهي الطبريّة وجند دمشق وجند قنَّسرين.

الأعلاق النفيسة ١٠٧

الطريق من دمشق إلى المدينة

من دمشق إلى منزل، ثم إلى منزل آخر، ثم إلى ذات المنازل، ثم إلى سَرْغ، ثم إلى تَبُوك، ثم إلى المُحْدَثَة، ثم إلى الأقْرَع، ثم إلى الجُنَينة، ثم إلى الحِجْر، ثم إلى وادي القرى، ثم إلى الرحبة، ثم إلى ذي المروة، ثم إلى المرّ، ثم إلى السويداء، ثم إلى ذي خشب، ثم إلى المدينة.

الأعلاق النفيسة ١٨٣

BIBLIOTHECA GEOGRAPHORUM ARABICORUM

EDIDIT

M. J. DE GOEJE.

PARS SEPTIMA.

KITÂB AL-A'LÂK AN-NAFÎSA VII

AUCTORE

Abû Ali Ahmed ibn Omar

IBN ROSTEH

ET

KITÂB AL-BOLDÂN

AUCTORE

Ahmed ibn abi Jakûb ibn Wâdhih al-Kâtib

AL-JAKÛBÎ.

EDIT. SECUNDA.

LUGDUNI BATAVORUM,

APUD E. J. BRILL.

1892.

- ١١ -

البَلْخي
أبو زيد أحمد بن سهل
(توفي ٣٢٢ هـ/ ٩٣٤م)

أحمد بن سهل البلخي، أحد الكبار الأفذاذ من علماء الإسلام، جمع بين الشريعة والفلسفة والأدب والفنون. ولد حوالي عام ٢٣٥ هـ بإحدى قرى بَلْخ في خُراسان، وارتحل إلى بغداد مركز الحضارة آنذاك فأقام بها ثماني سنوات، وتتلمذ فيها على الكندي الفيلسوف المعروف (توفي بعد ٢٥٦ هـ)، وأصبح من ألزم تلامذته. ثم عاد إلى بلخ فعرض عليه أميرها أحمد بن سهل بن هاشم الوزارة فأباها وتولّى بدلاً عنها وظيفة الكاتب في ديوان الأمير. وأقام في بلخ حتى وفاته عام ٣٢٢ هـ.

نحا البلخي في تأليفه منحى الفلاسفة، وارتبط اسمه بما يقرب من ستين مصنّفاً لا نعرف منها إلا أسماءها، وقد عدّدها ابن النديم في فهرسته. على أن أخصّ هذه المؤلّفات هو مصنّفه الجغرافي «صور الأقاليم»، وهو كتاب في المسالك والممالك والجغرافيا، وفيه سبق علماء البلدان في

الإسلام كافّة إلى استعمال رسم الأرض. وقد وضع البلخي مصنّفه هذا في سنيّ شيخوخته، حوالي عام ٣٠٨ هـ، وتسمّيه بعض المصادر: «أشكال البلاد» أو «تقويم البلدان». وكتابه يشبه الأطلس مصحوباً ببعض التوضيحات، وقد انتقده المقدسي في مقدمة كتابه «أحسن التقاسيم».

ومن مؤلّفات البلخي الأخرى، كما عدّدها ابن النديم: «أقسام العلوم» و «شرائع الأديان» و«كتاب السياسة الكبير» و«كتاب السياسة الصغير» و«الأسماء والكنى والألقاب» و«ما يصحّ من أحكام النجوم» و«أقسام علوم الفلسفة» و«كتاب الشطرنج» و«أدب السلطان والرعيّة» و«كتاب القرود» و«فضائل بلخ» و«أخلاق الأمم» و«نظم القرآن». كما نُسب إليه «كتاب البدء والتاريخ»، والواقع أنه لمطهّر بن طاهر المقدسي.

ومن كتاب «صورة الأقاليم» مخطوطة نادرة قديمة في مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة بالمدينة المنوّرة (آلت اليوم إلى مكتبة الملك عبد العزيز آل سعود). وفي المخطوط ذكر لدمشق، ونصّه يشبه تماماً ما ورد عند الإصطخري وابن حوقل، فكأنّهما أخذا عنه.

ولمّا كان الكتاب ما يزال مخطوطاً فقد نقلنا النصّ المتعلّق بدمشق منه عن نشرة أستاذنا الدكتور صلاح الدين المنجّد.

المصادر:

أحسن التقاسيم للمقدسي ٤

الفهرست لابن النديم ١/ ١٩٨

معجم الأدباء لياقوت ٣/ ٦٤ - ٨٦

تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي ٢٢

لسان الميزان لابن حجر العسقلاني ١/ ١٨٣

الإمتاع والمؤانسة للتوحيدي ٢/ ١٥

الحضارة الإسلامية لآدم متز ٢/ ٢

تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ١/ ١٩٨

جهود المسلمين في الجغرافيا لنفيس أحمد ٥٢

مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجّد ٥٢

C. Brockelmann: Geschichte der Arabische Litteratur; Supp. I, S. 408.

دمشق

مدينة دمشق، وهي من أجلّ مدن الشام. وهي في أرضٍ واسعة بين جبال، تحفّ بها مياه كثيرة وأشجار وزروع متّصلة. وتسمى تلك البقعة «الغُوطة»، عرضها مرحلة في مرحلتين، ليس بالمغرب[1] مكان أنزه منه. ومخرج مائها من تحت كنيسة يُقال لها «الفيجة»[2]، وهو أول ما يخرج مقداره ارتفاع ذراع في عرض بَاع، ثم يجري في شُعُبٍ دَجْلَةٍ، ثم يُستنبط منه نهر «المزّة» ونهر «القناة»[3]. ويظهر عند الخروج من الشِعّب بموضع يُقال له «النَّيْرَب»[4]. ويُقال إنه المكان الذي قال الله عزّ وجلّ [فيه]: ﴿وآويناهما إلى ربوةٍ ذاتِ قرارٍ ومَعين﴾. ثم يبقى من هذا الماء عمود النهر فيُسمّى «بَرَدا»، وعليه قنطرة في وسط مدينة دمشق لا يعبره الراكب غزارةً وكثرة[5]، فيُفضي إلى قرى الغوطة، ويجري الماء في عامّة دورهم وسِككهم وحمّاماتهم.

---

(١) قوله «بالمغرب» لأن الشام تقع إلى الغرب من موطنه بلاد فارس.

(٢) المعروف أن منبع عين الفيجة الشهير غربي دمشق يخرج من بناء معبد وثني مبني بالحجر.

(٣) الواضح أنه يريد ما عُرف فيما بعد بـ: نهر القنوات، أحد الفروع الرئيسيّة السبعة لبردى.

(٤) النَّيْرَب كلمة سريانية (نَرْبَا)، وتعني الوادي. وكان بدمشق نيربان، الأعلى والأدنى، وكانا من أجمل متنزّهات دمشق، موقعهما اليوم عند حيّي المالكي وأبي رمّانة الحديثين. أنظر كتابنا: معالم دمشق التاريخيّة، ٥٣٠.

(٥) هذا يعني أن عمقه بدمشق آنذاك كان يتجاوز المترين ونيّف، فتأمّل.

وبها مسجدٌ ليس في الإسلام أعمر ولا أكبر بقعة منه. وأمّا الجدار والقبّة التي فوق المحراب عند المقصورة فمن بناء الصابئين ولصَلاتهم، ثم صار في أيدي اليونانيين، فكانوا يعظّمون فيه دينهم. ثم صار إلى اليهود وملوك عَبَدة الأوثان، فقُتل في ذلك الزمان يحيى بن زكريّا عليه السلام، ونُصب رأسه على باب هذا المسجد باب يسمَّى باب جيرون، نُصب رأس يحيى بن زكريا، ثم نُصب رأس الحسين بن عليّ بن أبي طالب صلوات اللّه عليه.

فلمّا كان الوليد بن عبد الملك عمّره، فجعل أرضه رخاماً مفروشاً، وجعل وجه جدرانه رخاماً مجزّعاً، وأساطينه رخاماً. ومحرابه مذهّب مرصّع بالجواهر، ودَوْرُ السقف كلّه ذهب مُكْتَب، كما يطوف بترابيع جدار المسجد. ويُقال إنه أنفق بسببه وحده خَراج الشام خمس سنين.

وسطحه رصاص، وسقفه خشب مذهب. وإذا أرادوا غسله بُثق الماء إليه فدار على رقعة المسجد، حتى إذا فجر منه انبسط فيه على جميع الأركان سواء.

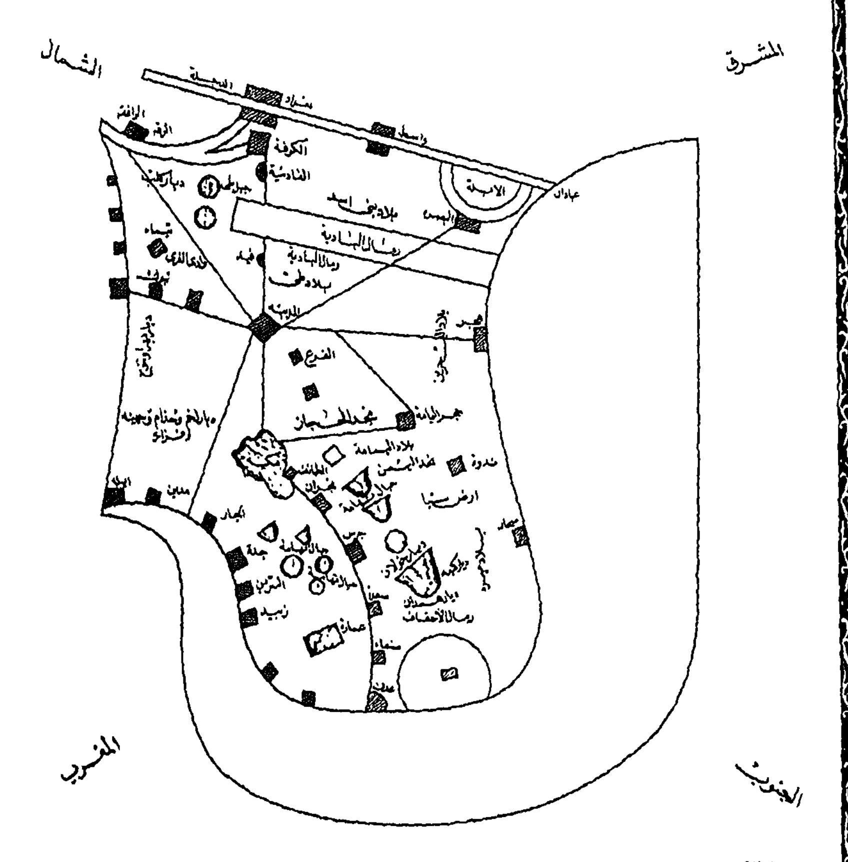
صورة الأقاليم للبلخي، مخطوطة عارف حكمة

نقلاً عن د. صلاح الدين المنجّد

صورة ديار العرب

للبلخي (المتوفى سنة ٣٢٢هـ ٩٣٤م)

تحقيق الدكتور احمد سوسه



ملاحظة: ان الخارطة الاصلية كانت مقلوبة على الطريقة القديمة اي ان الشمال فيها في اسفل الخارطة والجنوب في اعلاها وقد عكسناها مجاراة للطريقة الحديثة في رسم الخرائط لتسهيل المراجعة.

- ١٢ -

ابن عبد ربّه الأندلسي
أبو عمر أحمد بن محمّد

(توفي ٣٢٨ هـ/ ٩٤٠م)

أحمد بن محمد بن عبد ربّه بن حبيب، الأديب الإمام القرطبي صاحب «العقد الفريد». ورغم أنه لم يكن برحّالة أو جغرافي فقد آثرنا أن نستقي منه ما ذكره عن الشام ودمشق، على اعتبار أن مصنّفه الآتي ذكره يُعتبر من الموساعات الأدبية الأندلسية التي تطرّقت إلى أخبار البلدان، ومنها أخبار المشرق وآدابه، والمشرق في عُرف أهل المغرب والأندلس يعني ديار الإسلام الواقعة شرقي حوض البحر الأبيض المتوسط، كمصر والشام والحجاز والعراق.

ولد ابن عبد ربّه بقرطبة عام ٢٤٦ هـ، وكان جدّه الأعلى (سالم) مولى لهشام بن عبد الرحمن بن معاوية. ونشأ في هذه المدينة وتثقّف ثقافة عصره، من فقه وتفسير وحديث ونحو وعروض وتاريخ وأدب، واتّصف بصفات الندمان من حبّ للموسيقى وغرام بالصوت الحسن. وظهر أثر

ذلك كلّه في كتابه العقد، ففيه الثقافة الدينية واضحة وكذلك الثقافة الأدبية، فضلاً عن الميل إلى الغناء والموسيقى.

كان ابن عبد ربّه أديباً شاعراً، يقول فيه الفتح بن خاقان: إنه «حجّة الأدب، وإن له شعراً انتهى منتهاه، وتجاوز سِماك الإحسان وسُهاه». ويقول ابن سعيد: «إمام أهل أدب المائة الرابعة، وفرسان شعرائها في المغرب كلّه». ولم يُعرف عن ابن عبد ربّه رحلة إلى المشرق، فعلمه الواسع بأدب المشرق جاءه من أشياخه الذين أخذ عنهم بالأندلس، ومن طول قراءته للكتب. وقد عاب معاصروه العقد بأنه عُني بأدب المشرق، وكان الأولى به أن يُعنى بأدب الأندلس منشئه ومرْباه.

وعلى أي حال يبقى «العقد الفريد» واحداً من أشهر كتب الأدب، ويُصنَّف بين كتب المختارات أو المحاضرات، كالبيان والتبيين للجاحظ والكامل للمبرِّد والأمالي للقالي وعيون الأخبار لابن قتيبة. سمّاه صاحبه «العقد» وأضاف إليه النسّاخ المتأخّرون لفظ «الفريد»، وتصوّره عقداً مؤلّفاً من خمس وعشرين جوهرة كريمة، ثم الواسطة، وبعدها خمس وعشرون مماثلة للأولى. ومنها الزبرجدة الثانية التي أخذنا منها نص الشام.

قام بنشر الكتاب أحمد أمين وأحمد الزين وابراهيم الأبياري، وصدر في ٦ أجزاء عن لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة عام ١٩٤٠ .

المصادر:

العقد الفريد لابن عبد ربّه، مقدّمة أحمد أمين للجزء الأول

الأعلام لخير الدين الزركلي ١/ ١٩٧

من كتاب الزّبرجدة الثانيّة
في بيان طبائع للإنسان وسائر الحيوان وتفاضل البلدان

الشـــامات

أول حدٍّ الشام من طريق مصر رَفَح، ثم يليها غَزّة، ثم الرَّملة رملة فلسطين، ومدينتها العظمى فلسطين وعسقلان، وبها بيت المقدس. وفلسطين هي الشَّام الأولى.

ثم الشام الثانية، هي الأردن، ومدينتها العظمى طبريّة، وهي التي على شاطىء البحيرة، والغور واليرموك. وبيسان فيما بين فلسطين والأردن.

ثم الشام الثالثة الغُوطة، ومدينتها العظمى دمشق، ومن سواحلها طرابلس.

ثم الشام الرابعة وهي أرض حمص.

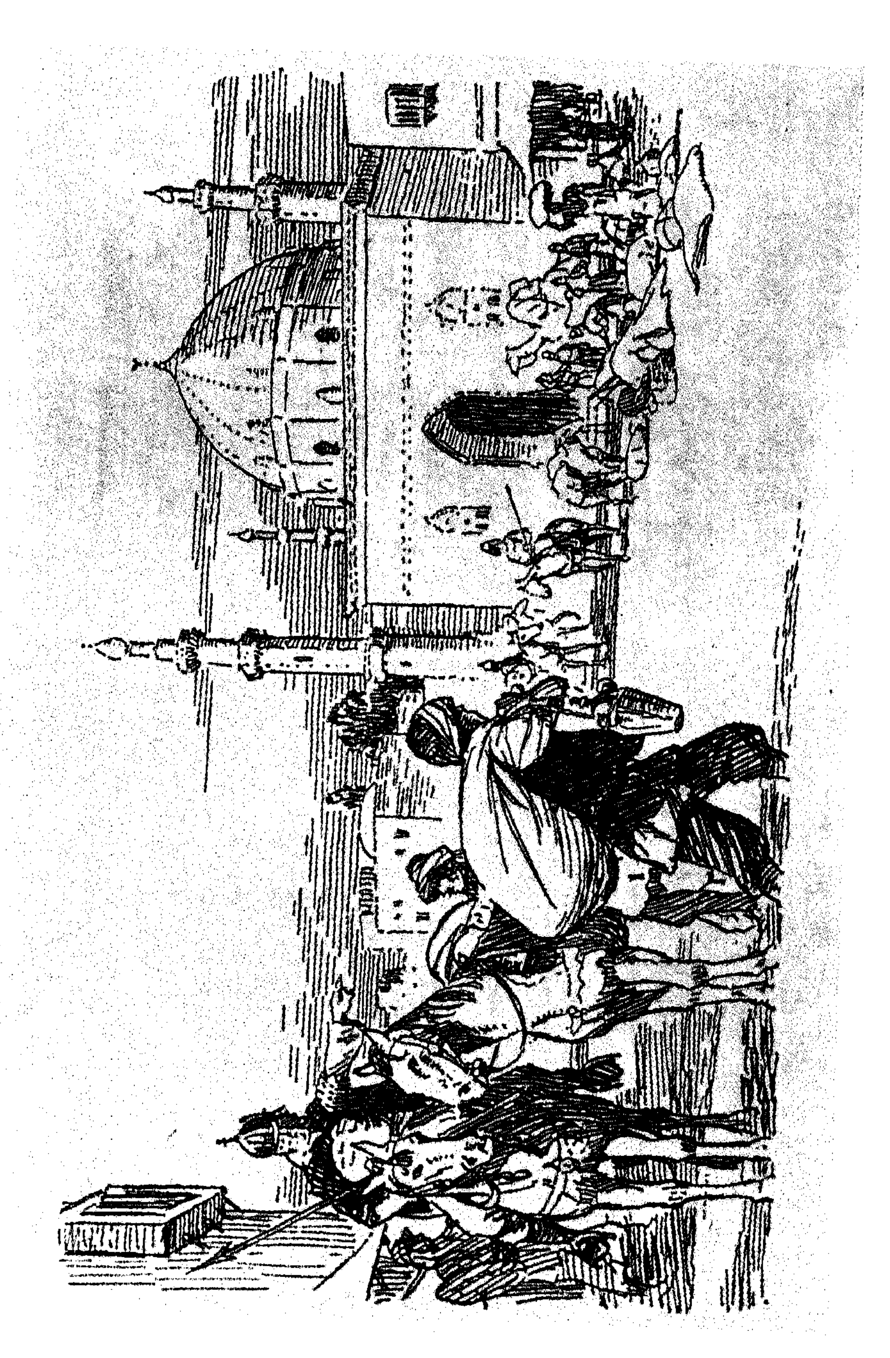
ثم الشام الخامسة وهي قنّسرين، ومدينتها العظمى - حيث السلطان - حلب. وبين قنّسرين وحلب أربعة فراسخ، وساحلها أنطاكية مدينة عظيمة على شاطىء البحر، في داخلها البساتين والأنهار والمزارع، وهي مدينة حبيب النجّار، الذي جاء من أقصى المدينة يسعى[1]. وبها مسجد يُنسب إلى حبيب النجّار.

---

(١) إشارة إلى قصّة المؤمن الذي قتله قومه الكافرون، في القرآن الكريم، سورة ياسين - ٢٠.

ومن ثغور الشام الخامسة : المَصيصة و طَرَسوس ونهرا جيحان وسيحان .

العقد الفريد، ٦/ ٢٥١



أحمد إيبش

لجنة التأليف والترجمة والنشر

كتاب العقد الفريد

تأليف

أبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي

شرحه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته
ورتب فهارسه

أحمد أمين — أحمد الزين — إبراهيم الأبياري

الجزء الأول

الطبعة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٥٩ هـ — ١٩٤٠ م

- ١٣ -

الهَمْداني
الحسن بن أحمد، ابن الحائك
(توفي ٣٣٤ هـ/ ٩٤٥م)

هو الحسن بن أحمد بن يعقوب الهَمْداني، نسبة إلى قبيلة هَمْدان المعروفة في اليمن جنوب الجزيرة العربيّة. ويخلط الكثيرون بينه وبين ابن الفقيه الهَمَذاني (أو الهَمَذاني) الذي تقدّم ذكره والذي تعود نسبته إلى مدينة هَمَذان بإيران (وتُكتب: هَمَذان). كما عُرف الحسن بن أحمد الهَمْداني أيضاً بلقب «ابن الحائك» أو «النسّابة» أو «ابن ذي الدُّمَينة» أو «لسان اليَمَن» لأنه تمكّن من حلّ رموز الكتابة العربيّة القديمة.

وتاريخ ولادته مجهول، ولا يُعرف عن حياته الكثير، وقد أفادنا بمعلومات شخصيّة عن نفسه في كتابه «الإكليل». والمعروف عنه أنه ولد بصنعاء ونشأ بها وزار مكّة وطاف البلاد، ثم اختار «رَيْدَة» وطنا له بعد صنعاء، وفي أواخر حياته اختار الإقامة في «صَعْدة»، وهي من ديار خولان قضاعة، وانتهت حياته نهاية مأساويّة حينما سُجن في زمن الإمام الزيدي أحمد الناصر عام ٣١٥ هـ بسبب مكيدة حاكها له خصومه. وقضى نحبه في سجن صنعاء عام ٣٣٤ هـ.

وفي مصنّفات الهَمْداني ترتسم أمام ناظرينا شخصيّة فذّة لعالم موسوعي وشاعر مُجيد، فقد كان ذا معرفة واسعة في محيط الجغرافيا الفلكيّة وما يتعلّق بها من علوم رياضيّة، وكان على معرفة جيّدة بآثار بطليموس الجغرافي اليوناني. ولم يكن الهَمْداني جغرافياً فحسب، بل وخبيراً كبيراً بأنساب العرب وتاريخ الجزيرة العربيّة، وخاصّة آثارها القديمة. ومما يدعو إلى الدهشة حقّاً أنه استطاع حلّ رموز الكتابة العربية القديمة.

ويقدّم مصنّفه «الإكليل» الذي يقع في عشرة أجزاء الدليل الساطع على سعة معارفه، فقد أفرغ فيه جُماع معرفته بالأنساب والتاريخ والآثار وآداب الحِمْيَرِيين القديمة وأساطيرهم. وقد نال هذا الكتاب من عناية المستشرقين وعلماء الغرب (وأولهم مولر Müller) الشيء الكثير.

والكتاب الآخر الذي اشتهر به الهَمْداني هو «صفة جزيرة العرب»، الذي يجب أن تُفرد له مكانة خاصّة وفريدة بين مصنّفات الأدب الجغرافي العربي، والذي يعتبره المستشرق الألماني شپرنگر Sprenger إلى جانب كتاب المقدسي «أحسن التقاسيم» أقيم ما أنتجه العرب في الجغرافيا. وقد اعتمد فيه الهَمْداني على ملاحظاته الشخصية في وصفه لليَمَن، وعلى ما استقاه من الرحّالين والجغرافيين فيما يتعلّق بوصف بقيّة الجزيرة العربيّة. وقد كرّس القسم الأكبر من كتابه لوصف جزيرة العرب، وذلك على خمسة أبواب رئيسيّة في وصف تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن. وتحتلّ اليمن ومخاليفها بالطبع مكان الصدارة في كتابه، وفيها يُفصّل في الكلام على مساكن قبيلته هَمْدان. وقد أفرد في كتابه قسماً خاصّاً لذكر عجائب اليمن وخصائصها التي لا يشاركها فيها بلد آخر، وبآخره أرجوزة جغرافيّة

ولا يزال كتاب الهَمْداني هذا محتفظاً إلى أيامنا الحاضرة بقيمته العلميّة، وأما في مجال الجغرافيا الإقليمية فإنه يمتاز على جميع مصنّفات القرنين الثالث والرابع للهجرة، ولا يبزّه في القرن الرابع إلا أثر واحد، ذلكم هو كتاب «الهند» للبيروني العظيم.

وأوّل من نبّه إلى كتاب «صفة جزيرة العرب» كان المستشرق الألماني مولر Müller، ونشره محققاً في لايدن بهولاندة عام ١٨٨٤م. ثم توالت طبعاته العربية، ومنها في مطبعة السعادة بالقاهرة عام ١٩٥٣ بتحقيق محمد ابن عبد الله النجدي، ومنها نشرة محمد محيي الدين عبد الحميد بالقاهرة أيضاً عام ١٣٧٣ هـ.

غير أن بلاد الشام لم تنل من عناية الهَمْداني الكثير، ولم يخصّها في كتابه المذكور بأكثر من الإلماحة السريعة التي ننقلها أدناه. وقد رجعنا فيها إلى طبعة الأستاذ محمد بن علي الأكوَع، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء ١٩٨٣.

المصادر:

معجم الأدباء لياقوت الحموي ٣/ ٩

إنباه الرواة للقفطي ١/ ٢٩٧

صفة جزيرة العرب للهَمْداني، مقدّمة الأكوَع

كتاب الإكليل للهَمْداني، مقدّمة الأكوَع

تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ١/ ١٧٠

الرحلة والرحّالة المسلمون لأحمد رمضان ٩٥

من فصل
معرفة أطوال مدن العرب
المشهورة وعروضها

وعـرض مكّة عن الفـزاري ثلاث وعـشـرون درجـة وثُلث، وعن حَبَش إحدى وعشرون درجة وهو أقمن[1]، وطولها عن الفزاري مئة وستّ عشرة درجة من المشرق، وعن حبش مئة وعشر، وقال بعض أهل صنعاء: مئة وعشرون، وهو أحرى.

وقال حبش: طول المدينة مئة وثماني عشرة، وعرضها درج الميل أربع وعشرون، والفـزاري يقول: عرضها ثلاثون إلا كسراً، وذلك ما لا يوجد.

وقال: إن طول بيت المقَدْس مئة وسبع وعشرون، وعرضه إحدى وثلاثون درجة وخمسة أسداس درجة.

دمشق: طولها مئة وأربع وعشرون درجة، والعرض ثلاث وثلاثون درجة.

صفة جزيرة العرب للهمداني ٨٢

(١) أقمن: أي أجدى وأجدر، والقمين: الجدير.

- ١٤ -

سُهراب

سهراب بن سرابيون

(توفي بعد ٣٣٤ هـ/ ٩٤٥ م)

جغرافي من أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع للهجرة، يكاد لا يُعرف شيء عن حياته، ويحيط باسمه الكثير من الغموض والإبهام، وفي المخطوطة الفريدة لمصنّفه الموجودة بالمتحف البريطاني (التي نُسخت عام ٧٠٩ هـ) يدعو المؤلّف نفسه في المقدّمة باقتضاب: «أفقر الورى سُهراب». وقد ساد خلط كبير حول اسمه، فأطلق عليه البعض اسم «ابن سرابيون» خالطين بينه وبين الطبيب المعروف في ذلك العصر، بينما دعاه البعض الآخر «أبا الحسن ابن البهلول». ويتّجه الباحث نفيس أحمد إلى أن سهراب مصري الأصل من الأقباط، كما ينبغي لنا الإشارة إلى أن اسم «زوهراب» اسم مألوف تماماً في الثقافة الأرمنيّة. ولا يزال الشك يعتور عنوان الكتاب نفسه وهو «كتاب عجائب الأقاليم السبعة»، ذلك أن الكتاب لا يوجد به أي ذكر للعجائب. وربما كان ناشر الكتاب (فون مْجِيك) محقّاً في قوله إن اسم الكتاب هو ببساطة «كتاب الأقاليم السبعة».

وهذا الكتاب هو الأثر الوحيد المعروف عن سُهراب، وهو ينمّ بوضوح كبير على أن مؤلّفه كان أحد جغرافيي المدرسة اليونانيّة أصحاب الزيوج (وهي الجداول الجغرافيّة المبيّنة لقيم الطول والعرض بالدرجات والدقائق)، وهو فوق ذلك نسخة مطوّرة لكتاب العلاّمة الخوارزمي الشهير «صورة الأرض»، الذي كان تأثيره على العلوم العربية هائلاً في ذلك العصر. ويرى كراتشكوفسكي أن كتاب سُهراب يكمّله ويقترب منه اقتراباً شديداً، بحيث يمكن اعتباره مسوّدة أخرى للخوارزمي. ويبدو ذلك جليّاً في النصّ الذي سنقدّمه عن دمشق، وفيه يعتمد سهراب على زيج الخوارزمي فينقل منه قيم الطول والعرض للأقاليم والمدن (بحسب طريقة حساب الجُمَّل)، ويعطي لكل مدينة رقماً تسلسلياً بحسب تصنيفه الخاص ثم يردفه بالرقم الوارد في تصنيف الخوارزمي.

أما تاريخ تأليف الكتاب فيمكن تحديده وفقاً للاستقراء الداخلي لمادّته بين عامي ٢٨٩ - ٣٣٤ هـ، أي قبل دخول البويهيين بغداد. ويكشف المؤلّف عن معرفة جيّدة بالعراق بحيث لا يرقى الشك إلى أنه عاش بها، وكان معاصراً لأبي زيد البلخي مؤسّس المدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب، ولكنه يمثّل اتجاهاً مخالفاً لمذهب تلك المدرسة، فمصنّفه استمرار للمذهب اليوناني في الجغرافيا ولو بطريقة تخالف بعض الشيء طريقة «صورة الأرض» للخوارزمي.

وتتمثّل الأهمية الرئيسيّة لكتاب سهراب في اتساع المادة المستقاة من المصادر العربية، ويبدو أن غرضه كان إضافة مادّة جديدة إلى ما جمعه الخوارزمي قبل قرن مضى. وينطبق ذلك بالدرجة الأولى على الأنهار والجبال، وكذلك وصف المؤلّف شبكة قنوات بغداد بصورة وافية مما

استرعى أنظار المستشرق الفرنسي كي لوسترانج Guy Le Strange في القرن الماضي وزوّده بمادّة جوهريّة في وضع وصفه التخطيطي بأرض السواد وقتذاك، فنشر ما يتعلّق بأنهار العراق في المجلة الآسيوية (J.A.) عام ١٨٩٥ . كما تزوّدنا مقدّمة كتاب سهراب بتفاصيل جوهريّة تساعد في وضع خارطة مسطّحة مربّعة اعتماداً على مادّة الكتاب نفسه .

ويعود الفضل في نشر كتاب «عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة» إلى المستشرق النمساوي هانز فون مْجِيْك Hans Von Mzhik ، الذي نشره في مطبعة آدولف هُولتس هاوزن بڤيينّا عام ١٩٢٩ ، مع مقدّمة باللغة الألمانية. وعن هذه الطبعة أخذنا النص المتعلّق بدمشق .

وقبل اختتام هذا البحث يجدر بنا الإشارة إلى معاصر الخوارزمي الأصغر، وهو فيلسوف العرب الشهير يعقوب الكندي (المتوفى حوالي عام ٢٦٠هـ). غير أن كتابه «رسم المعمور من الأرض» الذي أشار إليه المسعودي قد فُقد مع الأسف ولم يصل إلينا .

المصادر :

عجائب الأقاليم السبعة لسُهراب، مقدّمة فون مجيك

تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوڤسكي ١/ ١٠٣– ١٠٥

جهود المسلمين في الجغرافيا لنفيس أحمد ٤٩

من فصل
الإقليم الرابع
وهو بابل والعراق

وله من الكواكب الشمس ومن البروج الثور والميزان

العدد	العدد عند الخوارزمي*	أسماء المدن	العرض درج	العرض دقائق	الطول درج	الطول دقائق
[١٧٤]	(٢٦٢)	مدينة بيروت	يط	ل	لد	o
[١٧٥]		مدينة آمـد	سد	م	لد	م
[١٧٦]	(٢٦٠)	مدينة صور على البحر	نط	يه	لح	م
[١٧٧]	(٢٦٩)	مدينة دمشق على جبل **	س	o	لب	o
[١٧٨]	(٢٦٣)	مدينة جُبيل	س	o	لد	o
[١٧٩]	(٢٦٦)	مدينة طرابلس على البحر	س	له	لد	o
[١٨٠]	(٢٦٧)	مدينة اللاذقيّة	سا	o	لح	ل
[١٨١]	(٢٧٠)	مدينة حمص	سا	o	لد	o

عجائب الأقاليم السبعة ٢٤ - ٢٥

من فصل
الأنهار الكبار المنعوتة

معرفة نهر بردى وهو نهر دمشق

وذلك أن أوّله من جبل الثلج عند طول (سا ه) وعرض (لح ه)***
[١٥٥٨] يمرّ ماداً متّصلاً بجبل الثلج فيمرّ الجبل والنهر مادّين إلى مدينة دمشق، ويسقي هذا النهر ضياع دمشق والغوطة ويصبّ في جوف دمشق في بحيرة فيها.

عجائب الأقاليم السبعة ١٤٤

* - أثبت سهراب هذه الأرقام التسلسليّة في جداوله الجغرافيّة (زيجه) تحت عنوان: العدد كما تجده في كتاب صورة الأرض للخوارزمي. أنظر: عجائب الأقاليم السبعة ١٢.

** - شرح المؤلّف في مقدّمة كتابه طريقة اختزاله لقيم درجات ودقائق الطول والعرض للمدن الواردة في زيجه، وذلك بحسب اسلوب «حساب الجُمَّل» المعروف في علوم الروحانيّات وفي التأريخ الشعري. وعلى ذلك يكون حساب الموقع الجغرافي لمدينة دمشق كما يلي: الطول = ٦٠ درجة، حيث (س = ٦٠)؛ والعرض = ٣٢ درجة، حيث (لب = ٣٠ + ٢). وأما الرمز Ω الوارد في حقل الدقائق فهو رمز قيمة الصفر.

*** - القيمة حسب ما تقدّم أعلاه تعادل: الطول = ٦١ درجة و٥ دقائق، حيث (سا = ٦٠+١، ه = ٥)؛ العرض = ٣٨ درجة و٥ دقائق، حيث (لح = ٣٠ + ٨).

كتاب عجائب الأقاليم السبعة الى نهاية العمارة

وكيف هيئة المدن وإحاطة البحار بها وتشقق أنهارها
ومعرفة جبالها وجميع ما وراء خط الاستواء والطول
والعرض بالمسطرة والحساب والعدد والبحث على جميع ما ذكر

تصنيف

سهراب

وقد اعتنى بنسخه وتصحيحه

هانس فون مژيك

طبع في مدينة ڤينا الجليلة
بمطبعة آدولف هولزهوزن
سنة ١٣٤٧ هـ وهي ١٩٢٩ م.

- ١٥ -

قُدامة بن جعفر
أبو الفَرَج الكاتب البغدادي
(توفي حوالي ٣٣٧ هـ/ ٩٤٨م)

أبو الفرج قُدامة بن جعفر البغدادي، كاتب من البلغاء الفصحاء المتقدّمين في علم المنطق والفلسفة. آرامي الأصل من عائلة تقيم في البصرة، أسلم على يدي الخليفة العبّاسي المكتفي باللّه، وتنعكس على مؤلّفاته آثار الفلسفة اليونانيّة. وقد برع في علوم الجغرافيا، وشغل في أواخر حياته منصب صاحب البريد. وتاريخ وفاته غير معروف على وجه التحديد، ويتراوح ما بين عامي ٣١٠ - ٣٣٧ هـ.

ألّف كتاب «الخَراج وصنعة الكتابة»، وهو ليس مصنّفاً جغرافيّاً بالمعنى الدقيق، وإنما أعدّه ليكون عوناً للكتّاب في الدواوين العبّاسية، وقد ضمّنه معلومات جغرافيّة واقتصاديّة مهمّه عن العالم الإسلامي في القرن الثالث. وقد تمّ تأليفه على ما يبدو حوالي عام ٣١٦ هـ، وكان يتكوّن من ثمانية أقسام لم يصلنا منها سوى أربعة فقط تمثّل الجزء الثاني من الكتاب، وقد نُشر من بينها الشطر الذي يتعلّق بالخَراج. وهذا الجزء المنشور يذكّر بكتاب ابن خُرداذبه «المسالك والممالك» من حيث المضمون.

ولقدامة أيضاً مؤلّفات هامّة في الأدب، وكان يُضرب به المثل في البلاغة. ومن هذه المؤلّفات: «نقد الشعْر» و«نقد النثر» ويُعرف أيضاً باسم «كتاب البيان»، ومنها أيضاً: «جواهر الألفاظ» و«السياسة» و«البلدان» و«زهر الربيع» في الأخبار والتاريخ، و«نزهة القلوب» و«الردّ على ابن المعتزّ فيما عاب به أبا تمّام».

وأمّا «كتاب الخَراج» فقد نشر منه نُبذاً المستشرق الهولندي دى خُوْيّه M. J. De Goeje، وألحقها بنشرته لكتاب «المسالك والممالك» لابن خرداذبه، الصادر عام ١٨٨٩م في لايدن بهولاندة، كما مرّ بنا.

وقد ذكر قُدامة فتح مدينة دمشق في كتاب الخَراج، ويتبيّن بجلاء أنه قد نقل ما كتبه عنها حرفياً من «فتوح البلدان» للبلاذُري، بعد أن حذف أسانيد الرواة من الأخبار.

ولقد قمنا بنقل النصوص المتعلّقة بالطرق والمسافات الخاصة بدمشق من النّبذ التي نشرها دى خُوْيّه من كتاب الخَراج، ثم أردفنا ذلك بالنص المتعلّق بفتح دمشق نقلاً عن نشرة أستاذنا الدكتور صلاح الدين المنجّد، التي اعتمد فيها مخطوطة كتاب الخَراج المحفوظة في مكتبة كوپريلي Köprülü باسطنبول (برقم: ١٠٧٦)، وفي هذه المخطوطة أكثر مما جاء في نشرة دى خُوْيّه، إلا أنها لم تُنشر حتى الآن، ولا يتعدّى ما نشره المنجّد منها النصّ الخاص بفتح دمشق، والذي لا يقدّم الجديد بدوره على اعتباره منقولاً بالحرف عن البلاذري كما تقدّم.

المصادر:

معجم الأدباء لياقوت الحموي ٦/ ٢٠٣

الفهرست لابن النديم ١٣٠

المنتظم لابن الجوزي ٦/ ٣٦٣

النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٣/ ٢٩٧

مقدّمة دى خُوْيّه بالفرنسية على ما نشره من كتاب الخراج لقُدامة، بذيل كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه

تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ١/ ١٦٥

مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجّد ٥٥

جهود المسلمين في الجغرافيا لنفيس أحمد ٥١

الرحلة والرحّالة المسلمون لأحمد رمضان ٦٣

C.Brockelmann: Geschichte der Arabische Litteratur; Supp. I, S. 228.

الطريق الآخذ إلى أكناف نواحي المغرب[1]

من بغداد إلى البردان سكّتان، ومن بردان إلى عكبرا أربع سكك، ومن عكبرا إلى سُرّ من رأى سبع سكك، ومن سرّمن رأى إلى جبلتا سبع سكك، ومن جبلتا إلى السنّ عشر سكك، ومن السنّ إلى الحديثة تسع سكك، ومن الحديثة إلى الموصل سبع سكك، ومن الموصل إلى أول عمل بلد سكّة، ومن آخر عمل الموصل إلى سكّة بلد ثلاث سكك، ومن بلد إلى اذرمة تسع سكك، ومن اذرمة إلى نصّيبين ستّ سكك، ومن نصّيبين إلى كفر توثا ثلاث سكك، ومكن كفر توثا إلى راس عين عشر سكك، ومن راس عين إلى الرقّة خمس عشرة سكّة، ومن الرقّة إلى النقيرة آخر عمل ديار مضر عشر سكك، ومن النقيرة إلى منبج خمس سكك، ومن منبج إلى حلب تسع سكك، ومن حلب إلى قنّسرين ثلاث سكك، ومن قنّسرين إلى أول عمل حمص سكّة واحدة، ومن سكّة المرج وهي أول سكّة تلي عمل قنّسرين إلى صوران سبع سكك، ومن صوران إلى حماة سكّتان، ومن حماة إلى حمص أربع سكك، ومن حمص إلى المحمّدية أربع سكك، ومن المحمّدية إلى بعلبك خمس سكك، ومن بعلبك إلى دمشق تسع سكك، ومن دمشق إلى دير أيّوب آخر عملها سبع سكك، ومن دير أيّوب إلى طبريّة ستّ سكك، ومن طبريّة قصبة الأردن إلى اللجون من عمل الأردن أربع سكك، ومن اللجون إلى الرّملة قصبة فلسطين تسع سكك، ومن الرّملة إلى آخر عمل فلسطين وهي سكّة المعينة تسع سكك، ومن

---

(١) تقدّم القول أن الشام بالنسبة لبلاد فارس والعراق تقع إلى الغرب، ومن هنا التسمية.

سكّة المعينة إلى آخر طريق الجفار وهي سكّة الداروورة سبع عشرة سكّة .

كتاب الخراج ، ٢٢٨

من الباب الرابع
في الجبال

وأما الإقليم الرابع ففيه أربعة وعشرون جبلاً ، منها جبل الثلج[١] بدمشق وطوله ثلاثة وثمانون ميلاً ، وجبل سنير[٢] من هذه الناحية وطوله خمسة وأربعون ميلاً ، وجبل اللكّام[٣] بهذه الناحية طوله مائة ميل .

كتاب الخَراج ٢٣٢

---

(١) - جبل الثلج هو المعروف في أيامنا بالحرمون أو جبل الشيخ .

(٢) - جبل سنير هو سلسلة لبنان الشرقية Antilibanus ، ويتبع له القلمون وجبل قاسيون..

(٣) - جبل اللكام هو المعروف في أيامنا بجبل الأقرع Amanus.

من الباب السادس
في مملكة الإسلام وأعمالها وارتفاعها

ثم يلي ذلك أعمال حمص من الشام وارتفاعه[1] مائة ألف وثمانية عشر ألف دينار، ثم يلي ذلك أعمال جند دمشق من الشام وارتفاعه مائة ألف وعشرة آلاف دينار، ثم أعمال جند الأردن من الشام وارتفاعها مائة ألف وتسعة آلاف دينار، ثم أعمال جند فلسطين من الشام ومدينة الرملة وبيت المقدس وارتفاعها من العين مائة ألف وخمسة وتسعون ألف دينار.

تفصيل ذلك عيناً وورقاً[2]

جند حمص: مائتي ألف وثمانية عشر ألف دينار.
جند دمشق: مائة ألف وعشرة آلاف دينار.
جند الأردن: مائة ألف وتسعة آلاف دينار.
جند فلسطين: مائتي ألف وتسعة وخمسين ألف دينار.

كتاب الخراج ٢٤٦، ٢٥١

---

(١) الارتفاع هنا مصطلح مالي يريد به الكاتب نسبة الخَراج السنوي المؤدى للعاصمة بغداد.
(٢) العَيْن هو الذهب المضروب من السكّة خلاف الورَق، والورِق هي الفضة. وكانت في عصر المؤلف تضرب الدنانير من الذهب (العين)، والدراهم من الفضّة (الورِق).

الثغور البحريّة

وسواحل جند دمشق : عرقة طرابلس وجُبيل وبيروت وصيدا وحصن الصَرَفَنْد وعدنون .

كتاب الخَراج ٢٥٥

من الباب الحادي عشر
في ديوان البريد والسكك
والطرق إلى نواحي المشرق والمغرب

طريق دمشق من الرصافة

من الرقّة إلى الرصافة ثمانية فراسخ ، ومن الرصافة طريقان أحدهما إلى دمشق في البرّية وآخر على حمص في العمران . فأمّا طريق العمران : فمن الرصافة إلى الزرّاعة أربعون ميلاً ، ومن الزرّاعة إلى قسطل ستة وثلاثون ميلاً ، ومن قسطل إلى سلميّة ثلاثون ميلاً ، ومن سلميّة إلى حمص أربعة وعشرون ميلاً ، ومن حمص إلى شمسين الشعر ثمانية عشر ميلاً ، ومن شمسين إلى قارا إثنان وعشرون ميلاً ، ومن قارا إلى النبك إثنا عشر ميلاً ، ومن النبك إلى القطيفة عشرون ميلاً ، ومن القطيفة إلى دمشق أربعة

وعشرون ميلاً .

فأما طريق البرّية من الرصافة إلى دمشق : فمن الرصافة إلى الخربة واسمها بطلاميا خمسة وثلاثون ميلاً ، ومن بطلاميا إلى العذيب أربعة وعشرون ميلاً ، ومن العذيب إلى نِهْيا عشرون ميلاً ، ومن نهيا إلى القريتين عشرون ميلاً ، ومن القريتين إلى جرود ستة وثلاثون ميلاً ، ومن جرود إلى دمشق ثلاثون ميلاً .

ومن سلميّة إلى دمشق في طريق يُعرف بالأوسط : من سلميّة إلى فرعايا ثمانية عشر ميلاً ، ومن فرعايا إلى ماء شريك عشرون ميلاً ، ومن ماء شريك إلى صَدَد ثمانية عشر ميلاً ، ومن صدد إلى النبك خمسة وثلاثون ميلاً .

ومن حمص أيضاً إلى دمشق على طريق البقاع : من حمص إلى جوسية ثلاثة عشر ميلاً ، ومن جوسية إلى إيعاث عشرون ميلاً ، ومن إيعاث إلى بعلبك ثلاثة أميال ، ومن بعلبك يسرة على جبل يسمّى رمى خمسون ميلاً . ومن أخذ من بعلبك إلى طبريّة على طريق الدراج : فمن بعلبك إلى عين الجرّ عشرون ميلاً ، ومن عين الجرّ إلى القرعون وهو منزل في بطن الوادي خمسة عشر [ميلاً] ، ومن قرعون إلى قرية يقال لها العيون تمضي إلى كفر ليلى عشرون ميلاً ، ومن كفر ليلى إلى طبريّة خمسة عشر ميلاً ، وفي هذا الطريق جبّ يوسف عليه السلام .

كتاب الخراج ٢١٨

وإن أخذ الطريق إلى جبال الأردن من دمشق: فالطريق المستقيم من دمشق إلى الكسوة إثنا عشر ميلاً، ومن الكسوة إلى جاسم أربعة وعشرون ميلاً، ومن جاسم إلى افيق أربعة وعشرون ميلاً، ومن افيق إلى طبريّة ستة أميال. ثم من طبريّة يفترق الطريق إلى الرملة فرقتين: فمن طبريّة إلى اللجون على الطريق المستقيم عشرون ميلاً. والطريق الآخر على بيسان ستة عشر ميلاً، ثم إلى اللجون ثمانية عشر ميلاً، ثم من اللجون إلى قلنسوة على وادي عارا - وفيه سباع - عشرون ميلاً، ومن قلنسوة إلى الرملة أربعة وعشرون ميلاً.

كتاب الخَراج ٢١٩

* * * * *

فتح مدينة دمشق

لمّا فرغ المسلمون من قتال مَن اجتمع لهم بمرج الصفّر، وكان اجتمع لهم من الروم جمعٌ عظيم ولقوهم بهذا المرج، أوّل يومٍ من المحرّم سنة أربع عشرة، أقاموا بعد ذلك خمس عشرة ليلة، ثم رجعوا إلى مدينة دمشق لأربع عشرة ليلة بقيت من المحرّم سنة أربع عشرة، فأخذوا [١١٩ب] الغوطة وكنائسها عَنوة. وتحصّن أهل المدينة وأغلقوا أبوابها. فنزل خالد بن الوليد على الباب الشرقي في زهاء خمسة آلاف ضمّهم إليه أبو عُبيدة بن الجرّاح. وسُمِّي الديرُ الذي نزل خالد عنده «دير خالد». ونزل عمرو بن العاص على باب توما. ونزل شُرَحْبيل على باب الفراديس. ونزل أبو عبيدة على باب الجابية. ونزل يزيد بن أبي سُفيان على الباب الصغير إلى الباب الذي يُعرف بكَيْسان. وجُعل أبو الدرداء عويمر بن عامر الخزرجي على مَسْلَحَةٍ ببَرْزَة.

وكان الأسقف الذي أقام لخالد النُزل في بداية ربما وقف على السور فيدعو به خالد، فإذا أتى سلَّم على خالد وحادثه. فقال له الأسقف ذات يوم: يا أبا سُليمان! إنّ أمركم مقبلٌ، ولي عليك عدّة، فصالحني عن هذه المدينة، فدعا خالد بدواة وقرطاس فكتب فيه:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها: أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا تُهدم ولا يُسكن شيء من دورهم. لهم بذلك عهد اللّه وذمّة رسوله، صلّى اللّه عليه، والخلفاء والمؤمنين، لا يُعرضُ لهم إلا بخير إذا

أعطوا الجزية» .

ثم إن بعض أصحاب الأسقف أتى خالداً في ليلة من الليالي فأعلمه أنها ليلة عيد لأهل المدينة، وأنهم في شُغل، وأنّ الباب الشرقي قد رُدم بالحجارة وتُرك، وأشار [١٢٠ آ] عليه بأن يلتمس سُلّماً يصعد عليه. فأتاه قوم من أهل الدير بسُلّمين فرقى جماعة من المسلمين عليهما إلى أعلى السور، ونزلوا إلى الباب وليس عليه أحد إلا رجل أو رجلان. فتعاونوا عليه ففتحوه، وذلك عند طلوع الشمس.

وقد كان أبو عُبيدة بن الجرّاح عانى فتح باب الجابية، وأصعد جماعة من المسلمين على حائطه، فانصبّت مقاتلةُ الروم إلى ناحيته، فقاتلوا المسلمين قتالاً شديداً، ثم إنّهم ولّوا مدبرين. وفتح أبو عُبيدة والمسلمون معه باب الجابية عَنوةً، ودخلوا منه. فالتقى أبو عبيدة وخالد بالمقْسِلاّط، وهو موضع النحّاسين بدمشق، الذي يسمّى البَرِيْص، وذكره حسّان بن ثابت في شعره فقال:

يَسقُونَ مَنْ وَرَدَ البَرِيْصَ عليهمُ ... بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرَّحيقِ السَّلْسَلِ

وقد رُوي أن الروم أخرجوا ميّتاً لهم من باب الجابية، وقد أحاط بجنازته خلقٌ من شجعانهم وكُماتهم، وانصبّ سائرهم إلى الباب فوقفوا عليه ليمنعوا المسلمين من فتحه ودخوله إلى رجوع أصحابهم من دفن الميّت، وطمعوا في غفلة المسلمين عنهم، وإنّ المسلمين بدروا بهم، فقاتلوهم على الباب أشدّ قتال وأبرحه حتى فتحوه في وقت طلوع الشمس.

فلمّا رأى الأسقف أن أبا عُبيدة قد قارب دخول المدينة بدر إلى خالد فصالحه وفتح له الباب الشرقي، فدخل والأسقف معه ناشراً [١٢٠ب] كتابه الذي كتبه له. فقال بعض المسلمين: والله ما خالد بأمير، فكيف يجوز صلحه؟ فقال أبو عبيدة: إنه يجيز على المسلمين أدناهم. وأجاز صلحه وأمضاه، ولم يلتفت إلى ما فُتِح عنوة، فصارت دمشق كلها صلحاً. وكتب أبو عبيدة بذلك إلى عمر فأنفذه، وفُتحت أبواب المدينة فالتقى القوم جميعاً.

وحكى أبو عبيد القاسم بن سلاّم أن حسان بن مالك خاصم عجم أهل دمشق في كنيسة أقطعه كل واحد من الأمراء إياها. فقال عمر: إن كانت من الخمس العشرة الكنيسة التي في عهدهم فلا سبيل لغيرهم عليها.

وقالوا: إنه لمّا وُلّي معاوية بن أبي سفيان أراد أن يزيد كنيسة يوحنّا في المسجد الجامع بدمشق. فأبى النصارى ذلك، فأمسك. ثم طلبها عبد الملك بن مروان في أيامه لمثل ما كان طلبها معاويّة، وبذل لهم مالاً، فأبَوا أن يُسلّموها إليه.

ثم إنّ الوليد بن عبد الملك جمعهم في أيامه، وبذل لهم مالاً عظيماً على أن يعطوه إيَّاها، فأبَوا. فقال: لئن لم تفعلوا لأهدمنّها. فقال بعضهم: يا أمير المؤمنين! إنّ من هدم كنيسةً جُنّ. فأحفظه ذلك حتى دعا بمعول، فجعل يهدم بعض حيطانها بيده، وكان عليه قباء خزٍّ أصفر. ثم جمع الفَعَلَة فهدمها، وأدخلها في المسجد.

فلما استُخلف عمر بن عبد العزيز شكا إليه النصارى ما فعل الوليد. فكتب إلى عامله يأمره بردّ ما زيد في المسجد منها [١٢١آ] عليهم. فكتب إليه أن أهلُ دمشق قد كرهوا ذلك وقالوا: يُهدم مسجدنا بعد أن أذَّنا

فيه وصلّينا ويُرَدُّ بيعةً ؟ . وفيهم يومئذ سليمان بن حبيب المحاربي وغيره من الفقهاء . وأقبلوا على النصارى فسألوهم أن يُعوّضوا منها ردّ جميع كنائسهم بالغوطة التي أخذت منهم عَنوةً وصارت في أيدي المسلمين ، على أن يصفحوا عن كنيسة يوحنّا ، ويُمسكوا عن المطالبة بها . فرضوا بذلك وأعجبهم . فكتب به إلى عمر ، فسرّه وأمضى الأمر فيه .

وفي المسجد الجامع في الرواق القبلي مما يلي المئذنة ، كتابٌ في رخامة بقرب السقف : «مما أمر ببنائه أمير المؤمنين الوليد سنة ست وثمانين» .

وكانت الجزية بالشام في بدءِ الأمر على كل جمجمة جَرِيباً وديناراً ، حتى وضعها عمر بن الخطّاب على أهل الذهب أربعة دنانير ، وعلى أهل الوَرِق أربعين درهماً . ثم جعلهم طبقات على قدر غنى الغني وإقلال المقلّ وتوسّط المتوسط . وكانت اليهود بالشام كالذمّة للنصارى ، يؤدّون إليهم الخراج فدخلوا في الصلح معهم .

ثم أتى يزيد بن أبي سفيان بعد فتح مدينة دمشق صيدا وعِرْقَة وجُبَيْل وبيروت ، وهي سواحل دمشق ، وعلى مقدّمته أخوه معاوية ، ففتحها فتحاً يسيراً وجلا كثيراً من أهلها . وتولّى فتح عِرْقَة معاوية نفسه .

ثم إنّ الروم غلبوا على بعض هذه السواحل في آخر خلافة عمر وأول خلافة عثمان . فقصد لهم معاوية [١٢١ب] حتى فتحها ، ثم رمَّها وشحنها بالمقاتلة ، وأقطعهم القطائع .

كتاب الخَراج ، مخطوطة كوپريلي
نقلاً عن د . المنجّد

BIBLIOTHECA GEOGRAPHORUM ARABICORUM

EDIDIT

M. J. DE GOEJE.

PARS SEXTA.

KITÂB AL-MASÂLIK WA'L-MAMÂLIK

AUCTORE

Abu'l-Kâsim Obaidallah ibn Abdallah

IBN KHORDÂDHBEH

ACCEDUNT EXCERPTA E

KITÂB AL-KHARÂDJ

AUCTORE

Kodâma ibn Dja'far.

LUGDUNI-BATAVORUM
APUD E. J. BRILL.
1889

- ١٦ -

الإصطخري
ابراهيم بن محمّد الفارسي
(توفي ٣٤٦ هـ/ ٩٥٧م)

الإصطخري، أبو إسحاق الفارسي الكرخي، جغرافي رحّالة من العلماء وأحد أبرز شخصيّات المدرسة الكلاسيكيّة لجغرافيي القرن الرابع الهجري.

نشأ بإصْطَخْر في أواسط إيران من بلاد فارس، وتحوّل إلى دار السلام بغداد، وقام بسياحة طاف بها بلاد العرب وبعض بلاد الهند، وبلغ الأقيانوس الأطلسي، واستعان بكتاب «صور الأقاليم» لأبي زيد البلخي، ولم تكن مصادر علم البلدان موفورة في عصره. حيث أن أول من دوّن علم الجغرافيا عند العرب على نحو ما عند اليونان هو أبو زيد البلخي الذي ألّف في أوائل القرن الرابع الهجري كتابه «صور الأقاليم» كما مرّ بنا.

كان الإصطخري محبّاً للأسفار والرحلات، سافر وحقّق بنفسه كثيراً من مواقع البلاد والبحار وتأكّد من وصفها. ويتّضح من مطالعة كتابه أنّه قد سافر كثيراً فزار بلاد ما وراء النهر وإيران موطنه الأصلي والشام ومصر.

ويُعتبر الإصطخري تلميذاً لأبي زيد البلخي ومعاصراً له، وقد نهج أسلوب استاذه عندما ألّف كتابه «المسالك والممالك»، وأنهى أول مسوّدة له والبلخي على قيد الحياة وذلك حوالي عام ٣١٨ - ٣٢١ هـ، غير أن كتابه قد انتشر في الشرق بوجه خاص على هيئة طوامير ترتفع إلى المسوّدة التي عُملت حوالي عام ٣٤٠ هـ.

والإصطخري كغيره من جغرافيي مدرسة القرن الرابع الهجري يقتصر على وصف العالم الإسلامي وحده مقسّماً إيّاه إلى عشرين إقليماً، متّبعاً في ذلك خطّة أستاذه البلخي. ويبدأ في كتابه بوصف جزيرة العرب وبحر فارس مع المحيط الهندي والمغرب مع الأندلس وصقلية، ومصر والشام وبحر الروم والجزيرة والعراق وإيران الجنوبيّة والهند وإيران الوسطى والشمالية، مع أرمينيا وأذربيجان وبحر الخزر، ويختتم كلامه بوصف بلاد ما وراء النهر. ووصف كل قسمٍ على حدة، مع ذكر للبلاد والمدن وتجاراتها ومزارعها وصناعة أهلها وحرفهم.

وقد فصّل في مقدّمة كتابه منهجه واسلوبه فقال: «إنّي ذكرت في كتابي هذا أقاليم الأرض على الممالك، وقصدت منها بلاد الإسلام بتفصيل مدنها وتقسيم ما يعود بالأعمال المجموعة إليها. ولم أقصد الأقاليم السبعة التي عليها قسمة الأرض، بل جعلتُ كل قطعة أفردتها مفردة مصوّرة تحكي موضوع ذلك الإقليم».

ومن أهم ما يميّز كتاب «المسالك والممالك» أن الإصطخري قد وضّحه بالخرائط المفصّلة، التي نبيّن أهمّها إلى جانب النصوص التي ننقلها هنا عن دمشق. وكان الإصطخري في كتابه قد قسم البلاد إلى ٢٠ إقليم كما ذكرنا، فجعل لكل إقليم خارطة دوّن فيها خطوط الطول والعرض، ثم

وضع خارطة شاملة سمّاها «صورة الكلّ»، وجميع هذه الصور مجدولة بالألوان ضمن قواعد مخصوصة بكل لون. والجدير بالذكر أن النسخة الأولى من كتاب الإصطخري تُعرف باسم: «كتاب الأقاليم»، وتقتصر على ١٩ مصورًّ (خريطة)، نشرها المستشرق مولر.

وكان لكتاب الإصطخري تأثير كبير لم يقف عند حدّ الأدب العربي وحده، بل ظهرت له ترجمات فارسية وتركية. وكان هذا الكتاب باعثاً للجغرافي ابن حوقل على تأليف كتابه الشهير «المسالك والممالك»، والذي أضاف إليه أيضاً مصوّرات جغرافيّة على نسق ما فعل أستاذه الإصطخري. وهذا ما سنراه في ترجمة ابن حوقل في حينه.

وأول من نشر «المسالك والممالك» المستشرق مولر Müller بمقدّمة لاتينية عام ١٨٣٩م، وذلك تحت عنوان «كتاب الأقاليم». ثم أعاد نشره المستشرق الهولندي دى خُويّه De Goeje في لايدن بهولاندة عام ١٨٧٠م ضمن سلسلة المكتبة الجغرافية العربية (الجزء الأول). ثم طُبع للمرة الثانية في لايدن عام ١٩٢٧م. وأعيد نشر الكتاب في مصر عام ١٩٦١ بتحقيق محمد جابر الحيني وشفيق غربال.

هذا وقد ورد ذكر دمشق في كتاب الإصطخري، ونصّه يشبه ما ورد عند البلخي. وقد رجعنا فيه إلى كتاب «الأقاليم» بتحقيق مولر Müller، وكتاب «المسالك والممالك» بتحقيق الحيني وغربال.

المصادر :

كتاب الأقاليم للإصطخري، مقدّمة مولر
المسالك والممالك للإصطخري، مقدّمة دى خُويْه
المسالك والممالك للإصطخري ، مقدّمة الحيني
هدية العارفين لاسماعيل باشا البغدادي ١/ ٦
تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ١/ ١٩٩
دائرة المعارف الإسلامية، مادة الإصطخري ٢/ ٢٥٦
الرحّالة المسلمون في العصور الوسطى لزكي محمد حسن ٣٦
جهود المسلمين في الجغرافيا لنفيس أحمد ٥٣
مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجّد ٦٢
الرحلة والرّحالة المسلمون لأحمد رمضان ٧٩.
العراق في الخوارط القديمة لأحمد سوسة ١٧

دمشق

وأما جُنْد دمشق فإن قصبتها مدينة دمشق. وهي أجلّ مدينة بالشام كلها، وهي في أرض واسعة بين جبال تحيط بها مياهكثيرة، وأشجار وزروع متّصلة، وتسمى تلك البقعة الغُوطة، عرضُها مرحلة في مرحلتين ليس في الشام مكان مثله.

ويخرج ماؤها من تحت كنيسة يقال لها الفيجة، وهو أول ما يخرج يكون ارتفاعه ذراعاً في عرض باع، ثم يجري في شعب تتفجّر منها العيون، فيأخذ منه نهر عظيم أجراه يزيد بن معوية بعرض الدجلة، ثم يستنبط منه نهر المزّة، ونهر القناة، ويظهر عند الخروج من الشعب بموضع يقال له النيرب. ويقال إنه المكان الذي قال اللّه عزّوجلّ فيه: ﴿ وآويناهما إلى ربوةٍ ذاتِ قرارٍ مَعين ﴾.

ثم يبقى من هذا الماء عمود النهر، ويسمّى بردا، وعليه قنطرة في وسط مدينة دمشق، لا يعبره الراكبُ غزارةً وكثرةً. فيفضي إلى قرى الغُوطة، ويجري في سككهم وعامّة دورهم وحمّاماتهم.

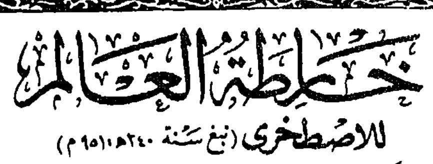
وبها مسجد ليس في الإسلام أعمر ولا أكبر بقعة منه. وأما الجدار والقبّة التي فوق المحراب من عند المقصورة فمن بناء الصابئين لصلواتهم، ثم صار في أيدي اليونانيين، فكانوا يعظّمون فيه دينهم، ثم صار إلى ملوك عبدة الأوثان. فقُتل في ذلك الزمان يحيى بن زكريّا عليه السلام ونُصب رأسه على باب هذا المسجد، الباب المعروف بباب جيرون. ثم تغلّب عليها النصارى، فصار في أيديهم كنيسة حتى جاء الإسلام، فاتّخذه المسلمون مسجداً. وعلى باب هذا المسجد باب جيرون حيث نُصب رأس

يحيى ابن زكريّا نُصب رأس الحسين بن علي عليهما السلام .

فلمّا ولي الوليد بن عبد الملك عمّره، فجعل أرضه رخاماً، وجعل وجه جدرانه مجزّعاً، وأساطينه رخاماً موشّى، ورؤوس أساطينه ذهباً، ومحرابه ذهباً مرصّعاً بالجواهر، ودَوْر السقف كله ذهباً مُكْتباً، كما يطوف تربيع جدار المسجد. يقال إنّه أنفق بسببه خَراج الشام خمس سنين. وسطحه رصاص، وسقفه خشب مذهب، يدور الماء على رقعة المسجد، حتى إذا فجر فيه انبسط فيه على جميع الأركان سواء .

الأقاليم للإصطخري ، طبعة مولر، ٣٢

المسالك والممالك للإصطخري، طبعة الحيني ٤٥



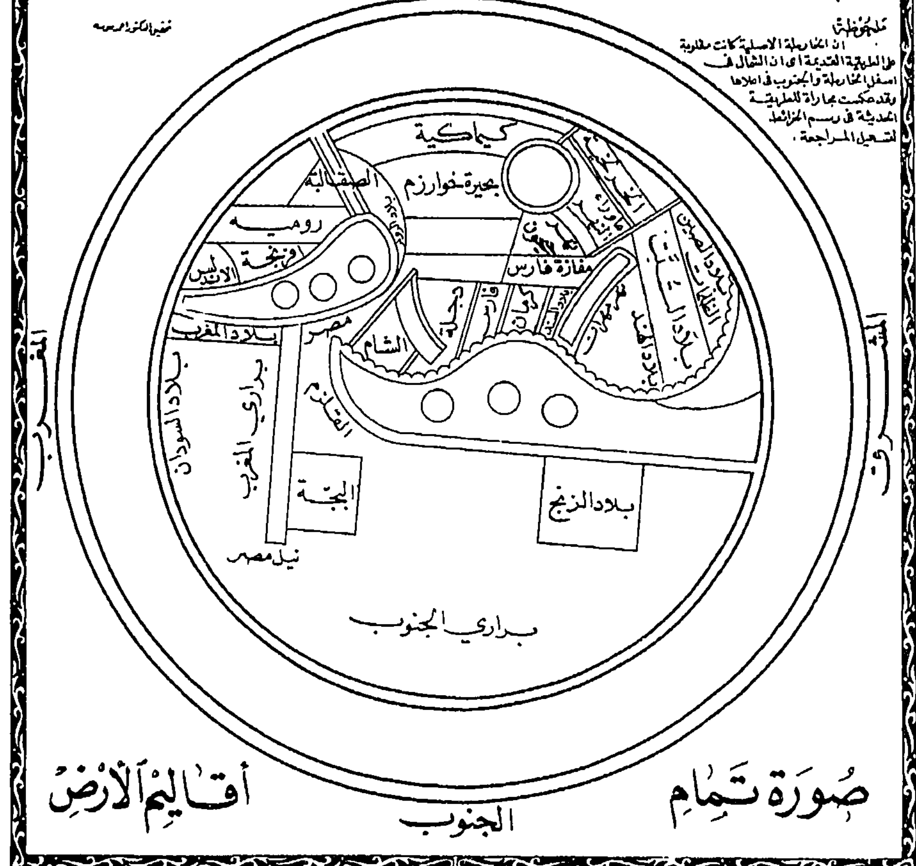
خارطة العالم

للاصطخري (نبغ سنة ٣٤٠هـ ٩٥١م)

هو ابو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري المعروف بالكرخي ، ولد في مدينة اصطخر من بلاد فارس رحل في طلب العلم وجاب بعض البلدان الاسلامية ودون اخبار رحلته في كتاب سماه « مسالك الممالك » وهو معوّل على كتاب « صور الاقاليم » للشيخ ابي زيد احمد بن سهل البلخي المتوفى سنة ٣٢٢ هـ (٩٣٤م) طبع باعتناء دي غويه من ضمن المكتبة الجغرافية العربية (المجلد الاول) في ليدن سنة ١٨٧٠ ثم طبع طبعة ثانية في سنة ١٩٢٧ . وجرى الاصطخري في كتابه على تقسيم المعمور من بلاد المسلمين عشرين جزءاً بدأ بديار العرب وانتهى الى ما وراء النهر (تركستان) ، ووصف كل قسم على حدة وذكر البلاد وحروبها وتجاراتها وغير ذلك ونقل منه ابن حوقل الذي نبغ بعده ببضع سنين (٣٦٧هـ ٩٧٧م) ، ومن مؤلفات الاصطخري ايضاً كتاب بعنوان « صور الاقاليم » يشتمل على حدود الممالك وصور اقاليم الارض ومدنها وبحارها وانهارها والمسافات بينها مفصلاً . وقد صدر كتاب هذا الجغرافي وفيه الصور وجملتها ١٩ صورة . طبع بعناية ج . هـ . موللر (J. H. MULLAR) ومعه الخرائط ملونة طبع في جوتا سنة ١٨٣٩ .

مقتطفات من كتابه « مسالك الممالك » ... وقسمة الارض على الجنوب والشمال ، فاذا اخذت من المشرق من الخليج الذي يأخذ من هذا البحر المحيط من ارض المغرب بارض الاندلس فيمتد على الارض وخط منه النصف يأخذ من بحر الصين حتى يقطع بلد الهند ووسط مملكة الاسلام حتى يمتد الى ارض مصر الى المغرب فما كان في حد الشمال من حد الشمس فاهله بيض وكلما تباعدوا في الشمال ازدادوا بياضاً وهي اقاليم باردة وما كان مما يلي الجنوب من حد الشمس فان اهله سود وكلما تباعدوا في الجنوب ازدادوا سواداً واعدل هذه الاماكن ما كان في الخط المستقيم وما قاربه .... فاما مملكة الاسلام فان شرقيها ارض الهند وبحر فارس وغربيها مملكة الروم وما يتصل بها من الارمن واللان والران والسرير والخزر والروس وبلغار والصقالبة وطائفة من الترك وشماليها مملكة الصين وما اتصل بها من بلاد الترك وجنوبيها بحر فارس ، واما مملكة الروم فان شرقيها بلاد الاسلام وغربيها وجنوبيها البحر المحيط وشماليها حدود الصين لان ما بين الاتراك وبلد الروم من الصقالبة وسائر الامم الى بلد الروم ، واما مملكة الصين فان شرقيها وشماليها البحر المحيط واما جنوبيها فمملكة الاسلام والهند واما غربيها فهو البحر المحيط فان جعلنا ياجوج وماجوج ومن وراءهم الى البحر من هذه المملكة ، واما ارض الهند فان شرقيها بحر فارس وغربيها وجنوبيها بلاد الاسلام وشماليها مملكة الصين ... .

ملحوظة :
ان الخارطة الاصلية كانت مقلوبة على الطريقة القديمة اي ان الشمال في اسفل الخارطة والجنوب في اعلاها وقد عكست مجاراة للطريقة الحديثة في رسم الخرائط لتسهيل المراجعة .

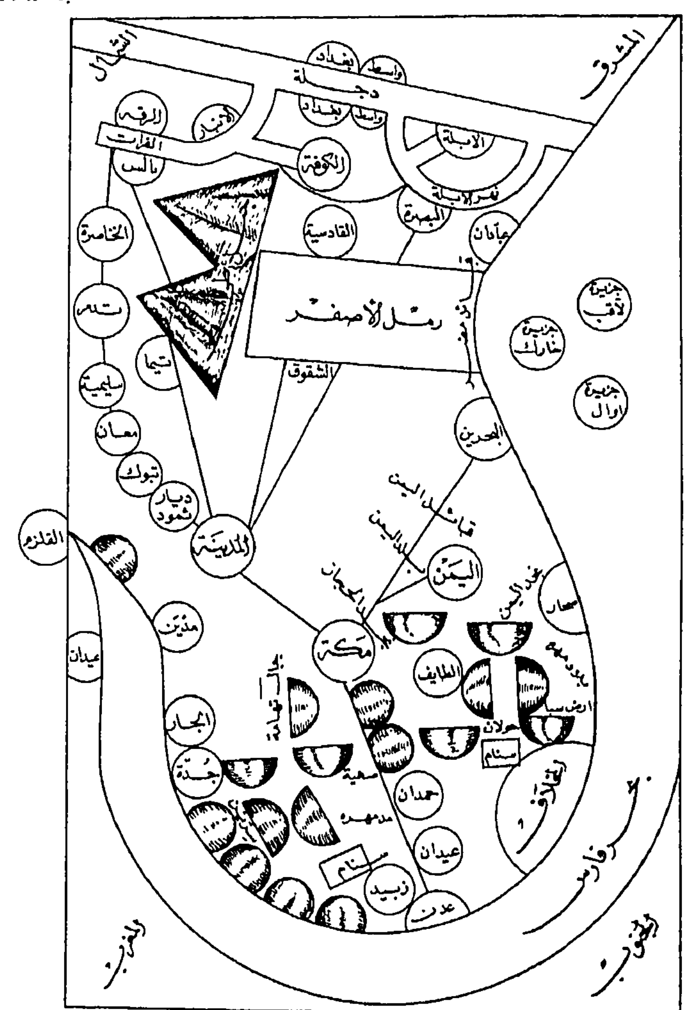


صُورة ديار العرب

للاصطخري (النصف الاول من القرن الرابع الهجري، القرن العاشر الميلادي) مقتطفات من كتابه "المسالك الممالك"

"...وديار العرب هي الحجاز الذي يشتمل على مكة والمدينة واليمامة ومخاليفها ونجد الحجاز المتصل بارض البحرين وبادية العراق وبادية الجزيرة وبادية الشام واليمن المشتملة على تهامة ونجد اليمن وعمان ومهرة وحضرموت وبلاد صنعاء وعدن وسائر مخاليف اليمن. فما كان من حد السرين حتى ينتهي الى ناحية يلملم ثم على ظهر الطائف ممتداً على نجد اليمن الى بحر فارس مشرقاً الى اليمن ويكون ذلك نحو الثلثين من ديار العرب، وما كان من حد السرين على بحر فارس الى قرب مدين راجعاً في حد المشرق على الحجر الى جبلي طي ممتداً على ظهر اليمامة الى بحر فارس فمن الحجاز، وما كان من حد اليمامة الى قرب المدينة راجعاً على بادية البصرة حتى تمتد على البحرين الى البحر فمن نجد، وما كان من حد عبادان الى الانبار مواجهاً لنجد والحجاز على أسد وطي وتميم وسائر قبائل مضر فمن بادية العراق، وما كان من حد الانبار الى بالس مواجهاً لبادية الشام على ارض تيما وبرية خشاف الى قرب وادي القرى والحجر فمن بادية الجزيرة، وما كان من بالس الى أيلة مواجهاً للحجاز على بحر فارس الى ناحية مدين معارضاً لارض تبوك حتى يتصل بديار طيء في بادية الشام على ان من العلماء بتقسيم هذه الديار من زعم ان المدينة من نجد لقربها منها وان مكة من تهامة اليمن لقربها منها ...."

«تحقيق الدكتور [illegible]»



ملحوظة:- ان الخارطة الأصلية كانت مقلوبة على الطريقة القديمة أي ان الشمال في أسفل الخارطة والجنوب في أعلاها وقد عكست مجاراة للطريقة الحديثة في رسم الخرائط لتسهيل المراجعة.

- ١٧ -

المسعودي
أبو الحسن علي بن الحسين
(توفي ٣٤٦ هـ/ ٩٥٧م)

عندما كان نجم الحضارة العبّاسيّة في دور الأفول والانحدار السياسي في القرن الرابع الهجري، بزغَ عصر الحضارة العربية أو «النهضة الإسلامية» كما أسماها المستشرق الألماني آدم متز A. Metz. وفي ذلك العهد بلغ الأدب الجغرافي العربي أوج تطوّره واتساعه. ولاريب أن الرحّالة والجغرافي والمؤرّخ أبا الحسن المسعودي يحتلّ مركز الصدارة في هذا القرن المذكور، وقد أطلق عليه المؤرّخ ابن خلّكان لقب: «إمام المؤرّخين»، بينما شبّهه في أيامنا الباحث المصري زكي محمد حسن بهيرودوت أبي التاريخ، نقلاً عن المستشرق كرامرز الذي لقّبه «هيرودوت العرب». كما وصفه كرامرز في القرن التاسع عشر بأنه «أكثر الكتّاب الجغرافيين أصالة في القرن العاشر». هذا وقد أقيمت بجامعة (عليگرة) بالهند عام ١٩٥٨م ندوة دوليّة بمناسبة مرور ألف عام على وفاة المسعودي، وصدر عنها كتاب قيّم آنذاك.

وأما المسعودي فهو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي

البغدادي، ولد ببغداد في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة كما يبدو، من أسرة حجازيّة من ذريّة الصحابي عبد اللّه بن مسعود. وخرج رحّالتنا من بغداد عام ٣٠١ هـ ورحل إلى فارس عام ٣٠٥ هـ والهند وملتان وسيلان، وجال في بحار الصين والمحيط الهندي وسرنديب وسواحل أفريقيا الشرقيّة، وزار عُمان وزنجبار ومدغشقر والسودان، ورحل إلى بحر قزوين عام ٣١٤ هـ وأذربيجان وجُرجان وثغور الشام، وآسيا الصغرى وأنطاكية عام ٣٣٧ هـ، والشام والعراق وبلاد العرب الجنوبيّة (اليمن وجنوب الجزيرة العربيّة)، إلى أن انتهى به المطاف في مصر التي استقرّ بها عام ٣٤١ هـ، حتى وفاته عام ٣٤٦ هـ (أو كما ذكر آخرون: ٣٤٥ هـ).

هذا وقد زار المسعودي مدينة دمشق مراراً وذكرها في كتابيه الشهيرين «مروج الذهب» و«التنبيه والإشراف»، وذلك في عامي ٣٣٢ هـ، و ٣٣٦ هـ، كما صرّح بنفسه في النصوص الواردة أدناه.

أما عن مؤلّفات المسعودي فهي كثيرة، ضاع معظمها بسبب ضخامة حجمها وقلّة انتشارها، إلا ما بقي منها كاملاً أو مختصراً أو أدخل المؤلّف مادّته في مصنّفات أخرى له. ولعلّ أبرز مؤلّفاته سبعة هي: كتاب «ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور»، وكتاب «الاستذكار بما مرّ في سالف الأعصار»، وكَتاب «أخبار الأمم من العرب والعجم». وكتاب «أخبار الزمان ومَنْ أباده الحدثان، من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الدائرة»، وكان هذا الكتاب يقع في ٣٠ مجلداً، وقد أدخل المسعودي مادّته في كتابيه «الأوسط» و«مروج الذهب».

على أن أخصّ هذه الكتب السبعة كتابان: مروج الذهب، والتنبيه والإشراف. أما الأول منهما «مروج الذهب ومعادن الجوهر» فهو مصنّف

تاريخي جغرافي عظيم القيمة، لم يكتف فيه المسعودي ببحث الموضوعات التي اعتادها المؤرّخون المسلمون، بل تطرّق إلى تواريخ الهند والفرس والروم وغيرهم، مع وصف الخليقة وقصص الأنبياء ووصف الأرض والبحار والعجائب والغرائب وتواريخ الأمم القديمة وأديانها ومذاهبها وتقاليدها، ثم أردف ذلك بسرد تاريخ الإسلام من أواخر عهد الخلفاء الراشدين إلى أوائل خلافة المطيع للّه العبّاسي. وقد أتم المسعودي هذا الكتاب عام ٣٣٢ هـ، وصحّحه في ٣٣٦ هـ وأيضاً ٣٤٥ هـ. وأول نشرة علمية لهذا الكتاب قام بها في القرن الماضي المستشرقان الفرنسيان باربييه دى مينار Barbier De Meynard وپاڤيه دى كورتّيّ Pavet De Courteille، وأصدراه في تسعة أجزاء مع ترجمة فرنسية، وطُبع في باريس ١٨٦١ - ١٨٧١ م. كما صدرت له نشرة في القاهرة عام ١٩٤٦ بعناية محمد محيي الدين عبد الحميد. ثم قام المستشرق الفرنسي شارل پلاّ Charles Pellat بإعادة نشر طبعة سلفيه دى مينار ودى كورتّيّ بتحقيق علمي، وصدرت عن منشورات الجامعة اللبنانيّة في سبعة أجزاء ١٩٦٦ - ١٩٧٩.

وأما الكتاب الآخر فهو «التنبيه والإشراف»، الذي يجمع بين الجغرافيا والتاريخ، ويعتبره المسعودي نفسه متمماً لمروج الذهب. فرغ من تأليفه عام ٣٤٥ هـ قبيل وفاته. وقد عُني بنشره المستشرق الهولندي دى خُويّه De Goeje، وطُبع في لايدن بهولاندة عام ١٨٩٤ ضمن سلسلة المكتبة الجغرافيّة العربيّة. وترجمه إلى الفرنسيّة بعد تنقيحه المستشرق الفرنسي كاراّ دى ڤو Carra De Vaux، وطبعه في باريس عام ١٨٩٧. ثم أعاد نشره أيضاً عبد الله اسماعيل الصاوي بالقاهرة عام ١٩٣٨.

هذا وقد ذكر بعض الباحثين أن المسعودي وضع خارطة لديار الإسلام، هي من أدق الخرائط العربية، وقد قسم فيها العالم إلى ٣ قارّات.

أما فيما يتعلّق بدمشق، فقد نقلنا ما أورده المسعودي في كتابيه: مروج الذهب، والتنبيه والإشراف. وقد رجعنا في الأول إلى طبعة شارل پلاّ، وفي الثاني إلى طبعة الصاوي. والجدير بالذكر أن وصف المسعودي لباب جيرون بدمشق هو الأول من نوعه (عام ٣٣٢هـ).

المصادر:

التنبيه والإشراف للمسعودي، مقدّمة الصاوي

مروج الذهب ومعادن الجوهر، طبعة شارل پلاّ

الفهرست لابن النديم ١/ ٢١٩

لسان الميزان لابن حجر العسقلاني ٤/ ٢٢٤

فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ٣/ ١٢

طبقات الشافعية للسبكي ٢/ ٣٠٧

النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٣/ ٣١٥

تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ١/ ١٧٧

الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم متز ٢/ ٣

جهود المسلمين في الجغرافيا لنفيس أحمد ٥٤

الرحالة المسلمون في القرون الوسطى لحسن ٣٦

C. Brockelmann: Geschichte der Arabische Litteratur; 1: 150, Supp. I, S. 220.

جيرون بدمشق

١١٤٣- وسار بعده عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح بولده ومن تبعه، فحلّ بالأحقاف [وأداني الرمل] بين عُمان وحضرموت واليمن. وتفرّق هؤلاء في الأرض فانتشر منهم أناس كثير، منهم: جَيْرون بن سعد بن عاد، حلّ بدمشق فمصّر مصرها، وجمع عُمُد الرخام والمرمر إليها، وشيّد بنيانها، وسمّاها «إرَم ذات العِماد». وقد روي عن كعب الأحبار في إرم ذات العِماد غير هذا.

وهذا الموضع بدمشق في هذا الوقت، وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة، سوق من أسواقها بباب المسجد الجامع يُعرف بجَيْرون، وباب جيرون. وهو بنيان عظيم كان قصر هذا الملك، عليه أبواب من النحاس عجيبة، بعضها على ما كانت عليه والبعض على المسجد الجامع[1].

مروج الذهب ٢/ ٢٦١

---

(١) تقدّم منّا القول أن هذا الوصف لباب جيرون (وهو البوابة الشرقية للحرم الخارجي لمعبد جوبيتر الدمشقي) هو الأول من نوعه لدى الرحّالين الذين زاروا دمشق. وأما زواله فقد كان عام ٧٥٣ هـ، وانفرد بوصف ذلك المؤرّخ الحافظ ابن كثير الدمشقي الذي كان شاهد عيان آنذاك في كتابه البداية والنهاية: «وفي ليلة الإثنين سادس عشر صفر في هذه السنة [٧٥٣ هـ] وقع حريق عظيم عند باب جيرون شرقيّه، فاحترقت به دكّان القُفّاعي الكبيرة المزخرفة وما حولها، واتّسع اتّساعاً فظيعا واتّصل الحريق بالباب الأصفر من النحاس، فبادر ديوان الجامع إليه فكشطوا ما عليه من النحاس ونقلوه من يومه إلى خزانة الحاصل بمقصورة الحلبيّة بمشهد علي. ثم عدوا =

١٤١٤ - وهيكل عظيم البنيان في مدينة دمشق، وهو المعروف بجيرون، وقد ذكرنا خبره فيما سلف من هذا الكتاب، وأن بانيه جيرون بن سعد العادي، فنقل إليه عُمُدَ الرخام، وأن هذه البنية «إرَم ذات العِماد» المذكورة في القرآن، إلا ما ذُكر عن كعب الأحبار حين دخل إلى معاوية بن أبي سفيان وسأله عن خبرها فوصفها وذكر عجيب بنيانها من الذهب والفضّة والمسك والزعفران، وأنّه يدخلها رجلٌ من العرب يتيه له جَملان فيخرج في طلبهما فيقع إليها، وذكر حِلْية الرجل، ثم التفت في مجلس معاوية فقال: هذا هو الرجل! وكان الأعرابي قد دخلها في طلب ما ندَّ من إبله، فأجاز معاوية كعباً وتبيّن صدق مقالته وإيضاح برهانه.

مروج الذهب ٢/ ٤٠٥

= عليه يكسرون خشبه بالفؤوس الحِداد والسواعد الشِداد، وإذا هو من خشب الصنوبر الذي في غاية ما يكون من القوّة والثبات. وتأسّف الناس عليه لكونه كان من محاسن البلد ومعالمه، وله في الوجود ما ينيف عن أربعة آلاف سنة. . . وهو باب شرقي جامع دمشق لم يُرَ باب أوسع ولا أعلى منه فيما يُعرف من الأبنية في الدنيا، وله علمان من نحاس أصفر بمسامير نحاس أصفر أيضاً بارزة، من عجائب الدنيا ومحاسن دمشق ومعالمها.

. . . فتبادر ديوان الجامعية ففرّقوا شمله وعرّوا جلده النحاس عن بدنه الذي هو من خشب الصنوبر، الذي كأن الصانع قد فرغ منه يومئذ، وقد شاهدتُ الفؤوس تعمل فيه ولا تكاد تُحيل فيه إلا بمشقّة».

١٤١٧ - وكان مسجد دمشق قبل ظهور النصرانيّة هيكلاً عظيماً فيه التماثيل والأصنام، على منارته تماثيل منصوبة. وقد كان بُني على اسم المشتري[1] وطالع سعد، ثم ظهرت النصرانية فجُعل كنيسة، ثم ظهر الإسلام فجُعل مسجداً. وأحكم بناءه الوليد بن عبد الملك، والصوامع منه لم تتغيّر، وهي منائر الأذان إلى هذا الوقت.

وقد كان بدمشق أيضاً بناءٌ عجيبٌ يُقال له «البَرِيْص»[2]، وهو مُبقى إلى هذا الوقت - وهو سنة ست وثلاثين وثلاث مئة - في وسطها. وكان يجري فيه الخمر في قديم الزمان، وقد ذكرته الشعراء في مدحهم لملوك غسّان من مأرب وغيرهم.

مروج الذهب ٢/ ٤٠٦

---

(١) ما ذكره المسعودي صواب، فقد بُني المعبد الآرامي على اسم الإله حَدَد، ثم نُسب الهيكل نفسه في أيام الرومان إلى الإله جوبيتر، وهو باللاتينية أبو الآلهة وكوكب المشتري، وكان عند الإغريق يُعرف باسم: زيوس. أنظر كتابنا: معالم دمشق التاريخيّة ٢٠٥.

(٢) هذا أول تحديد لوجود قصر البريص في نصوص الرحّالين والجغرافيين المسلمين، فقد صرّح المسعودي ببقائه في أيّامه (عام ٣٣٦ هـ). وكان قد اشتهر ذكره في شعر حسّان بن ثابت ببيته المشهور:

يَسقُونَ مَنْ وَرَدَ البَرِيْصَ عليهمُ ... بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرَّحيقِ السَّلْسَلِ

من الباب الأربعين
في وصف الأرض والبلدان

٩٧٣ - ذكر ذوو الدراية أن عمر بن الخطّاب حين فتح اللّه البلاد على المسلمين من العراق والشام ومصر وغير ذلك من الأرض، كتب إلى بعض حكماء ذلك العصر: «إنّا أناس عرب، وقد فتح اللّه علينا البلاد ونريد أن نتبوأ الأرض ونسكن الأمصار. فصِفْ لي المدن وأهويتها ومساكنها وما يؤثّره التُرب والأهوية في سكّانها». فكتب إليه ذلك الحكيم: «إعلم يا أمير المؤمنين أن اللّه قد قسم الأرض أقساماً. . .

. . . وسأصف لك يا أمير المؤمنين أمر القطع المسكونة من الأرض:

٩٧٤ - أما الشام فشجٍ ّ ركُام وسَحٌ غَمام وغدْق رهام، ترطّب الأجسام وتبلّد الأحلام وتصفّي الألوان، لاسيّما أرض حِمص فإنها تحسّن الجسم وتصفّي لونه وتبلّد الفهم وتنزح غوره وتجفي الطبع وتذهب بماء القريحة وتنهب العقول. والشام يا أمير المؤمنين وإن كان على ما وصفتُ لك فمسرح حصب ووابل سكب، كثرت أشجاره واطّردت أنهاره وغمرت أعشاره، وبه منازل الأنبياء والقدس المجتبى، وفيه حلّ أشراف خلق اللّه من الصالحين والمتعبّدين، وجبالُه مساكن المجتهدين.

مروج الذهب ٢/ ١٨٠

من الباب السادس والتسعين
في ذكر أيام الوليد بن عبد الملك

٢١١٥ - وفي سنة سبع وثمانين ابتدأ الوليد ببناء المسجد الجامع بدمشق، وبناء مسجد الرسول (صلعم) بالمدينة؛ فأنفق عليهما الأموال الجليلة، وكان المتولّي للنفقة على ذلك عمر بن عبد العزيز. وحكى عثمان ابن مرّة الخولاني قال: لمّا ابتدأ الوليد ببناء المسجد بدمشقوجد في حائط المسجد لوحاً من الحجارة فيه كتابة باليونانيّة، فعُرض على جماعة من أهل الكتاب فلم يقدروا على قراءته، فوجّه به إلى وهب بن منبّه فقال: هذا مكتوب في أيام سليمان بن داود عليهما السلام. فقرأه فإذا فيه: «بسم الله الرحمن، يا ابن آدم لو عاينتَ ما بقي من يسير أجلك لزهدّت فيما بقي من طول أملك وقصرتَ عن رغبتك وحيلك، وإنما تلقى ندمك إذا زلّت بك قدمك وأسلمك أهلُك وحشمُك وانصرف عنك الحبيب وودّعك القريب، ثمّ صرتَ تُدعى فلا تُجيب، فلا أنت إلى أهلك عائد ولا في عملك زائد؛ فاغتنم الحياة قبل الموت والقوّة قبل الفوت، وقبل أن يؤخذ منك بالكظم ويُحال بينك وبين العمل. كُتِب زمن سليمان بن داود»[1].

---

(١) لا شك في رأينا أن الكتابة اليونانية المذكورة لم يكن في نصها ما أفصح به وهب أعلاه، وذلك لأنها لو كانت فعلاً من زمن سليمان بن داود لما كتبت باليونانية، ثم أنّى لسليمان الحضور إلى دمشق ليترك بها آثاراً؟ والذي نراه أن هذه الكتابة ما هي إلا نصٌ يؤرّخ عمارة ما في زمن الروم البيزنطيين باللغة اليونانيّة، غير أن وهباً لمّا عجز عن قراءته ادّعى فيه ما ادّعى.

٢١١٦- فأمر الوليد أن يُكتب بالذهب على اللازَوَرْد في حائط المسجد:

«ربُّنا اللّه، لا نعبد إلاّ اللّه
أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة
التي كانت فيه عبد اللّه الوليد أمير المؤمنين
في ذي الحجّة سنة سبع وثمانين»

وهذا الكلام مكتوب بالذهب في مسجد دمشق إلى وقتنا هذا، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة.

مروج الذهب ٣/ ٣٦٥

من باب
ذكر الإقليم الرابع
في كتاب: التنبيه والإشراف

و عرض كل بلد هو بعده عن خط الاستوا، وإن شئت قلت ارتفاع القطب عليه: إن كان في النصف الشمالي من الأرض فارتفاع القطب الشمالي، وإن كان في النصف الجنوبي من الأرض فارتفاع القطب الجنوبي. لأنه كلما تباعدت المدينة عن خط الاستواء درجة ارتفع أحد

القطبين درجة وانخفض الآخر درجة. والطول هو بُعد المدينة من المغرب، وربما كان بعدها من المشرق. ومن المغرب إلى المشرق مائة وثمانون درجة.

فعرض بغداد ثلاث وثلاثون درجة، وطولها سبْعون درجة. وكذلك عرض دمشق وعرض بغداد واحد، وطول دمشق ستّون درجة. وكذلك عرض مدينة القيروان من بلاد أفريقية من أرض المغرب، وكذلك أيضاً عرض بيت المقدس وقيسارية وصيدا وصور وانطاكية ومدينة السيرجان من أرض كرمان.

التنبيه والإشراف ٣٩

[نهر العاصي]

والأرنْط نهر حمص وحماة وشيزر وأنطاكية، الخارج من القرية المعروفة باللبوة بين حمص ودمشق. يشق بحيرة قَدَس وبحيرة فامية، ويصبّ إليه بالقرب من أنطاكية نهر الرقيا الخارج من بحيرة جنْدارس.

التنبيه والإشراف ٥٢





منشورات الجامعة اللبنانية

قسم الدراسات التاريخية

١٠

المسعودي

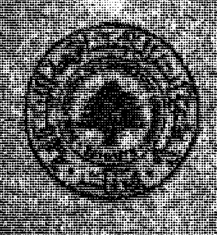
مروج الذهب ومعادن الجوهر

الجزء الأول

طبعة باربيه دي مينار وباﭬيه دي كورتاي

عني بتنقيحها وتصحيحها

شارل پلا



بيروت

١٩٦٦

- ١٨ -

الأصبهاني
أبو الفرج علي بن الحسين
(توفي بعد ٣٦٢ هـ/ ٩٧٣م)

علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم المرواني الأموي القرشي، من كبار أئمة العرب العربي، ومن الأعلام في معرفة التاريخ والأنساب والسِّير والآثار واللغة والمغازي. ولد في أصبهان عام ٢٨٤ هـ، ونشأ في بغداد وتوفي بها بعد عام ٣٦٢ هـ كما يتبيّن من كتابه «أدب الغرباء»، رغم أن المشتهر سابقاً أن وفاته كانت عام ٣٥٦ هـ.

تخلّد اسم أبي الفرج الأصبهاني (أو الأصفهاني) في التراث الأدبي العربي بكتابه النفيس «الأغاني» الذي يعتبر بحق أحد أعظم دواوين اللغة العربية وآدابها وأشعارها ومروياّتها وأخبار أدبائها ومغنّيها وموسيقيّيها، قيل إن الأصبهاني جمعه في خمسين سنة، وجاء في ٢٤ جزءاً نشرتها دار الكتب المصريّة بالقاهرة بطبعة فاخرة بدءاً من عام ١٩٢٤م.

وللأصبهاني عدّة مؤلّفات أخرى منها: «مقَاتل الطالبيين» و«نسب بني عبد شمس» و«القيان» و«الإماء الشواعر» و«أيام العرب» ذكر فيه ١٧٠٠ يوم، و«التعديل والإنصاف» في مآثر العرب ومثالبها، و«جمهرة النسب»

و«الحانات» و«الخمّارون والخمّارات» و«أدب الغرباء» و«مجرّد الأغاني».

على أن ما يعنينا هنا هو كتابه «الديارات» الذي كان بحكم المفقود، عدا ما نقله منه المؤلفون المعاصرون له واللاحقون. وكتب الديارات تعتبر فرعاً من فروع الأدب الجغرافي العربي، خصّها مؤلّفوها بتعداد الأديرة المشتهرة في أزمنتهم، في كل من المدن وأرباضها كما في الفلوات البعيدة، مع ما يتعلّق بها من الأخبار والأشعار والمُلح والنوادر الأدبيّة. وأخصّ ما ظهر من هذه المؤلفات في القرن الرابع الهجري اثنان: كتاب الأصبهاني هذا، وكتاب الديارات للشابُشتي الآتي ذكره في محلّه.

وكان كتاب أبي الفرج مصدراً لكل من صنّف في هذا المجال، وهنا تكمن أهمّيته البالغة. وقد جمع فيه أخبار الأديرة المعروفة في عصره بالعراق والشام وفلسطين والجزيرة وغيرها، وحشد فيه أخبار من مرّ بها من الخلفاء والخلعاء والشعراء والأمراء والظرفاء، وضمّنه أخبار الأديرة التي كان يرتادها بنفسه.

ولم يصلنا من كتاب الديارات سوى نتف متفرّقة في كتب الأدب، قام بجمعها جليل العطيّةمؤخراً، وصدرت عن دار الريّس بلندن ١٩٩١.

المصادر:

كتاب الأغاني للأصبهاني، الجزء الأول من طبعة دار الكتب

كتاب الديارات للأصبهاني، مقدّمة عطيّة

تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ١/ ٢٣٥

الأعلام لخير الدين الزركلي ٥/ ٨٨

دير سمعان

دير سمعان بدمشق : هو بنواحي دمشق، بالقرب من الغوطة، على قطعة من الجبل يطلّ عليها(1)، وحوله بساتين وأنهار وموضعه حسن جداً وهو من كبار الدّيرة، وعنده دُفن عمر بن عبد العزيز بظاهره(2).

قال راثيه :

قد قُلت إذ ضَمّنوك التُرْبَ وانصرفوا	لا يبعـدنَّ قِوامُ العدلِ والدِّينِ
قد غيَّبوا في ضريـح القبرِ منجدلاً	بدير سمعان قسطاسَ الموازينِ
من لم يكن همُّـه عَيناً يفجِّـرها	ولا النخيلَ ولا ركضَ البرازينِ

---

(1) كان موضع هذا الدير بصالحيّة دمشق عند المدرستين المعظّمية (بنيت ٦٢١هـ) والعزيزيّة (بنيت ٦٣٥هـ)، ذكر ابن طولون الصالحي في القرن العاشر الهجري : وشمالي هاتين المدرستين حوش عظيم بحيطان عاليّة، يقال إنه دير سمعان كان، وله باب يفتح إلى الشرق وداخله عدّة قبور معظّمة. أنظر : القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحيّة، ط٢، ١/ ٢٠٤ - ٢٠٦. وعلّق الأستاذ دهمان محقّق القلائد أن المدرستين المذكورتين (ومعهما بقايا الدير) لم يبق من آثارهما شيء، وكانتا بأسفل مقبرة المهاجرين.قبلي مصنع الماء الكبير الذي شيّدته مصلحة عين الفيجة في هذه المقبرة. والظاهر أن المدرستين كانتا موجودتين من نحو سبعين عاماً (وكلام دهمان عام ١٩٤٩).

(2) المُشْتهر لدى المؤرخين أن الخليفة عمر بن عبد العزيز قد دُسّ له السمّ وهو بدير سمعان من أرض المعرّة فتوفي به، وقبره هناك مشهور إلى اليوم. ويبدو أن الأصبهاني لم يميّز بين الديرين وكلاهما يعرف بسمعان، ومردّ ذلك إلى أنه بغدادي لم يُقم بالشام. وفي الشام دير سمعان ثالث شمالي حلب. أما الخليفة عمر فقد سقاه بنو أميّة السمّ لما شدّد عليهم وانتزع كثيراً مما في أيديهم.

وقد ذكر أبو الفرج أن صاحب دير سَمْعان دخل على عمر بن عبد العزيز بفاكهة يطرفه بها في مرضه، فقبلها منه وأمر له بدراهم، فأبى أن يأخذها. فما زال حتى أخذها، وقال: يا أمير المؤمنين! إنّما هي من ثمر شجرنا. فقال عمر رحمه الله: وإن كان من ثمر شجركم! ثم قال: يا صاحب دير سمعان! إنّي ميت من مرضي هذا.. فحزن وبكى. ثم قال له عمر: بِعني موضع قبري من أرضك سنة، فإذا جاء الحَوْلُ فانتفعْ به.

الديارات للأصبهاني ١٠٧

دير صليبا
بالقرب من دمشق مطل على الغوطة

حدّثني أبو بكر محمّد بن عمر قال: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل النحوي، قال: حدّثني بعض بني حمدون عن شيوخه قال:

كنت مع المتوكّل لمّا شخص إلى الشام، فلمّا صرنا بحمص قال: أريد أن أطوف كنائس الرّهبان كلّها، والموضع المعروف بالفراديس إذا وصلنا إليها، فإني كنت أسمع بطيب هذا الموضع. فقلت: الرأي ما رآه أمير المؤمنين. ثم أُنزلنا منزلاً بين كنائس عظيمة وآثار قديمة، ترتاح النفوس إليها ويشتهي من ينزلها ألاّ يرتحل عنها.

فلمّا استراح من نَصَب الركوب استدعاني وقال: هل لك في التطواف؟ قلت: كما أمر أمير المؤمنين. فأخذ بيدي، فلم يزل يستقري

تلك الكنائس و الديارات ويشاهد فيها من عجائب الصور وفاخر الآلة، ويرى من أحداث الرهبان وبنات القسّيسين وجوهاً كأنها أقمارٌ في غصون تتسنّى في تلك الأروقة والصحون.. وكلما مرّ بنا شيء من ذلك يقول لي: ترى ويْحكَ ما نحن فيه؟ ما شاهدتُ مثل هذا قطّ!

ثم خلَوْنا براهب من قُوّام الكنيسة، فلم يزل المتوكّل يسأله عن حال كلّ جارية وغلام يمرّ به واسمه ونسبه، وهو يمشي، إذ لمح كتابة على حائط الكنيسة، فقرّبنا من ذلك فإذا هو:

« حضر الغريب المشرّد الحريب[1] وهو يقول: شتّتَ شملي بعد الإلفة، وشقي جسمي بعد الكلفة، ومشيتُ من العراق إلى هذا الرواق، وارتحلتُ عنه في ذي الحجّة من سنة إحدى ومائتين، وأنا أقول »:

آل أمري إلى أخسّ الأمور	وتبدلّتُ كُربةً بسرورِ
واعترتني من الزمان خُطوبٌ	تتبارى في هتكة المستورِ
نفسُ صبراً لحادثات الليالي	كلٌّ شيءٍ يذلٌّ للمقدورِ

فقال: وَيحكَ! ما أطرف هذا المسكين، وما أحرق هذا الأنين. ونحن في ذلك، إذ مرّت بنا جارية ما رمقتْ عيني لها شبيهاً، وعليهاجوب[2] وفي يدها دخنةٌ تدخّن بها[3]... فقال لها المتوكّل:

(١) الحريب: المحروم والمسلوب.

(٢) الجَوْب: القميص تلبسه المرأة.

(٣) أي مبخرة تبخّر بها.

تعالي يا جارية. فأقبلتْ بحسن أدب وكمال. فقال للراهب: من هذه؟ فقال: ابنتي. قال: وما اسمها؟ قال: سَعانين[1]. قال المتوكّل: اسقيني ماءً. فقالت له: يا سيّدي، ماؤنا ها هنا من ماء الغدران، ولست أستنظف لك آنية الرهبان، ولو كانت ترويك لجدّتُ بها لك.

ثم أسرعتْ فجاءت بكوزٍ من فضة فيه ماء، فأومأ إليّ أن أشربه، فشربته. واشتدّ عجبه بها وشهوته لها، فقال لها: يا سعانين! إن هويتكِ تسعديني؟ فتنفّست وقالت: أمّا الآن فأنا عَبْدَتُك، وأمّا إذا عرفتُ صحّة حبّك وتمكّنت من قلبك، فما أخوفني من حدوث الطغيان عند تمكّن السلطان. أما سمعتَ قول الشاعر:

كنتَ لي في أوائل الأمر عبداً ثمّ لمّا ملكتَ صرتَ عدواً
أين ذاك السرورُ عند التلاقي صار منّي تَجنّباً ونُبُوّاً

فطرب المتوكّل وكاد يشقّ قميصه، ثم قال لها: فهبي لي نفسك اليوم حتى نشرب أنا وأنتِ، فإنّي ضيفُك. قالت له: بالرَّحب والسّعة.

ثم أصعدت بنا إلى عِلّية مشرفة على تلك الكنائس كلّها، فرأينا منظراً حسناً، ثم مضت فجاءت بآدام نظاف ورقاق، وكأن المتوكّل عافها لعزّة الخلافة، فاستأذنها في إحضار طعام[2]، فأذنت. فجيء بخروف وسنبوسج، وأشياء قريبة المأخذ من طعام مثله. فاستظرفتْ ما جيء

---

(١) سَعانين أو شعانين: كلمة ساميّة تعني عيد الأحد الذي يسبق عيد الفصح.

(٢) أي مما تحمله حاشيته المرافقة له.

به، واستهولتْ الآلة، ففطنتْ لأمر المتوكّل فقامت قائمة بين يديه تخدمه وتكفّر له، فمنعها.

ثم جاءنا أبوها بشراب من بيت القربان، ذكر المتوكّل أنه لم ير مثله قطّ. فشرب وشربتْ معه، واستعفيتُه من أجل حُمّى كانت لحقتني في تلك الليلة، فأعفاني. وسُرّ بها وبظُرفها وحلاوة منطقها سروراً تاماً. فلمّا أخذ الشراب منها قالت: أغنّيك يا سيّدي من غنائنا، على ضعف الصنعة؟ فكاد أن يهيم، وقال: إن فعلتِ كملَ واللّه ظرفكِ. فقامتْ فجاءت بشيء ويسمونه «القيثارة» وضربتْ واندفعت تغنّي:

يا خاطباً منّي المودّة مَرْحَباً	سَمعاً لأمرٍ لا عَدِمتُكَ خاطبا
أنا عبدةٌ لهواكَ فاشربْ واسقني	واعدِل بكأسكَ عن خليلكَ إن أبى
قد والذي رفع السماء ملكتني	و تركتَ قلبي في هَواكَ مُعَذَّبا

فنَعَرَ المتوكّل وقال لي: ويْلَك! أميّتٌ أنت؟ فانتبهتُ، وعلمتُ أنني قد أخطأت في ترك مساعدته. فأخذتُ رطلاً، فلم أزل أشربُ حتّى لحقته. ومضى لنا يوم كان في الأيام فرداً.

ثمّ أرغبها المتوكّل فأسلمتْ، وتزوّجها. ولم تزلْ حظيةً عنده إلى أن قُتل وهي في داره.

ورأيتُ في بعض النسخ أنّ شحروراً وقمرياً كانا يصيحان على أعالي أشجار بالدير فأصغى إليهما المتوكّل. فلما تحقّقتْ [سعانين] إصغاءه أنشدته:

وكأنما الشحرورُ راهبُ بيعةٍ ألهاه طِيب الوقتِ عن تزنيرهِ

جُعلتْ لك فلك الغصون صَوامعاً ينعين في إنجيله وزبوره
وكأنما القمريُ يندبُ شجوه بأنينِه وحنينِه وزفيرِه
صَبٌّ شَجته بلابلٌ لمّا دَنتْ منه ديار أنيسِه وسميرِه

فأعجبه ذلك منها وزاد بها سروراً، ولها محبة.

الديارات للأصبهاني ١١٢

دير فطرس ودير بولس
بظاهر دمشق

قال أبو الفرج: هذان الديران[١] بظاهر دمشق بنواحي بني حنيفة في ناحية الغوطة، والموضع حسن عجيب كثير البساتين والأشجار والمياه.

قال جرير:

لمّا تذكّرتُ بالدَّيرين أرّقني صوتُ الدَّجاجِ وضَربٌ بالنَّواقيسِ
فقلتُ للرَّكبِ إذ جدَّ الرحيلُ بنا يا بُعْدَ يَبرينَ من بابِ الفَراديسِ

(١) أنظر: معجم البلدان لياقوت ٢/ ٥٢٥، معجم ما استعجم للبكري ٢/ ٥٧٢، الأغاني للأصبهاني ٣/ ٢٢٠.

وفيه يقول أيضاً يرثي ابنه :

أودى سوادةُ يبدي مُقْلتي لحمٍ   بازٍ يُصرصِرُ فوق المرقبِ العالي
إلا تكن لك بالدَّيرين باكيةٌ   فرُبَّ باكيةٍ بالرملِ مِعوالِ
قالوا نصيبُك من أجرٍ فقلتُ لهم   كيف القرارُ وقد فارقتُ أشبالي

الديارات للأصبهاني ١٢٧

دير الماطرون
قرب دمشق

قال أبو محمد حمزة بن القاسم : قرأتُ على حائط بستان بالماطرون هذه الأبيات :

أرقتُ بدير الماطرون كأنّني   لساري النجوم آخر الليلِ حارسُ
وأعرضتِ الشِّعرى العبورُ كأنها   مُعلَّقُ قنديل عليها الكنائسُ
ولاحَ سُهيلٌ عن يميني كأنَّهُ   شِهابٌ نحاهُ وجهةَ الريحِ قابسُ

وهي أبيات قديمة تُروى لأرطأة بن سُهيَّة .

الديارات للأصبهاني ١٥١

دير مُرّان
قرب دمشق

أخبرني علي بن سليمان الأخفش قال: حدّثني السكري والمبرد عن دماذ أبي غسّان، واسمه رفيع بن سلمة، عن أبي عبيدة:

أن معاوية وجّه جيشاً إلى بلد الروم ليغزو الصائفة، فأصابهم جُدَري فمات أكثر المسلمين، وكان ابنه يزيد مصطبحاً بدير مرّان مع زوجته أم كلثوم، فبلغه خبرهم فقال:

إذا ارتفقتُ على الأنماط مُصطبحاً ... بدير مُرّان عندي أمُّ كُلثومِ
فما أبالي بما لاقتْ جُنودُهُم ... بالغَذَقَذونة من حُمَّى ومن مُومِ

فبلغ شعره أباه فقال: أجل والله ليلحقنَّ بهم فليصيبنَّه ما أصابهم. فخرج حتى لحق بهم وغزا حتى بلغ القُسطنطينيّة، فنظر إلى قُبَّتين مبنيتين عليهما ثياب الديباج، فإذا كانت الحملة للمسلمين ارتفع من إحداهما أصوات الدفوف والطبول والمزامير، وإذا كانت الحملة للروم ارتفع من الأخرى. فسأل يزيد عنهما فقيل له: هذه بنت ملك الروم، وتلك بنت جبلة بن الأيهم، وكلّ واحدة منهما تظهر السرور بما تفعله عشيرتها. فقال: أمَا والله لأسرَّنّها! ثم صفّ العسكر وحمل حتى هزم الروم فأحجرهم في المدينة، وضرب باب القُسطنطينيّة بعمود حديد كان في يده فهشّمه حتى انخرق، فضُرب عليه لوح من ذهب فهو عليه إلى اليوم.

قال أبو الفرج الأصبهاني :

ودير مرّان هو بناحية من دمشق على تلّة مشرفة على مزارع ورياض نَزِهة بَهِجة، نزل به هارون الرشيد وقصف فيه وشرب، وكان مع الرشيد حين نزل به الحسين بن الضحّاك الخليع، فقال له : بحياتي قل فيه شعراً ! فقال فيه أبياتاً منها :

يا دير مرّان لا عُرِّيتَ من سَكَنٍ ... قد هجتَ لي شَجَناً يا دير مُرّانا
سُقْياً ورَعياً لمُرّانٍ وساكنه ... يا حبّذا قاطنٌ بالدير من كانا
حثَّ المُدامَ فإن الكأس مترعةٌ ... ممّا يهيّجُ دواعي الشوقِ أحيانا

وأمر الرشيد عمرو بن بانة أن يغنّي فيه لحنين، أحدهما هَزَج والآخر رَمَل .

وحكى إسحاق الموصلي عن أبيه قال :

مرّ الرشيد بدير مُرّان فاستحسنه وأعجبه إشرافه على بساتين حسنة، ورياض مونقة بهجة، فنزله وأمر أن يؤتى بطعام خفيف، فأكل وشرب ودعى بالندماء والمغنّين. وخرج إليه صاحب الدير، وكان شيخاً كبيراً هرماً، فوقف بين يديه ودعا له واستأذنه أن يأتيه بطعام الدير، فأذن له في ذلك، فأتاه بأطعمة لطيفة مختصرة في آنية نظيفة، فكان ذلك في نهاية الحُسن والطيب. فأكل منها كثيراً واستطابها، وأمر الشيخ بالجلوس فجلس بين يديه، فأقبل عليه الرشيد بوجهه وسأله فحدّثه واستظرف حديثه .

ثم قال: هل نزل بك في هذا الدير أحد [من] بني أميّة ؟ قال: نعم أصلح اللّه مولاي أمير المؤمنين، قد نزل بي ها هنا الوليد بن يزيد ومعه أخوه الغَمْر، فجلسا في هذا الموضع الذي جلس فيه مولاي أمير المؤمنين، فقدّمت إليهما طعاماً فأكلا وشربا وغنّيا وطربا. . . فلمّا أخذ الشراب منهما وثب الوليد إلى ذلك الحوض، وكان مملوءاً شراباً، فكرع فيه، وفعل مثل ذلك أخوه الغَمْر حتى سكرا وناما مكانهما. فلمّا أفاق الوليد من سكره أمر بالحوض فملُىء لي دراهم، ثم انصرفوا.

فنظر إليه الرشيد، أعني إلى الكأس، فإذا هو لا يقدر أن يشرب ملأه، فقال: أبى بنو أميّة إلا أن يسبقونا إلى اللذات سبَقاً لا يجاوزهم أحد! ثم أمر برفع الشراب وركب من وقته وانصرف، وأمر للديراني بجائزة سنيّة.

حدّثني الصُولي قال حدّثنا يزيد بن محمد المهلّبي قال حدّثنا عمرو بن بانة قال:

خرجنا مع المعتصم إلى الشام لمّا غزا، فنزلنا في طريقنا بدير مرّان، وهو دير على تَلْعة مشرفة عالية تحتها مروج ومياه حسنة، فنزل فيه المعتصم فأكل ونشط للشرب ودعا بنا. فلمّا شربنا أقداحاً قال لحسين بن الضحّاك: أين هذا المكان من ظهر بغداد! قال: لا أين يا أمير المؤمنين!. . واللّه لَبعض الغياض والآجان هناك أحسن من هنا! قال: صدقتَ واللّه. . وعلى ذلك فقل أبياتاً يغني فيها عمرو. فقال: أمّا أن أقول شيئاً في وصف هذه الناحية بخير فلا أحسب لساني ينطق به، ولكنّي أقول متشوّقاً إلى بغداد. فضحك وقال: قل ما شئت. فقال:

يا دير مِديان لا عُرّيتَ من سَكَنٍ   هيّجتَ لي سَـــقَماً يا ديـر مِديانـا
هل عند قَسِّكَ من علمٍ فيخبرنـا   أم كيف يُسعِفُ وجه الصبرِ من بانـا
حثّ المدامَ فإن الكأسَ مترعةٌ   ممـا يهيـج دواعـي الشـوقِ أحيانـا
سقياً ورعياً لكرخايـا وسـاكنها   وللجُنينــة بالروحـــاء مـن كانــا

فاستحسنها المعتصم، وأمرني ومُخارقاً فغنَّينا فيها، وشرب على ذلك حتى سكر وأمر للجماعة بجوائز.

الديارات للأصبهاني ١٥٣-١٥٧

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

كتاب الأغاني

تأليف

أبي الفرج الأصفهاني

الجزء الأول

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٥ هـ - ١٩٢٧ م

- ١٩ -

ابن حَوْقَل
محمد بن حَوْقَل المَوْصلي

(توفي بعد ٣٦٧ هـ/ ٩٧٧م)

أبو القاسم محمد بن علي النصيبي البغدادي والموصلي الأصل، المعروف بابن حَوْقَل، تاجر رحّالة ظلّ يتجوّل أكثر من ثلاثين سنة. غادر بغداد سنة ٣٣١ هـ لدراسة البلاد ورغبة في التجارة، فطاف العالم الإسلامي من شرقيّه إلى غربيّه (ما بين ٣٣١ - ٣٦٢ هـ)، وقد انتظم تجواله شمال أفريقية والمغرب والأندلس وزار ناپولي وپاليرمو وعرف عن كثب العراق وخراسان وفارس وما وراء النهر وجزءاً من الهند، كما زار مصر والسودان الغربي وأرمينية وأذربيجان. واتّصل بالفاطميين، ويقول المستشرق دوزي إنه كان يتجسس لهم.

وقد ظهر الاهتمام بالجغرافية لديه مبكراً، ومما حفزه إلى ذلك مقابلته للإصطخري عام ٣٤٠ هـ، وكان الإصطخري قد رسم خارطة رديئة للسِّنْد مع خارطة جيّدة لفارس، فأراه ابن حَوْقَل خارطتين من صنعه، إحداهما لأذربيجان والأخرى للجزيرة، فمدحهما الإصطخري كثيراً. ثم طلب هذا الأخير إلى ابن حوقل أن يعيد النظر في كتابه كلّه ويُحسّنه، ففعل

ابن حوقل ذلك. ومنذ ذلك الحين أصبح الإصطخري دليلاً له، بعد أن كان يعتمد قدامة بن جعفر من قبل، وعندما أعاد تأليف كتابه «المسالك والممالك» احتذى حذو الإصطخري، ولكنّ خارطاته كانت أدقّ وأنفع.

ولهذا نجد في مكتبات العالم عدّة مسوّدات مخطوطة لكتاب ابن حوقل «المسالك والممالك»، ويميل المستشرق كرامرز Kramers إلى القول بوجود ثلاث مسوّدات للكتاب. هذا وقد عُرف الكتاب أيضاً بتسمية أخرى هي: «صورة الأرض». وقد قدّم ابن حوقل المسوّدة الأولى من مصنّفه إلى سيف الدولة الحمداني (توفي ٣٥٦ هـ)، بينما ترجع المسوّدة الثانية إلى حوالي عام ٣٦٧ هـ. بيد أنه ألّفه بالأصل للشريف الحسن بن الفضل الأصفهاني. فيما يرى المستشرق الإيطالي ريتسيتانو Rizzitano أن النسخة النهائية من الكتاب قد وُضعت سنة ٣٧٨ هـ.

وفي كتابه هذا عني ابن حوقل بذكر الأقاليم والبلدان، وطبائع أهلها وخواصّها وجباياتها وخَراجاتها، وأنهارها واتّصالها بشطوط البحار، والمسافات التي بينها للسفر والتجارة. وتلمح في كتابه الكثير من الإشارات الاجتماعية والاقتصادية، وقد نقل كثيراً من كتب الذين سبقوه. والمُطالع لكتاب ابن حوقل يتبيّن له بوضوح دقّته في وصف المدن والبلدان. ومن أهم ما يميّزه احتواؤه لخوارط جغرافيّة قيّمة لبعض البلدان الإسلاميّة، وهي من أشهر ما خلّفه لنا جغرافيّو القرن الرابع الهجري من خوارط لديار العالم الإسلامي، والتي بلغ عددها ٨٢ خريطة كما أحصاها نقولا زيادة في كتابه: الجغرافية والرحلات عند العرب.

قام بنشر كتاب «المسالك والممالك» المستشرق الهولندي دى خُويّه M. J. De Goeje، وطبع في لايدن بهولاندة عام ١٨٧٢م. ثم عاد

المستشرق كرامرز فنشر الكتاب بطبعة ثانية في لايدن أيضاً عام ١٩٣٨، عن أقدم مخطوطة لكتاب ابن حوقل، وهي مخطوطة اسطنبول التي يرجع تاريخها إلى عام ٤٧٩ هـ. وكان المستشرق الإنكليزي السير وليم أوسلي قد ترجم الكتاب إلى الإنكليزية عام ١٨٠٠.

وقد نقلنا من كتاب المسالك والممالك نصّ ابن حوقل الذي ذكر فيه جُنْد دمشق، ونصّه يشبه ما ورد عند الإصطخري والبلخي. وقد رجعنا في ذلك إلى طبعة دى خُويْه القديمة، وقابلناها على طبعة كرامرز، وأضفنا الزيادات الواردة في هذه الطبعة الأخيرة على النصّ المذكور، وذلك بين حاصرتين: [ ].

وإتماماً للفائدة، نُرفق هذا النصّ بصور عن بعض الخارطات القديمة الواردة في كتاب «المسالك والممالك» لابن حوقل.

المصادر:

المسالك والممالك لابن حَوْقَل، مقدّمتا دى خُويْه و كرامرز

تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ١/ ٢٠٠

دائرة المعارف الإسلامية، مادة ابن حوقل لڤان أرندونك

الرحّالة المسلمون لزكي محمد حسن ٣٩-٤٢

جهود المسلمين في الجغرافيا لنفيس أحمد ٥٤

مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجّد ٦٨

الرحلة والرّحالة المسلمون لأحمد رمضان ١١٧

العراق في الخوارط القديمة لأحمد سوسة ١٨

دمشق

وأما جُند دمشق فإنّ قصبتها دمشق، وهي أجلّ مدينة بالشام. وهي في أرض واسطة [مستوية قد دُحيت] بين جبال، تحفُّ بها مياه كثيرة وزروع متَّصلة، وتُعرف تلك البقعة بالغُوطة، عرضها مرحلة في مرحلتين، وليس بالشام مكان أنزه منها.

ومخرج مائها من تحت بَيْعَة تُعرف بالفيجة، مع ما يأتي إليه من عين بَرَدَى من جبل سَنِير، [وهو أول ما يخرج مقدار ارتفاع ذراع في عرض باع، ثم يجري في شِعْب] يتفجّر على حافتيه عيون كثيرة. ثم يخرج من ذلك نهر كبير أخرجه يزيد بن معاوية، يغوص الرجل فيه عمقاً. ثم يخرج منه نهر المِزَّة ونهر القَنَاة، ثم يظهر عند خروجه من بين الشِّعاب في موضع يقال له النَيْرَب، ويقال إنه الموضع الذي عناه اللّه تعالى بقوله: ﴿ وآويناهُما إلى ربوةٍ ذاتِ قرارٍ ومَعين﴾[1]. ثم يتّصل من هذا الماء عمود النهر المسمّى بَرَدى، وعليه قنطرة في وسط مدينة دمشق عريضة كثيرة الماء [لا يعبرها الراكب غُزْرَ ماءٍ وكثرة]، فيُفضي إلى قرى الغُوطة فيجري الماء في عامة دورهم وسِككهم وحمّاماتهم.

وبها مسجد ليس في الإسلام مثله ولا أحسن بُقعة منه. فأمّا الجدار والقبّة التي فوق المحراب عند المقصورة فمن بناء الصابئين، وكان مصلّى لهم، ثم صار في أيدي اليونانيين فكانوا يعظّمون فيه دينهم، ثم صار لملوك من عبدة الأوثان. فقتُل في ذلك الزمان يحيى بن زكريّا (عم)، ونُصب

---

(١) سورة المؤمنون - ٢٣.

رأسه على باب المسجد المسمّى باب جَيرون . ثم تغلّب عليه النصارى فصار في أيديهم بَيعة يعظّمون فيه دينهم . ثم جاء الإسلام، فصار المكان للمسلمين واتّخذوه مسجداً .

وعلى باب جَيرون نُصب رأس الحسين بن علي (عم)، بالموضع الذي نُصب فيه رأس يحيى بن زكريّا (عم) . فلمّا كان في أيام الوليدبن عبد الملك عمّره فجعل أرضه رُخاماً مفروشاً، وجعل وجه جدرانه رُخاماً مجزّعاً، وأساطينه رُخاماً موشّى، ومعاقد رؤوس أساطينه ذهباً، ومِحرابه مذهَّب الجملة مرصّعاً بالجواهر، ودور السقف كلّه ذهباً مكتوباً عليه كما يطوف بترابيع جدار المسجد، وقيل إنّه أنفق عليه وحده خَراج الشام سنتين، وسطحه رصاص . وإذا أرادوا غسله بَثَقَ الماء إليه فدار على رقعة المسجد بأجمعه، حتى إذا فُجِّر منه انبسط عنه وعن جميع الأركان بالسويّة .

وكان خَراج الشام على عهد [بني مروان] ألف ألف دينار [وفوق ثمانِ مائة ألف دينار][1] .

وفي حدود دمشق بَعْلَبَك، وهي مدينة في سفح، عامَّة أبنيتها من حجارة، وبها قصور من حجارة قد بُنيت على أساطين شاهقة، وليس بأرض الشام بنية بحجارة أكبر منها ولا أعجب من بنائها .

وطرابلس، وهي مدينة كثيرة الخير والغلات والفواكه الجيّدة، بيّنة الخصب والرخص، وهي قريبة من مدينة بيروت التي على ساحل بحر الروم، وهي فُرضتها وساحلها، ومرابط أهل دمشق وسائر جندها وإليها

---

(١) ما بين حاصرتين ورد في طبعة كرامرز، وأما في طبعة دى خُويْه: «وكان خراج الشام على عهد بني أميّة ألف ألف دينار ومائتي ألف دينار» .

ينفرون عند استنفارهم، وليسوا كأهل دمشق في جفاء الأخلاق وغلظة الطباع، وفيهم من إذا دُعِي إلى الخير أجاب [وأصغى]، وإذا أيقظه الداعي أناب.

ولنفس دمشق خاصيّة بطالعها الجاري بها على الخلاف. وسمعت عبد الله بن محمد [القلم] يقول: برجها معوجٌ فاسد، مع شرفه وضيائه، وقلّ ما كان طالعَ بلدٍ فصَفَتْ طاعتهُ واستقامتْ، وذكر سمرقند وأردبيل ومكّة ومشق وصقليّة، وقال: لا تصلح لسلاطينها، ولا يستقيمُ سلاطينها بها. وأكثر هذه المدن فالغدر أثبت ما في نفوسهم، والشرُّ أشمل الأحوال عليهم.

وببيروت هذه كان مقام الأوزاعي، وهي ذات نخيل وقصب سكّر وغلات متوفّرة، وتجارات البحر عليها دائرة، وسابلتها غير منقطعة، حصينة خصيبة منيعة السور رخيصة الأسعار، جيّدة الأهل مع منعة فيهم من عدوّهم وصلاح في عامّة أمورهم.

المسالك والممالك لابن حوقل ١١٤ - ١١٧

خارطة العالم

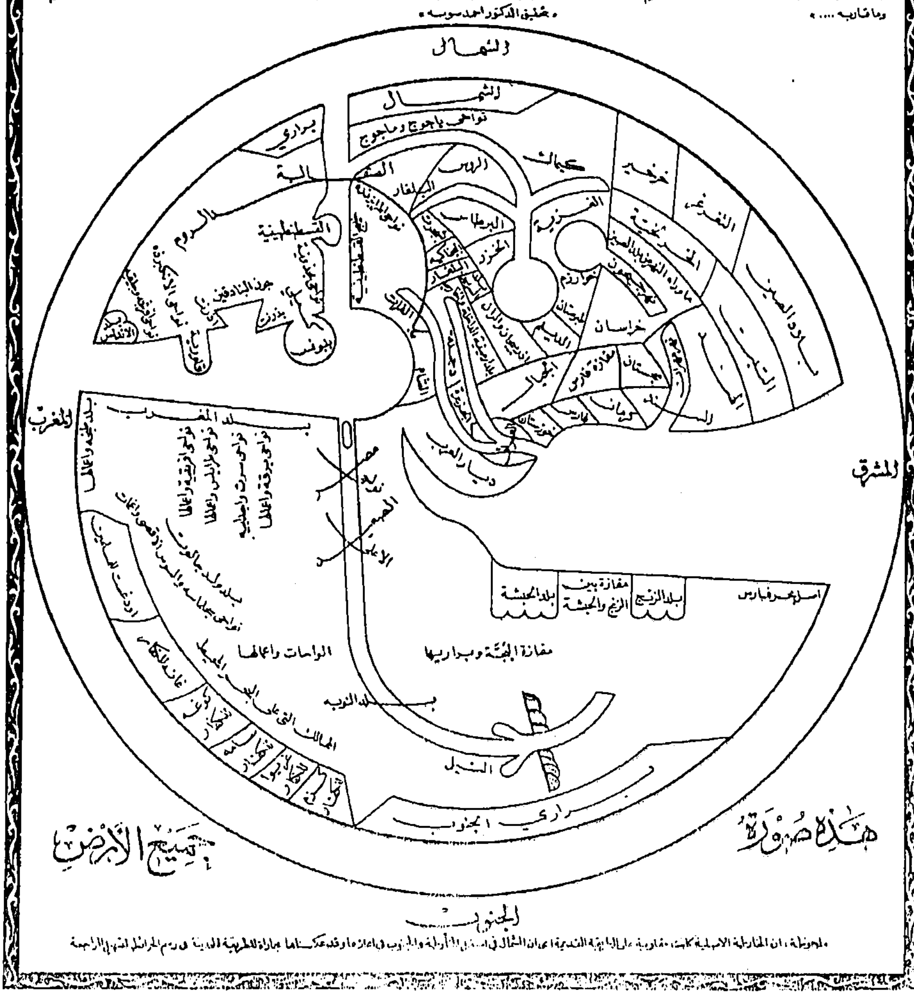
لابن حوقل (٣٦٧هـ) - (٩٧٧م)

هو ابو محمد بن العلي الموصلي التاجر الرحالة، ولد في بغداد ونشأ بها واقبل على التجول في انحاء المعمورة فجاب العالم الاسلامي بقصد دراسة البلاد والشعوب وبقصد الكسب عن طريق التجارة واستمر في حله وترحاله ثماني وعشرين سنة وذلك من سنة ٩٤٣م الى سنة ٩٧٠م، ودوّن اخبار رحلته في سنة ٣٦٧هـ (٩٧٧م) في كتاب سماه « المسالك والممالك والمفاوز والمهالك » اقتصر فيه على ذكر صفات الممالك الاسلامية ولم يتعرض لغيرها الا قليلاً، ووشح كتابه هذا بالخوارط فرسم لكل اقليم من اقاليم الاسلام خارطة او اكثر. وهذا الكتاب يختص بالجغرافية فيشمل وصف الاقطار والاصقاع والمدن والبلدان والانهار والغدران والقفار وبحث في ثروة البلاد وتجارة اهلها وجباية الضرائب وذكر مسافات الطرق والمسالك. وقد طبع هذا الكتاب مع الخوارط طبعة اولى في ليدن سنة ١٨٧٣م بعنوان « صورة الارض » وذلك باعتناء دي خويه من ضمن المكتبة الجغرافية العربية (مجلدها الثاني في قسمين)، وطبعت الطبعة الثانية في ليدن ايضاً سنة ١٩٣٨-١٩٣٩م. وقد ترجم الكتاب الى الانكليزية السير وليم اوسلي وطبعت هذه الترجمة سنة ١٨٠٠م. وقد درس ابن حوقل مؤلفات الجغرافيين المتقدمين كالجيهاني وابن خرداذبه وقدامه والاصطخري، وجاء تقسيمه للأقطار مثل تقسيم الاصطخري في كتابه « مسالك الممالك » والعبارة تكاد تكون واحدة في كثير من الاماكن

« مقتطفات من كتاب : (المسالك والممالك)

« .... وقسمة الأرض على الجنوب والشمال فاما اخذت من المشرق من الخليج الذهب يأخذ من البحر المحيط بارض الصين الى الخليج الذي يأخذ من هذا البحر المحيط من ارض المغرب بين أرض الاندلس وطنجه فقد قسمت الأرض قسمين وخط هذه القسمة يأخذ من بحر الصين حتى يقطع بلد الهند ووسط مملكة الاسلام حتى يمتد على ارض مصر الى المغرب، فاكان في حد الشمال من هذين القسمين فأهله بيض وكلما تباعدوا في الشمال ازدادوا بياضاً وهي اقاليم باردة، وما كان مما يلي الجنوب من هذين القسمين فاهله سود وكلما ازدادوا تباعداً في الجنوب ازدادوا سواداً واعدل هذه الممالك في الخط المستقيم وما قاربه .... »

« تحقيق الدكتور احمد سوسه »



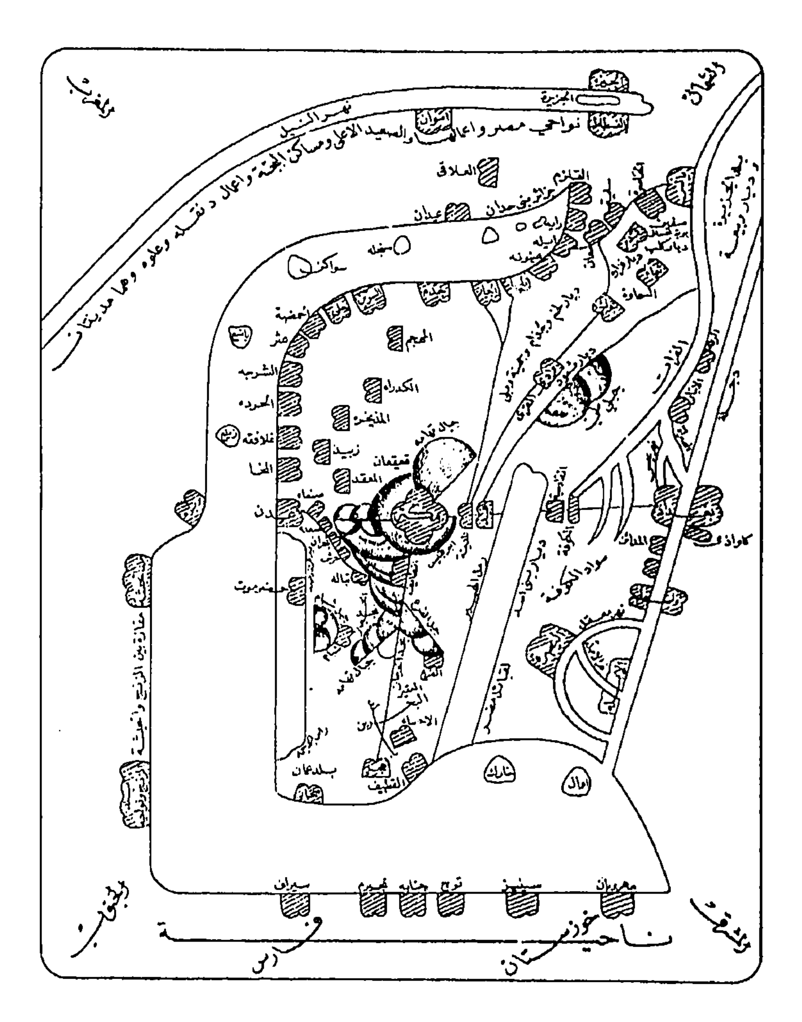
ملحوظة: ان الخارطة الاصلية كانت مقلوبة على الطريقة القديمة اي ان الشمال في اسفل الخارطة والجنوب في اعلاها وقد عكسناها مجاراة للطريقة الحديثة في رسم الخرائط انتهى

صُورَة دِيَارِ العَرَب

لابن حوقل (٣٦٧ هـ - ٩٧٧م) - مقتطفات من كتابه «المسالك والممالك»

«... فابتدأت بديار العرب لأن القبلة بها ومكة فيها وهي ام القرى وبلد العرب واوطانهم التي لم يشركهم في سكناها غيرهم، والذي يحيط بها بحر فارس من عبادان وهو مصب ماء دجلة في البحر فيمتد على البحرين حتى ينتهي الى عمان ثم يعطف على سواحل مهرة وحضرموت وعدن حتى ينتهي على سواحل اليمن الى جدة ثم يمتد على الجار ومدين حتى ينتهي الى أيلة ثم قد انتهى حينئذ حد ديار العرب من هذا البحر وهذا المكان من البحر لسان ويعرف ببحر القلزم والقلزم مدينة على طرفه وسيفه فاذا استمر على تاران وجبيلان ووصل الى القلزم وينقطع حينئذ وهو شرقي ديار العرب وجنوبيها وشيء من غربيها، ثم يمتد عليها من أيلة على مدائن قوم لوط والبحيرة الميتة التي تعرف ببحيرة زغر الى الشراة والبلقاء وهي من عمل فلسطين والاذرعات وحوران والبثنية وغوطة دمشق ونواحي بعلبك وهي من عمل دمشق وتدمر وسلمية وهما من عمل حمص ثم الى الخناصرة وبالس وهما من عمل قنسرين، وقد انتهى الحد الى الفرات ثم يمتد الفرات على ديار العرب حتى ينتهي الى الرقة وقرقيسيا والرحبة والدالية وعانة والحديثة وهيت والانبار الى الكوفة ويستفرغ مياه الفرات الى البطائح، ثم تمتد ديار العرب على نواحي الكوفة والحيرة على الخورنق وعلى سواد الكوفة الى حد واسط فتساقب ما جاور دجلة وقاربها عند واسط مقدار مرحلة ثم تمتد وتستمر على سواد البصرة وبطائحها حتى تنتهي الى عبادان ...»

« تحقيق الدكتور [illegible] »

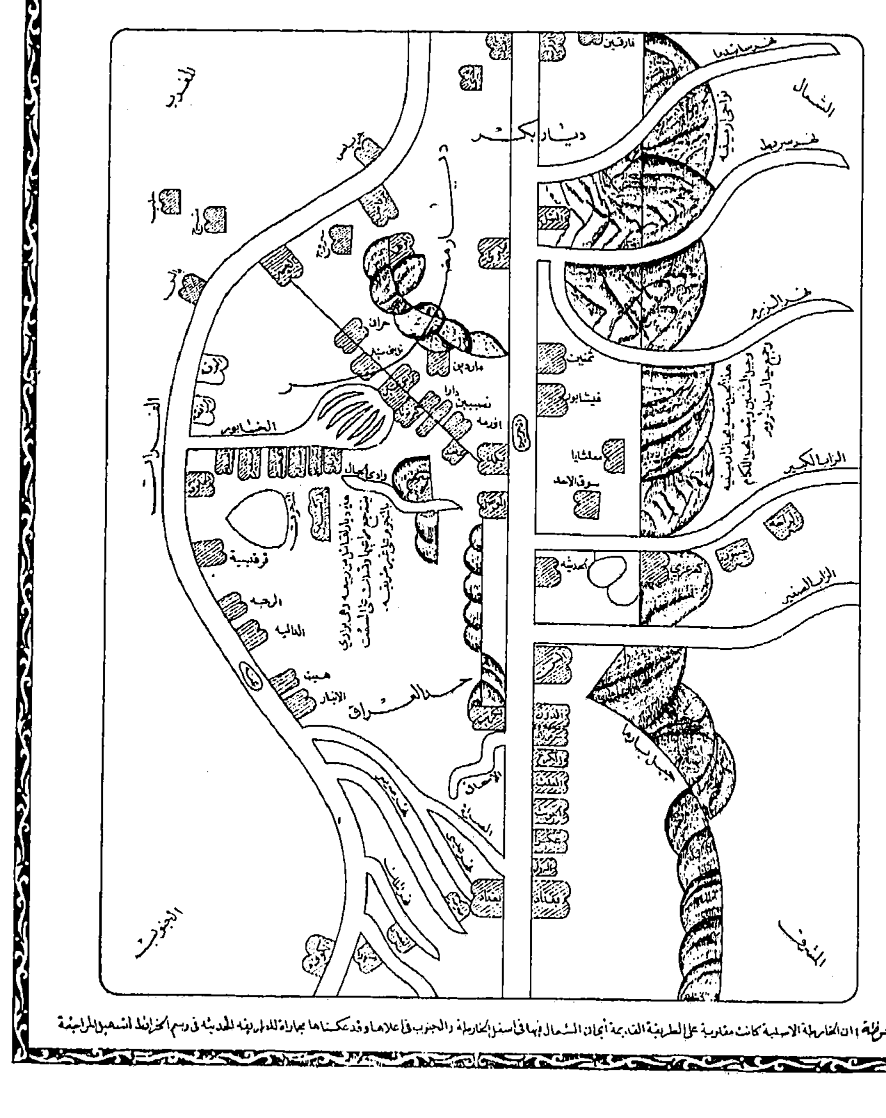


صورة الجزيرة

لابن حوقل (٣٦٧هـ : ٩٧٧م) مقتطفات من كتابه «المسالك والممالك»

«... فأما الجزيرة التي بين دجلة والفرات فتشتمل على ديار ربيعة ومضر، ومخرج الفرات من داخل بلد الروم على ما شكّله مجتازاً من ملطية على يومين ويجري بجنبها وبين المدينة المعروفة كانت بشمشاط للمسلمين ويمر على سميساط ونواحي جسر منبج وعلى بالس الى الرقة وقرقيسيا والرحبة وهيت والانبار وينقطع الحد عن الفرات مما يلي الجزيرة بالانبار ثم يعود حد الجزيرة في سمت الشمال فيكون الى تكريت الحد العراق وتكريت على دجلة وينتهي الحد منها صاعداً على دجلة الى السن مما يلي الجزيرة والى الحديثة والموصل ويمتد بصعود دجلة الى الجزيرة المعروفة بابن عمر ثم يتجاوزها الى آمد فيكون ما في غربها من حد ارمينية ثم يعود الحد مغرباً على البر الى سميساط ثم ينتهي الى مخرج ماء الفرات في حد الاسلام من حيث ابتدأته ومخرج دجلة وان كانت من حدود بلد الروم فطويلاً ما كان في يد المسلمين وحيز الاسلام من نحو مراحل، وعلى شرقي دجلة وغربي الفرات مدن وقرى تنسب الى الجزيرة وهي خارجة عنها ونائية عنها...»

تحقيق الدكتور احمد سوسه



ملاحظة: ان الخارطة الاصلية كانت مقلوبة على الطريقة القديمة أي أن الشمال فيها في أسفل الخارطة والجنوب في أعلاها وقد عكسناها مجاراة للطريقة الحديثة في رسم الخرائط استسهالاً للمراجعة

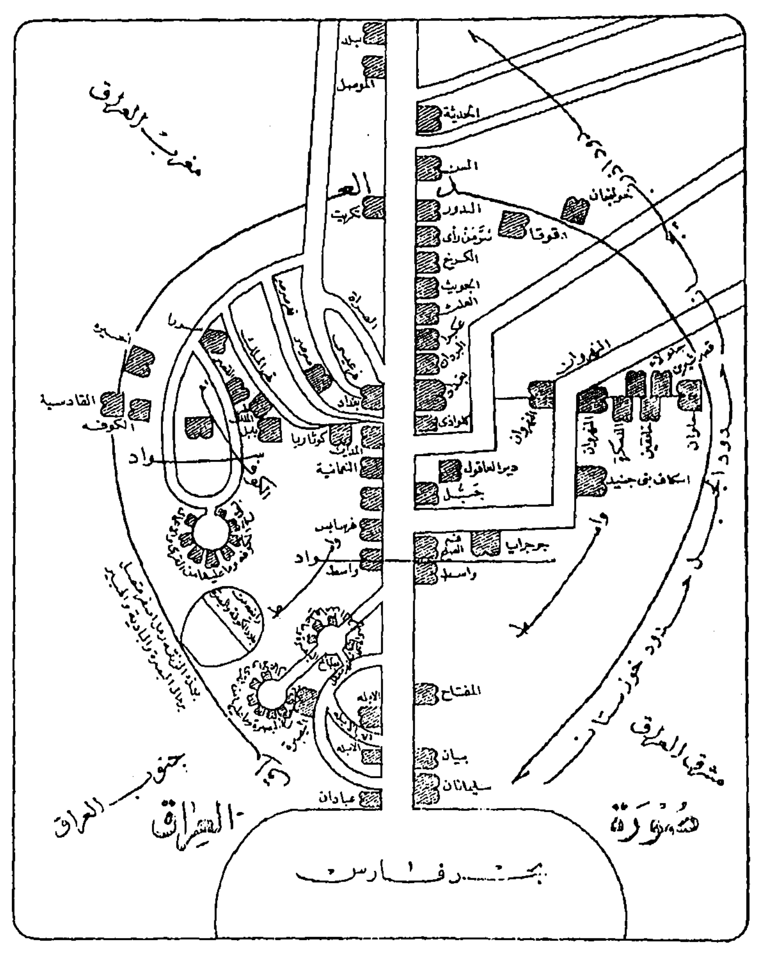
صورة العراق

لابن حوقل (٣٦٧هـ) - (٩٧٧م)

« مقتطفات من كتابه (المسالك والممالك) »

« .... وأما حد العراق فإنه في الطول من حد تكريت الى عبادان وعبادان مدينة على نهر بحر فارس ، وعرضه من القادسية على الكوفة وبغداد الى حلوان ، وعرضه بنواحي واسط من سواد واسط الى قرب الطيب ، وبنواحي البصرة من البصرة الى حدود جُبّى ، والذي يطيف بحدوده من تكريت فيما يلي المشرق حتى يجوز بحدود مهرورد وشهرزور ثم يمرّ على حدود حلوان وحدود السيروان والصيمرة وحدود الطيب والسوس حتى ينتهي الى حدود جُبّى ثم الى البحر فيكون في هذا الحد من تكريت الى البحر تقويس ، ويرجع على حد المغرب من وراء البصرة في البادية على سواد البصرة وبطائحها الى واسط ثم على سواد الكوفة وبطائحها الى الكوفة ثم على ظهر الفرات الى الانبار ثم من الانبار الى حد تكريت بين الدجلة والفرات وفي هذا الحد من البحر على الانبار الى تكريت تقويس ايضاً ، وهذا المحيط بحدود العراق .... »

« بتحقيق الدكتور احمد سوسة »



ملحوظة : ان الخارطة الاصلية كانت مقلوبة على الطريقة القديمة اي ان الشمال في اسفل الخارطة والجنوب في اعلاها وقد عكسناها مجاراة للطريقة الحديثة في رسم الخرائط لتسهيل المراجعة .

- ٢٠ -

المهلّبي
الحسن بن أحمد
(توفي ٣٨٠ هـ/ ٩٩٠م)

الحسن بن أحمد المهلّبي جغرافي مهمّ من جغرافيي القرن الرابع الهجري، وهو مصري عاش في ظلّ الفاطميين. ألّف كتاب «المسالك والممالك» للخليفة العزيز بالله الفاطمي (تولى الخلافة من ٣٦٥-٣٨٦ هـ)، ولذا فكثيراً ما يرد الكتاب باسم: «العزيزي». وأما عنوانه الأصلي فهو يقود إلى الظن بأنه من طراز كتب المسالك والممالك التي مرّت بنا فيما سبق.

وهذا الكتاب لم يصل إلينا، ما خلا نُقول منه أوردها ياقوت الحموي في معجمه وأبو الفداء في تقويمه. وقد تبيّن من هذه المقتطفات أنه يستند أساساً على أوصاف الطرق، وبخاصّة طرق أفريقيا. وهو يمثّل فيما يتعلّق بالسودان بالذات أحد المصادر الرئيسيّة لياقوت الذي ينقل عنه أكثر من ستّين مرّة، ولكنه لا يقتصر على أفريقيا وحدها فياقوت يرجع إليه مراراً بصدد مواضع عديدة في الجزيرة العربية. وقد زار المهلّبي مدينة

سامراً وحفظ لنا ياقوت انطباعاته الشخصيّة عن أطلالها ، وهو يوليه عناية خاصّة من بين مصادره فيضعه جنباً إلى جنب مع المقدّسي .

هذا وقد نقل من كتاب المهلّبي كثيراً المؤرّخ والجغرافي أبو الفداء، ولم يكتف بنقل مادّته المتعلّقة بأفريقيا فقط، إذ يورد عنه خبراً عن جزيرة سُقَطرى وسكّانها من النساطرة، كما يورد عنه عدداً من الروايات تتعلّق بالشام .

وكان أستاذنا العلاّمة الدكتور صلاح الدين المنجّد قد عثر على قطعة مخطوطة من كتاب المهلّبي في مكتبة الأمبروزيانا بميلانو، وفيها وصف دمشق وبيت المقدس وذكر ولاة مصر . وقام الدكتور المنجّد بنشر هذه المخطوطة في مجلة معهد المخطوطات بالقاهرة عام ١٩٥٨ . ومن هذه النشرة أخذنا النصّ المتعلّق بدمشق .

ولنصّ المهلّبي عن دمشق قيمة كبيرة، فهو يتحدّث عنها كشاهد عيان رأى بأم عينه ما كتب، وإن بعض ما ذكره فيه لا نجده في المصادر الأخرى التي ذكرت دمشق . وأمّا زمن زيارته لها فلا يمكن لنا تحديده على وجه الدقّة، غير أنه كان كما يتّضح في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (توفي ٣٨٠ هـ)، وكانت دمشق آنذاك تحت حكم الفاطميين .

المصادر :

المسالك والممالك للمهلّبي، مجلة معهد المخطوطات

تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ١/ ٢٣٠

مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجّد ٨٠

دمشق

قال المهلّبي: وأمّا دمشقُ فإنها مدينةٌ عاديّة[1] أزليّة. وهي مدينةُ الشام العُظمى، وقصبة الجند. وهي من الإقليم الرابع. وعرضُها ثلاث وثلاثون درجة.

قالوا: وهي إرَمُ ذات العماد. وهي من أحسن البلاد وأجلّها موقعاً، سهليّة جبليّةٌ، وفي شمالها جبلٌ عظيم ممتدٌ مسيرة أربعة أيّام. وكانت مدينة اليونانيّة ودارَ مُلكهم. وقيل إنه وُجد في ركن من أركان البيت الذي كان فيها للعبادة - ثم صار مسجد الجامع - مكتوباً باليونانيّة: «بنى هذا البيت دامشقيوس على اسم الآلهة ازيس».

قالوا: ودامشقيوس اسم الملك الذي بناها، وازيس تفسيره بالعربية المشتري[2].

وقال قوم: بناها جيرون بن عاد، والصابئة[3] تزعم أن البيت الذي

---

(١) سمّت العرب كل قديم عتيق بالعاديّ، نسبة إلى قوم عاد المذكورين في القرآن الكريم (سورة الفجر - ٦). ويقال: مجدٌ عاديٌّ، وبئرٌ عاديّةٌ. ودخلت هذه المفردة في مصطلحات علم الآثار، فالعاديّات هي اللُّقى الأثرية والتحف القديمة.

(٢) دامشقيوس هو اسم مدينة دمشق في اللاتينيّة Damascus وليس اسم الملك الذي بناها، وازيس يعني: زيوس Zeus وهو أبو الآلهة لدى الإغريق، وصار اسمه عند الرومان (جوپيتر)، وهو فعلاً الإله الذي كُرّس له معبد دمشق الوثني (معبد جوپيتر). كما يعني الاسمان أيضاً: كوكب المشتري. انظر كتابنا: معالم دمشق التاريخية ٢٠٥.

(٣) الصابِئة: أتباع نِحْلة تؤلّه الكواكب، كان مقرّهم في حَرّان ما بين النهرين. اشتهر منهم أطبّاء وفلاسفة ومنجّمون، من أشهرهم ثابت بن قُرَّة وابنه سنان، والبتّاني وهلال بن المُحَسِّن.

كان بها هو أحد البيوت السبعة المبنيّة على أسماء الكواكب، وأنه بيت المشتري. فيرون حَجَّه والسعي إليه.

قالوا: وبني والمشتري راجع. فأقام أربعة آلاف وخمس مئة سنة.

قالوا: وغلب عليه عبَّاد الأصنام من اليونانيّة لمّا تركوا دين آبائهم. فأقام في أيديهم ألف سنة.

قالوا: ثم تنصّرت اليونانيّة فصيّروا البيت كنيسة. فأقام بذلك خمس مئة سنة.

قالوا: ثم جاء الإسلام فبُني مسجداً منذ ثلاث مئة سنة.

قال: وطول الغُوطة ثلاثون ميلاً، وعرضها خمسة عشر ميلاً. ولا تكاد الشمس أن تصل إلى أرضها لكثرة الشجر، والمياه تتخرّق في جميع هذه الغوطة فإنها مقسومة للضياع متوزّعة للشرب.

قالوا: واسم الجبل المذكور في شمالي دمشق القَسْيون[1].

قالوا: وفي هذا الجبل المغارة التي قتل فيها هابيل قابيل.

قالوا: وبها استتر ابراهيم عليه السلام من النمرود.

قال: ونزل المسلمون على دمشق لأربع عشرة ليلة بقيت من المحرّم سنة أربع عشرة للهجرة، بعد أن فُتحت غُوطتها كلّها عنوة. فنزل أبو عبيدة بن الجراّح على باب الجابية، ونزل خالد بن الوليد على باب شرقي، ونزل يزيدُ بن أبي سفيان على باب كَيْسان، ونزل شرُحَبيل ابن

---

(١) يريد المهلّبي بذلك جبل قاسيون كما هو واضح. والطريف أن هذه الصيغة بإسقاط الألف هي الأقرب إلى مبنى الاسم في اشتقاقه الأصلي باللغة السريانية، وهو فيها: قشيون - قشيونا، ومعناه: القاسي. وهذا المعنى ينطبق على طبيعة الجبل القاسية، وعلى اسمه بالعربية أيضاً. انظر كتابنا: معالم دمشق التاريخية، دراسة تاريخية ولغوية ٤٢٨.

حسنة على باب الفراديس، ونزل عمرو بن العاص على باب توما. وحصرها المسلمون مدّة، ثم فتحها أبو عبيدة من ناحية باب الجابية.

فلمّا أحسَّ مَنْ فيها بالغَلَبَة مالوا إلى خالد بن الوليد فصالحوه من ناحية الباب الشرقي[1]، وفتحوا له فدخل، فالتقى بأبي عبيدة في المدينة. فاختلفا في فتحها هل هو عَنوة أو صُلح، وكتبا في ذلك إلى عمر، فأمضاها على الصلح. وبنى المسلمون الجامع إلى جانب كنيسة يوحنّا.

فلمّا تملّك معاوية بن أبي سفيان أراد أن يزيد الكنيسة في المسجد فمنعه النصارى عن ذلك، فأمسك عن طلبها.

ثم لمّا تملّك عبد الملك أراد أن يفعل ذلك، وبذل فيه مالاً كثيراً، فمنعه النصارى منه.

فلمّا تملك الوليد بن عبد الملك جمعهم وأرغبهم، وبذل لهم مالاً عظيماً، فأبوا عليه. فقال لهم: إنكم إن أجبتموني إلى ما أريده وإلا خربت الكنيسة. فقال له بعضهم: إن من خرّب كنيسة جُنّ. فأحفظه ذلك. فنهض في ثوب خزّ أصفر فوضع المعول بيده فيها فنقضها وزادها في أرض المسجد. وبناه بنية ليس على وجه الأرض مثلها [أو] أسرف منها.

وطول مسجد دمشق مئة وست وخمسون ذراعاً بالسوداء، من حائطه الشمالي إلى قبلته، وعرضه أكثر من طوله وهو مئة وسبعون ذراعاً،

---

(١) من الملاحظ أن المؤرّخين قد اختلفوا في الكيفيّة التي تمّ بها فتح دمشق، وقد تبع الكثيرون رأي الواقدي (وهو متأخّر) أن خالداً فتحها بالسيف قبل أبي عبيدة، بينما ذكر آخرون خلاف ذلك (أنظر البلاذري مثلاً وقول المهلّبي أعلاه). والذي نراه أن خلافاً بين قادة المدينة المحاصرة قد يكون نشب إبّان الحصار، فنجم عنه انحياز بعضهم إلى خالد ومعاونته على فتح الباب الشرقي؟

والرواق منه في مقدار نصف ذرع الطول. وفي رواقه اثنا [ن] وأربعون عموداً، عليها ثلاثة صفوف من الحنايا والعمدان كلّها رخام مجزّع، والحنايا وحيطان المسجد كلّها إلى حدّ سقفه منقوشة أبدع نقش بالفسيفساء الملوّن المدهون والمذهب، يخطف الطَّرْف.

وفي وسطه قبّة ارتفاعها نحو خمسين ذراعاً، منقوشة مذهبة الباطن، مقرمدة من خارجها بالقرميد الرصاص، وكذلك جميع سطوح الجامع. وأرض صحنه كلّها مفروشة بالمرمر الأبيض. وكذلك حيطانه كلّها في صحنه وسائر أروقته منقوشة مذهبة بالفسيفساء.

ولمّا تمّم الوليد بن عبد الملك بناءه اصطبح فيه أربعين يوماً يشرب الخمر على قيانه، ثم قال: أمّا أنا فقد أخذت صفو هذا البيت وتركت للناس كدره!

وقد ذكر بعض أهل العلم أنّ حائطه القبلي بناه هود النبي عليه السلام.

ومن طريف الاتفاقات فيه أنّه كُتب في حائطه القبلي سُوَر من القرآن بالفسيفساء المذهب في تضاعيف النقش. فأول سورة كُتبت من ذلك: ﴿والنَّازِعاتِ غَرْقاً﴾(١)، واتفق أن وقع على نفس حنية القبلة تجاه وجه الإمام من آيات القرآن: ﴿عاملةٌ ناصبة* تصلى ناراً حامية﴾(٢).

قالوا: وفي سقف المسجد خمسة طِلّسمات للحيّات والعقارب والعناكب، والخطاطيف والغربان، فما يدخله شيء من هذا الحيوان.

---

(١) سورة النازعات: ١.

(٢) سورة الغاشية: ٣ - ٤.

ومن عيوب هذا المسجد أن قبلته منحرفة عن سَمْت القبلة الصحيحة إلى نحو المشرق كثيراً[1].

قالوا: وكان من رسم الرّوم إذا استرمّت[2] كنيسة أن يسخّروا مَنْ وجدوه من الغُرباء في مُدُنهم. وكانت قُرَيش قديماً قبل الإسلام يسافرون إلى الشام في التجارات، فاتفق أن دخل عمر بن الخطّاب في أيام احتيج فيها إلى تسخير الغرباء، فتسخّر في الكنيسة أيّاماً.

وفي ظهر الجامع كانت خضراء معاوية وهي داره[3]، وهي الآن مجلس الشرطة ودار الضرب.

ومن طرائف دمشق دار تُعرف بدار قرمان[4]. وهي الآن ثابتة، فيها ثلاث وستّون بئراً كلّها ماء معين.

وبظاهر دمشق وادي البنفسج[5]. تكسيره نحو أربعة أميال، ونهر

---

(١) وليس ذلك بصحيح، فالحائط القبلي للجامع الأموي يكاد ينطبق على الجنوب الجغرافي. وأمّا الاتّجاه الصحيح لسمت مكّة (القبلة) في دمشق فينبغي أن يكون بمقدار ٧٥ درجة شرقاً، أي ينحرف عن الجنوب الجغرافي باتجاه الشرق (عكس عقارب الساعة) بمقدار ١٥ درجة تقريباً.

(٢) أي احتاجت إلى الإصلاح والترميم.

(٣) المقصود قصر الخضراء الشهير، إلى الجنوب المجاور للجامع الأموي في موضع الصاغة القديمة. أنظر تاريخ ابن عساكر ٢/ ١٣٣، ١٣٨.

(٤) لم نجد أي ذكر لهذه الدار في أيّ من المصادر القديمة عن دمشق، كتاريخ دمشق لابن عساكر وتاريخ ابن القلانسي والأعلاق الخطيرة لابن شدّاد.

(٥) وادي البنفسج (وجواره ميدان الشقراء) ذكره غير واحد من المؤرخين القدامى الذين كتبوا عن دمشق، كالقزويني و العمري و البدري. وموقعه في أيامنا مابين ساحة المرجة والمعرض.

بردى يشقّه، فالوادي كلّه مملوء بشجر السرو، لا تصل الشمس إلي أكثر أرضه. وأرضه كلّها بنفسج متّشح بعضه ببعض، في نهاية الحُسن.

وبدمشق عدةّ من ألوان الورد. فمنها أصفر إبريز[1]، وأسود، وسُمّاقي[2]، وورد موجّه، للورقة لونان من خارجها وداخلها. وليس الزّهر على وجه الأرض ببلد أكثر منه بدمشق. اهـ

المسالك والممالك للمهلّبي، نقلاً عن المنجّد

(١) الإبريز: معرّبة عن اليونانيّة، وتعني الذهب الخاص.

(٢) اللون السمّاقي: الأحمر الأرجواني الضارب إلى الليلكي، ويعرف في الفرنسيّة باسم: Porphyre، وهو فيها ضرب من الرخام له نفس اللون (الرخام السمّاقي). والسُّمّاق شجيرة بريّة من فصيلة البُطميات، تستعمل بذورها تابلاً وأوراقها دباغاً.

- ٢١ -

المقدّسي
أبو عبد الله محمّد بن أحمد
(توفي حوالي ٣٨٠ هـ/ ٩٩٠م)

شمس الدين أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن أبي بكر البنّاء الشامي البشاري المُقدَّسي، شخصيّة عجيبة ومهمّة، يعتبره كراتشكوفسكي آخر عظماء المدرسة الكلاسيكيّة في الجغرافيا العربية. بينما يعتبره المستشرق الألماني شپرنگر Sprenger «أكبر جغرافي عرفته البشرية قاطبة»، ويعلّق على ذلك بقوله: ولا أعني بذلك أن كتابه في الجغرافيا يفوق المؤلّفات الحديثة في هذا الفنّ، ولكن من المحتمل أنه لم يسبقه شخص في اتساع مجال أسفاره وعمق ملاحظاته وإخضاعه المادّة التي جمعها لصياغة منظّمة. كما يرى المستشرق كرامرز Kramers أن المقدّسي أكثر الجغرافيين العرب أصالة وأن كتابه واحد من أكثر المصنّفات الجغرافيّة في الأدب العربي قيمة.

ولد المقدّسي عام ٣٣٥ هـ في القدس الشريف، ومن هنا أتى لقبه «المُقَدَّسي» نسبة إلى بيت المَقْدِس أو البيت المُقَدَّس كما كانت تلقّب مدينة القدس آنذاك. وأما لقب «ابن البنّاء» فلأنه كان حفيداً لبنّاء شهير شيّد ميناء عكّا في عهد أحمد بن طولون.

دفع المقدّسي ولعُه بالأسفار إلى زيارة جميع أنحاء العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه طولاً وعرضاً، باستثناء الأندلس والسِّند وسجستان. ويبدو أنه زار جزيرة صقلية، أما معلوماته عن الأندلس فقد نقلها عن حاجّين التقى بهما في مكّة عام ٣٧٧ هـ. وكان يعتمد دائماً على المشاهدة فيما يكتب ويسافر إلى البلاد التي وصفها، ما عدا القليل منها كما بيّنا.

أما كتابه الشهير «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» فقد ألّفه في مدينة شيراز عام ٣٧٥ هـ، وكان له من العمر أربعون عاماً، ثم أتمّه بمسوّدة ثانية عام ٣٧٨ هـ وقدّمه إلى بعض الخلفاء الفاطميين بمصر. ولم يلبث أن توفي بعدها، وذلك في حوالي عام ٣٨٠ هـ، بينما يرى كراتشكوفسكي أن وفاته كانت في أواخر القرن الرابع حوالي عام ٣٩٠ هـ.

وهذا الكتاب أحد أفضل مصادر الأدب الجغرافي العربي، ويكاد لا يضارعه مصدر آخر في إعطاء المعلومات الجغرافيّة والاجتماعية والاقتصاديّة والعلمية والسياسية، فهو غني جداً ويلمس القارىء فيه أصالة الوصف المستند إلى المشاهدة الشخصيّة، ففي نصّه المتعلّق بوصف دمشق كما سنرى يقدّم ما رآه بأم عينه بدلاً من النقل عن الآخرين. ومما يدلّ على تحرّي المقدّسي للدقّة في كل ما كتب ووصف اقتصاره على ذكر البلاد والأقاليم التي زارها كما أسلفنا، وذكر ما فيها من المفاوز والبحار والبحيرات والأنهار ووصف أمصارها المشهورة ومدنها المذكورة ومنازلها المسلوكة، واختلاف أهلها في كلامهم وألسنتهم وألوانهم ومذاهبهم ومكاييلهم وأوزانهم ونقودهم، وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ومياههم..

ويبدو أن المقدّسي كان يلجأ في رحلاته إلى التنكر في ملابس وأزياء مختلفة ويختلق أسماء متعدّدة حتى يتسنّى له الدخول في أماكن مختلفة بغية دراسة عاداتها وتقاليدها، وفي ذلك يقول: ولقد سُمِّيتُ بستة وثلاثين اسماً دعيتُ وخوطبتُ بها، مثل مقدسي وفلسطيني ومصري ومغربي وخراساني وفقيه وصوفي ووليّ وعابد وزاهد وسيّاح ووراّق وغير ذلك، لاختلاف البلدان التي حللتها وكثرة المواضع التي دخلتها. ثم إنه لم يبق شيء مما يلحق المسافرين إلا وقد أخذتُ منه نصيباً، فقد تفقّهتُ وتأدّبتُ وتزهدّتُ وتعبّدتُ وفقّهتُ وأدّبتُ وخطبتُ على المنابر وأذّنتُ على المنائر وأممتُ في المساجد وذكرتُ في الجوامع واختلفتُ إلى المدارس ودعوتُ في المحافل وتكلّمتُ في المجالس، وأكلتُ مع الصوفيّة الهرائس ومع الخانقائيين الثرائد ومع النواتي العصائد، وطُردتُ في الليالي من المساجد وسحتُ في البراري وتهتُ في الصحاري، وصدقتُ في الورع زماناً وأكلتُ الحرام عياناً. وصحبتُ عُبّاد جبل لبنان وخالطتُ حيناً السلطان، وملكتُ العبيد وحملتُ على رأسي بالزنبيل، وأشرفت مراراً على الغرق وقُطع على قوافلنا الطرق، وخدمتُ القضاة والكبراء وخاطبتُ السلاطين والوزراء، وصاحبتُ في الطرق الفُسّاق وبعتُ البضائع في الأسواق، وسُجنتُ في الحبوس وأُخذتُ على أني جاسوس، وعاينتُ حرب الروم في الشواني وضرب النواقيس في الليالي، وجلّدتُ المصاحف بالكرى واشتريت الماء بالغلى . .

ويضيف: وكم نلتُ العزّ والرفعة ودبِّر في قتلي غير مرّة، وحججْتُ وجاورتُ وغزوتُ ورابطتُ، وكُسيتُ خلع الملوك وأمروا لي بالصِّلات وعريتُ وافتقرتُ مرات، وكاتبني السادات ووبّخني الأشراف

وعُرضتُ على الأوقاف وخضعتُ للأخلاف، ورُميتُ بالبدع واتّهمتُ بالطمع، وأقامني الأمراء والقضاة أميناً ودخلتُ في الوصايا وجُعلتُ وكيلاً، وامتحنتُ الطرّارين واتّبعني الأرذلون وعاندني الحاسدون . .

ثم يعود فيذكر لنا ما عاناه في سبيل تصنيف كتابه فيقول: وما تمّ لي جمعه إلا بعد جولاتي في البلدان ودخولي أقاليم الإسلام، ولقائي العلماء، وخدمتي الملوك، ومجالستي القضاة، ودرسي على الفقهاء، واختلافي إلى الأدباء والقرّاء وكتبة الحديث، ومخالطة الزهّاد والمتصوّفين، وحضور مجالس القصّاص والمذكرين، مع لزوم التجارة في كل بلد والمعاشرة مع كل أحد، والتفطّن في هذه الأسباب بفهم قوي حتى عرفتها، ومساحة الأقاليم بالفراسخ حتى أتقنتها، ودوراني على التخوم حتى حرّرتها، وتنقّلي إلى الأجناد حتى عرفتها.

هذا وقد أضاف المقدّسي إلى كتابه النفيس خريطة مثّل فيها الأقاليم وحدودها وخططها، بيّن فيها الطرق المعروفة بالحُمرة، والرمال الذهبيّة بالصفُرة، والبحار المالحة بالخُضرة، والأنهار بالزُّرقة، والجبال المشهورة بالغُبْرة. غير أن هذه الخريطة لم تصل إلينا مع الأسف .

وينضمّ كتاب المقدّسي إلى السلسلة التي بدأها أبو زيد البلخي، ويمكن اعتباره آخر جغرافيي المدرسة الكلاسيكيّة الإسلامية بكل معنى الكلمة. وإن صلته بهذه المدرسة تنعكس في الخارطات أكثر مما في المتن نفسه، وهي تعيد إلى الذاكرة طابع خارطات الإصطخري. وعلى أي حال يحتلّ الكتاب مكانة مرموقة للغاية بين مؤلّفات الأدب الجغرافي العربي، لا بل بين ذخائر التراث العربي ونوادره قاطبة.

ويعود الفضل في نشر «أحسن التقاسيم» إلى المستشرق الهولندي

دى خُويّه M. J. De Goeje الذي ترجم فصولاً منه إلى الهولنديّة عام ١٨٧٥م، ثم نشره كاملاً بالعربيّة ضمن سلسلة المكتبة الجغرافيّة العربيّة، وطُبع بلايدن في هولاندة عام ١٩٠٦م. كما صدرت ترجمات عديدة لأقسام من الكتاب لعدّة مستشرقين، منهم كريمر Kremer ونالّينو Nallino وكراتشكوفسكي Krachkovski وغيرهم. ثم ظهرت ترجمات كاملة بقلم رانكنغ Ranking وأزو Azoo وسوڤاجيه Sauvaget .

أما عن دمشق فقد قدّم لنا المقدّسي نصّاً شيّقاً ومفيداً، اعتمد فيه على المشاهدة فيما كتب وفيه ما ينمّ عن دقّة الملاحظة والأصالة في الوصف. من ذلك ذكره لحصن أحدث بها وكان رآه قبل ذلك من طين، وهذا قبل بناء قلعة دمشق في العهد السلجوقي. بيد أن المؤلف لم يقدّم لنا معلومات تدل على تاريخ زيارته لدمشق، غير أنه كان كما يبدو في الثلث الأخير من القرن الرابع الهجري، وكانت دمشق آنذاك بيد الفاطميين.

وقد رجعنا في نقل هذا النص إلى طبعة لايدن.

المصادر:

أحسن التقاسيم للمقدّسي، مقدّمة دى خُوْيّه باللاتينية
تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ١/ ٢٠٨ - ٢١٥
الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم متز ٢/ ٢
أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب للمنجّد ٢/ ٩ - ٤٢
مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجّد ٧٢
جهود المسلمين في الجغرافيا لنفيس أحمد ٥٧
الرحلة والرحّالة المسلمون لأحمد رمضان ١٢٩
C. Brockelmann: Geschichte der Arabische
Litteratur; Supp. I, S. 410.

دمشق

دِمشقُ هي مصرُ الشـام ودار المُلْكِ أيّام بني أميَّة، وثَمَّ قـصُورهُم وآثارهم. بنيانُهم خشبٌ وطين. وعليها حصن أُحدِثَ وأنا به من طين(۱). أكثرُ أسواقها مُغَطَّاة، ولهم سوقٌ على طولِ البلد مكشوفٌ حَسَن.

وهو بلدٌ قـد خـرَقَتْه الأنهـارُ، وأحدقتْ به الأشـجار، وكـثُرَتْ به الثمـارُ، مع رخصِ أسعارٍ، وثلج وأضداد. لا ترى أحسن من حَمَّاماتها، ولا أعجب من فوّاراتها، ولا أحزم من أهلها.

الذي عرفتُ من أبوابها: باب الجابيَة، باب الصغير، باب الكبير، باب الشرقيّ، باب تُوما، باب النهر، باب المَحَامِليِّين.

وهي طيِّبة جداً، غير أنّ في هوائها يبُوسة، وأهلُها غاغةٌ، وثمارها تَفِهَةٌ، ولحومُها قاسية، ومنازلُها ضيّقة، وأزقَّتها غامَّة، وأخبازُها رديَّة، والمعايشُ بها ضيّقة، تكون نحو نصف فرسخ في مثله في مستوى.

والجامعُ أحسن شيء للمسلمين اليوم، ولا يُعلم لهم مالٌ مجتَمعٌ أكثر منه. قد رُفعتْ قواعدهُ بالحجارة الموجَّهة كباراً مؤلَّفة، وجُعل عليها شرُفٌ بهيَّة، وجُعلت أساطينُها أعمدةً سوداً مُلْساً على ثلاثة صفوف واسعة جداً، وفي الوسط إزاء المحراب قبَّةٌ كبيرة، وأُدير على الصحن أروقةٌ

---

(۱) هذه إشارة هامّة ينفرد بها المقدّسي، تنصّ صراحة على رؤيته لحصن أحدث بدمشق في العهد الفاطمي مع حصن سابق له مبني باللّبن (قوله: من طين)، وذلك قبل بناء القلعة السلجوقية الذي باشره إتسز بن أوق الخوارزمي عام ٤٦٩ هـ، عقيب استيلائه على دمشق من أيدي الفاطميين.

متعاليةٌ بفِراخٍ فوقها، ثم بُلِّط جميعه بالرّخام الأبيض، وحيطانه إلى قامتين بالرخام المجزَّع، ثم إلى السقف بالفُسافساء الملوَّنة والمذهبة صورُ أشجارٍ وأمصارٍ وكتاباتٌ على غاية الحُسن والدقَّة ولطافة الصنعة. وقلَّ شجرةٌ أو بلدٌ مذكور إلاّ وقد مُثِّل على تلك الحيطان، وطُليت رؤوس الأعمدة بالذهب.

وقناطر الأروقة كلُّها مرصَّعة بالفسيفساء، وأعمدة الصحن كلّها رخام أبيض، وحيطانُه بما يدور والقناطر وفراخها بالفسيفساءِ، نقوش وطروح.

والسطوحُ كلّها ملَبَّسَةً بشقاق الرّصاص، والشرافيّات من الوجهين بالفسيفساء.

وعلى الميمنة في الصحن بيتُ مال على ثمانية عُمُدٍ مرصَّعٌ حيطانهُ بالفسيفساء. وفي المحراب وحوله فصوصٌ عقيقيّة وفيروزجيَّة كأكبر ما يكونُ من الفصوص. وعلى الميْسرة محرابٌ آخر دون هذا للسلطان. وقد كان تشعَّث وَسَطُهُ فسمعتُ أنه أُنفق عليه خمسُ مئة دينار حتى عاد إلى ما كان.

وعلى رأس القبَّة ترنجة فوقها رمّانة، كلاهما ذهب.

ومن أعجب شيءٍ فيه تأليفُ الرّخام المجزَّع، كلّ شامة إلى أختها.

ولو أنّ رجلاً من أهل الحكمة اختلف إليه سنةً لأفاد منه كلَّ يوم صيغة وعقدة أخرى.

ويُقال إن الوليد جمع لبنائه حُذّاقَ فارس والهند والمغرب والروم، وأنفق عليه خَراجَ الشام سبع سنين، مع ثماني عشرة سفينة ذهب وفضّة أقلعت من قبرص، سوى ما أهدى إليه ملكُ الرّوم من الآلات والفسافساء.

ويدخل إليه العامّة من أربعة أبواب: باب البريد عن اليمين، كبير له فرخان عن يمين وشمال، على كل واحدٍ من الباب الأعظم والفرخين مصراعان مصفّحة بالصُّفّر المذهب، وعلى الباب والفرخين ثلاثة أروقة، كلٌّ باب يفتح إلى رواق طويل قد عُقدت قناطره على أعمدة رخامٍ لبّست حيطانه على ما ذكرنا. وجميع السُّقوف مزوَّقة أحسن تزويق.

وفي هذه الأروقة موضعُ الورّاقين، ومجلس خليفة القاضي.

وهذا الباب بين المُغطّى والصحن يقابله عن اليسار بابُ جيرون على ما ذكرنا، غير أن الأروقة معقودةٌ بالعرض، يُصعد إليه في درج، يجلس فيه المُنجِّمون وأضرابُهم.

وباب الساعات في زاوية المغطّى الشرقيّة مصراعان سواذج[1]، عليه أروقة يجلس فيه الشروطيُّون وأشباههم.

والباب الرابع باب الفرَاديس، مصراعان قبال المحراب، في أروقة بين زيادتين عن يمين وشمال، عليه منارةٌ مُحدَثَةٌ مُرصَّعة على ما ذكرنا.

وعلى كلّ من هذه الأبواب مَيْضأة مُرخَّمة، ببيوت ينبع فيها الماء، وفوّارات خارجة، في قصاع عظيمة من رخام.

ومن الخضراء، وهي دار السلطان، أبوابٌ إلى المقصورة مصفَّحة مطليّة.

وقلتُ يوماً لعمّي: يا عمّ، لم يُحْسِن الوليد حيث أنفق أموال المسلمين على جامع دمشق، ولو أصرف ذلك في عمارة الطرق والمصانع ورمِّ الحصون لكان أصوب وأفضل.

---

(١) السواذج جمع ساذج، وهو الخالص غير المشوب وغير المنقوش.

قال: لا تفعل يا بنيّ! إن الوليدَ وُفّق وكُشفَ له عن أمرٍ جليلٍ. وذلك أنه رأى الشام بلد النصارى، ورأى لهم فيها بيَعاً حسنةً قد أفتن زخارفها وانتشر ذكرها، كالقُمامة وبيعة لُدّ والرُّها. فاتّخذ للمسلمين مسجداً أشغلهم به عنهنّ، وجعله أحد عجائب الدنيا. ألا ترى أن عبد الملك لمّا رأى عظم قبّة القمامة وهيئتها خشي أن تَعْظُمَ في قلوب المسلمين فنصب على الصخرة قبّة على ما ترى.

ووجدتُ في كتاب بخزائن عضد الدولة: عَروسا الدنيا دِمَشْقُ والريُّ.

وقال يحيى بن أكثم: ليس بالأرض أنزه من ثلاث بقاع: سَمَرْقَنْد، وغُوطة دمشق، ونهر الأُبُلَّة.

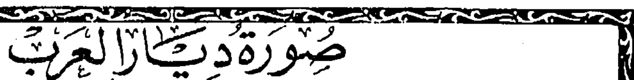
ودمشقُ بناها دمشق بن قاني بن مالك بن أرفخشذ بن سام قبل مولد ابراهيم بخمس سنين.

وقال الأصمعيُّ: لا بل اشتُقّ اسمها من دَمْشقوها أي أسرعوها.

ويُقال: إن عمر بن عبد العزيز أراد أن ينقض الجامع ويجعله في مصالح المسلمين حتى ناظروه في ذلك.

وقرأتُ في بعض الكتب: إنّما أنفق عليه ثمانية عشر حملِ بغلٍ ذهب.

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ١٥٦-١٦٠

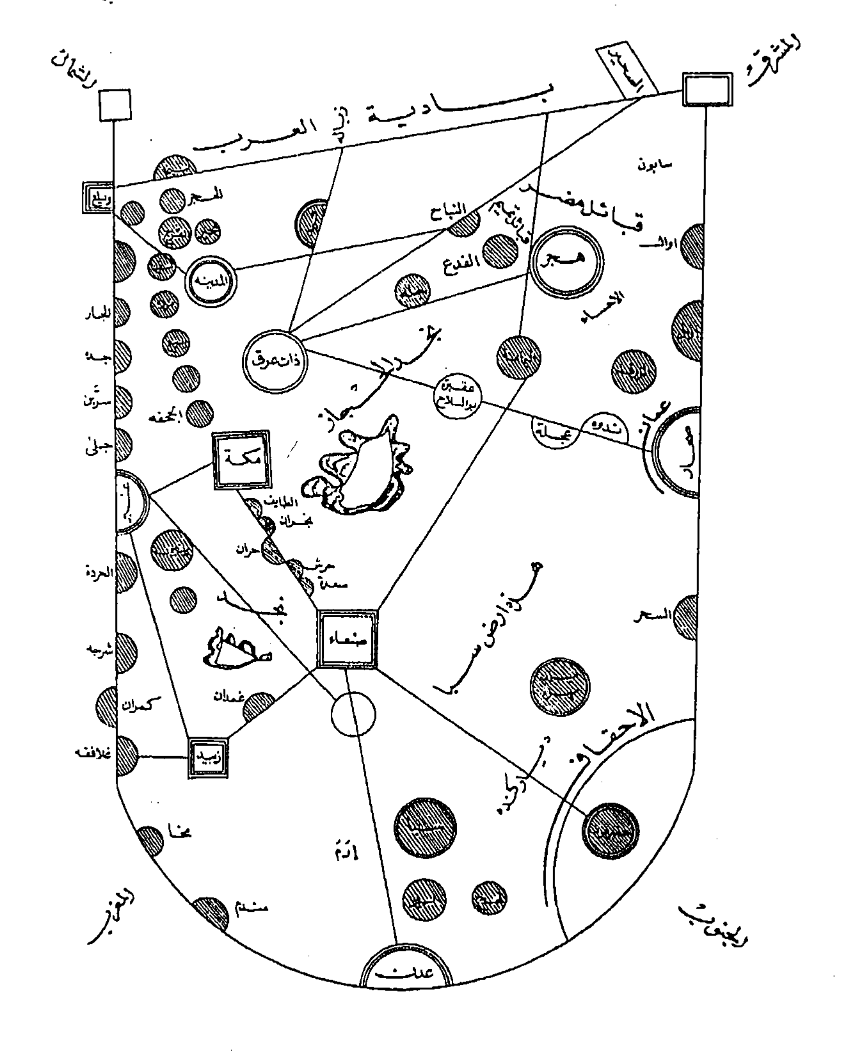


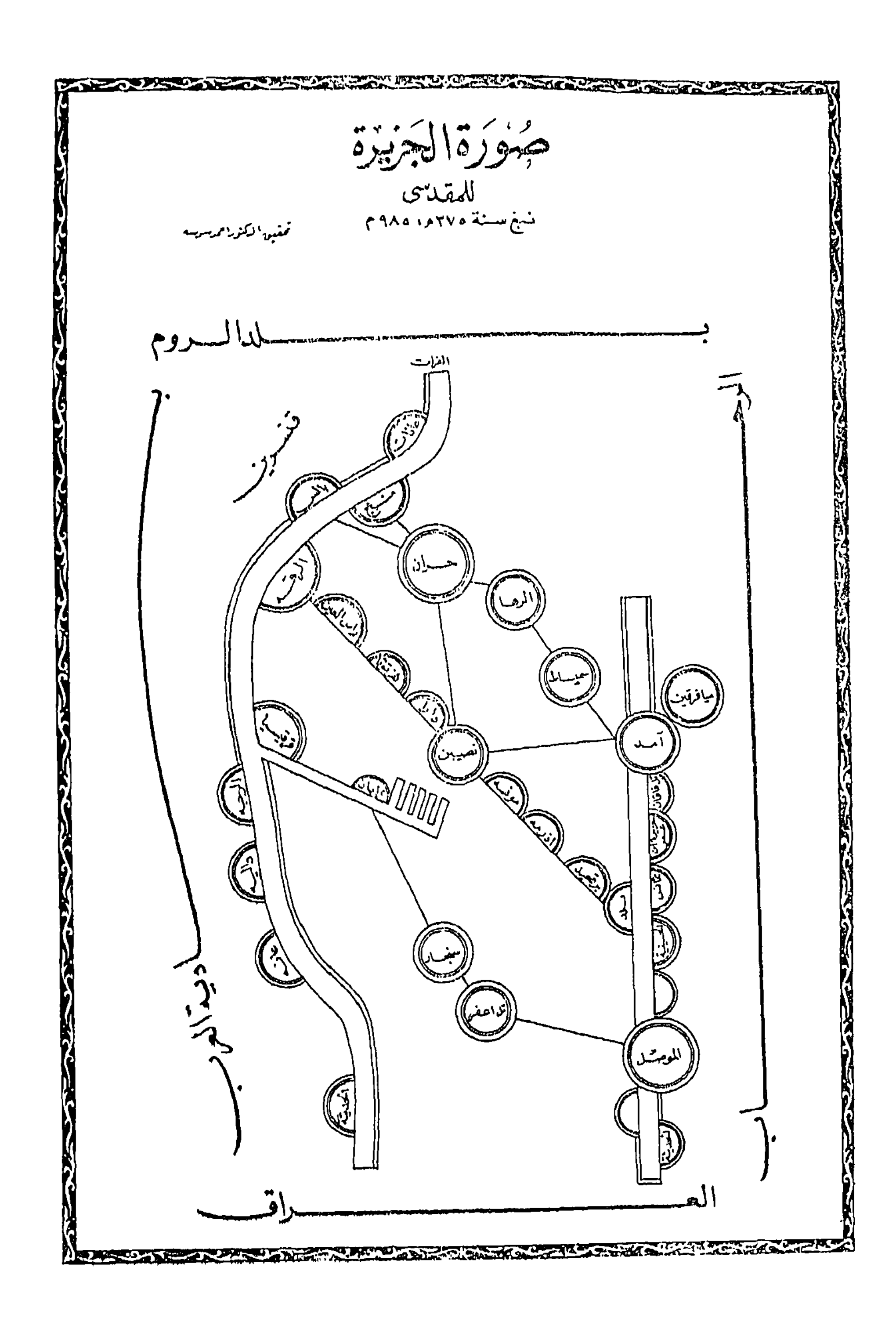
صورة ديار العرب

للمقدسي (نبغ سنة ٣٧٥ هـ - ٩٨٥ م)- مقتطفات من كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»

«... انما بدانا بجزيرة العرب لان بها بيت الله الحرام، ومدينة النبي عليه الصلاة والسلام، ومنها انتشر دين الاسلام، وفيها كانت الخلفاء الراشدون، والانصار والمهاجرون، وبها عقدت رايات المسلمين، وقويت امور الدين، وايضا فإن بها المشاعر والمناسك والمواقيت والمناحر ...
ومع ذلك فانها تشتمل على حدود جليلة، وكور كبيرة واعمال نفيسة، الا ترى ان الحجاز كلها واليمن باسرها وبلد سبأ والاحقاف واليمامة والاشحار وهجر وعمان والطائف ونجران وحنين والمخلاف وحجر صالح وديار عاد وثمود والبئر المعطلة والقصر المشيد وموضع إرم ذات العماد واصحاب الاخدود وحبس شداد وقبر هود وديار كنده وجبل طي وبيوت الفارهين بالواد وجبل سينا ومدين شعيب وعيون موسى فيها وهي امذ الاقاليم مساحة وافسحها ساحة وافضلها تربة واعظمها حرمة واشرفها مدنا بها صنعاء التي فاقت البلاد وعدن التي تشد اليها الرحال والمخاليف للاسلام فيها جمال واليمن الجليلة والحجاز ....»

«تحقيق الدكتور احمد سوسه»




صورة الجزيرة
للمقدسي
نسخ سنة ٣٧٥هـ ، ٩٨٥م
تحقيق الدكتور احمد سوسه
بلاد الروم
الفرات
قنسرين
حران
الرها
ميافارقين
آمد
نصيبين
سنجار
تل اعفر
الموصل
العراق

- ٢٢ -

الشابُشتي
أبو الحسن علي بن محمد
(توفي ٣٨٨ هـ/ ٩٩٨م)

ذكرنا في ترجمتنا السالفة لأبي الفرج الأصبهاني أن القرن الرابع الهجري في عهد العباسيين شهد ظهور نمط جديد من أشكال مؤلفات الأدب الجغرافي العربي، نعني بذلك كتب «الديارات». وقدّمنا أن هذه الكتب عنيت بتعداد الأديرة المشهورة في أنحاء العراق والشام ومصر، مع أخبار من مرّ بها من الخلفاء والخلعاء والشعراء والأمراء والظرفاء، مطعّمة بالأشعار والمُلَح والنّوادر الأدبيّة.

وهذه الديارات، دون ريب، لم تجتذب اهتمام الأدباء والشعراء بوصفها أماكن عبادة، بل بسبب شهرة نبيذها. ففيها كان يطيب إقامة مجالس الشرب وإنشاد الشعر، في بساتين الدير أو مقاصيره بعيداً عن أعين الرقباء. وكانت الأشعار المنشدة فيها تصف هذه المجالس وصفاً حيّاً يقدّم لنا لوحة دقيقة لحياة ذلك العصر.

هذا وقد بلغ عدد المصنّفات المعقودة للديارات العشرين تقريباً، ومن أهمّها كما أسلفنا كتابا الأصبهاني والشابُشتي.

فأمّا الشابُشتي فهو صاحب كتاب «الديارات» الشهير، ولا يُعرف

عنه الكثير غيرما ذكره ياقوت الحموي وابن خلّكان والصلاح الصفدي.
وأجمع هؤلاء أن الشابُشتي كان متولياً لخزانة كتب الخليفة الفاطمي العزيز بالله ابن المعزّ بمصر، بينما تضاربت الأقوال في تاريخ وفاته بين ٣٨٨ هـ و٣٩٩ هـ. وأما اسمه «الشابُشْتِي» فقد افترض فيه ابن خلّكان أنه ديلمي الأصل، بينما رأى جماعة من الباحثين المحدثين أن اللفظة فارسيّة منحوتة: (شاه - پُشتي)، وتعني عماد المَلِك، أو المرافق يمشي خلفه ويمنع الناس عنه.

وقد وصلتنا من كتاب الديارات مخطوطة فريدة محفوظة في مكتبة برلين، غير أنها لا تخلو من السقط، ودليل ذلك أنها لم تورد سوى ديارات العراق، دون ديارات الشام ومصر. كما ورد ذكر لنسخة مزوّقة (أي مصوّرة) من الكتاب، رآها بعينه المؤرّخ الدمشقي ابن طولون الصالحي في القرن العاشر الهجري، ولكنها بادت مع الأسف ولم تصلنا.

وقام بنشر مخطوطة برلين من كتاب الديارات علاّمة العراق الأستاذ كوركيس عوّاد، وصدرت ببغداد عام ١٩٥١. وليس في المطبوع ما يتعلّق بدمشق، غير ما ذيّله الناشر نقلاً عن المؤرّخ ابن شدّاد. هذا وكان أستاذنا الدكتور صلاح الدين المنجّد يعدّ لنشر الكتاب، ثم تنازل عنه لعوّاد.

المصادر:

كتاب الديارات للشابُشتي، مقدّمة عوّاد
تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ١/ ٢٣٥
الديارات النصرانية في الإسلام لحبيب الزيّات

دير صليبا

سقطت أخبار هذا الدير من نسخة الديارات للشابُشتي فيما سقط منه، وقد نبّه إلى وروده في الأصل عزّ الدين ابن شدّاد، المتوفى عام ٦٨٤هـ في كتابه «الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة»:

دير صليبا بدمشق:

مطلّ على الغوطة، ويليه من أبوابها باب الفراديس، وهو يُعرف بدير خالد لأن خالد بن الوليد المخزومي نزله أيام حاصرت العرب دمشق وفتحها. وهذا الدير في موضع حسن، كثير البساتين والمياه عجيب البناء، وأرضه مفروشة بالبلاط الملوّن. وإلى جانبه دير للنساء، وهما آهلان.

قال الشابُشتي[1]: وأنشدتُ فيه:

يا دَيْرَ باب الفراديس المهيّجَ لي ... بلابلاً بقلاليه وأشجارهْ
ومفلساً لي من مالي ومن نشبي ... بما أباكره من خمر خمّارهْ
لو عشْتُ تسعين عاماً فيك مُصطبحاً ... لما قضى منك قلبي بعضَ أوطارهْ

ذيل الديارات للشابُشتي، ط٢، ٣٣٩
الأعلاق الخطيرة لابن شدّاد ٢٧٧

---

(١) هذه الأبيات ذكرها أيضاً المؤرّخ ابن طولون الصالحي، المتوفى عام ٩٥٣ هـ، في رسالته: اللمعات البرقيّة في النكت التاريخيّة، ص ٣٧ - ٣٨.



تأليف

أبو الحسن علي بن محمد المعروف بالشابشتي

عني بتحقيقه ونشره

كوركيس عواد

- ٢٣ -

ابراهيم بن أبي الليث الكاتب

(توفي بعد ٤٣٢ هـ/ ١٠٤٣م)

لا نعلم شيئاً عن حياته، غير رسالة له حفظها لنا مؤرّخ دمشق الكبير ابن عساكر في تاريخه. فقد قدم ابن أبي الليث دمشق عام ٤٣٢ هـ أواخر أيام حاكمها أمير الجيوش أنُوشتكين الدزبري الختلي، وذلك في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله (تولّى الخلافة ٤٢٧ هـ)، وكتب رسالة إلى بعض الكتّاب في أصبهان يصف بها دمشق وحُسن جامعها.

وقد نقلنا هذه الرسالة من «تاريخ مدينة دمشق» لابن عساكر، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجّد، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٥٤.

المصادر:

تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، جزء ٢، القسم الأول، ص ١٦
ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ٧١ - ٨٣

[دمشق]

وذكر ابراهيم بن أبي الليث الكاتب، وكان قدم دمشق سنة اثنتين وثلاثين وأربع مئة، في رسالة له قال:

ثو أُمرنا بالانتقال إلى البلد، فانتقلتُ منه إلى بلد تمّت محاسنه، ووافق ظاهره باطنه. أزقّته أرِجة، وشوارعه فَرِجة، فحيث ما مشيتَ شممتَ طيباً، وأين سعيت رأيت منظراً عجيباً.

وأفضيتُ إلى جامعه فشاهدتُ ما ليس في استطاعة الواصف أن يصفه، ولا الرائي أن يعرفه. وجملته أنه بِكْرُ الدهر، ونادرة الوقت، وأعجوبة الزمان، وغريبة الأوقات. ولقد أبقت [بنو] أميّة به ذكراً يُدرس، وخلّفت به أثراً لا يخفى ولا يدرس.

تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٢/ ١٦

مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجّد ٨٧

- ٢٤ -

البيروني
محمّد بن أحمد الخوارزمي
(توفي ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨م)

محمّد بن أحمد أبو الريحان البيروني الخوارزمي، فيلسوف رياضي مؤرّخ من أهل خوارزم، ولد عام ٣٦٢ هـ في مدينة كاث عاصمة خوارزم التي قامت موضعها في عصرنا بلدة صغيرة تابعة لجمهورية أوزبكستان. أقام في الهند بضع سنين، واطّلع على فلسفة اليونان والهنود، وعلت شهرته وارتفعت منزلته عند ملوك عصره. صنّف كتباً كثيرة متقنة، رأى ياقوت الحموي فهرستها بمكتبات مرو في ستّين ورقة، ونقل منها الكثير في مؤلّفاته.

ومن أخصّ مؤلّفاته: «الآثار الباقية عن القرون الخالية» و«الاستيعاب في صنعة الأسطرلاب» و«الجماهر في معرفة الجواهر» و«تاريخ الأمم الشرقية» و«القانون المسعودي» في الهيئة والنجوم والجغرافية، و«تاريخ الهند» و«تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل

أو مرذولة» و«التفهيم لصناعة التنجيم» و«استخراج الأوتار في الدائرة» و«تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن».

وأمّا هذا الكتاب «تحديد نهايات الأماكن» فكان أول مصنفاته الكبرى التي بدأ تأليفها في غزنة، وأتمّه عام ٤١٦ هـ. وهو يشتمل على عدّة قواعد وتعليمات في مسائل علم الفلك التطبيقي، وفي الفصل الأول منه بيّن بالتفصيل الوافي الطرق المختلفة لاستخراج العرض بمساعدة الارتفاع الأعظم Apogee والارتفاع الأدنى Epigee للشمس أو الكواكب الكبرى عن سطح أفق السماء بواسطة ثلاثة أرصاد في مدّة يوم وليلة.

وفي الفصل الثاني بيّن طرق استخراج الميل الأعظم بواسطة رصد الشمس لنصف النهار في المنقلبين الشتوي والصيفي. وفي الثالث استخراج عرض المكان أو الميل. وفي الرابع استخراج طول المكان بطريق رصد كسوف قمري معيّن في بلدين معيّنين، وتحديد فرق الوقت المحلّي بينهما.

وهكذا يصبح الكتاب إيضاحاً يساعد على حل بعض مشاكل الفلك العملي والجيوديزيا، جمع فيه البيروني كل المعلومات عن هذه المواضيع التي توصّل إليها علماء البلاد الشرقية من أيام بطليموس حتى زمانه. وإلى جانب شرحه المفصّل لنظريات الفلك، يعطي البيروني أمثلة عديدة من أرصاده وأرصاد غيره من الفلكيين. ولذلك أصبح هذا الكتاب مرجعاً قيّماً لتاريخ حياة البيروني خاصة، ولتاريخ علم الفلك عند العرب عامّة.

وفي الكتاب أيضاً وصف تفصيلي لبعض آلات الأرصاد الفلكية المستعملة في أيام البيروني في الشرق، وأهمّها السُّدُس الفخري الذي اخترعه معاصره الخجندي.

وفي الكتاب نص نادر عن بعض أعمال الرصد الفلكي التي أمر بالقيام بها الخليفة العبّاسي المأمون في دمشق ، وعن المرصد الذي أقيم بأمر منه على جبل قاسيون بالقرب منه عام ٢١٦ هـ ، وبعض تفاصيل هذه الأرصاد التي قام بها الفلكي خالد بن عبد الملك المرورّوذي .

ونشر الكتاب بتحقيق المستشرق پ. بولگاكوف في مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الثامن ، الجزءان الأول والثاني ، القاهرة ١٩٦٢ . ومن هذه النشرة نقلنا ما يتعلق بمرصد دمشق .

ومما تجدر الإشارة إليه أن مدينة كاث التي ولد بها البيروني أطلق عليها اسمه في عصرنا «مدينة البيروني» ، كما يذكر بولگاكوف ، تخليداً لذكراه ، وهي تقع على شاطئ نهر آموداريا (نهر جيحون قديماً) ، على مسافة ٢٠٠ كيلومتر تقريباً إلى جنوب بحيرة آرال .

المصادر :

تحديد نهايات الأماكن للبيروني ، مقدمة بولگاكوف
الأعلام للزركلي ٦/ ٢٠٥

من الفصل الأول

ولم يتصل بنا رصد أحد بعد بطليموس إلى زمان المأمون أمير المؤمنين ، فإنه أمر يحيى بن أبي منصور بتجديد الاعتبار ففعل ذلك بالشماسية . . . وكان ذلك في سنة ثلاث عشرة ومائتين للهجرة ، وسنة سبع وتسعين ومائة ليزدجرد . واختُرم يحيى بن أبي منصور قبل خروج المأمون إلى الروم .

ولمّا وُجد في سنة أربع عشرة ومائتين للهجرة ، وثمان وتسعين ومائة ليزدجرد ، بالشماسية أكثر الارتفاع (ف ح) وأقلّه (لب نح) ، كان الميل بحسب نصف فضل ما بينهما مائتين وثلاثة وثمانين جزءاً من أربعة آلاف وثلاثمائة وعشرين جزءاً من الدور . وذلك (كج له) .

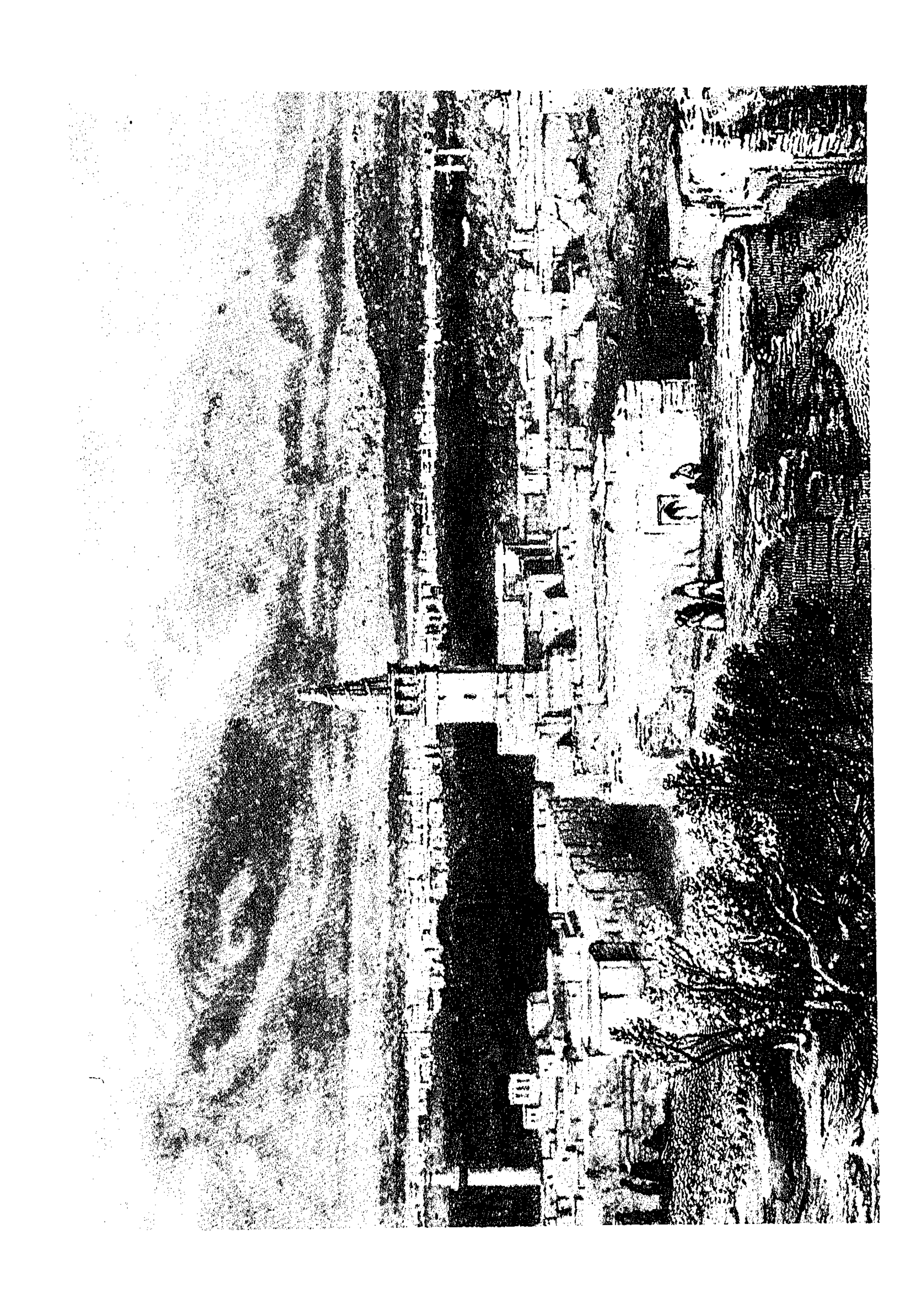
فاسترذل المأمون الرصد الأول ، وذكر أنه فاسد لا لأجل الاختلاف في مقدار الميل ، بل لعظم الاختلاف في الارتفاعين .

ثم أمر المأمون خالد بن عبد الملك المرورّوذي أن يرصد بدمشق ، فبنى على جبل دير مرّان لَبِنَةَ عظّمها وصيّر ضلعها عشرة أذرع ، وأجرى في محيط الربع ، وهو آلة من رخام آلة شبهيّة/مثقوبة ، يُنظر منها إلى الشمس ؛ والوتد الذي على مركز الربع . فرصد بها سنة متوالية دخل بعضها في سنة ست عشرة ومائتين ، وبعض في سنة سبع عشرة ومائتين للهجرة (١) .

تحديد نهايات الأماكن ٨٩-٩١

---

(١) يتابع المؤلف بعد ذلك بذكر بعض الأرصاد والقياسات التي عملها خالد بدمشق ، ص ٩٣ .



رصد خالد بدمشق

وجده خالد بن عبد الملك المروروذيّ بدمشق قبل نصف نهار يوم الخميس السادس والعشرين من فرموثى سنة ألف وخمسمائة وثمانين لبختنصرّ باثنتي عشرة ساعة وأربعة أخماس ساعة. والذي يستعمل لدمشق من الطول بينها وبين بغداذ عشر درجات، ووضعها من الرّقة والإسكندرية لا يأبى ذلك، فيكون هذا الاعتدال بغزنة بعد نصف نهار يوم الأربعاء الخامس والعشرين من فرموثى (لج مج مد).

تحديد نهايات الأماكن ٢٩٩

- ٢٥ -

العُذْري الأندلسي
أحمد بن عمر بن أنس
(توفي ٤٧٦ أو ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٣ أو ١٠٨٥م)

أحمد بن عمر بن أنس العُذْري الدلائي المريّي، من علماء الأندلس في القرن الخامس الهجري، ولد عام ٣٩٣ هـ في مدينة دلاية من أعمال إقليم المريّة. وهو شيخ ابن عبد البرّ (صاحب كتاب القصد والأمم في التعريف بأصول العرب والعجم)، وشيخ ابن حزم الأندلسي الأديب والفيلسوف الشهير.

قام العذري برحلة إلى المشرق، وعاش بمكّة المكرّمة نحواً من تسعة أعوام، ولذا كان من الطبيعي أن تتّصف معلوماته الجغرافيّة بالعمق ولا تعتمد على المادّة المدوّنة في الكتب وحدها، بل وعلى انطباعاته الشخصيّة كذلك. ودفعه الترحال والاطلاع إلى تصنيف كتاب دوّن فيه مشاهداته، وهو «نظام المرُجان في المسالك والممالك والبلدان»، ويعرف أحياناً باسم «المسالك إلى جميع الممالك».

وما يزال هذا الكتاب بحكم المفقود، غير أن نقولاً منه وصلتنا في مؤلّفات الجغرافيين اللاحقين. ومن أهم هؤلاء الجغرافي الأندلسي

الكبير أبو عُبيد البكري ، الذي كان تلميذاً للعذري ولذا لم يكن من الغريب أن يمثّل مصنّفه مصدراً أساسياً لمصنّفات البكري الجغرافيّة . كما ونقل منه الكوزموغرافي القزويني كل ما يتعلّق بوصف إسپانيا وأورويا الغربية تقريباً ، ورجع إليه الإدريسي وعرفه ياقوت جيّداً .

والكتاب في مجموعه يركّز على الأندلس ، ولكنّه لا يقتصر عليها وحدها . كما يبدو من ثنايا الشذرات المنقولة عنه أنّه اهتمّ أيضاً بذكر العجائب . ووردت قطع منه تتعلّق بالشام ومكّة .

هذا وقد عُثر على قطعة مدشوتة من الكتاب عنوانها «ترصيع المرجان» في مكتبة البُديري بالقدس ، يتعلّق أكثرها ببلاد الأندلس ، وقام بنشر هذا القسم الأندلسي الدكتور عبد العزيز الأهواني . كما اطّلع أستاذنا الدكتور صلاح الدين المنجّد على هذه المخطوطة ، فتبيّن له أن القسم المتعلّق بدمشق مفقود منها ، غير أنّه وجد في الدُّشْت ورقتين الأولى فيها أقسام الشام ، والثانية فتح حمص . وعن المنجّد نقلنا نصّ الشام .

المصادر :

معجم البلدان لياقوت الحموي (مادة المريّة) ٥/ ١١٩

شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ٣/ ٣٥٧

تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ١/ ٢٧٣

مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجّد ٨٩

الكتاب العربي المخطوط للمنجّد ، لوحة ٣١

قَسّمت الأوائل الشام خمس . . .   .
فلسطين هي الشام الأولى، وأول حدّها   . . .   .
غزّة، ثم الرملة رملة فلسطين. ومدينتها العظمى   . . .
وبها بيت المقدس. ثم الشام الثانية   . . .   .
العظمى الطبريّة التي على شاطىء البحر والغور. و   . . .   . . .
فيما بين فلسطين والأردن. ثم الشام الثالثة ومدينتها العظمى دمشق، ومن سواحلها أطرابلس. ثم الشام الرابعة وهي أرض حمص. ثم الشام الخامسة قنّسرين، ومدينتها العظمى حلب. وبين قنّسرين وحلب ستة فراسخ، وساحلها أنطاكية وهي على ساحل البحر، وفي داخلها البساتين والمزارع. ويُقال إنها مدينة [الرجل] الذي جاء من أقصى المدينة يسعى. وبها مسجد يُنسب إلى حبيب [النجّار].

ومن ثغور الشام الخامسة: المصّيصة، وطرسوس، ونهر [جيحان] وسيحان.

والشام أربعة أجناد:

جند حمص، وجند دمشق، وجند فلسطين، وجند   . . .   . . .

ترصيع المرجان للعُذْري، مخطوطة البديري بالقدس

نقلاً عن الدكتور صلاح الدين المنجّد


صورة ديار العرب
لابن سعيد المغربي (٦١٠-٦٨٥هـ ١٢١٤-١٢٨٦م)
تحقيق الدكتور احمد سوسه
الشمال
المغرب
الجنوب
المشرق
ناحية فارس

- ٢٦ -

أبو عبيد البكري
عبد اللّه بن عبد العزيز القرطبي
(توفي ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤م)

عبد اللّه بن عبد العزيز بن محمد البكري القرطبي الأندلسي، أبو عبيد، مؤرّخ جغرافي ثقة، اعتبره المستشرق الهولندي دوزي Dozy أكبر جغرافي أخرجته الأندلس قاطبة. علاّمة بالأدب وله معرفة بالنبات، كان ملوك الأندلس يتهادون مصنّفاته. ولد في شلطيش Saltēs غربي إشبيلية وانتقل إلى قرطبة، ثم صار إلى المريّة فاصطفاه صاحبها محمد بن معن لصحبته ووسّع راتبه، وهذا ما حمل بعض المؤرّخين على نعته بالوزير. ثم رجع إلى قرطبة بعد غزوة المرابطين، وتوفي بها مسنّاً عام ٤٨٧ هـ.

لم يأخذ اهتمام البكري بالجغرافيا منحى مستقلاً، بل كان ذلك خاضعاً إلى ميوله الأدبيّة، وقد اشتهر الكثير من مصنّفاته في الأدب مثل: «سمط اللآلي في شرح أمالي القالي» و«التنبيه على أغلاط القالي في أماليه» و«فصل المقال في شرح كتاب الأمثال». وأما مؤلّفاته الجغرافيّة فهي:

«المسالك والممالك»: فرغ من تأليفه عام ٤٦٠ هـ، ونحا فيه المنحى القديم في وصف الطرق والمراحل وبيّن فيه بلدان العالم

الإسلامي. أفاد فيه من كتاب لجغرافي سبقه هو ابن الورّاق، وتتضح فيه معرفة البكري الوثيقة بالطرق والسواحل. غير أن هذا الكتاب لم يصلنا منه سوى قطع تتعلّق بأفريقية الشمالية ومصر والعراق وبحر قزوين وبعض إسپانيا، طبع منها جزء باسم «المُغرِب في ذكر أفريقية والمغرب»، وكذلك جزء يتضمن «جغرافية مصر».

«معجم ما استعجم من أسماء البلدان والمواضع»: معجم جغرافي ضخم رتّبه البكري على حروف الهجاء حسب ترتيب المغاربة، ويمكن الوثوق بما ذكره فيه. وقد اعتبره دوزي معجماً فريداً لا يمكن مقارنته بشيء آخر، هذا وإن كان مصنّفاً لغوياً أكثر منه جغرافياً.

وقام بنشر المعجم المستشرق ڤستنفلد Wüstenfeld بخطّه في كوتنكن بألمانيا عام ١٨٧٦ - ١٨٧٧م، ثم أعاد نشره مصطفى السقّا بمصر عام ١٩٤٥ بأربعة أجزاء في مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر.

ولدمشق ذكر مقتضب في معجم البكري، نقلناه من طبعة السقّا.

المصادر:

معجم ما استعجم للبكري، مقدمة السقّا

جغرافية مصر من كتاب المسالك والممالك، مقدّمة عبد الله الغنيم

تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوڤسكي ١/ ٢٧٤

مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجّد ٩١

تاريخ الفكر الأندلسي للمستشرق الإسپاني بالنثيا ٣٠٩

جهود المسلمين في الجغرافيا لنفيس أحمد ٧٥

دمشق

دمشق: معروفة، سُمّيت بدماشق بن نمرود بن كنعان فإنه هو الذي بناها، وكان آمن بابراهيم وصار معه، وكان أبوه نمرود دفعه إليه لمّا رأى الآيات. وانظره في رسم جيرون.

معجم ما استعجم للبكري ٢/ ٥٥٦

جيرون

بفتح إوله وإسكان ثانيه بعده راء مهملة، على وزن فَعْلون أو فَيْعول. قال الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني: نزل جيرون بن سعد ابن عاد دمشق وبنى مدينتها، فسُمّيت باسمه جَيْرون.

قال: وهي إرَمُ ذات العِماد، ويُقال إن بها أربع مئة ألف عمود من حجارة.

واختلف أهل التأويل في معنى إرم، فقال بعضهم: إرم بلدة. وروى ابن أبي ذئب عن المقبري أنها دمشق.

معجم ما استعجم ٢/ ٤٠٩

* * * * *

أما كتابه " المسالك والممالك " فقد قام بتحقيقه المستشرقان أدريان ڤان ليوڤن وأندريه فيريّه A. P. Van Leeuwen & A. Ferre في جزئين ، وصدر عن الدار العربية للكتاب وبيت الحكمة بتونس ١٩٩٢ . ونقلنا ما ورد فيه عن دمشق :

ذكر دمشق

ومن مدنها دمشق ، وقيل إنها إرم ذات العماد ، وقيل : هي كانت دار نوح عليه السلام فيما ذكروا ، والله أعلم . وقال قتادة في قوله عز وجلّ: ﴿والتين والزيتون﴾ : التين الجبل الذي عليه دمشق ، والزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس . وقيل : التين مسجد دمشق ، والزيتون بيت المقدس . وقال الضحّاك : التين والزيتون مسجدان بالشام . وقال مجاهد وعكرمة : التين والزيتون هما المأكولان . وقيل : التين مسجد أصحاب الكهف ، والزيتون مسجد إيليا .

* * * * *

ومسجدها جليل فيه غرائب من الأعمال يطول وصفها ، بناه الوليد بن عبد الملك سنة ثمان وثمانين ، وهو داخل المدينة مفروش بالرخام الأبيض مختّم بالأزرق ، وحيطانه منجّدة بالفسيفساء وسقفه لا خشب فيه ،

وهو مـذهب كلّه . وله ثلاث مناور ، المنار الواحد في مؤخر المسجد مذهّب كله من أعلاه إلى أسفله ذهباً وفُسيفساء .

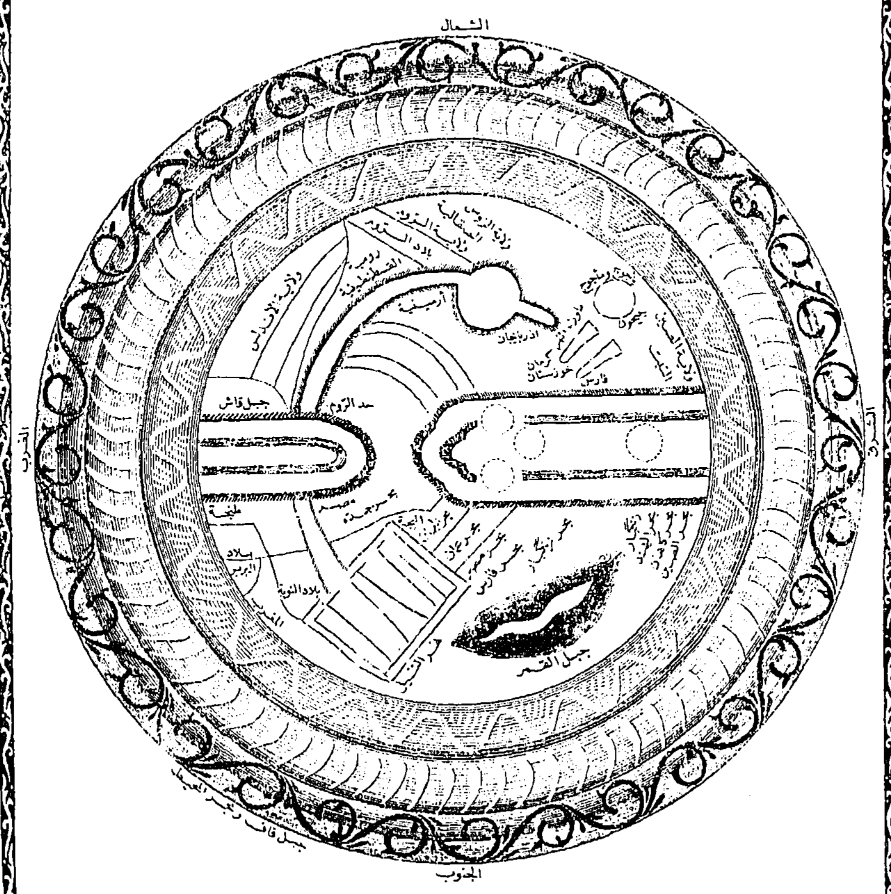
المسالك والممالك ١/ ٤٦٣

خارطة الكرة الأرضية

للجيهاني (من جغرافيي القرن الرابع الهجري "القرن العاشر الميلادي")

هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن نصر السامانى صاحب خراسان كان اديبا وعالما ذكره محمد بن اسحق النديم وذكر أن له من الكتب كتاب "المسالك والممالك"، كتاب "العهود والخلفاء والأمراء"، كتاب "آيين"، كتاب "الزيادات في كتاب آيين". وكان الجيهاني وزيرا ثم صرفت عنه الوزارة في شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٧ م).

"بتحقيق الدكتور احمد سوسة"



ملاحظة: ان الخارطة الاصلية كانت مقلوبة على الطريقة القديمة أي ان الشمال في اسفل الخارطة والجنوب في اعلاها وقد عكسناها مجاراة للطريقة الحديثة في رسم الخرائط لتسهيل المراجعة

- ٢٧ -

المنجّم
إسحاق بن حسين
(من علماء القرن الخامس الهجري)

لم يظفر الباحثون بأية معلومات حول هذا الجغرافي العربي سوى اسمه وأنه عاش في القرن الخامس الهجري، ولم يُعثر من آثاره سوى على مخطوطة صغيرة لكتابه الموسوم بـ«آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان»، وهي محفوظة في مكتبة الأمبروزيانا بميلانو في إيطاليا.

ويبدو أن الكتاب قد تم تأليفه بالأندلس، الأمر الذي يمكن ملاحظته من استعماله لتعبيرات لغوية خاصة. ويشير تحليل مصادر الكتاب إلى أن تأليفه قد تم فيما يعتقد في منتصف القرن الرابع الهجري.

وقد وقع حول اسم المؤلّف خلاف، ففي مطلع المخطوط جاء ما يلي: «كتاب آكام المرجان في ذكر المدائن . . . ، تأليف الشيخ إسحق ابن الحسين. . . »، فحاول المستشرق الإيطالي كارلو نالّينو أن يقرن بين هذا الاسم واسم «المنجّم» على اعتبارهما عائدين لشخص واحد. بينما انتقد المستشرق كراتشكوفسكي هذا الرأي ولم ير دليلاً دامغاً على أن إسحق ابن الحسين هو المنجّم نفسه بالضرورة.

وأما نص الكتاب فقد نشرته المستشرقة الإيطالية آنجيلا كوداتسي A. Codàzzi ، تحت إشراف المستشرق نالّينو في إيطاليا عام ١٩٢٩ ، تحت عنوان :

IL COMPENDIO GEOGRAFICO ARABO
DI ISHAQ IBN AL-HUSAYN

وخطّة الكتاب تعتمد وصف المدن الكبرى ، فبعد الكلام على مكّة والمدينة وبيت المقدس يأتي الكلام على بغداد ثم عن بلاد الشرق كالعراق والجزيرة العربية والشام وإيران وما وراء النهر ، ثم عن الغرب كمصر والمغرب والأندلس ، ويفرد وصفاً خاصاً لروما والقسطنطينية ، ثم بعض أجزاء الهند ، وفي الخاتمة بلاد الترك والخزر .

وتجيء الأوصاف بوجه عام قصيرة جداً ، مصحوبة بتحديد المواقع الجغرافية للبلدان . ومن ذلك ذكر مختصر لمدينة دمشق ، قمنا بنقله عن طبعة المستشرقة كوداتسي .

المصادر :

آكام المرجان للمنجّم ، مقدّمة كوداتسي بالإيطالية
تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ١/ ٢٢٩ ، ٢٨٨

مدينة دمشق

وهي في الإقليم الرابع، وبعدها عن خط الاستواء ثلاث وثلاثون درجة، وبعدها عن خط المغرب ستون درجة. وهي مدينة قديمة ليس في أرض الإسلام وفي أرض الروم مثلها، [لها] سور من حجارة ودورها اثنا عشر ميلاً. وافتتحها أبو عبيدة بن الجرّاح صلحاً، وعندهم كتاب الصلح. وبها قبر يحيى بن زكرياء في كنيسة يقال لها الفسقار (١).

وبها نهر الأرنط (٢) عليه العمارات والضياع والبساتين، وبها عيون كثيرة تأتي من قنوات الجبال فتدخل إلى منازل المدينة فتضرب إلى كل جهة. وأهلها قوم من العجم (٣) وبها أيضاً قوم من العرب. ومسجدها من عجائب الدنيا حُسناً وإتقاناً.

---

(١) هذا وهم، فالنبي يحيى مدفون في الكنيسة التي كانت تُعرف باسمه (كنيسة يوحنا المعمدان) والتي تحولّت فيما بعد إلى الجامع الأموي. أما الفسقار فهو سوق قديم يعود إلى العهد البيزنطي، وموقعه اليوم في الطرف الغربي من سوق مدحت باشا.

(٢) نهر الأرنط المذكور هو في الواقع نهر العاصي كما كان يسمى باللاتينية : Orontes ، ومن الواضح أنه يقصد نهر بردى.

(٣) يريد بالعجم اليونان، أي الروم كما كانوا يعرفون آنذاك.

1a

كتاب آكام المرجان في ذكر
المدا[ئن المشـ]هورة (1) في كل مكان

تأليف الشيخ اسحق بن الحسين اسكنه الله
رياض الجنان بحق محمد وآله
وصلى الله على النبي وآله

1b

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر مد[ينة مكة ا]لمشرفة (2)

قال اسحق بن الحسين رحمه الله تعالى انما ذكرنا مكة قبل البلاد
لانها بيت الله الحرام واول بيت وضع في الارض وبعدها من خط اول
الارض تسع (3) وستون درجة والدرجة ستة وستون ميلا وثلثا ميل
وفي كل درجة نذكرها في غيرها من المدائن وكذلك اذا ذكرنا البعد
من خط المغرب فانما نريد اول الارض وكذلك البعد من خط الاستواء
انما نريد البعد من خط وسط الارض على الحقيقة على جهة المعمور من
الارض لان المعمور من الارض * قليل جدا [و]على ما ذكر من جهة ابعاد 2a
المدائن من خط المغرب وخط (4) الاستواء يعرف بعضها من بعض

(1) La pagina è bucata nel punto supplito.
(2) Vedi n. 1.
(3) *Sic.* Però va corretto in سبع, sia per quanto è detto poche righe più sotto, sia perchè tale è la longitudine della Mecca in al-Ḫuwārizmī, che il nostro segue per la posizione astronomica dei luoghi (al-Ḫuwārizmī, p. ١٠, n. ١٠١).
(4) Ms. وخطوا.

- ٢٨ -

ابن العربي
أبو بكر محمد بن عبد الله
(توفي ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨م)

رحّالة أندلسي كبير أصله من إشبيلية، ولد بها عام ٤٦٨ هـ، ولم يلبث أن غادرها إلى المشرق بعد زوال دولة آل عبّاد التي شغل فيها أبوه مركزاً مرموقاً، وكان هدفه الدراسة ولمّا يتجاوز عمره آنذاك السادسة عشرة (عام ٤٨٥ هـ). وفي الشام تتلمذ على أبي بكر الطرطوشي صاحب كتاب «سراج الملوك» المعروف، وفي بغداد استمع إلى دروس الإمام الغزالي والتبريزي اللغوي في المدرسة النظاميّة المشهورة. وأدّى فريضة الحجّ عام ٤٨٩ هـ، ثم رجع إلى بغداد لبعض الوقت، وغادرها إلى مصر فدرس بالقاهرة والإسكندريّة. ثم في عام ٤٩٣ هـ عاد إلى وطنه بعد تجوال دام ثمانية أعوام، وسرعان ما ذاع صيته كقاض وفقيه من أكبر فقهاء المالكيّة بالأندلس. وتوفي أثناء رحلة له إلى مدينة فاس بالمغرب.

ترك ابن العربي عدّة مصنّفات فقهيّة، بالإضافة إلى عدّة قصائد شعريّة أوردها المؤرّخ المقّري في كتابه الشهير «نفح الطيب». وأمّا أخبار رحلته فمفقودة، وكان عنوانها: «الرحلة» أو «ترتيب الرحلة»، وقد نقل عنه ابن خلدون والمقّري. وينقل عنه هذا الأخير وصفاً شيّقاً لغرق السفينة التي

كان يستقلّها عند سواحل أفريقيا، كما يشير إلى ولعه بصنوف الغرائب، ويورد أخباراً عديدة عن مقابلاته مع بعض العلماء والأدباء.

وأهم ما يميّز رحلة أبي بكر بن العربي، كما يرى المستشرق الروسي كراتشكوفسكي، أنها الأولى من حيث أسلوب (الرحلة) في الأدب الجغرافي العربي، وذلك على غرار كتاب «سفرنامه» الشهير لناصر خسرو. وهذا النمط بدأ بالانتشار آنذاك، ونال القبول لدى الجمهور، وفيه لم تدوّن الرحلات على هيئة كتب (المسالك والممالك) المعروفة، بل دوّنت على هيئة (مذكّرات يوميّة) تحمل مشاهدات وأحداث وأخبار شخصيّة شيّقة. ومراراً ما ارتبطت هذه الرحلات بالحجّ، أو رحلات طلب العلم. وتنطوي هذه الرحلات على أخبار هامّة وممتعة، وكثيراً ما تبلغ مستوى عالياً من الفنّ والصياغة الأدبية. ولعل أكثرها قيمة دون منازع رحلة ابن جبير.

ومن خلال تجوال ابن العربي في المشرق، في أيام الفاطميين، زار دمشق وسمع فيها الحديث من علمائها، ووصف بعض ما فيها. ولم تصل إلينا رحلته كاملة، بل قطعة مخطوطة منها محفوظة في الرباط. ونقل المقَّري في «نفح الطِيب» من الرحلة بعض أشياء تتعلّق بدمشق، ومنها نقلنا هنا النص الوارد أدناه، عن طبعة محيي الدين عبد الحميد بالقاهرة ١٩٤٩.

المصادر:

تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ١/ ٢٩٨
المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين للمنجّد ٢٤
مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجّد ٩٣

[دُور دمشق]

قال المقَّري :

وذكر [ابن العربي] في رحلته عجائب، منها : أنه دخل أحد بيوت الأكابر في دمشق، فرأى فيه نهراً جارياً إلى موضع جلوسهم. قال ابن العربي : فلم أفهم معنى ذلك، حتى جاءت موائد الطعام في النهر المقبل إلينا، فأخذها الخدم ووضعوها بين أيدينا. فلمّا فرغنا، ألقى الخدم الأواني وما معها في النهر الراجع، فذهب بها الماء إلى ناحية الحريم، من غير أن يقرب الخدمُ من تلك الناحية. فعلمتُ السرّ، وإنّ هذا لعجيب.

نفح الطيب للمقّري ٢/ ٢٣٩



خارطة العالم

لابن الوردي المتوفى سنة (٧٤٩هـ)-(١٣٤٨م)

هو ابو حفص زين الدين عمر بن المظفر الشهير بابن الوردي الشافعي، ولد في معرة النعمان والمتفق انه مات بآخر سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨م) كان بارعاً في اللغة والفقه والنحو والأدب والجغرافية، له عدة مؤلفات في الشعر والادب وله في الجغرافية كتاب «خريدة العجائب وفريدة الغرائب» يشتمل على وصف الأقاليم والبلدان واحوال المعادن والنبات والحيوان، وفي الكتاب خارطة تمثل الارض والبحار والجبال كما تصورها المؤلف، هي الخارطة المنقولة أدناه عن كتابه المذكور.

«مقتطفات من كتاب خريدة العجائب وفريدة الغرائب»

«..... والذي عليه الجمهور ان الارض مستديرة كالكرة وان السماء محيطة بها من كل جانب كاحاطة البيضة بالمحة فالصفرة بمنزلة الارض وبياضها بمنزلة الماء وجلدها بمنزلة السماء غير ان خلقها ليس فيه استطالة كاستطالة البيضة بل هي مستديرة كاستدارة الكرة المستديرة المستوية الخرط حتى قال مهندسوهم لو حفر في الوهم وجه الأرض لأدى الى الوجه الآخر ولو ثقب مثلا بارض الاندلس لنفذ الثقب بارض الصين ....»

«تحقيق الدكتور احمد سوسة»

ملحوظة: ان الخارطة الأصلية كانت مقلوبة على الطريقة القديمة أي ان الشمال في اسفل الخارطة والجنوب في اعلاها وقد عكسناها مجاراة للطريقة الحديثة في رسم الخرائط لتسهيل المراجعة

- ٢٩ -

الشريف الإدريسي
محمد بن محمد بن عبد اللّه
(توفي ٥٦٠ هـ/ ١١٦٥م)

أبو عبد اللّه محمد بن محمد بن عبد اللّه بن إدريس الإدريسي الحسني، مؤرّخ وجغرافي كبير، ينتمي إلى أسرة الأدارسة المغربيّة التي طالبت بالخلافة، ولذا فقد اشتُهر باسم الشريف الإدريسي. ولد في سبتة بالمغرب الأقصى عام ٤٩٣ هـ، وتلقّى العلم بقرطبة التي كانت مركزاً ثقافياً كبيراً. طاف في البلدان في سنّ مبكرة فبدأ رحلاته وهو في السادسة عشرة، وطاف في الأندلس وزار لشبونة وسواحل فرنسا وبلغ الجزر البريطانية، كما زار معظم أرجاء شمالي أفريقية، ثم رحل لتأدية فريضة الحجّ فزار مصر والحجاز وآسيا الصغرى وبلاد اليونان التي وصلها عام ٥١١ هـ.

وبعد أن شاهد الكثير من الأقاليم والأماكن غير المألوفة في ذلك العصر، عبر البحر عام ٥٣٣ هـ إلى جزيرة صقلية، لتلبية دعوة الملك روجار الثاني، وكان هذا الأخير يعشق كل ما هو شرقي وقد سمع كثيراً بالإدريسي ورحلاته الطويلة، فدعاه إلى بلاطه في مدينة پاليرمو عاصمة صقلية. وعهد روجار إليه أن يؤلّف له كتاباً شاملاً في وصف مملكته وسائر الآفاق المعروفة في ذلك العهد، فرحّب الإدريسي بهذه الدعوة. وكان من

وراء ذلك رغبة روجار في تتويج ازدهار حضارة صقلية تحت حكم النورمان ببعض الإنجازات العلمية الرفيعة، فوضع تحت إشراف الإدريسي مجموعة من الروّاد قاموا بزيارة الأصقاع النائية لاستطلاع أوصافها وتحقيق مواقعها. كما وضع تحت تصرّفه ٤٥٠ رطل من الفضّة الخالصة ليصنع له دائرة عظيمة يرسم عليها المصوّرون مواقع البلدان واسمائها.

وبعد جهود كبيرة أتمّ الإدريسي تأليف هذا الكتاب في پاليرمو عام ٥٤٨ هـ، وذلك بعد خمس عشرة سنة، قُبيل وفاة روجار الثاني. وسمّاه: «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، وقد عرف هذا الكتاب أيضاً باسم «كتاب رُجار» نسبة إلى الملك المذكور. وبعد ذلك عاد مؤلفنا إلى موطنه سبتة، فتوفي بها في زمن اختلف في تحديده المؤرخون، فمنهم من جعله ٥٦٠ هـ كما أثبتنا، ومنهم من اكتفى بقوله: بعد ٥٤٨ هـ، أو عام ٥٤٩ هـ.

وطريقة ترتيب نزهة المشتاق بسيطة غير أنها لا تخلو من الإبداع، ففي أوله قدم وصفاً موجزاً للأرض التي تصورّها على شكل كرة يبلغ محيطها ٢٢٩٠٠ ميلاً، معلّقة في الفضاء «كالمحّ في البيضة». ثم يقدم وصفاً سريعاً للأقاليم و البحار، ويتبعه بوصف مفصّل لسطح الأرض على أسلوب بطليموس المعروف بتقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم. وأهم أقسام الكتاب هي التي أفردها لأفريقيا الشمالية وإسپانيا وصقلية ونواحي إيطاليا الأخرى، وفيها يعتمد على ملاحظاته الشخصيّة. كما أن وصفه لأوروپا الغربية (فرنسا وألمانيا واسكوتلندة وإرلندة وسواحل بحر الشمال) ينم عن معرفة غزيرة ومهارة علمية فائقة. وقد بلغت معرفة الإدريسي شمالاً بلاد البلطيق، فقد وصف عديداً من الأصقاع الاسكندناڤية. كما تناول وصفه كلاً من پولونيا وروسيا ورومانيا وسائر شبه جزيرة البلقان والشرق الأقصى.

كما وأضاف الإدريسي إلى كتابه الشهير مجموعة كبيرة من الخرائط تنوف على السبعين، منها عن الكرة الأرضية ومنها عن الأقاليم. ولم يُنشر من نزهة المشتاق سوى قطع متفرّقة لا تشمل النصّ الكامل للكتاب. وأول طبعة له صدرت في روما عام ١٥٩٢م، وفي عام ١٩٢٦م طبع المستشرق ميلر K. Miller خريطة الإدريسي طبعة أنيقة مزينة بالألوان.

وللإدريسي كتب أخرى في الجغرافيا منها: «أنس المهج وروض الفرج» و«روض الأنس ونزهة النفس»، على أسلوب كتب المسالك.

أما دمشق فقد زارها الإدريسي في مطلع شبابه عام ٥١٠ هـ، ووصفها في نزهة المشتاق. ونصّه يفيد في تبيان الحالة الاقتصادية بدمشق خاصّة في مطلع القرن السادس الهجري، في أواخر عهد السلاچقة أيام الملك ألپ أرسلان وأتابكه بدمشق ظهير الدين طغتگين.

وقد نقلنا نص نزهة المشتاق عن د. المنجّد من الأصل المخطوط في مكتبة كوپريلي باسطنبول رقم: ٩٥٥، وعنه مصوّرة بدار الكتب المصرية رقم: ٢٦٣ جغرافيا. ونصّ أنس المهج عن المنجّد أيضاً من مخطوطة حكيم أوغلو علي پاشا باسطنبول رقم: ٦٨٨.

المصادر:

الوافي بالوفيات للصفدي ١/ ١٦٣
دائرة المعارف الإسلامية، مادّة «الإدريسي» للمستشرق زيبولد
تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوڤسكي ١/ ٢٧٩ - ٢٩٤
مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجّد ٩٥

دمشق

دمشق: من أجلّ بلاد الشام وأحسنها مكاناً، وأعدلها هواءً، وأطيبها ثرىً، وأكثرها مياهاً، وأغزرها فواكه، وأعمّها خصباً، وأوفرها مالاً، وأكثرها جنداً، وأشمخها بناءً. ولها جبال ومزارع تُعرف بالغُوطة، وطول الغُوطة مرحلتان في عرض مرحلة، وبها ضياع كالمدن مثل: المِزَّة وداريّا وقَرْدا (١) وحَرَسْتا وكَوكَبا وبلاس وكفرسوسية، وبيت الآلهة، وبها جامع قريب الشبه بجامع دمشق.

ومن باب دمشق الغربي وادي [الـ]بنفسج، طوله اثنا عشر ميلاً وعرضه ثلاثة أميال، وكلّه مغروس بأصناف الثمار، يشقّه خمسة أنهار وغير ذلك.

ويكون في كل واحدة من هذه الضياع من ألفي رجل إلى ألف وأقلّ وأكثر. والغُوطة أيضاً على أنهار وأشجار، ومياهها مخترقة تشقّ البساتين والديارات، وبها من أنواع الفواكه ما لا يحيط به تحصيل ولا يليق بمثله تمثيل، كثرة وخصباً وطيباً.

ودمشق أنزه بلاد اللّه من خارج، ومياه الغوطة الجارية بها تخرج من عين الفيجة. وهذه العين في أعلى جبل، وينصبّ ماؤها من أعلى هذا الجبل كالنهر العظيم له صوت هائل ودويّ عظيم يُسمع على بُعد، ويُرى نزول الماء من أعلى الجبل على قرية آبل (٢) حتى ينتهي إلى المدينة

---

(١) قردا: قرية قديمة ذكرها ياقوت ٤/ ٣٢٢، وكرد علي، غوطة دمشق ط٣، ص ١٧٦.

(٢) آبل: هو الاسم القديم Abila لقرية سوق وادي بردى على مجرى النهر غربي دمشق.

فيتفرّع منه الأنهار المعروفة بها، منها: نهر بردى، ونهر ثورة، ونهر يزيد، ونهر قناة المزّة، ونهر باناس، ونهر سَقَط، ونهر يشكور، ونهر داعية، وهذا النهر ليس بمشروب لأن عليه مصبّات أوساخ المدينة وأدرانها، وقنوات صغار. ويشق هذا النهر وسط المدينة، وعليه قنطرة يجتاز عليها الناس، وكذلك أيضاً لسائر الأودية التي ذكرناها، تخرج منها سواقٍ تخترق المدينة وتجري إلى دورها وحمّاماتها وأرحائها وبساتينها وأسواقها.

وبها المسجد الجامع الذي ليس على الأرض مثله بناءً ولا أحسن منه صفة، ولا أتقن منه إمكاناً ولا أوثق منه عقداً، ولا أغرب منه رسماً، ولا أبدع منه تلميعاً، بأنواع الفصّ المذهب، والآجرّ المحكوك، والمرمر المصقول. وهو في مربعّة تعرف بالميزاب. فمن جاءه من ناحية باب جيرون صعد إليه في درج رخام نحواً من ثلاثين درجة، ومن قصده من ناحية باب البريد والقبّة الخضراء وقصر الثقفيين وحَجَر الذهب وباب الفراديس كان مدخله مع الأرض بغير درج.

وفيه آثار عجيبة: فمنها الحجران والقبّة التي فوق المحراب عند المقصورة. ويقال إنّه من بناء الصابئة، وكان مصلاّهم به، ثم صار في أيدي اليونان فكانوا يعظّمون فيه دينهم، ثم صار بعدهم لملوك من عبّاد الأوثان فكان لهم موضعاً لأصنامهم. ثم تغلّبت عليه النصارى، فصار ملكاً بأيديهم فحولّته بيعة يقيمون بها دينهم، ثم استفتحها الإسلام فاتخذوه جامعاً.

فلمّا كان في أيّام الوليد بن عبد الملك من بني أميّة عمره، فجعل أرضه الرخام، ومعاقد رؤوس أساطينه ذهباً، وسائر حيطانه مرصّعة بأشباه الجوهر، ودَوْر السقف كلّه مكتّباً، كما يدور بترابيع جدران المسجد،

بأحسن صنعة وأبدع تنميق . ويقال إنه جُعل بأعلى السقف حصر رصاص محكمة التأليف وثيقة الصنعة ، والماء يصل إليه في قنوات رصاص ، فإذا احتاج ذلك المسجد إلى الغسل فُتح إليه الماء وغُسل صحنه بأهون سعي .

ويقال إن الوليد بن عبد الملك المقدم ذكره أنفق في اتقان هذا المسجد الجامع خراج الشام كلّه سنتين .

ومدينة دمشق محدثة ، وإنما كان القديم من موضعها موضعاً يسمّى الجابية[1] ، وذلك في أيام الجاهليّة ، وبنيت دمشق عليها . ولها أبواب شتّى ، فمنها باب الجابية ، وعرض الأرض المعمورة أمامه ستّ أميال طولاً في عرض ثلاثة أميال ، كل ذلك أشجار وعمارات ، ويسقيها خمسة أنهار . ومن أبوابها : باب توما وباب السلامة وباب الفراديس ، ودير مرّان يقابله ، فالباب الصغير .

ومدينة دمشق جامعة لصنوف من المحاسن ، وضروب من الصناعات ، وأنواع من الثياب الحرير ، كالخزّ والديباج النفيس الثمين العجيب الصنعة ، القديم المثال الذي يُحمل منها إلى كل بلد ، ويتجهّز منها إلى كل الآفاق والأمصار المصاقبة لها والمتباعدة عنها . ومصانعها في كل ذلك عجيبة ، تضاهي ديباج الروم ، وتقارب ثياب تَسْتُر ، وتنافس أعمال أصبهان ، وتشفّ على أعمال طرز نيسابور من جليل ثياب الحرير المصمتة ، وبدائع ثياب تنيس . وقد احتوت طرزُها على أفانين من أعمال الثياب النفيسة ومحاسن جمّة ، فلا يُعادل ذلك جنس ولا يقاربها مثال .

---

(١) هذا الكلام غريب لم يذكره أحد من مؤرخي دمشق ، والجابية قرية معروفة بحوران جنوبي دمشق ، كانت لها مكانة كبيرة في الجاهلية وعند الفتح ، ونُسب إليها باب الجابية كما اشتهر .

ولدمشق في داخلها على أوديتها أرجاء كبيرة، والحنطة فيها كثيرة جداً، وأنواع الفواكه، وأما الحلاوات فيها فمنها ما لا يوجد بغيرها، ولا يوصف كثرة وطيباً وجودة. وأهلها في خصب عيش، واتصال أمن، وصناعاتها نافقة، وتجاراتها رابحة (أو رائجة)، وهي من أعزّ البلاد الشامية وأكملها حسناً.

نزهة المشتاق للإدريسي، لوحة ٢٢١ - ٢٢٣
من مصورة دار الكتب عن مخطوطة كوپريلي

المسالك إلى دمشق

ومن دمشق إلى بعلبك في شرق يومان، ومن دمشق إلى طرابلس خمس مراحل غرباً، ومن دمشق إلى بيروت يومان وبعض، ومن دمشق إلى صيدا يومان، ومن دمشق إلى الحولة يومان، ومن دمشق إلى أقصى الغُوطة يوم.

أنس المهج للإدريسي، ورقة ٦٨٨

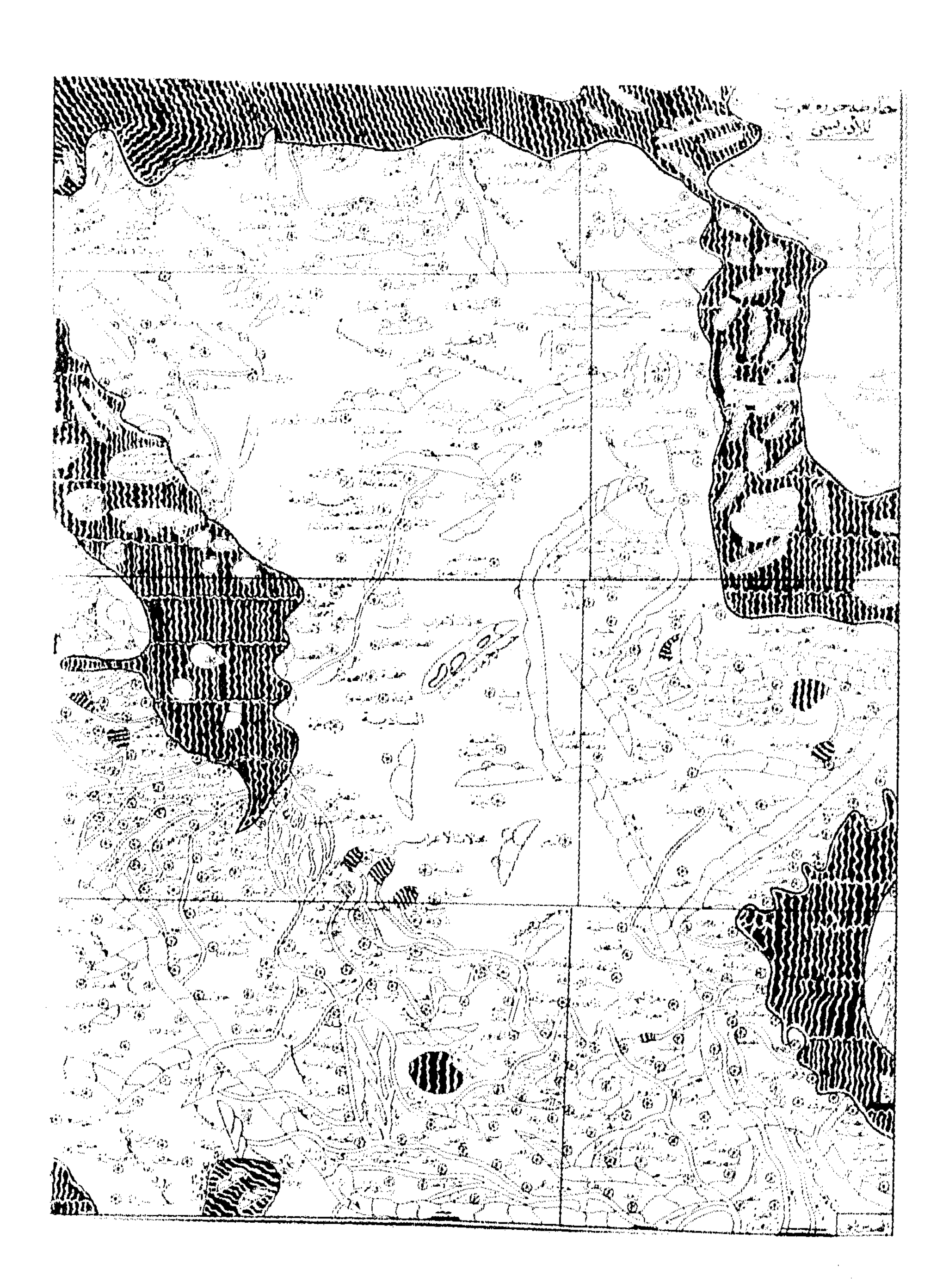


٢٦ ـ خريطة العالم للإدريسي
محفوظة في نزهة المشتاق لمخطوطة كوبرلي، ٨٨٧٤م.





٢٣٤ ــ خريطة الإدريسي العربية (١١٦٠) (من رسم [illegible])


للإدريسي

خارطة الكرة الأرضية

للشريف الادريسي (٤٩٣ - ٥٦٠هـ) - (١٠٩٩ - ١١٦٤م)

هو ابو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس المعروف بالشريف الادريسي الصقلي، ولد في سبتة سنة ٤٩٣ هـ (١٠٩٩م) ودرس في جامعة قرطبة ثم طاف في الأندلس وشمالي افريقيا وآسيا الصغرى وبعض البلدان الاوروبية حتى اصبح من اشهر جغرافيي الاسلام الذين نبغوا في القرن السادس الهجري (القرن الثاني عشر الميلادي)، فاستقدمه رجار الثاني ملك صقلية ليتعرف بواسطته على جغرافية بلاده واحوال العالم فطلب منه تأليف كتاب شامل في وصف مملكته وسائر الآفاق المعروفة في ذلك العهد. وقبل اشتغاله بتأليف هذا الكتاب صنع كرة فضية ضخمة الحجم تمثل الارض بما عليها، وهي أول كرة ارضية عرفت في التاريخ زنتها من الفضة اربعمائة رطل بالرومي في كل رطل منها مائة درهم واثنا عشر درهماً، وقد رسم فيها جميع اقاليم واقطار المعمورة المعروفة في ذلك الزمن "رسماً عاماً مشروحاً بالاستيفاء". ثم وضع كتاباً مفصلاً في وصف كرته الفضية هذه رتبه على الاقاليم السبعة واورد فيه اوصاف البلاد والممالك ومسافاتها. وقد تم تأليف هذا الكتاب المسمى "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" او "جغرافية الادريسي" في سنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م) وظل الكتاب ينسب الى امير البلاد فسمي "كتاب رجار". وقد استعان الادريسي في تصنيف كتابه هذا بمصنفات من تقدمه من علماء الهيئة والجغرافية وبما نقله عن غيرهم من اخبار التجار والملاحين وجعل لكتابه (٦٩) رسماً نقلها من كرته المنوه عنها فوسعها واضاف اليها اسماء جديدة لكثير من المدن والمواضع الاخرى. وكتاب جغرافية الادريسي هذا من اجل وانفس ما وضعه العرب في تخطيط البلدان وهو مزين بخوارط عديدة ملونة زاهية توجد منه نسختان قديمتان كاملتان مزينتان بالخوارط الملونة الواحدة في مكتبة باريس الاهلية والاخرى في خزانة كتب اوكسفورد، وفي مكتبة المجمع العلمي العراقي نسخ مصورة منهما.

ملحوظة: ان الخارطة الاصلية المنقولة عن الادريسي كانت مقلوبة على الطريقة القديمة أي ان الشمال فيها في اسفل الخارطة والجنوب في اعلاها وقد عكسناها مجاراة للطريقة الحديثة في رسم الخرائط النسبية الراهنة

شمال



مقتطفات من كتاب «نزهة المشتاق»
«ان الأرض مدورة كتدوير الكرة، والأرض مقسومة بقسمين بينهما خط الاستواء، وهذا هو طول الأرض وهو أكبر خط في الكرة. واستدارة الفلك في موضع خط الاستواء ٣٦٠ درجة والدرجة خمسة وعشرون فرسخاً. فتكون بهذه النسبة احاطة الأرض احد عشر الف فرسخ، وبين خط الاستواء وكل واحد من القطبين تسعون درجة واستدارتها عرضاً مثل ذلك... والأرض في ذاتها مستديرة لكنها غير صادقة الاستدارة فمنها منخفض ومنها مرتفع والماء يجري فيها من ارفعها الى اخفضها، والبحر المحيط يحيط بنصف الارض احاطة متصلة دائرتها كالمنطقة لا يظهر منها الا نصفها كأنها بيضة مغرقة في ماء والماء في طست كذلك الأرض نصفها مغرق في البحر والبحر يحيط به الهواء والهواء رافع لها او جاذب.... والخليقة على الربع الشمالي من الأرض بعد خط الاستواء اربعة وستون درجة والباقي من الأرض لا عمارة فيه لشدة البرد والجمود، والربع الجنوبي غير مسكون ولا معمور لشدة الحر به وممر الشمس وهي في أسفل فلكها على سمته فجفت مياهه وعدم حيوانه ونباته. وجميع المخلوقات على ظهر الأرض والهواء جاذب لما في ابدانهم من الخفة والأرض جاذبة لما في ابدانهم من الثقل بمنزلة حجر المغناطيس الذي يجذب الحديد اليه..... والربع المسكون من الأرض قسمه العلماء سبعة اقاليم ... وليست هذه الأقاليم بخطوط طبيعية لكنها خطوط وهمية موجودة بالعلم النجومي وفي كل اقليم منها جبال شامخة ووهاد متصلة وعيون وانهار جارية وبركاً راكدة ومعادن ونباتات وحيوانات مختلفة. وتحتوي هذه الاقاليم السبعة سبعة بحور ستة منها متصلة وبحر واحد منفصل لا يتصل بشيء من البحور...»

* بتحقيق الدكتور احمد سوسة.

- ٣٠ -

أبو حامد الغرناطي
محمد بن عبد الرحيم
(توفي ٥٦٥ هـ/ ١١٦٩م)

جغرافي أندلسي ولد بغرناطة عام ٤٧٣ هـ، وقام منذ عام ٥٠٨ هـ برحلات إلى المشرق الإسلامي، فزار مصر ومكث بالقاهرة والإسكندرية، وفي عام ٥١١ هـ عاد إلى مصر أيضاً ومرّ على جزيرتي ساردينيا وصقلية. ثم في عام ٥١٦ هـ رحل إلى بغداد حيث أقام أربعة أعوام في كنف الوزير يحيى بن خبير. وفي عام ٥٢٤ هـ أقام بأبهر في إيران، ثم في العام التالي عبر بحر قزوين فوصل إلى مصبّ نهر الفولغا، وخلال هذه الفترة قام بثلاث رحلات إلى خوارزم، وربما زار هنغاريا أيضاً. وفي عام ٥٤٥ هـ أقام في هنغاريا وامتلك فيها بيتاً. أما الأعوام الأخيرة من حياته فقد أمضاها ببغداد عام ٥٥٥ هـ والموصل ٥٥٧ هـ، وتوفي بدمشق عام ٥٦٥ هـ.

كان الغرناطي جوّاباً للآفاق، وبالرغم من أنه لم يدوّن انطباعاته الشخصية عن طريق رحلاته فقد أحيا النمط الأدبي القديم لكتب «العجائب» كما يرى كراتشكوفسكي. وأشهر كتبه: «تحفة الألباب ونخبة الأعجاب» الذي أتمّ تصنيفه بالموصل عام ٥٥٧ هـ. ويشتمل هذا الكتاب ذو الطابع الجغرافي على أربعة أبواب، تتضمّن صفة الدنيا وسكّانها، وصفة عجائب

البلدان وغرائب البنيان، وصفة البحار وعجائب حيواناتها، وصفات الحفائر والقبور. وفي كتابه يجمع الغرناطي بين معطيات واقعية دقيقة وضروب من العجائب مختلفة في وحدة كوزموغرافيّة راقت للكثيرين. فنقل عنه كلّ من القزويني وابن الوردي وابن إياس والدميري والأبشيهي.

والمعلومات الواردة في كتاب أبي حامد شيّقة وأصيلة، فمنها ما رآه بعينه، ومنها ما سمعه ممن رآها مباشرة، فيروي مثلاً عن عجائب الهند والصين ما سمعه في القاهرة من رجل عاش فيهما أربعين عاماً، وفي بغداد يستفهم من أحد مسلمي صقلية عن ثوران بركان إتنا، وفي مصر دخل بنفسه إلى جوف هرم خوفو، كما أعطى معلومات أصيلة عن الألمان (وسمّاهم: نامس)، وكذلك عن هنغاريا وورومية العظمى.

قام بنشر كتاب «تحفة الألباب» وترجم جزءاً منه المستشرق الفرنسي غابرييل فِرّان G. Ferrand في المجلّة الآسيوية عام ١٩٢٥م. ثم أعاد نشر رحلته إلى بلاد البلغار المستشرق الإسپاني ثيزار دوبلر C. Dubler مع ترجمة إسپانية وتعليقات وافية بمدريد عام ١٩٥٣م. كما عثر الدكتور صلاح الدين المنجّد على مخطوطة للغرناطي بعنوان: المعرب عن عجائب المشرق، في مكتبة جامعة پرنستُن في نيوجرسي بأميركا، برقم: ٣٣٥٤.

المصادر:

تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ١/ ٢٩٤
مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجّد ١٠٢
جهود المسلمين في الجغرافيا لنفيس أحمد ٧٦

دمشق

ولمّا دخلتُ دمشق رأيتُ عند باب يُعرف بباب الفراديس جبلاً مُشرفاً عالياً، وعليه آثار دم هابيل بن آدم عليه السلام ظاهر، وهو دم كثير لا يخفى على من يراه أنه دم. والصخرة التي ضرب به قابيل رأس أخيه هابيل تحت ذلك الجبل، كأنها بيت كبير.

ورأيت الربوة التي ذكرها اللّه في القرآن العزيز، وهي في جبل مُشرف على أنهار دمشق، وقد بُني لها مشهد من أحسن المشاهد، وفيه يجري الماء.

وبين بساتين دمشق، قريب من البلد، مشهد كبير على الغار الذي وُلد فيه ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام.

المُعرب عن عجائب المشرق، مخطوطة برنستن

نقلاً عن الدكتور المنجّد



صورة الأرض
لجغرافي مجهول من جغرافيي العرب
تحقيق الدكتور احمد سوسه
الشمال
المحيط الشمالي
الصقالبة
الأندلس
قبرص
الشام
مصر
فارس
كرمان
السند
الهند
بلاد المغرب
برقة
السودان
الحبشة
النوبة
جبل القمر
المحيط الجنوبي
الجنوب

- ٣١ -

الوهراني
محمد بن محرز بن محمد
(توفي ٥٧٥ هـ/ ١١٧٩م)

ركن الدين محمد بن محرز بن محمد الوهراني ، أحد المغاربة الذين رحلوا إلى دمشق وأقاموا فيها زمن السلطان نور الدين محمود بن زنكي (المعروف بالشهيد) وزمن السلطان الأيوبي الناصر صلاح الدين . كان أديباً صناعته الإنشاء ، والذي يُعرف من سيرته من خلال مطالعة مؤلفاته أنه زار دمشق في أيام نور الدين واتصل به ، وأنه مرّ بصقلية ، وزار بغداد ، ثم اتّخذ دمشق داراً واستوطنها . وكان نور الدين شديد العطف على المغاربة ، فوجّهت إليه بأيامه خطابة مسجد داريّا ، فبقي فيها . وزار مصر، ثم عاد إلى دمشق فبقي في داريّا حتى توفي عام ٥٧٥ هـ أيام صلاح الدين ، ودُفن عند تربة أبي سليمان الداراني .

أقدم من ترجم له هو القاضي ابن خلكان ، قال : « أحد الفضلاء الظرفاء ، قدم من بلاده إلى الديار المصرية . . . فلمّا دخل البلاد ورأى بها القاضي الفاضل وعماد الدين الأصبهاني الكاتب وتلك الحلبة ، علم من نفسه أنه ليس من طبقتهم ولا تنفق سلعته مع وجودهم ، فعدل عن طريق

الجد وسلك طريق الهزل » .

استطاع الوهراني أن يجذب القلوب إليه ، فقد كان ظريفاً خفيف الروح ، وكان بارعاً في الهزل والسخرية ، فصبّ سخريته وتهكّمه على كبار علماء دمشق وفقهائها وأطبائها وكتّابها ، كالتاج الكندي ، وابن النقّاش، والضياء الشهرزوري ، وابن أبي عصرون . وصف القاضي الفاضل فقال : « فلم أشعر إلا والحائط قد انشقّ ، وخرج منه شخص عجيب الصورة ، ليس له رأس ولا رقبة ، وإنما وجهه في صدره ، ولحيته في بطنه» .

وكان الوهراني لا يتورّع عن السخرية بنفسه ، متخيّلاً ما يقوله أعداؤه عنه . فوصف مجلساً ضم القاضي الشهرزوري وابن النقّاش وابن العميد ، جرى فيه حديث المغاربة الوافدين للشام ، فيقول ابن العميد : «ما جاءنا قطّ منهم إلا حارس كَرْم أو ناطور بستان مع الركوة والتاسومة ، وهذا الوهراني من بينهم ، شهد الله ، أثقل على القلوب من الغدّة الخارجة في الحلق ، وأوحش من الورم النافر في الأوداج » . فيندفع حينئذ ابن النقّاش بفلسفته فيقول : « اللهم العن الوهراني من الجهات الستّ ، اللهم العن ما يقابل الوهراني من الأوج إلى الحضيض ، اللهم العن الهيولى التي شاركت العناصر في تكوينه . والله ما مأعرف في مقعّر فلك القمر ولا على محدَوْدب هذه الكرة الترابية شراً من ذلك الخبيث » . . .

فينبري ابن العميد بفصاحته قائلاً : « بالله عليكم اقصروا واقتصروا . . . ما للوهراني عرضٌ يُثلم ولا مجدٌ يُهدم ، وهو دون كل ما ترمونه به ، فإنه لا يصلح إلا لحمل المشعل أو لنطارة القنّبيط ، والمصيبة أنه مع هذا يتمكتب ويتمشعر ويعمل أشياء تشبه جوف لحيته » . . .

وهكذا نرى أن الوهراني كان صاحب دعابة ومزاح ، ما سلم من شرّ لسانه أحد ممن عاصره على قول الصفدي . وهو ثاني اثنين سلّطهما الله على أهل دمشق أيام الأيوبيين : ابن عُنين في (مِقراض الأعراض) شعراً ، والوهراني في مناماته ومقاماته ورسائله نثراً . وما دعاه إلى ذلك إلا استمطار العطاء وإفراغ الجيوب .

ترك الوهراني مجموعة من النصوص الأدبية ، جمعها في كتابه «جليس كل ظريف» ، بالإضافة إلى مجموعة من المنامات والمقامات والرسائل . ومن بين هذه المقامات فوائد جزيلة تهم المشتغل بتقصّي تاريخ مدينة دمشق العمراني . ففي رقعته الشهيرة عن مساجد دمشق وصف مفيد لأحوال مساجد دمشق أوائل عهد نور الدين بها ، وكيف كانت آيلة إلى الخراب آنذاك ، فانبرى الوهراني يستصرخ بلسانها همّة نور الدين لإعمارها ، بمقامة أدبية لطيفة تحلّ فيها التوريات والتهكّمات محل الطلب والرجاء .

ويبدو أن هذه الرقعة كان لها أبعد الأثر في استثارة همّة السلطان على إعمار المساجد وتجديدها ، فقد استفاض مؤرخو ذلك العصر كأبي شامة وابن كثير وابن واصل وسبط ابن الجوزي وابن قاضي شهبة في ذكر أعماله بترميم هذه المساجد التي نافت على المائة ، وعلى رأسها جامع دمشق الأموي الكبير الذي أوكل نظارته إلى القاضي الكمال الشهرزوري ، وأضاف إليه وإلى باقي المساجد أوقافاً كثيرة للقيام بمصارفه وأمورها . كما أدى ذلك أيضاً إلى عزله للقاضي ابن عصرون بسبب إهماله المساجد ، كما يتبيّن في رقعة الوهراني .

وكذلك مما يستفاد من نصوص الوهراني أنه أورد في منامه الشهير

تسميات كثيرة لبعض قرى دمشق الغربية، الواقعة في نواحي الزبداني ووادي بردى . وبعض هذه التسميات التي ما تزال معروفة في أيامنا يرد ذكرها للمرة الأولى في المصادر القديمة هنا في نص الوهراني بالذات، ومنها: منين، عين سردا، وادي بردى، سوق آبل، عين حور، عيون عرق، السفيرة، الكبرا، دير سلوان، الزبداني، كفر عامر، بلودان، بقّين .

رجعنا في نقل هذه النصوص إلى نشرة الدكتور صلاح الدين المنجّد « الوهراني ورقعته عن مساجد دمشق » ، التي صدرت ضمن مطبوعات المجمع العلمي بدمشق عام ١٩٦٥ ، وإلى « منامات الوهراني ومقاماته ورسائله » بتحقيق ابراهيم شعلان ومحمد نغش ، المطبوعة في القاهرة عام ١٩٦٨ .

ونشير هنا إلى أن آثار الوهراني لم تنل حظّها من الشهرة والانتشار بين مصادر التراث الأدبي العربي، حتى أن نشرة المنامات المذكورة أعلاه الصادرة في القاهرة ليست على المستوى المطلوب، وفيها أغاليط كثيرة وخاصّة فيما يتعلّق بأسماء الأماكن بالشام، قمنا بتصويبها فيما يأتي .

المصادر :

الوهراني ورقعته عن مساجد دمشق، مقدّمة المنجّد

منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، مقدّمة شعلان ونغش

وله نسخة رقعة على لسان جامع دمشق

قال بعض العارفين بطريق الانتحال على لسان الحال : لما تحكّمت يد الضَّياع في مساجد الضِّياع ، وأُرتج باب العدل وغُلِق ، ونُبذ كتاب الله وخَلِق ، فزعت المساجد إلى جامع جِلَّق ، وهو يومئذ أميرها ، وعليه مدار أمورها ، فلمّا اجتمعوا على بابه ، ودخلوا تحت قبته ومحرابه ، كتب لهم جامع النَّيْرَب قصّة إليه ، وسألوا عرضها عليه ، وكانت الرقعة مسطورة ، على هذه الصورة :

المماليك مساجد الكورة يقبّلون الأرض بين يديّ الملك المعظَّم ، البديع الرفيع المكرَّم ، كهف الدين جمال الإسلام والمسلمين ، بيت الأنبياء والصالحين ، مدفن الأنبياء والمرسلين ، ملجأ الفقراء والمساكين ، مأوى الغرباء والمقلّين ، بيت الأتقياء والصالحين ، معبد الملّتين صاحب الدواوين ، بنية أمير المؤمنين ، أيّد الله أنصاره وأعلا مناره ، وعمر بالتوحيد أقطاره ، وينُهون إلى مجلسه السامي ما يقاسونه من جَوْر العمّال ، وتضييع الأعمال ، ونهب الوقوف ، وخراب الحيطان والسقوف . قد ألِفَهم الظُّلْم والظَّلام ، وأنكرهم المؤذّن و الإمام ، فلا تسمع لهم حسيساً ، ولاترى فيهم أنيساً إلاّ أذان البوم وتسبيح الغيوم ، وقد ركعت حيطانها ، وسجدت سقوفها وأركانها ، وانصرفت من الصلاة أربابها . وسكّانها تنوح عليهم الأجراس والنواقيس ، وترثي لهم البِيَع والنواويس :

يرثي له الشّامِتُ ممّا به   ياويْحَ من يرثي له الشّامتُ

وقد فَزَعنا أيها الملك إلى بابك ، وأوينا إلى جنابك ، فافعل معنا ما هو أولى بك ، ورأيك العالي في ذلك ، والسلام .

فلمّـا وقف الملك على هذه الشكاية ، وعلم بمـقـتـضى هذه الحكاية، استوى جالساً في مقعده ، وضرب بيده ، وقال : كيف وأنّى ، أمْ للإنسان ما تمنّى . ثم رفع صوته وغنّى :

وما شَرِبَ العُشّاقُ إلاّ بقيّتي ولا وَرَدوا في الحُبِّ إلاّ على وِرْدي

ثم أشرف الملك من إيوانه بين جنده وأعوانه ، فاستقبلوه بالسلام والتحيَّة والإكرام . وأقبل وهو يقلّب طرفه في الجموع ، ويكفكف أسراب الدموع ، لما يرى من اختلالهم ، وفساد أحوالهم . ثم ردّ عليهم السلام ، وأذن لهم في الكلام ، فابتدأ جامع المزَّة المقال ، وتقدَّم بين يدي الملك وقال :

الحمد لله الذي قضى علينا بالخراب ، وصيّر أموالنا كالسَّراب ، وجعلنا مأوى البوم والغراب . أحمده حمد من كان فقيراً ثم استغنى ، وأدرك بمال الوقف ما تمنّى ، وأشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له ، شهادة عالم عامل متحمّل لثقل الأمانة حامل ، وأشهد أن محمّداً عبده المكين ، ورسوله الصادق الأمين ، صلّى الله عليه وعلى آله الطيّبين الأكرمين .

أمّا بعد أيها الملك السعيد ، ثبّت الله قواعد أركانك ، وشيّد ما وهى من بنيانك ، فإن الخراب قد استولى على المساجد ، حتى خلَتْ من

الراكع والساجد . فأصبحت مساجد الغوطة غيطان ، لا سقوف لها ولا حيطان ، وجوامع حوران مخازن وأفران ، ومشاهد البقاع صَفْصَفاً كالقاع ، فكم بُنية لعب الجور بأثوابها ، فنسج العنكبوت على بابها ، وكم بيوت لله غُلّقت دون أصحابها ، فعشّش الحمام في محرابها ، ﴿ ومَنْ أظلمُ مِمَّن مَنَعَ مساجِدَ اللهِ أنْ يُذكرَ فيها اسْمُهُ وسَعى في خَرَابِها ﴾ . وقد دُخِل أيها الملك على الوقوف ، بحجّة العمارة والسقوف ، فاختلفت فينا الأهواء ، واتّفقت علينا الأنواء ، فلا يزال المسجد ينهار ، وتأخذه السيول والتيّار والأنهار ، حتى يُمحى رسمُه ، ولا يبقى منه إلاّ اسمُهُ . وأنت أيها الملك عمادُنا ، وإليك بعد الله مَعادُنا ، فاكشف عن حالنا ، وانظر في صلاح أحوالنا ، يصلح الله أحوالك ، ويسدّد في الخير أقوالك وأفعالك ، والسلام . أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين .

ثم جلس . فقال الملك : قد سمعنا كلام المساجد ، فما بال المشاهد ؟ . . فبرز مشهد برزة ، متوكئاً على مشهد الأرزة ، وهو يُصَلْصِل ويصول ، ويلطم وجهه ويقول :

كلّما حاولتُ أشكو قصّتي لا ألاقي غيرَ ذي قلبٍ جريحْ
يتشكّى مثل شكوى محنتي يا لقومي ما عليها مُستريحْ

أما بعد أيها الملك السعيد أدام الله جمالك ، وبلّغك في عدوك آمالك ، فإن مقام إبراهيم أصبح في كل وادٍ يهيم ، ومغارة الدّم لا تستفيق من الذمّ ، ومشهد الكهف لايفتر من اللهف ، ومشهد هابيل قد رُمي بطير

أبابيل ، ومشهد شيْث قد استأصله الخبيث ، ومشهد نوح نبكي عليه وننوح ، وقبر جيلة ما لنا فيه حيلة ، وقبر إلياس قد وقع منه الياس . فلحقت المشاهد بأربابها ، وأمستْ رميماً كأصحابها ، قد محتها العَوادي ، وحدا بها الحادي .

جرَتِ الرياح على محلّ ديارهم فكأنّهم كانوا على ميعادِ

فتنحنح الملك عجباً ، وحرك رأسه طرباً ، وقال :

رُبَّ طارقٍ على غير وعدِ وفي كلّ وادٍ بنو سعدِ

ثم استفتح المقال ، بأن قال : الحمد لله الذى لا يُحمد على مكروه سواه ، نصب العدل وسوّاه ، وأمدَّه بعونه وقوّاه ، فمن أضلّ ممن اتّبع هواه ، فأهواه بسلبه ﴿وأضلّه اللهُ على عِلم ، وختَم على سمعهِ وقلبهِ ، وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله﴾ .

أحمده على ما رزقني من الاحتمال ، وأشكره عل ذهاب العِرض والجاه والمال . وأشهد أن لا إله إلا الله ، ربّ العالمين وحده ، لا شريك له ، شهادة من أعطى الأمانة حقها ، وكان أهلها ومُستحِقَّها . وأشهد أن محمّداً عبده المختار ، ورسوله الصادق البار ، صلّى الله عليه وعلى آ له الأبرار .

أمّا بعد يا معشر المتكلّمين ، وطائفة المساجد المتظلّمين ، فإنه واللهِ لاينتهي إليكم من الجور إلاّ ما يفْضُل عنّي ، ولايصل إليكم إلاّ ما

يُستعار مني ، فلولا أن أركاني سليمة ، وبُنيتي قديمة ، لأصبح جامع بني أميّة يُغنّي : «يا دارَ مَيَّةَ» ! . وقد والله شَرِقتُ بغصّتكم ، وحرت في قصتكم ، إن رفعتُ أمركم إلى الملك العادل ، ردّكم إلى الشيخ الغافل ، فلا يُراعي لكم حُرمة ، ولا يكشف لكم غُمّة ، ولا يَرقُب فيكم إلاًّ ولا ذِمَّة .

شكوى الجريحِ إلى الغِرْبانِ والرَّخَمِ

والرأي عندي أن تكتبوا إلى الشيخ قصّة ، ولا تتركوا في صدوركم غُصّة ، وأن تجعلوا في الكتاب أنواعاً من العتاب ، فإن التأم رأيه برأيكم وإلاّ فالسلطان من ورائكم . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

فنادوا بالغلام ، فأتى بالدواة والاقلام ، فقال : استعذْ بالله من الشيطان الرجيم، و اكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من ملك الجوامع بجيرون إلى سعد بن أبي عصرون :

لقد أسمعتَ لو ناديتَ حيًّا ولكن لا حياةَ لمن تُنادي

أمّا بعدُ يا غدّار فقد هيّجتَ الألم ، وأبهمتَ الظُّلَم ، ومن استرعى الذئب فقد ظلم . طالما تغافلنا عن خيانتك ، وتغاضينا عن جنايتك ، حتى اكتنزت الأموال واختزلتها ، وجمعت الذخائر و اعتزلتها ، أمِنْ أجل هذا

كانت سياحتُك ، ولأجله طالت نياحتك ؟ وبسببه كنت تسيح وتصيح ؟ حتى غبطك المسيح . لقد عجبتُ أيها الشيخ من مَحَالك في ابتداء حالك ، ومن فسادِ أمرك عند آخر عُمرك ، ومن فساد دينك ، وضعف يقينك ، صلّيتَ بالمسوح والقَيْد ، حتى ظفرتَ بأنواع الصَيْد ، وتقلّدت بالقرون والعظام حتى تقلّدت الأمور العظام ، إنْ كنتَ في هذا العمل إلاّ كما قيل في المثل :

صلّى وصام لأمرٍ كان يأمُلُهُ حتى حواه فما صلّى ولا صاما

فعرِّفني أيها الشيخ المفتون ، والبائع المغبون ، لِمَ بعتَ الآخرة بالدانية ، والباقية بالفانية ؟ . إنْ فعلتَ هذا إلا لعلّة أو لتحقيق ملّة ، إما أن تكون قد استطبتَ السِّكباج ، واستَلَنْتَ الدِّيباج ، وإما أن نصدِّق أهل الأحقاد في أنك فاسد الاعتقاد ، لاتقول بالنجعة ولا تصدِّق بالرجعة ، وكلاهما أنت فيه ملوم ومعاقب ومذموم . وحسبك وقد بلغني عنك ما أنت عليه من قلّة الوفاء لهؤلاء الضعفاء ، فاحسم عني أدواءهم ، ولا تمكِّن منهم أعداءهم . والسلام .

فلمّا وصل الكتاب إليه ، وقرأ ما قد انطوى عليه ﴿ فكّر وقَدَّر فقُتِل كيف قَدَّر ، ثم نَظَرَ ثم عَبَس وبَسَرَ ثم أدبَرَ واسْتكبر ﴾ ، ثم لعن المساجد وبانيها وشتم المشاهد وقانيها ، و قلب الرّقعة وكتب فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلت رقعتك أصلحك الله كأنها ضربة مَوْتور ، أو نَفْثة مَصْدور ، تخلط فيها الهزل بالجدّ ، وتُبدي غيظ

الأسيرعلى القدّ ، وأيْم الله لقد فرقتَ سريّا وقذفتَ بريّا وجئت شيئاً فريّا .
فاشْدُدْ من عقالك ، وتأيّد في مقالك ، فما كل شكل يُذمّ شكله ، ولاكل طائر يحلّ أكله ، وماكل بيضاء شحمة ولاكل سوداء فحمة ، ولوكان لك عقل يهديك أو رأي يهديك لواريتَ أوارك ، ولسترتَ عُوارك . أليس قد اشتهر عند الداني والقاصي بأنك قطب مايتمّ فيك من المعاصي ؟ حتى لقّبوك بسُوق الفُسوق ، وميدان المُروق ورِحاب القِحاب حتى قال فيك القائل :

تجنّبْ دمَشقَ فلا تأتها ‏ ‏ وإنْ راقَكَ الجامعُ الجامعُ
فسُوقُ الفُسُوقِ به قائمٌ ‏ ‏ وفَجر الفُجُورِ به طالعُ

فلا جَرَم أن الله قطعك بالطريق ، وعاقبك بالحريق ، وجعل الميَضَ على أبوابك والزُّط في قبلة محرابك ، وعذّبك بالنيران وقرنك بأشرّ الجيران ، وجعل خطيبك أتوه دائصاً وإمامك أعمى ناقصاً . فلو أنّك البيتُ المعمور لهُجرت أو حرمُ مكّة لما حُججت . فقف عند مقدارك ، وانظر في إيرادك وإصدارك . والسلام .

فلمّا وقف الجامع على رقعته ، ورأى ما فيها من رقاعته ، قام وقعد وأبرق وأرعد وقال : اكتب يا غلام :

باسم الملك العلام ، من العاتب الواجد إلى الملك الزاهد : قال الحائط للوتد لم تشقّني ؟ قال : سَلْ من يدقني لم يتركني ورائي الحجر الذي من ورائي . أمّا بعدُ أيها الملك العادل أدام الله أيامك ونشر في

الخافقين أعلامك ، فقد طاولتَ بعدلك القمرين ، وسِرت سيرة العُمَرين وأنت تعلم أن الله قد طهّر بقعتي وكرّمها ، وشرّف بنيتي وحرّمها . طالما زوحمتُ بالمناكب لمّا كنتُ هيكلاً للكواكب ، وكم أمسيتُ مشكاةً للأنوار وبيتاً لأستقصّ النار ، ثم انتقلتُ إلى اليهود بعد انقراض ملّة هود ، فتأنّست بالزّبور وبالأنبياء في القبور ، ثم جاءت دولة الصُّلبان فقُرِّبتُ بالقربان ومعاشرة الرهبان ، ثم جاء الإسلام فتشرفت بدين محمّد عليه أفضل السلام، فأنا المشرَّف في كل قرآن والمعظَّم في كل أوان .

فكيف يسعُك ، أيّدك الله أيها الملك ، التغافل عن حالي والتحيّن لنهب أموالي ويدك مبسوطة في العباد ، ومطلقة في جميع البلاد . ما يكون جوابك يوم النشور إذا بُعثر ما في القبور وقد أوقفتَ موقف الذليل بين يدى الملك الجليل ؟ وأقول : أي ربِّ ، سَلْ هذا لم أهملني وسلّمني لمن أكلني ؟ فلا تردّ يومئذ جواباً ولا تحير خطاباً ، ولا أقبل منك ضميناً ولا كفيلاً ، ولا أقبل عنك شفيعاً ولا وكيلاً ، فتقول : ﴿ يا ليتني اتّخذتُ مع الرّسولِ سبيلا ، يا ويَلتي ليَتني لم أتّخذْ فُلاناً خَليلا ، لقد أضلّني عن الذّكر بعدَ إذْ جاءني وكان الشّيطانُ للإنسانِ خَذُولا ﴾ .

فقدّم أيها الملك السعيد لنفسك ماتجده غداً في رَمْسِك ، وخُذ هذا المذكور في الحساب قبل يوم الحساب ، فتبرأ من التّباعة وتدخل في أهل الشفاعة . والسلام على من حمى مساجد الإسلام ورحمة الله و بركاته .

فلمّا وقف الملك العادل على كتابه ، وتجرّع كأس عتابه التفت إلى المساجد فرثى لهم وسدّد أحوالهم ، وعلم فحوى شكيّتهم ، وعرف كُنه قضيّتهم أزال عنهم ظلمهم ، ﴿فأسَرَّها يوسفُ في نفسِهِ ولم يُبْدها لهم﴾ . ثم نظر إلى ابن أبي عصرون فأنزله واعتزله ، وحجبه عن بابه واختزله ،

وألقاه في سجن الصُّدود ، وخلّده فيه إلى يوم الخلود ، وقرأ عليه : ﴿ ألا بُعْداً لمَدْيَنَ كما بَعُدَتْ ثَمُود ﴾ ، والسلام .

منامات الوهراني ، طبعة مصر ، ص ٦١ - ٧١

وله نسخة إجارة
[بالميدان الأخضر بدمشق]

أما بعد ، فقد أجّرتك برضاي ورضاك قَراحا يُعرف بالكبد من رُستاق الجسد، على نهر يُعرف بالحُب ناطوره السُّقم ، وغَلّته النحول وثمره همٌّ لا يزول ، لتعمره بالوفاء، ولا تعطشه بالهجر والجفاء ، وتسقيه من ماء الرضا ، إنك مالكه إلى الحشر .

وبذلك أشهدا على أنفسهما ، المؤجر والمستأجر في صحة منهما وسلامة ، وذلك في السبوتات بالميدان الأخضر سنة خمس وثمانين وخمسمائة .

- شهدتُ على إقرار المؤجِّر والمستأجر بما نُسب إلى إقرارهما في تاريخه المذكور . وكتب عبد الله بن منصور .

- شهدتُ على إقرار المؤجِّر والمستأجر في تاريخه . وكتب سعيد بن سعد الله .

منامات الوهراني ، طبعة مصر ، ص ١٩٩

[مقامة للوهراني]
وكتب كتاباً وفيه المنام

وصل كتاب مولاي الشيخ الأجلّ الإمام الحافظ ، الفاضل الأديب الخطيب المصقع الأمين ، جمال الدين ركن الإسلام شمس الحفّاظ تاج الخطباء ، فخر الكتّاب زين الأمناء ؛ أطال الله بقاءه ، وجعل خادمه من كل سوء وِقاءه ؛ فكان ألذ من النار في عين المقرور ، وأعذب من الماء البارد في صدر المحرور . وتناوله فكان في قلبه أحلى من الدراهم ، وأنفع لجراح البعد من المراهم ؛ فلمّا فضّ ختامه وحطّ لثامه ، أبصر فيه خطاً أجمل من رياض (المَيْطور) ، ولفظاً أرقّ من نسيم الروض الممطور ، قد استفتحه سيدنا بكل لفظ مُذهب ، وذهب فيه من التعاظم إلى كل مَذهب . وأرجو له ذلك من الله بحُسن العون ، فإنه يُقال إن الفأل مقدِّمة الكون .

على أنه وجد بين جوانح الخادم من نار الشوق أجيجاً ، لو أن النار كلّست (الكلاّسة) ، واشتملت على (الحيط الشمالي) ، وعرّست في (العروس) ، وأذنت بهلاك المؤذنين وأهلّت لغير الله بدار ابن هلال تكون مثلها ، لما اقتصرت على (المقصورة) ، ولا بردّتَها (البرّادة) ، حتى تُصحن (الصحن) ، وتُنسر (النَّسر) ، وتُجردُ القُبَّة من رصاصها ، وتكبّها على عراصها ، وترميكم بالخطب الفادح في الخطيب ، وتحربكم إياه في المحراب ، فلا ينبري إلى المنبر ولو أحفظ ذلك الحافظ ثقة الدين ووقفه على مراثيه إلى يوم الدين . فأين ذات الطوق عن التغريد على هذا الشوق ، وأين حمامة (النَّيْربين) عن النياحة طول البين ، وأين شحرور (منين) عن المساعدة بالحنين .

لا والله ما رجل من سادات بني سارايا ، شرَّدَهُ عن وطنه الغارات والسرايا ، كان قد ربِّي في السروج ، ونشأ بين الجداول والمروج ، يتردّد من حصن (اللبوة) إلى بساتين (الربوة) ، يرتاد في (عين سردا) إلى (وادي بردى) ، ويصطبح في (سوق آبل) ويغتبق في كروم (المزابل) ، ويقيل في (عين حور) ويصطاد في الساجور . وفي هذه المواطن كما علمتَ رائعة الجَنان ورائحة الجِنان .

فرماه الدهر بالحظ المنقوص ، وطرحه إلى أرباض مدينة قُوص ، يتقلّى في حرّ السعير ولا يشبع من خبيز الشعير ، إدامه البصل والصِّير وفراشه الأرض والحصير . فألحّت عليه الهواجر شهري ناجر ، فتمنّى على الله ريح صبا تهب من نحو بلاده وأولاده ، لتبرّد غليل فؤاده ، فهبّت عليه من نحو صحراء عَيْذاب بكل نقمة وعذاب ، فطلعت روحه إلى التراق ﴿وقيل مَنْ راق﴾ ، ومدّ يده إلى الماء ليبرّد كبده مما يكابده ، فوجده أحرّ من زبل الحَمَام ومن ماء الحمّام .

فتذكّر حينئذٍ ما خلّفه من الربوع ، وحنّ إلى تسلسل الماء في الينبوع ، واشتاق إلى الجداول الساقية من (عيون عرق) الساقية ، فعظم حينئذ مصابه وتزايدت أوصابه ، وعلم أن سفره عن (السّفيرة) و(الكبرا) هي الطامّة الكبرى ، وعدم الصبر والسلوان عن (دير سلوان) ، فقال في نفسه : أترى الذي خلقني وبراني يعيدني إلى جنّة (الزبداني) ؟ أتراه يجمع شملي في (كفر عامر) بالسادات من بني عامر ؟ أتراني أحرق الشيح والحوذان الذي عند عيون حور (بلودان) ؟ تمنّيت أن أكون كالقنّ والقين وأعبر تحت أبيات (بقّين) ؟ . .

ثمّ أنّ أنّة مهجور ، وتنفّس عن صدر مصدور ، وأنشد :

ألا ليت شعري هل أراني ساعة　　أجرّر ذيلي في ذيول سنيرِ
وهل أرِدُ الماء الذي عند دُمَّرٍ　　أصيلاً وحولي ناصر بن منيرِ

ثم أقبل على تعضيض كفّيه ولطم خدّيه ، وبكى حتى وقع مغشياً عليه ، بأشد من شوق الخادم إلى لقائه وتطلّعه إلى ما يرد من تلقائه :

فالله يطوي بساط البُعد عن كثَبٍ　　حتى يرى الشَّمل منهم وهو مأهول

وإلى هذا الموضع انتهى فشر الكتّاب وهذيان الشعراء ، ويريد الخادم أن يطلق يده وقدمه ويسابق بها لسانه وفمه ، فإنه قد لحقه من الضجر والكلال مايلحق الجحش الصغير إذا حمل أحمال البغال . . .

منامات الوهراني ١٧ - ٢١

* * * * *

يتابع الوهراني بعد ذلك هذه المقامة الطويلة مستغرقاً عشرات الصفحات ، في مطارحاته الأدبية ومُلَحه ومفاكهاته ونقده الساخر اللاذع الذي لا يخلو من فحش وشطط في القول ، ثم يروح معارضاً أسلوب حكيم المعرّة أبي العلاء في رسالة الغفران ، فيتخيّل مناماً رأى فيه أن القيامة قد قامت ومنادياً ينادي : هلمّوا إلى العرض على الله ، وأنه خرج من قبره إلى أرض المحشر ولقي هناك كثيرين ممن عاصرهم وعرفهم .

فيطلق ها هنا العنان لمخيّلته ويتجاوز حدود عصره إلى القرون السالفة ، ولا يذر عجيبة ولا مستهجناً إلا ويأتي به ، ويخلط ما بين فنون الأدب والشعر والهزل والسخرية والتهكّم .

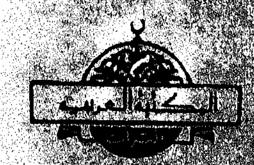
أما فيما يتصل بذكر دمشق وقراها فقد اقتصر على ما نقلناه منها أعلاه ، فيما خلا شذرات يسيرة ليست بذات بال ، أقحمها المؤلف عرضاً في تكملة هذه المقامة . وهي :

– ص ٢٤ : يذكر النبيذ الصيدناني (نسبة إلى بلدة صيدنايا) ، والنبيذ الحلبوني (نسبة إلى بلدة حلبون) .

– ص ٢٥ : يذكر المزة بقوله : أما ترى السموات تنفطر مثل فطاير المزّة في الكوانين ؟ .

– ص ٣١ : يذكر فوّارة باب جيرون : دار الفوّارة بجيرون في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة من الهجرة .

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة



منامات الوهراني

ومقاماته ورسائله

للشيخ ركن الدين محمد بن محمد بن محرز الوهراني
المتوفى سنة ٥٧٥ هـ

تحقيق

ابراهيم شعلان — محمد نغش

مراجعة

الدكتور عبد العزيز الأهواني

القاهرة
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
فرع مصر ـ ١٩٦٨

-٣٢-

اسامة بن منقذ
أسامة بن مرشد بن علي
(توفي ٥٨٤ هـ/ ١١٨٨م)

أسامة بن مرشد بن علي بن مقلّد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي الشيزري، أبو المظفَّر مؤيّد الدولة، أمير من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر قرب حماة. كان شخصيّة فريدة في التراث العربي الإسلامي، وجمع محاسن عصره كلها، فقد كان أميراً فارساً وصيّاداً حاذقاً وأديباً شاعراً كاتباً وعالماً وحكيماً، ورحّالة طاف أرجاء الشام ومصر بأجمعها.

ولد في شيزر عام ٤٨٨ هـ، وأقام مدّة بدمشق، وانتقل إلى مصر عام ٥٤٠ هـ، وقاد عدّة حملات على الصليبيين في فلسطين، وعاد إلى دمشق. ثم برحها إلى حصن كيفا، فأقام إلى أن ملك السلطان صلاح الدين دمشق، فدعاه السلطان إليه فأجابه وقد تجاوز الثمانين، فمات في دمشق عام ٥٨٤ هـ ودفن بسفح جبل قاسيون، غير أن قبره درس ولا يعرف اليوم.

كان أسامة مقرّباً من الملوك والسلاطين، وله تصانيف في الأدب والتاريخ، منها: «لُباب الآداب» و«المنازل والديار» و«البديع» و«القلاع والحصون» و«أخبار النساء» و«العصا» وديوان شعر. على أن أخصّ كتبه وأهمّها وأروعها كتابه الموسوم بـ«كتاب الاعتبار».

وفي هذا الكتاب بسط أسامة سيرته الذاتية، المليئة بأحداث الصراع الضاري بين المسلمين والفرنجة الصليبيين، على امتداد عهود السلاجقة والأتابكة والدولة النورية وبداية الدولة الأيوبية على عهد صلاح الدين. فنلمح في روايات أسامة عن المعارك الدامية صورة صادقة تكاد تنبض بالحياة، وبخاصة أن مؤلّفها كان يشارك بها بنفسه ويباشر القتال فيقتل ويجرح ويُجرح ويُلاقي شتّى صنوف المخاطر والمغامرات.

كما يضم كتاب الاعتبار روايات طريفة وممتعة عن قصص الصيد في بادية الشام وأطرافها، وكان أسامة صيّاداً ماهراً وفارساً لا يجارى بين أقرانه. كما نلمح فيه صوراً تمور بالحيوية عن الحياة الاجتماعية في مدن الشام وريفه آنذاك، مع أخبار هي غاية في الطرافة عن حياة الفرنجة المقيمين بالإمارات الصليبيّة في بلاد الشام. وقد كانت لأسامة مع بعض فرسانهم صداقات لم يمنع منها صدامهم المميت في ساحة المعركة، فيقدّم لنا لمحات عن طباعهم وغرائب تصرّفاتهم كما رآها بعينه.

وبالإجمال فالكتاب كنز ثمين لدراسة أحوال ذلك العصر، وهو دون ريب واحد من أثمن ذخائر تراثنا الأدبي المكتوب. ومنه نسخة مخطوطة فريدة في دير الإسكوريال بإسبانية، وفيه ذكر لدمشق ننقله فيما يلي عن طبعة فيليپ حتّي، پرنستون ١٩٣٠م.

المصادر:

كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ، مقدّمة حتّي

الأعلام للزركلي ١/ ٢٨٢

أسامة في دمشق
٥٣٢ - ٥٣٩ هـ

فاقتضت الحال مسيري إلى دمشق، ورسل أتابك تتردّد في طلبي إلى صاحب دمشق. فأقمت فيها ثماني سنين، وشهدتُ فيها عدّة حروب، وأجزل لي صاحبها رحمه الله العطيّة والإقطاع، وميّزني بالتقريب والإكرام. يضاف ذلك إلى اشتمال الأمير معين الدين [أُنَر] رحمه الله عليّ وملازمتي له ورعايته لأسبابي. ثم جرت أسباب أوجبت مسيري إلى مصر.

كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ ٤

زيارة أسامة الثانية لدمشق
٥٤٩ - ٥٥٩ هـ

ثم اتصلتُ بخدمة الملك العادل نور الدين رحمه الله. وكاتب الملك الصالح [ابن رُزِّيك] في تسيير أهلي وأولادي الذين تخلّفوا بمصر، وكان محسناً إليهم. فردّ الرسول واعتذر بأنه يخاف عليهم من الإفرنج . . .

كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ ٣٤

قصد الفرنج دمشق
٥٢٣ هـ

ومن نفاذ المشيئة في الآجال والأعمار أن الإفرنج خذلهم اللّه أجمع رأيهم على أن يقصدوا دمشق ويأخذوها. فاجتمع منهم خلق كثير، وسار إليهم صاحب الرّها وتل باشر وصاحب أنطاكية. فنزل صاحب أنطاكية على شيزر في طريقه إلى دمشق، وقد تبايعوا بينهم دُور دمشق وحمّاماتها وقياسيرها، واشتراها البُرْجاسيّة ووزنوا لهم أثمانها، وما عندهم شك في فتحها وملكها. وكفر طاب إذ ذاك لصاحب إنطاكية، فجرّد من عسكره مائة فارس انتخبهم وأمرهم بالمُقام بكفر طاب مقابلنا ومقابل حماة.

فلمّا سار إلى دمشق اجتمع من بالشام من المسلمين لقصد كفر طاب، وأنفذوا رجلاً من أصحابنا يُقال له قُنيب بن مالك. فجسّ لهم كفر طاب في الليل، فوصلها دارّها وعاد وقال: أبشروا بالغنيمة والسلامة! فسار المسلمون إليهم فالتقوا على مثكير، فنصر اللّه سبحانه الإسلام وقتلوا الإفرنج جميعهم.

وكان قُنيب الذي جسّ لهم كفر طاب قد رأى في خندقها دواباً كثيرة، فلما ظفروا بالإفرنج وقتلوهم طمع في أخذ تلك الدواب التي في الخندق ورجا أن يفوز بالغنيمة وحده. فمضى يركض إلى الخندق، فرمى عليه رجل من الإفرنج من الحصن حجراً فقتله. وكانت له عندنا والدة عجوز كبيرة تندب في مأتمنا ثم تندب ولدها، فكانت إذا ندبت على ابنها قُنَيب يتدفّق ثدياها باللبن حتى تغرق ثيابها، فإذا فرغت من ندبها عليه

الحنَّة على الأولاد.

ولمّا قيل لصاحب أنطاكية وهو على دمشق: قد قتل المسلمون أصحابك، قال: ما هو صحيح! قد تركتُ بكفر طاب مائة فارس تلتقي المسلمين كلّهم.

وقضى اللّه سبحانه أن المسلمين بدمشق نُصروا على الإفرنج وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأخذوا جميع دوابهم، فرحلوا عن دمشق أسوأ رحيل وأذلّه، والحمد لله رب العالمين.

كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ ١١٤

الترهيب في الحرب

وقد يكون الترهيب في بعض الأوقات نافعاً في الحرب.

من ذلك أن أتابك [زنكي] وصل الشام وأنا معه في سنة تسع وعشرين وخمس مائة، وسار قاصداً دمشق. فلمّا نزلنا القُطَيْفة قال لي صلاح الدين [الغِسْياني] رحمه اللّه: «اركب وتقدّمنا إلى الفستقة، أقم على الطريق لا يهرب أحد من العسكر إلى دمشق». فتقدّمت وقفتُ ساعة، وإذا صلاح الدين قد أتى في قلّة من أصحابه، فرأينا في عذراء دخاناً. فأرسل خيلاً تُبصر ما هو الدخان، فإذا هم قوم من عسكر دمشق يحرقون التبن الذي في عذراء، فانهزموا. فتبعهم صلاح الدين ونحن معه، لعلّ في ثلاثين أربعين فارساً، فوصلنا القُصير وإذا عسكر دمشق جميعه في القصير

قاطع الجسر، ونحن عند الخان. فوقفنا مستترين بالخان ويخرج منّا خمسة ستة فوارس حتى يبصرهم عسكر دمشق ويعودون إلى خلف الخان، نوهمهم أن لنا كميناً.

ونفّذ صلاح الدين فارساً إلى أتابك يعرّفه بما نحن فيه، فرأينا نحواً من عشرة فوارس مقبلين إلينا مسرعين والعسكر خلفهم متتابع. فوصلونا وإذا هو أتابك قد تقدّم والعسكر في أثره. فأنكر على صلاح فعله، وقال: «تسرّعت إلى باب دمشق بثلاثين فارساً لتُكسر ياموسى ؟!»، ولامهُ، وهم يتكلّمون بالتركي ولا أدري ما يقولون.

فلمّا وصلنا أوائل العسك قلتُ لصلاح الدين: «عن أمرك آخذ هؤلاء الذين وصلوا، أو أعبر إلى خيل دمشق الواقفة مقابلنا أقلعهم». قال: «لا . . . كذا وكذا ممن ينصح في خدمة هذا ! ما تسمع أيّ شيء قد عمل بي ؟».

ولولا لطف اللّه تعالى ثم ذلك الترهيب والتخييل كانوا قلعونا.

كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ ١٥٠



كتاب الاعتبار

لأسامة بن منقذ

وهو مؤيَّد الدولة أبو مظفَّر أُسامة بن مُرشِد الكِناني الشَّيزري

عن النسخة الفريدة المحفوظة في مكتبة الاسكوريال باسبانيا

حرَّره

فيليب حتي، د.ف.

مطبعة جامعة برنستون

الولايات المتحدة

١٩٣٠

- ٣٣ -

الجلياني
عبد المنعم بن عمر
(توفي ٦٠٢ هـ/ ١٢٠٥م)

عبد المنعم بن عمر بن عبد اللّه الجِلياني الغسّاني الأندلسي، رحّالة أندلسي عاصر ابن جبير، نسبته إلى جليانة وهو حصن في الأندلس من أعمال وادى آش Guadix، ومولده عام ٥٣١ هـ. كان شاعراً أديباً ومتصوّفاً وطبيباً وكان يعرف بلقب «حكيم الزمان»، رحل إلى دمشق أيام صلاح الدين واستوطنها مدّة، ولقيه فيها ياقوت الحموي، وقد اتّخذ دكّاناً يطبِّب بها في اللبّادين عند الجامع الأموي ويعتاش منها. وذكر أنه كان عجيباً في عمل الأشعار التي تُقرأ القطعة الواحدة منها بعدّة قوافٍ. وفي عام ٦٠١ هـ زار بغداد، وتوفي بدمشق عام ٦٠٢ هـ.

اتصل عبد المنعم بصلاح الدين ومدحه، وكان السلطان يحترمه ويجلّه. فوضع في هذا الباب كتاباً أسماه «منادح الممادح»، وهو الذي يسمى بـ «المدبّجات»، وفيه شعر كثير ومقامات في مدح صلاح الدين، وما يزال هذا الكتاب مخطوطاً. وله أيضاً «روضة المآثر والمفاخر في خصائص الملك الناصر» و«مشارع الأشواق»، كما أن له عشرة دواوين ما

بين النظم والنثر، منهـا «ديوان أدب السلوك»، و«ديوان الغـزل والتشبيب والموشّحات»، و«ديوان الترْسّل والمخاطبات».

فمن جملة مقاماته مقامة في مدح الشام ودمشق، وهي الشذرة الثانية عشرة، رسالة اكتتبها راجح بن حسّان في «بهجة الشام وأوصافه الحسان» يقول فيها :

لما دُعِيت الأرض فأتت طائعـة ربّها، وبارك فيها وقدَّر أقواتها وربها، جعل الشام لبّها المقوِّم وقَلبها، وعقدها المُنْظِم وقُلبها، . . مباعث الأنبياء، ومُهاجَر الأولياء، وموارد الصالحين، وموائد السائحين، ومشرق الجلال، ومشرع الحلال، فكيف يُحصى فضلها أو يُستقصى، وبعض محجوباتها المسجد الأقصى ؟

ثم يخلص إلى مدح دمشق فيقول :

وإن مـدينة جلَّق لمن أبدع مـا خلق. جلّل ظاهرها الزاهران : الخصب والإيناس، وتخلّل باطنها الطاهران : الذكـر وباناس، يطرد بالتنظيف أدرانها، ويبرِّد في المصيف بحرانها، ويسري عروقاً في أعضائها نابضـة، ويمري بحوراً في أرجائها فائضـة. كأن القنوات في أزقّتها أفواه تمجّ فضل ريقتها . . . وإذا حللتَ جامعها المشيد ؛ غبطتَ المُخافت بذكر الله والمشيد. تبهر الآذان تلاوته، ويسحر الأذان طلاوته . . . رقمته أيدي الهمم الأمويّة، وأرست قـواعد بُنيته الإرميّة . . . وترى أشجار نُضاره، تحيِّر أبصار نُظّاره في فصوصٍ تمتّنتها الخواتم، وزهرت بها الليالي العواتم ؛ وصوّرتها صنّاع الروم، صور البساتين والكروم ! فلن

ترى العين مثله نباتاً ، أحسن زهرةً وأمكن ثباتاً ؛ لا يذوي نوّاره ، ولا تنزوي أنواره ؛ كل زمان له ربيع . . .

ثم يمضي عبد المنعم فيصف محاسن دمشق ، وجمال طبيعتها ، ويعقد قصيدة طويلة مطلعها :

عُهودُ لُيَلَى وما ضَمَّتْ لياليها

لوصف الغوطة وجمالها وزهرها ومائها وفاكهتها ، ولا مكان لذكرها هنا لأنها طويلة . وهذه المقامة التى نقلنا بعض نصوصها مهمة ، وتستحق أن تنشر كلها ، وهي تدخل في باب ما يسميه الغربيون «الجغرافيا الأدبية» .

دمشق في نظر الأندلسيين للمنجد
صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد
المجلد السادس ١٩٥٨، العدد ١-٢ ، ص ٥٢-٥٣

المصادر :

فوات الوفيّات لابن شاكر ٢/ ١٦
طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ٢/ ١٥٧
نفح الطيب للمقّري ٢/ ٦٥٤

ملحق

عثرنا في كتاب «غوطة دمشق» للأستاذ كرد علي على قطعة نقلها من قصيدة الجلياني التي ذكرنا مطلعها (عهود ليلى وما ضمّت لياليها)، نقلها هنا إتماماً للفائدة، لكونها غير منشورة أصلاً في مصدر مطبوع، وكان الأستاذ كرد علي قد نقلها من مخطوط لم يصرّح بعنوانه.

وهي على أي حال من جملة مقاماته في مدح الشام ودمشق، من الشذرة الثانية عشرة، رسالة اكتتبها راجح بن حسّان في « بهجة الشام وأوصافه الحسان » .

وليلة الربوة الشمّاء معلمة ... حتى الصباح بروح الذكر نحييها

مأوى ابن مريم في مسرى سياحتها ... قد بوركت بمعانيه مغانيها

تحفّها سبعة لو سدّ مسربها ... لطمَّ شامخة الآطام طاميها

كأنها الحجر الملقي عصاه به ... موسى ففجّر للأسباط جاريها

كأنها درّة أضحى يزيد لها ... خيطاً بلبّات آكامٍ تواليها

مَعينة ببحار يلتطمن بها ... مُعينة لخيار أخبتوا فيها

وصخرة المزّة الغرّاء ناطحة ... قرن الغزالة في مبدا تجليها

محلّة السفح ما شيب السفوح بها ... بل مثل ما روّق الصهباء ساقيها

يغذى بها القلب أنفاساً بلا كدر ... فلن يحلّ الوبا أطراف ثاويها

إن الهواء إذا رقّت مناسمه ... في بلدة لَطُفَت أخلاط أهليها

وأذكر ضحى الشَّرف إذا طلعت ... ذُكاء من أفق أشجار تواريها

ومنظراً يستبي الألباب رائعه ... ويشغل النفس عن أشهى أمانيها

يرنو إلى بردى ينساب في بَرَدٍ — في بُردتي سندس خضر حواشيها

تكسّر الماء بلّوراً وراكده — كالفضّة الحوق مصقول عواليها

وحيث شئت فأشجار تمدّ على الـ — أنهار ظلاً يُغشي من يوافيها

فكل صورة أنس في منازلها — وكل نزهة نفس في روابيها

لولا أمور وأرزاق مقدّرة — لم يرتحل عن دمشق حاضر فيها

غوطة دمشق ، الطبعة الثانية ، ص ١٠٠

- ٣٤ -

الهروي
علي بن أبي بكر الموصلي
(توفي ٦١١ هـ/ ١٢١٥م)

سائح مشهور من القرن السادس الهجري، وهو أحد السابقين لياقوت الحموي مباشرة فلذا أفاد هذا الأخير من مصنّفه كثيراً. ولكن لا يمكن اعتباره عالماً على الإطلاق بل رحّالة ذا أهداف معيّنة. أما أصله فكما تدلّ نسبته من مدينة هراة بأفغانستان، غير أنه ولد بالموصل وارتبطت حياته بالبلدان الغربيّة للعالم الإسلامي. وقد أمضى معظم حياته في التجوال حتى لُقّب بـ«السائح»، ولكن تجواله لم يكن في طلب العلم أسوة بالجغرافيين المعروفين بل في زيارة أضرحة الأولياء والمقامات الكثيرةالتي سمع بها. وفي أواخر أيامه حظي الهروي بنفوذ كبير لدى والي حلب وهو الملك الظاهر أحد أبناء صلاح الدين الأيوبي، وشيّد له هذا الأمير بحلب مدرسة توفي بها عام ٦١١ هـ، وقد رأى قبره ابن خلّكان.

بدأ الهروي تجواله من حلب فكانت الشام أولى الأقطار التي زارها ووصفها، وقد حدث هذا بعد أعوام قليلة من زيارة ابن جبير. وأقام خلال

عامي ٥٦٩ - ٥٧٠ هـ ببيت المقدس تحت سلطان الصليبيين، ودوّن فيها نقوشاً هامّة كانت بمسجد عمر وزالت بعد ذلك. وزار أضرحة الأولياء وأماكن العبادة المعروفة بمصر والمغرب وبلاد العرب والعراق وإيران والهند، كما زار أيضاً أراضي الدولة البيزنطيّة وعاصمتها القسطنطينيّة في عهد الإمبراطور مانويل الأول وجرت بينه وبين الإمبراطور محادثة كما يزعم. وفي صقلية سنحت له فرصة مراقبة ثوران بركان إتنا Etna عام ١١٧٥م. كما وصف الأماكن المشهورة بالحبشة رغم أنه لم يزرها.

وقد ذكر ابن خلكان أن الهروي لم يترك براً ولا بحراً ولا سهلاً ولا جبلاً من الأماكن التي يمكن قصدها ورؤيتها إلا رآها، وأنه كان يكتب اسمه أو ينقشه في كل مكان زاره، وقد أبصر ابن خلكان بأمّ عينه بعض ذلك بعد نصف قرن.

وقد دوّن الهروي أخبار مشاهداته في كتابه «الإشارات إلى معرفة الزيارات»، وهو من الكتب الهامّة والشيّقة. قامت بنشره المستشرقة الفرنسيّة جانين سورديل وطبع بدمشق عام ١٩٥٣م ضمن منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربيّة. ومنه نقلنا ما يتعلّق بدمشق.

المصادر:

كتاب الإشارات للهروي، مقدّمة سورديل بالفرنسيّة

وفيّات الأعيان لابن خلكان ١/ ٤٣٧

تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ١/ ٣٢٠

مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجّد ١٥٥

مدينة دمشق وجبالها وقراها

قيل دمشق هي ﴿إرَم ذات العماد*التي لم يُخلق مثلها في البلاد﴾، وقيل بناها دماشق بن قاني بن مالك بن سام بن نوح، وقيل الضحّاك، وقيل هي كانت دار نوح، وقيل التنّور فار من جبل لبنان والله أعلم.

جبل بَرَدَة: عليه قبر هابيل وقابيل أولاد آدم عليه السلام، وقيل: قائين، وهو الأصحّ. والله أعلم.

الربْوَة: موضع مبارك نَزِهٌ مليح المنظر، في لحف جبل. وليست الربوة المذكورة في القرآن العزيز التي سكنها عيسى وأمّه، قال الله تعالى: ﴿وآويناهما إلى ربوةٍ ذاتِ قرار ومَعين﴾، فإن عيسى عليه السلام ما دخل دمشق ولا وطىء الشام. والربوة التي ذكرها الله عزّ وجلّ في حقّه قيل هي الرملة، والصحيح أنها بمصر بمدينة يقال لها البَهْنَسَة، وسيأتي ذكرها في رحلة الصعيد إن شاء الله تعالى[1].

النَيْرَب: قرية بجامعها قبر أم مريم، وليست مريم ابنة عُمران، وهذه لها حكاية والله أعلم.

جبل قاسيون: به مغارة الدم، قيل بها قتل قابيل هابيل، وبه مغارة آدم عليه السلام، سكن بها وتُعرف الآن بالكهف. وبه مغارة الجوع، قيل مات بها أربعون نبياً، ولها حكاية والله أعلم.

المزِّة: قرية بها قبر دِحْيَة الكلبيّ، وسيأتي ذكره.

---

(١) أنظر كتاب الإشارات للهروي، ص ٤٣.

بَرْزَة: من أعمالها، بها مولد ابراهيم الخليل عليه السلام، والصحيح أن مولده بالعراق بكوثى ربًّا، وسيأتي ذكره في رحلة العراق إن شاء اللّه تعالى. وقيل مولده بقرية يقال لها فَدَّان من أعمال حَرَّان، وليس بصحيح واللّه أعلم.

عَذْراء: قرية من أعمالها، بها حُجْر ابن عديّ والجماعةُ الذين قتلهم معاوية معه، رضي اللّه عنهم.

مَرْج راهِط: به زُمَيْل بن ربيعة، وبه ربيعة بن عمرو الجُرَشي واللّه أعلم.

مَرْج الصفُّر: به خالد بن سعيد. ولا تُعرف قبور مَنْ بالمرج.

بيت لِهْيا: والصحيح بيت الآلهة، وهي قرية من أعمالها ذكروا أن آزر كان ينحت الأصنام بها ويدفعها لابراهيم عليه السلام ليبيعها، فيأتي بها إلى حجر بالبلد فيكسرها عليه. والحجر إلى الآن بدمشق في مسجد في درب يقال له درب الحَجَر(١). وقرأتُ في التوراة في السفر الأول والجزء الثاني أن آزر مات بحرّان لمّا سكن بها عند خروجه من العراق، وآزر لم يدخل الشام.

المنيحَة: قرية من أعمالها، بها قبر سعد بن عُبادة الأنصاري، والصحيح أن سعداً مات بالمدينة.

راوية: قرية من أعمالها، بها قبر أم كلثوم، وقبر مُدْرِك من الصحابة من غربيّها، وقبر كنَّاز من الصحابة قريب من قرية تُعرف بحلفبَلْتا

---

(١) درب الحجر ذكره ابن عساكر وغيره، يعرف في أيامنا بجادة باب توما أو (العازريّة).

وبيت رانِس وهو بينهما، وهذا كنَّاز هو أبو مرثد بن الحصين، وقيل مات بالمدينة والله أعلم.

داريّا: قرية بها قبر الشيخ أبي سليمان الداراني من كبار الأولياء، وشمالي داريّا قبر أبي مُسلم الخَوْلاني، وخولان قرية هناك باقية آثارها.

مشهد الأقدام: قبليّ دمشق، به آثار أقدام في الصخر يقال إنها أقدام الأنبياء عليهم السلام، ويقال إن القبر الذي به قبر موسى بن عمران وليس بصحيح، والصحيح أن قبره لا يُعرف والله أعلم.

ميدان الحَصَى: قبليّ دمشق، به قبر ذكروا أنه قبر أم عاتكة أخت عمر ابن الخطّاب رضي الله عنه، وعنده قبر ذكروا أنه قبر صُهَيْب الرومي وقبر أخيه، والصحيح أن صهيب بالمدينة وعاتكة أيضاً.

وبها مشهد النّارنج وبه حجر مشقوق، وله حكاية مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقبليّ الباب الصغير قبر بلال بن حمامة، وقبر كعب الأحبار، وثلاث من أزواج النبي (صلعم)، وقبر فضّة جارية فاطمة رضي الله عنهما، وقبر أم الدرداء، وقبر أبي الدرداء، وقبر فضالة بن عُبيد، وقبر سهل ابن الحنظليّة، وقبر واثلة بن الأسقع، وقبر أوس بن أوس الثقفي، وقبر أم الحسن ابنة حمزة بن جعفر الصادق، وقبر علي بن عبد الله بن العبّاس، وقبر سليمان بن علي بن عبد الله بن العبّاس، وقبر زوجته أم الحسن ابنة جعفر ابن الحسن بن الحسن بن فاطمة الزهراء رضي الله عنهم، وقبر خديجة ابنة زين العابدين، هؤلاء في تربة واحدة. وقبر سُكَينة ابنة الحسين رضي الله عنهما، وقبر محمّد بن عمر بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم. وبالجبّانة قبر أويس القُرنيّ، وقد زرناه بالرقّة وبثغر الإسكندريّة

وديار بكر والله أعلم. والذي صحّ أنه بالرّقة وسيأتي ذكره[1].

ومن شرقيّ البلد قبر عبد الله بن مسعود وأبيّ بن كعب. والصحيح أن عبد الله بن مسعود وأبيّ بن كعب وكعب الأحبار وأزواج النبي عليهم السلام، مثل عائشة وحفصة وأم سلمة وأم حبيبة وزينب ابنة جحش وصفيّة وأم أيمن، وقيل كانت أم أيمن حبشيّة واسمها بركة، وفاطمة اخت عمر بن الخطّاب رضي الله عنهم، كلّهم بالمدينة، وسيأتي ذكرهم برحلة الحجاز إن شاء الله تعالى.

وبالجبّانة التي بدمشق خلق كثير من المشايخ والصالحين اختصرناهم خوف التطويل، ويقال بها سبعون رجلاً من الصحابة رضي الله عنهم، والله أعلم بالصحيح.

وقيل إن جبّانة دمشق حُرثت وزُرعت مقدار مائة سنة فلذلك لا تُعرف القبور والله أعلم.

باب الفراديس: به مشهد الحسن رضي الله عنه.

وظاهر البلد عند مشهد الخضر قبر محمد بن عبد الله بن الحسين ابن أحمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق. ورأيتُ على الضريح مكتوباً ما هذه صورته: رواه القاضي أبو الحسين بن عبد الرحمان بن عبد الله بن الحسين بن أحمد بن أبي الحديد والفقيه أبو الحسن عليّ بن أحمد بن الحسين، قالا: أخبرنا ابو الحسن بن ماسا - والشيخ أبو القاسم الحسين بن علي بن حسن وغيرهما أخبروا عن الشيخ أبي الحسن بن ماسا العدل - أنه رأى النبيّ (صلعم) شآميّ القُبّة الخربة التي بها الشريف العابد وهو

(١) أنظر كتاب الإشارات للهروي، ص ٦٣.

يقول: «من أراد زيارتي ولم يستطع فليزر الضريح من ولدي محمّد بن عبد اللّه المذكور».

وفي مدرسة مجاهد الدين قَدَمُ النبي (صلعم) في صخرة سوداء أتوا بها من حوران واللّه أعلم.

وبدمشق عامود العُسْر في العلبيّين مجرّب كما ذكروا، وعامود آخر عند الباب الصغير في مسجد يُزار ويُنْذر له.

وبالجامع من شرقيّة مسجد عمر بن الخطّاب رضي اللّه عنه، ومشهد عليّ بن أبي طالب رضي اللّه عنه، ومشهد الحسين وزين العابدين رضي اللّه عنهما. وبالجامع مقصورة الصحابة رضي اللّه عنهم، وزاوية الخضر عليه السلام.

وبالجامع رأس يحيى بن زكريّاء عليه السلام، ومصحف عثمان بن عفّان رضي اللّه عنه، كما ذكروا أنه خَطّه يده. وقيل إن قبر هود عليه السلام في الحائط القبلي، والصحيح أن قبر هود في حضْرَموت شرقي عدن، وسيأتي ذكره وذكر الأحقاف وبئر بَلْهوت وقصر غُمْدان في رحلة اليمن، وهي «البئر المعطّلة» و«القصر المشيد» إن شاء اللّه تعالى.

وجامع دمشق ليس للإسلام هيكل للعبادة مثله بعد المسجد الأقصى بالبيت المقدّس، أعني في حُسن عمارتهما، وأما في الإشتغال بالعلم والحديث وإلى جامع مدينة هَرات وبَلْخ وسِجستان المنتهى. وأما قبّة النسر التي بالفصّ المذهب فقد شاهدناه في هياكل بالد الروم ما يأتي ذكره إن شاء اللّه.

وبالجامع العُمُد الصغار التي تحت قبّة النسر مجزّعة بحُمرة، قيل إنهما كانا بعرش بلقيس كما ذكروا واللّه أعلم.

وبالجامع المنارة الغربيّة التي أقام بها الغزالي، وابن تُومَرْت الذي ملك بلاد المغرب. يُقال إنها كانت هيكلاً لعبّاد النار، وكانت إذا طلعت ذؤابة النار سجد لها أهل حوران، ولا تخلو من وليّ لله تعالى يقيم بها. والمنارة الشرقيّة قيل إنها المنارة الميضاء التي ينزل عندها عيسى بن مريم عليه السلام. وفيها حجر يُقال إنه قطعة من الحجر الذي ضربه موسى عليه السلام ﴿ فانبَجَسَتْ منه اثنتا عشرة عيناً ﴾ والله أعلم. وقيل إن المنارة التي ينزل عندها المسيح هي المنارة التي عند كنيسة مريم بدمشق والله أعلم. وبالجامع قبّة بيت المال وهي القبّة الغربيّة، ذكروا أن تحتها قبر عائشة رضي الله عنها، والصحيح أن قبرها بالبقيع والله أعلم بذلك. وعلى باب الجامع الذي يُقال له باب الزيادة فيه قطعة رمح معلّقة ذكروا أنها من رمح خالد ابن الوليد والله أعلم.

ويدمشق قبر نور الدين محمود بن زنكي من الأولياء بمدرسته المعروفة به. وبالجامع في الكلاّسة قبر العبد الصالح صلاح الدين يوسف ابن أيّوب فاتح البيت المقدّس والثغور والعواصم.

الإشارات إلى معرفة الزيارات للهروي ١٠ - ١٦

- ٣٥ -

ابن جُبير الأندلسي
محمد بن أحمد الكناني
(توفي ٦١٤ هـ/ ١٢١٧م)

كان كثير من الحجّاج القادمين من الأندلس يزورون المغرب ومصر والشام في طريقهم إلى الحجاز ، ثم ينتهزون هذه الفرصة للطواف في بعض الأقاليم الإسلامية الأخرى . وأعظم هؤلاء الحجّاج شأناً في القرن السادس الهجري هو ابن جبير ، فقد قام بثلاث رحلات إلى الشرق ودوّن أخبار الرحلة الأولى في شبه مذكرات يومية ، نالت حظاً كبيراً من الشهرة واحتلّت قصب السبق بين الرحلات القائمة على الرواية الشخصية .

ولد محمد بن أحمد بن جبير الكناني الشاطبي في مدينة بلنسية بالأندلس عام ٥٤٠ هـ وتعلّم في سبتة وغرناطة ، ثم دخل في خدمة أبي سعيد بن عبد المؤمن صاحب غرناطة ، وجرت له في بلاطه قصة طريفة ذكرها المقّري في «نفح الطيب» كانت سبباً في عقده العزم على القيام برحلة إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج ، فبقي يرتحل ويسافر مدّة سنتين وثلاثة أشهر .

انطلق ابن جبير في شوّال عام ٥٧٨ هـ إلى الحجاز مع صديق له اسمه أحمد بن حسّان ، وكان من أهل الطب والعلم والأدب ، فعبرا البحر إلى سَبْتة حيث ركبا سفينة جنوية أقلّتهما إلى الإسكندرية ، وفي طريق الرحلة تعرّضت السفينة إلى مخاطر كبيرة من الأنواء والأمواج ، وبالكاد وصلت سالمة إلى سردينيا ثم صقلية حتى بلغت الإسكندرية أخيراً ، وفيها استنكر ابن جبير بشدّة أعمال جباة المُكوس (أي الجمارك بلغة عصرنا) وتصرفاتهم الدنيئة القبيحة مع المسافرين .

وانتقل ابن جبير بعد ذلك إلى القاهرة وجال في جنوب مصر ثم اليمن وعيذاب . على أن الجزء الأساسي في رحلته إنما كان وصف مكة والمسجد الحرام ومناسك الحج وزيارة المدينة ، فقد استغرق ذلك أكثر من ثلث الكتاب ، وقدّم فيه ابن جبير معلومات ذات شأن عظيم في دراسة الآثار الإسلامية للحجاز ، ولا غرو فقد أقام بمكة حوالي ستة شهور .

ثم أكمل رحلته إلى العراق ، وألقى عصا التسيار في بغداد التي أمعن في وصفها وصفاً دقيقاً ، إلا أنه أبدى خيبة أمله بأن يرى حاضرة الخلافة العباسية قد أزرى بها الدهر وقصر مرآها عن مخبرها وانطفأت جذوة الحضارة فيها .

ثم واصل الرحلة بين مدن الشام المختلفة ، ودخل دمشق عام ٥٨٠ هـ في أيام السلطان صلاح الدين ، فسمع بها الحديث من محدّثها أبي الطاهر الخشوعي وأجاز له ابن أبي عصرون والقاسم بن عساكر ابن مؤرخ دمشق الكبير ، ومدح صلاح الدين بقصيدتين ، ووصف دمشق بما لم يصفه بها أحد . وهذا الوصف يعتبر من أغنى النصوص التي تفيد في التأريخ لدمشق في القرن السادس ، فقد فصّل في حال المدينة من النواحي

الطبوغرافية والاجتماعية والعلمية والسياسية ، والمهم في وصفه أنه ذكر أموراً رآها عجيبة بالنسبة لما ألفه هو من عادات الأندلسيين ، لكن هذه الأمور هي من خصائص دمشق والدمشقيين .

وخصّ ابن جبير جامع دمشق بوصف دقيق ، وهو أول وصف يصل إلينا بعد حريقه العظيم الذي أذهب بهاءه في العصر الفاطمي عام ٤٦١ هـ ، وهو يختلف قليلاً عن آخر وصف له قبل حريقه المذكور ، والذي كتبه الجغرافي الحسن المهلّبي في كتابه «المسالك والممالك» ، الوارد ذكره آنفاً في كتابنا هذا . ونص ابن جبير يدلنا على أن السلاجقة ونور الدين أعادوا إلى الأموي رونقه وتزويقه .

هذا وقد أثارت دهشة ابن جبير وإعجابه بدمشق عدّة أمور هي : ازدهار النشاط العلمي العظيم في المدينة أيام نور الدين وصلاح الدين ، أما قوله بأن عدد المدارس كان فيها نحو العشرين فهو على التقريب ، والصحيح أنه كان فيها عام ٥٨٠ هـ خمس وعشرون مدرسة . الأمر الثاني هو حبّ أهل دمشق للمغاربة وثقتهم الكبرى بهم ، فتأثر ابن جبير بهذا الإكرام البالغ ودعا أبناء وطنه إلى قصد دمشق . الأمر الثالث كثرة الأوقاف بدمشق آنذاك على مرافق العلم وعلى المساجد وسائر الخدمات الاجتماعية . وأخيراً أهمية مركز دمشق التجاري وكثرة أسواقها وانتياب القوافل لها ، فذكر لنا رحالتنا ملاحظات ذات شأن كبير لمعرفة الأحوال الاقتصادية لدمشق والشام آنذاك .

على أن رحالتنا كما سرّته بدمشق أشياء ساءته أشياء أخرى ، فراح يستنكر ويسخر من بعض العادات الاجتماعية التي وجدها غريبة بالقياس إلى المتعارف عليه في موطنه الأصلي . وكيفما كان الأمر فقد ترك لنا نصاً

مهماً جداً لتأريخ مدينة دمشق ، غنياً بالملاحظات والمعلومات .

ثم غادر ابن جبير دمشق وتابع رحلته فوصل إلى عكا في جمادى الآخرة عام ٥٨٠ هـ ، ومنها عزم على ركوب البحر إلى جزيرة صقلية ، ومنها أقلع على ظهر سفينة جنوية حملته إلى ثغر قرطاجنة في الأندلس ، ثم تابع السفر حتى وصل إلى غرناطة بعد أن غاب عنها حوالي سنتين أو أكثر .

وقام ابن جبير برحلة ثانية إلى الشرق الإسلامي عام ٥٨٥هـ ، استغرقت أيضاً سنتين وبضعة أشهر ، وكان الذي دفعه هذه المرّة ما سمعه من تحرير السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي لبيت المقدس عام ٥٨٣ هـ ، وكان شديد الإعجاب بالسلطان عظيم الإكبار له ، فلا تمرّ في نصّه سانحة إلا بيّن فيها ما كان عليه هذا السلطان العظيم من العدل ونبل الأخلاق وكرم السجايا .

ثم ترك ابن جبير المقام في غرناطة وانتقل إلى بلاد المغرب حيث أقام عشرين عاماً ونيّف ، رحل بعدها إلى المشرق مرة ثالثة وقد انتابه الحزن لوفاة زوجته عام ٦٠١ هـ ، ولم يرجع إلى الأندلس مرة أخرى بل أمضى أكثر من عشرة أعوام متنقلاً بين مكة وبيت المقدس والقاهرة مشتغلاً بالتدريس والكتابة إلى أن وافته المنيّة بالإسكندرية عام ٦١٤ هـ .

وأما رحلته المشهورة فهي الأولى منها ، ترك لنا أخبار مجرياتها على هيئة مذكرات يومية في كتاب منفرد وضعه بعد رجوعه حوالي عام ٥٨١ هـ ، يعرف باسم : «كتاب اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك» ، أو يطلق عليه عنوان : «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» ، غير أن العنوان الذي اشتهر دون سواه كان ببساطة : «رحلة ابن جبير» . وهذه الرحلة تعتبر من الناحية الفنية ذروة ما بلغه نمط الرحلة في

الأدب العربي ، ويمتاز أسلوبها بالكثير من الحيوية وسهولة التعبير ، كما عند وصفه مثلاً لجمارك الإسكندرية أو لحادثة السفينة على سواحل صقلية . كما نجد فيها حشداً من الاقتباسات الأدبية والإشارات اللطيفة . وبوجه العموم فإن هذه الرحلة الشهيرة تبقى واحدة من أهم وأطرف عيون تراثنا الأدبي الجغرافي العربي .

وأول من نشر الرحلة كاملة كان المستشرق البريطاني وليم رايت W. Wright في لايدن بهولاندة عام ١٨٥٢ ، ثم ترجمها إلى الإيطالية المستشرق سكياپاريلّي Schiaparelli ، وبعد أكثر من نصف قرن أعاد المستشرق الهولندي دى خُويَّه طبعة رايت مع تصحيحات عديدة عام ١٩٠٧ ، كما صدرت بالقاهرة وبيروت طبعات كثيرة وكلها منقولة عن الطبعة الأوروبية الأخيرة ، وكان أولها طبعة القاهرة بمطبعة السعادة ١٩٠٨ ، وأحسنها طبعة حسين نصّار بالقاهرة عام ١٩٥٥ .

نقلنا هنا وصف ابن جبير لدمشق من رحلته ، ورجعنا في ذلك إلى طبعة دار صادر ببيروت عام ١٩٦٤ ، كما عارضناها بطبعتي السعادة ونصّار .

المصادر :

رحلة ابن جبير الأندلسي ، طبعة بيروت ، مقدمة الناشر ٥-٦
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقّري ٣ / ١٤٢
تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ١/ ٢٩٨-٣٠١
مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجد ١٠٤
دمشق في نظر الأندلسيين للمنجد ٤٤-٥١
الرحالة المسلمون في العصور الوسطى لزكي محمد حسن ٦٩
روّاد الشرق العربي في العصور الوسطى لزيادة ١٣٢-١٥٧
جهود المسلمين في الجغرافيا لنفيس أحمد ٧٨
أعلام الجغرافيين العرب لحميدة ٣٢٢
الرحلة والرحالة المسلمون لأحمد رمضان ٣٢٣

ذكر مدينة دمشق
حرسها الله تعالى

جنَّة المَشرق ، ومَطلعُ حُسنه المؤنق المُشرق ، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها ، وعروس المدن التي اجتليناها ، قد تحلَّت بأزاهير الرياحين ، وتجلَّت في حُلَلٍ سُندسيّة من البساتين ، وحلَّت من موضوع الحسن بالمكان المَكين ، وتزيَّنت في منصّتها أجمل تزيين ، وتشرّفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه ، صلى الله عليهما ، منها إلى ربوةٍ ذاتِ قرارٍ ومَعين ، ظلٌّ ظليل ، وماءٌ سلسبيل ، تنساب مَذانبه انسياب الأراقم بكل سبيل ، ورياض يُحيي النفوسَ نسيمُها العليل ، تتبرّج لناظريها بمُجتلى صقيل ، وتناديهم : هلُمّوا إلى مُعرَّس للحُسن ومَقيل . قد سئمت أرضُها كثرة الماء حتى اشتاقت إلى الظمآء ، فتكاد تناديك بها الصمّ الصلاب : اركُضْ برِجلِكَ هذا مُغتسلٌ باردٌ وشراب . قد أحدقت البساتين بها إحداقَ الهالة بالقمر ، واكتنفتها اكتنافَ الكِمامة للزَهر ، وامتدت بشرقيّها غوطتها الخضراء امتدادَ البصر ، فكلّ موضع لحظته بجهاتها الأربع نضرتُه اليانعة قيدَ النظر ، ولله صدق القائلين عنها : إن كانت الجنَّة في الأرض فدمشقُ لا شك فيها ، وإن كانت في السماء فهي بحيث تُسامتُها وتحاذيها .

ذكر جامعها المكرّم
عمره الله تعالى

هو من أشهر جوامع الإسلام حسناً ، وإتقان بناء ، وغرابة صنعة ، واحتفال تنميق وتزيين . وشهرته المتعارفة في ذلك تغني عن استغراق الوصف فيه . ومن عجيب شأنه أنّه لا تنسج به العنكبوت ولا تدخله ، ولا تُلِمُّ به الطير المعروفة بالخُطَّاف . انتدب لبنائه الوليد بن عبد الملك ، رحمه الله ، ووجه إلى ملك الروم بالقسطنطينية يأمره بإشخاص اثني عشر ألفاً من الصنَّاع من بلاده ، وتقدّم إليه بالوعيد في ذلك إن توقف عنه . فامتثل أمره مذعناً بعد مراسلة جرت بينهما في ذلك مما هو مذكور في كتب التاريخ . فشرع في بنائه ، وبلُغت الغايات في التأنّق فيه ، وأُنزلت جُدُرُه كلها بفصوص من الذهب المعروف بالفُسَيْفساء ، وخُلطت بها أنواع من الأصبغة الغريبة ، قد مثّلت أشجاراً ، وفُرِّعت أغصاناً منظومة بالفصوص ، ببدائع من الصنعة الأنيقة المعجزة وَصف كلِّ واصف ، فجاء يغشّي العيون وميضاً وبصيصاً . وكان مبلغ النفقة فيه ، حسبما ذكره ابن المُعَلَّى الأسدي في جزُء وضعه في ذكر بنائه ، مئة صندوق في كل صندوقٍ ثمانية وعشرون ألف دينار ومئتا ألف دينار ، فكان مبلغ الجميع أحد عشر ألف ألف دينار ومئتي ألف دينار .

والوليد هذا هو الذي أخذ نصف الكنيسة الباقية منه في أيدي النصارى وأدخلها فيه ، لأنه كان قسمين : قسماً للمسلمين وهو الشرقي ، وقسماً للنصارى وهو الغربي ، لأن أبا عبيدة بن الجراّح ، رضي الله عنه ، دخل البلد من الجهة الغربيّة ، فانتهى الى نصف الكنيسة ، وقد وقع الصلح

بينه وبين النصارى ، ودخل خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ، عَنْوةً من الجانب الشرقي وانتهى إلى النصف الثاني وهو الشرقي ، فاحتازه المسلمون وصيّروه مسجداً ، وبقي النصف المُصالَح عليه وهو الغربي كنيسة بأيدي النصارى ، إلى أن عوّضهم منه الوليد، فأبوا ذلك ، فانتزعه منهم قهراً وطلع لهدمه بنفسه . وكانوا يزعمون أن الذي يهدم كنيستهم يُجنّ، فبادر الوليد وقال : أنا أوّل من يجنّ في الله . وبدأ الهدم بيده ، فبادره المسلمون وأكملوا هدمه . واستَعْدَوا عمر بن عبد العزيز ، رضي الله عنه ، أيام خلافته وأخرجوا العهد الذي بأيديهم من الصحابة ، رضي الله عنهم ، في إبقائه عليهم ، فهمَّ بصرفه إليهم ، فأشفق المسلمون من ذلك . ثمّ عوّضهم بمال عظيم أرضاهم به ، فقبلوه .

ويُقال : إنّ أول من وضع جداره القبلي هود النبي ، عليه السلام . وكذلك ذكر ابن المعلّى في تاريخه ، والله أعلم بذلك ، لا إله سواه .

وقرأنا في فضائل دمشق عن سفيان الثّوري ، رضي الله عنه ، أنه قال : إنّ الصلاة فيه بثلاثين ألف صلاة . وفي الحديث عن النبي ، صلّى الله عليه وسلّم ، أنه يُعبد الله عزّ وجلّ فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة .

ذكر تذريعه ومساحته
وعدد أبوابه وشمسياته

ذَرْعُهُ في الطول من الشرق إلى الغرب مئتا خطوة ، وهما ثلاث مئة ذراع ، وذرعه في السعة من القبلة إلى الجوف مئة خطوة وخمس وثلاثون

خطوة ، وهي مئتا ذراع . فيكون تكسيره من المراجع الغربيّة أربعة وعشرين مرجعاً . وهو تكسير مسجد رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، غير أن الطول في مسجد رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، من القبلة إلى الشمال . وبلاطاته المتّصلة بالقبلة ثلاثة مستطيلة من الشرق إلى الغرب ، سعة كل بلاط منها ثماني عشرة خطوة ، والخطوة ذراع ونصف ، وقد قامت على ثمانية وستين عموداً ، منها أربع وخمسون سارية ، وثماني أرجل جصيّة تتخلّلها ، واثنتان مرخّمة ملصقة معها في الجدار الذي يلي الصحن ، وأربع أرجل مرخّمة أبدع ترخيم ، مرصعة بفصوص من الرخام ملونة ، قد نُظمت خواتيم ، و صُوِّرت محاريب وأشكالاً غريبة ، قائمة في البلاط الأوسط ، تُقِلُّ قبّة الرصاص مع القبّة التي تلي المحراب ، سعة كل رِجل منها ستة عشر شبراً ، وطولها عشرون شبراً ، وبين كل رجل ورجل في الطول سبع عشرة خطوة ، وفي العرض ثلاث عشرة خطوة ، فيكون دور كل رجل منها اثنين وسبعين شبراً . ويستدير بالصحن بلاط من ثلاث جهاته : الشرقيّة والغربيّة والشماليّة ؛ سعته عشر خُطا ، وعدد قوائمه سبع وأربعون : منها أربع عشرة من الجصّ ، وسائرها سَوارٍ . فيكون سعة الصحن ، حاشا المسقّف القبلي والشمالي ، مئة ذراع . وسقف الجامع كلّه من خارج ألواح رصاص .

وأعظم ما في هذا الجامع المبارك قبّة الرصاص المتصلة بالمحراب وسطه ، سامية في الهواء ، عظيمة الاستدارة ، قد استقلّ بها هيكل عظيم هو غارِبٌ لها ، يتّصل من المحراب إلى الصحن ، وتحته ثلاث قباب : قبة تتصل بالجدار الذي إلى الصحن ، وقبّة تتصل بالمحراب ، وقبّة تحت قبّة الرصاص بينهما . والقبّة الرصاصية قد أغصّت الهواء وسطه ، فإذا

استقبلتَها أبصرتَ منظراً رائعاً ، ومرأى هائلاً ، يشبّهه الناس بنسر طائر ، كأنّ القبة رأسه ، والغارب جؤجؤه ، ونصف جدار البلاط عن يمين ، ونصف الثاني عن شمال ، جناحاه . وسعة هذا الغارب من جهة الصحن ثلاثون خطوة ، فهم يعرفون الموضع من الجامع بالنسر لهذا التشبيه الواقع عليه . ومن أي جهة اسستقبلتَ البلد ترى القبة في الهواء مُنيفة على كلّ علو كأنّها معلّقة من الجوّ .

والجامع المكرّم مائل إلى الجهة الشمالية من البلد . وعدد شمسياته الزجاجيّة المذهبة الملوّنة أربع وسبعون : منها في القبّة التي تحت قبة الرصاص عشر ، وفي القبة المتصلة بالمحراب مع ما يليها من الجدار أربع عشرة شمسية ، وفي طول الجدار عن يمين المحراب ويساره أربع وأربعون ، وفي القبّة المتصلة بجدار الصحن ست ، وفي ظهر الجدار إلى الصحن سبع وأربعون شمسية .

وفي الجامع المكرّم ثلاث مقصورات : مقصورة الصحابة ، رضي الله عنهم ، وهي أول مقصورة وضعت في الإسلام ، وضعها معاوية ابن أبي سفيان ، رضي الله عنهما ، وبإزاء محرابها عن يمين مستقبل القبلة باب حديد كان يدخل معاوية ، رضي الله عنه ، إلى المقصورة منه إلى المحراب . وبإزاء محرابها لجهة اليمين مُصلّى أبي الدّرداء ، رضي الله عنه ، وخلفها كانت دار معاوية ، رضي الله عنه ، وهي اليوم سماط عظيم للصفّارين ، يتصل بطول جدار الجامع القبلي ، ولا سماطَ أحسن منظراً منه ولا أكبر طولاً وعرضاً . وخلف هذا السماط على مقربة منه دار الخيل برسمه ، وهي اليوم مسكونة ، وفيها مواضع للكمّادين . وطول المقصورة الصحابية المذكورة أربعة وأربعون شبراً ، وعرضها نصف الطول . ويليها

لجهة الغرب ، في وسط الجامع ، المقصورة التي أحدثت عند إضافة النصف المتّخَذ كنيسةً إلى الجامع حسبما تقدّم ذكره ، وفيها منبر الخطبة ومحراب الصلاة .

وكانت مقصورة الصحابة أولا في نصف الحظ ّ الإسلامي من الكنيسة ، وكان الجدار حيث أعيد المحراب في المقصوره المُحدَثة ، فلما أعيدت الكنيسة كلها مسجداً صارت مقصورة الصحابه طرفاً من الجانب الشرقي ، وأحدثت المقصورة الأخرى وسطاً حيث كان جدار الجامع قبل الاتصال . وهذه المقصورة المحدثة أكبر من الصحابية .

وبالجانب الغربي بإزاء الجدار مقصورة أخرى هي برسم الحنفية يجتمعون فيها للتدريس وبها يصلّون . وبإزائها زاوية محدقة بالأعواد المشرجبة كأنها مقصورة صغيرة . وبالجانب الشرقي زاوية أخرى على هذه الصفة هي كالمقصورة ، كان وضعَها للصلاة فيها أحد أمراء الدولة التركية ، وهي لاصقة بالجدار الشرقي . وبالجامع المكرّم عدّة زوايا على هذا الترتيب يتّخذها الطلبة للنسخ والدرس والانفراد عن ازدحام الناس ، وهي من جملة مرافق الطلبة .

وفي الجدار المتصل بالصحن ، المحيط بالبلاطات القبلية ، عشرون باباً متّصلة بطول الجدار ، قد علَتْها قسي ّ جصيَّة مخرَّمة كلّها على هيئة الشمسيّات ، فتبصر العين من اتّصالها أجمل منظر وأحسنه . والبلاط المتصل بالصحن ، المحيط بالبلاطات من ثلاث جهات ، على أعمدة ، وعلى تلك الأعمدة أبواب مقوَّسة تقلّها أعمدة صغار تطيف بالصحن كله .

ومنظر هذا الصحن من أجمل المناظر وأحسنها ، وفيه مجتمع أهل البلد ، وهو متفرّجهم ومتنزّههم كل عشية ، تراهم فيه ذاهبين وراجعين من

شرق إلى غرب ، من باب جَيْرون إلى باب البريد ، فمنهم من يتحدث مع صاحبه ، ومنهم من يقرأ ، لا يزالون على هذه الحال من ذهاب ورجوع إلى انقضاء صلاة العشاء الأخرة ثم ينصرفون ، ولبعضهم بالغداة مثل ذلك ، وأكثر الاحتفال إنما هو بالعشيّ ، فيخيل لمبصر ذلك أنها ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظّم لما يرى من احتفال الناس واجتماعهم ، لا يزالون على ذلك كل يوم . وأهل البطالة من الناس يسمُّونهم الحرّاثين .

وللجامع ثلاث صوامع : واحدة في الجانب الغربي ، وهي كالبرج المشيّد ، يحتوي على مساكن متّسعة وزوايا فسيحة راجعة كلها إلى أغلاق ، يسكنها أقوام من الغرباء أهل الخير ، والبيت الأعلى منها كان معتكف أبي حامد الغزالي ، رحمه الله ، ويسكنه اليوم الفقيه الزاهد أبو عبدالله بن سعيد من أهل قلعة يَحْصُب المنسوبة لهم ، وهو قريب لبني سعيد المشتهرين بالدنيا وخدمتها ، وثانية بالجانب الغربي على هذه الصفة ، وثالثة بالجانب الشمالي على الباب المعروف بباب الناطفيين .

وفي الصحن ثلاث قباب : إحداها في الجانب الغربي منه وهي أكبرها ، وهي قائمة على ثمانية أعمدة من الرخام ، مستطيلة كالبرج ، مزخرفة بالفصوص والأصبغة الملونة ، كأنها الروضة حُسناً ، وعليها قبة رصاص كأنها التنّور العظيم الاستدارة ، يقال : إنها كانت مخزناً لمال الجامع ، وله مال عظيم من خَراجات ومُسْتَغلاّت تنيف على ما ذكر لنا على الثمانية آلاف دينار صُوريّة في السنة ، وهي خمسة عشر ألف دينار مؤمنيّة أو نحوها . وقبّة أخرى صغيرة في وسط الصحن مجوّفة مثمّنة من رخام قد أُلصق أبدع إلصاق ، قائمة على أربعة أعمدة صغار من الرخام ، وتحتها شباك حديد مستدير ، وفي وسطه أنبوب من الصُّفّر يمجّ الماء الى علو ،

فيرتفع وينثني كأنه قضيب لُجَيْن ، يَشْرَه الناس لوضع أفواههم فيه للشرب استظرافاً واستحساناً ، ويسمّونه قفص الماء . والقبّة الثالثة في الجانب الشرقي قائمة على ثمانية أعمدة على هيئة القبّة الكبيرة لكن أصغر منها .

وفي الجانب الشمالي من الصحن باب كبير يفضي إلى مسجد كبير ، في وسطه صحن ، قد استدار فيه صهريجٌ من الرخام كبير ، يجري الماء فيه دائماً من صَحفة رخام أبيض مثمّنة قد قامت وسط الصهريج على رأس عمود مثقوب يصعد منه إليها . ويُعرف هذا الموضع بالكلاّسة ، ويصلّي فيه اليوم صاحبنا الفقيه الزاهد المحدِّث أبو جعفر الفَنَكي القرطبي ، ويتزاحم الناس على الصلاة فيه خلفه التماساً لبركته واستماعاً لحسن صوته .

وكان هذا الجامع المبارك ، ظاهراً وباطناً مُنزلاً بالفصوص المذهبة ، مزخرفاً بأبدع زخاريف البناء المعجز الصنعة ، فأدركه الحريق مرتين ، فتهدّم وجُدِّد ، وذهب أكثر رخامه ، فاستحال رونقه ، فأسْلَمُ ما فيه اليوم قبلته مع الثلاث قباب المتصلة بها . ومحرابه من أعجب المحاريب الإسلامية حُسناً وغرابة صنعة ، يتَّقد ذهباً كلّه . وقد قامت في وسطه محاريب صغار متّصلة بجداره تحفّها سُوَيْريات [1] مفتولات فتل الأسْوِرة كأنها مخروطة ، لم يُرَ شيء أجمل منها ، وبعضها حمرٌ كأنها مرجان . فشأن قبلة هذا الجامع المبارك ، مع ما يتصل من قبابه الثلاث ، وإشراق شمسياته المذهبة الملونة عليه ، واتصال شعاع الشمس بها ، وانعكاسه إلى كل لون منها ، حتى ترتمي الأبصارَ منه أشعةٌ ملونة ، يتصل

---

(١) السُّويريّات تصغير الأساور، ومفردها سُوَيريّة تصغير السوَار والأسْوار.

ذلك بجداره القبلي كله ، عظيمٌ لا يُلحق وصفه ولا تبلغ العبارة بعض ما يتصوّره الخاطر منه ، والله يعمره بشهادة الإسلام وكلمته بمنّه .

وفي الركن الشرقي من المقصورة الحديثة في المحراب خزانة كبيرة فيها مصحف من مصاحف عثمان ، رضي الله عنه . وهو المصحف الذي وجّه به إلى الشام . وتُفتح الخزانة كل يوم جمعة إثر الصلاة فيتبرك الناس بلمسه وتقبيله ويكثر الازدحام عليه .

وله أربعة أبواب : باب قبلي ، ويعرف بباب الزيادة ، وله دهليز كبير متّسع ، وله أعمدة عظام ، وفيه حوانيت للخَرَزيّين وسواهم ، وله مرأى رائع ، ومنه يُفضى إلى دار الخيل . وعن يسار الخارج منه سِماط الصفّارين[1] ، وهي كانت دار معاوية ، رضي الله عنه ، وتعرف بالخضراء . وباب شرقي ، وهو أعظم الأبواب ، ويعرف بباب جَيْرون . وباب غربي ، ويعرف بباب البريد . وباب شمالي ، ويُعرف بباب الناطفيين .

وللشرقي والغربي والشمالي أيضاً من هذه الأبواب دهاليز متّسعة ، يفضي كل دهليز منها إلى باب عظيم ، كانت كلها مداخل للكنيسة فبقيت على حالها . وأعظمها منظراً الدهليز المتصل بباب جَيرون ، يُخرج من هذا الباب إلى بلاط طويل عريض قد قامت أمامه خمسة أبواب مقوّسة لهاست أعمدة طوال . وفي وجه اليسار منه مشهد كبير حفيل كان فيه رأس الحسين بن علي ، رضي الله عنهما ، ثم نُقل إلى القاهرة . وبإزائه مسجد صغير يُنْسب لعمر بن عبد العزيز ، رضي الله عنه . وبذلك المشهد ماء جارٍ . وقد انتظمت أمام البلاط أدارج يُنحَدَر عليها الى الدهليز ، وهو

---

(١) الصفّارين هم من يشتغلون بتطريق الصفُر ، وهو النحاس الأصفر .

كـالخندق العظيم ، يتصـل إلى باب عظيم الارتفـاع ، ينحسـر الطرف دونه سموّاً ، قد حفته أعمدة كالجذوع طولاً وكالأطواد ضخامة .

وبجانبي هذا الدهليز أعمدة قد قامت عليها شوارع مستديرة ، فيها الحوانيت المنتظمة للعطارين وسواهم ، وعليها شوارع أُخَر مستطيلة فيها الحُجَر والبيوت للكِراء مُشرفة على الدهليز ، وفوقها سطح يبيت به سكّان الحُجَر والبيوت . وفي وسط الدهليز حوض كبير مستدير من الرخام عليه قبَّة تُقلها أعمدة من الرخام ، ويستدير بأعلاها طُرَّة من الرصاص واسعة مكشوفة للهواء لم ينعطف عليها تَعْتيب . وفي وسط الحوض الرخامي أنبوب صُفّر يمجُّ الماء بقوة فيرتفع إلى الهواء أزيد من القامة لم . . . [1] وحوله أنابيب صغار ترمي الماء الى علو فيخرج عنها كقُضبان اللُّجَيْن ، فكأنها أغصان تلك الدوحة المائية ، ومنظرها أعجب وأبدع من أن يلحقه الوصف .

وعن يمين الخارج من باب جَيرون ، في جدار البلاط الذي أمامه ، غرفة ، ولها هيئة طاق كبير مستدير فيه طِيقان صُفْر قد فُتِّحت أبواباً صغاراً على عدد ساعات النهار ودبِّرت تدبيراً هندسيّاً . فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صُفّر من فَمَيْ بازِيَيْن مصوّرين من صُفّر قائمينعلى طاستين من صُفّر ، تحت كل واحد منهما . أحدهما تحت أول باب من تلك الأبواب ، والثاني تحت آخرها . والطاستان مثقوبتان ، فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار إلى الغرفة ، وتبصر البازيين يمدّان أعناقهما بالبندقتين إلى الطاستين ويقذفانهما بسرعة ، بتدبير عجيب

---

(١) بياض بالأصل المخطوط .

تتخيله الأوهام سحراً ، وعند وقوع البندقتين في الطاستين يُسمع لهما دويّ، وينغلق الباب الذي هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصُفْر ، لا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار حتى تنغلق الأبواب كلها وتنقضي الساعات ، ثم تعود إلى حالها الأول . ولها بالليل تدبير آخر ، وذلك أنّ في القوس المنعطف على تلك الطيقان المذكورة اثنتي عشرة دائرة من النحاس مخرّمة ، وتعترض في كل دائرة زجاجة من داخل الجدار في الغرفة ، مدبَّرٌ ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة . وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة ، فإذا انقضت عمَّ الزجاجةَ ضوءُ المصباح وفاض على الدائرة أمامها شعاعُها ، فلاحت للأبصار دائرة محمرَّة ، ثم انتقل ذلك إلى الأخرى حتى تنقضي ساعات الليل وتحمرّ الدوائر كلها ، وقد وُكِّل بها في الغرفة متفقِّد لحالها ، دَرِبٌ بشأنها وانتقالها ، يعيد فتح الأبواب وصَرْفَ الصنج إلى موضعها . وهي التي يسمّيها الناس «المنْجانة» .

ودهليز الباب الغربي فيه حوانيت البقّالين والعطّارين ، وفيه سماط لبيع الفواكه . وفي أعلاه باب عظيم يُصْعَد إليه على أدراج . وله أعمدة سامية في الهواء . وتحت الأدراج سقايتان مستديرتان : سقاية يميناً وسقاية يساراً ، لكل سقاية خمسة أنابيب ترمي الماء في حوض رخام مستطيل . ودهليز الباب الشمالي فيه زوايا على مصاطب محدقة بالأعوادَ المشرجبة ، وهي مَحاضِر لمعلمي الصبيان .

وعن يمين الخارج في الدهليز خانقاه مبنية للصوفية ، في وسطها صهريج . ويقال : إنها كانت دار عمر بن عبد العزيز ، رضي الله عنه ، ولها خبر سيأتي ذكره بعد هذا . والصهريج الذي في وسطها يجري الماء فيه ،

ولها مَطاهر يجري الماء في بيوتها . وعن يمين الخارج أيضاً من باب البريد مدرسة للشافعية في وسطها صهريج يجري الماء فيه ، ولها مطاهر على الصفة المذكورة .

وفي الصحن بين القباب المذكورة عمودان متباعدان يسيراً لهما رأسان من الصُفّر مستطيلان مُشرجبان [1] قد خُرِّما أحسن تخريم ، يُسْرَجان ليلة النصف من شعبان فيلوحان كأنّهما ثُريّتان مشتعلتان . واحتفال أهل البلدة لهذه الليلة المذكورة أكثر من احتفالهم ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظّم .

وفي هذا الجامع المبارك مجتمع عظيم ، كل يوم إثر صلاة الصبح ، لقراءة سُبْع من القرآن دائماً ، ومثله إثر صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثريّة ، يقرأون فيها من سورة الكوثر إلى الخاتمة . ويحضر في هذا المجتمع الكوثري كل من لا يجيد حفظ القران . وللمجتمعين على ذلك إجراء كل يوم يعيش منه أزيد من خمس مئة إنسان . وهذا من مفاخر هذا الجامع المكرَّم . فلا تخلو القراءة منه صباحاً ولا مساء . وفيه حلقات التدريس للطلبة ، وللمدرسين فيها إجراء واسع ، وللمالكية زاوية للتدريس فيالجانب الغربي ، يجتمع فيها طلبة المغاربة ، ولهم إجراء معلوم .

ومرافق هذا الجامع المكرَّم للغرباء وأهل الطلب كثيرة واسعة . وأغرب ما يُحدَّث به أن سارية من سواريه ، هي بين المقصورتين القديمة والحديثة ، لها وقف معلوم يأخذه المُستند إليها للمذاكرة والتدريس .

---

(١) الشَّرْجَب في اللغة الطويل العالي ، ويبدو أن ابن جبير يقصد بالأعمدة المُشرجبة الطويلة المخروطة منها ذات الشكل الأسطواني لا المضلّع ، فالمضلّع منها يعرف بالسواري .

أبصرنا بها فقيهاً من أهل إشبيلية يُعرف بالمُرادي . وعند فراغ المجتمع السُّبْعي من القراءة صباحاً يستند كل إنسان منهم إلى سارية ويجلس أمامه صبي يلقّنه القرآن . وللصبيان أيضاً على قراءتهم جراية معلومة . فأهل الجِدَة من آبائهم ينزّهون أبناءهم عن أخذها وسائرهم يأخذها ، وهذا من المفاخر الإسلامية .

وللايتام من الصبيان مَحْضَرة كبيرة بالبلد لها وقف كبير ، يأخذ منه المعلّم لهم ما يقوم به ، ويُنفق منه على الصبيان ما يقوم بهم وبكسوتهم ، وهذا أيضاً من أغرب ما يُحَدَّث به من مفاخر هذه البلاد .

وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقيّة كلها إنما هو تلقين ، ويعلّمون الخط في الأشعار وغيرها ، تنزيهاً لكتاب الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالإثبات والمحو . وقد يكون في أكثر البلاد الملَقِّن على حِدَة والمُكتِّب على حِدَة ، فيُنْفَصل من التلقين الى التكتيب ، لهم في ذلك سيرة حسنة . ولذلك ما يتأتّى لهم حسن الخط ، لأن المعلّم له لا يشتغل بغيره ، فهو يستفرغ جهده في التعليم والصبي في التعلُّم كذلك ، ويسهل عليه لأنّه بتصويرٍ يحذو حذوه .

ويستدير بهذا الجامع المكرَّم أربع سقايات ، في كل جانب سقاية ، كل واحدة منها كالدار الكبيرة مُحْدقة بالبيوت الخَلائيّة ، والماء يجري في كل بيت منها . وبطول صحنها حوض من الحجر مستطيل تصبّ فيه عدّة أنابيب منتظمة بطوله . وإحدى هذه السقايات في دهليز باب جَيرون ، وهي أكبرها ، وفيها من البيوت ما ينيف على الثلاثين ، وفيها زائداً على السقاية المستطيلة مع جدارها حوضان كبيران مستديران يكادان يمسكان لسعتهما عرضَ الدار المحتوية على هذه السقاية ، والواحد بعيد من الآخر ،

ودَوْر كل واحد منهما نحو الأربعين شبراً ، والماء نابع فيهما . والثانية في دهليز باب الناطفيين بإزاء المعلمين . والثالثة عن يسار الخارج من باب البريد . والرابعة عن يمين الخارج من باب الزيادة . وهذه أيضاً من المرافق العظيمة للغرباء وسواهم . والبلد كله سِقايات . قلما تخلو سكّة من سككه أو سوق من أسواقه ، من سقاية . والمرافق به أكثر من أن توصف، والله يبقيه دار إسلام بقدرته.

ذكر مشاهده المكرّمة وآثاره المعظّمة

فأولها مشهد رأس يحيى بن زكرياء ، عليه السلام ، وهو مدفون بالجامع المكرّم في البلاط القبلي قبالة الركن الأيمن من المقصورة الصحابيّة ، رضي الله عنهم ، وعليه تابوت خشب معترض من الأسطوانة ، وفوقه قنديل كأنه من بلّور مجوَّف ، كأنه القدح الكبير ، لا يُدرى أمن زجاج عراقي أم صوري هو أم من غير ذلك . ومولد إبراهيم ، صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا الكريم ، وهو بسفَح جبل قاسيون عند قرية تُعرف ببَرْزَة ، وهي من أجمل القرى . وهذا الجبل مشهور بالبركة في القديم لأنه مصعد الأنبياء ، صلوات الله عليهم ، ومطلعهم . وهو في الجهة الشمالية من البلد وعلى مقدار فرسخ . وهذا المولد المبارك غار مستطيل ضيِّق ، وقد بُني عليه مسجد كبير مرتفع مُقسَّم على مساجد كثيرة كالغُرَف المطلّة ، وعليه صومعة عالية . ومن ذلك الغار رأى ، صلى الله عليه وسلم ،

الكوكب ثم القمر ثم الشمس ، حسبما ذكره الله تعالى في كتابه عز وجل ، وفي ظهر الغار مقامه الذي كان يخرج إليه ، وهذا كله ذكره الحافظ محدِّث الشام أبو القاسم ابن هبة الله ابن عساكر الدمشقي في تاريخه في أخبار دمشق ، وهو ينيِّف على مئة مجلد . وذكر أيضاً أن بين باب الفراديس ، وهو أحد أبواب البلد ، وفي الجهة الشمالية من الجامع المبارك ، على مقربة منه إلى جبل قاسيون ، مدفن سبعين ألف نبي ، وقيل : سبعون ألف شهيد ، وأن الأنبياء المدفونين به سبع مئة نبي ، والله أعلم .

وخارج هذا البلد الجبّانة العتيقة . وهي مدفن الأنبياء والصالحين . وبركتها شهيرة . وفي طرفها مما يلي البساتين وَهْدة من الأرض متصلة بالجبانة ، ذُكر أنها مدفن سبعين نبياً ، وعصمها الله ونزهها من أن يدفن فيها أحد ، والقبور محيطة بها ، هي لا تخلو من الماء حتى عادت قرارة له ، كل ذلك تنزيه من الله تعالى لها .

وبجبل قاسيون أيضاً لجهة الغرب ، على مقدار ميل أو أزيد من المولد المبارك ، مغارة تعرف بمغارة الدم ، لأن فوقها في الجبل دم هابيل قتيل أخيه قابيل ابنيْ آدم ، صلّى الله عليه وسلّم ، يتصل من نحو نصفا الجبل إلى المغارة . وقد أبقى الله منه في الجبل آثاراً حمراً في الحجارة تُحك فتستحيل ، وهي كالطريق في الجبل ، وتنقطع عند المغارة ، وليس يوجد في النصف الأعلى من المغارة آثار تشبهها ، فكان يقال : إنها لون حجارة الجبل ، وإنما هي من الموضع الذي جرّمنه القاتل لأخيه حيث قتله حتى انتهى إلى مغارة ، وهي من آيات الله تعالى ، وآياته لا تحصى .

وقرأنا في تاريخ ابن المعلّى الأسدي أن تلك المغارة صلّى فيها إبراهيم وموسى وعيسى ولوط وأيوب ، عليهم وعلى نبينا الكريم أفضل

الصلاة والسلام . وعليها مسجد قد أُتقن بناؤه ، وتصعد إليه على أدراج ، وهو كالغرفة المستديرة ، وحولها أعواد مُشَرْجَبَة مُطيفة بها ، وبه بيوت ومرافق للسكنى . وهو يفتح كل يوم خميس . والسُّرُج من الشمع والفتائل تتّقدُ في المغارة ، وهي متسعة . وفي أعلى الجبل كهف منسوب لآدم ، صلّى الله عليه وسلّم ، وعليه بناء ، وهو موضع مبارك . وتحته في حضيض الجبل مغارة تعرف بمغارة الجوع ، ذُكر أن سبعين نبياً ماتوا فيها جوعاً ، وكان عندهم رغيف فلم يزل كل واحد منهم يؤثر به صاحبه ويدور عليهم من يد إلى يد حتى لحقتهم المنية ، صلوات الله عليهم . وعلى هذه المغارة أيضاً مسجد مبني ، وأبصرنا فيه السُّرُج تَقِدُ نهاراً .

ولكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينة من بساتين وأرض بيضاء ورباع ، حتى إن البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيه . وكل مسجد يستحدث بناؤه أو مدرسة أو خانقاه يُعيِّن لها السلطان أوقافاً تقوم بها وبساكنيها والملتزمين لها ، وهذه أيضاً من المفاخر المخلَّدة . ومن النساء الخواتين ذوات الإقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة وتنفق فيها الأموال الواسعة وتُعيِّن لها من مالها الأوقاف . ومن الأمراء من يفعل مثل ذلك ، لهم في هذه الطريقة المباركة مسارعة مشكورة عند الله عزّ وجلّ .

وبآخر هذا الجبل المذكور ، في آخر البسيط البستاني الغربي من هذا البلد ، الربوة المباركة المذكورة في كتاب الله تعالى : مأوى المسيح وأمه ، صلوات الله عليهما . وهي من أبدع مناظر الدنيا حُسناً وجمالاً وإشراقاً وإتقان بناء واحتفال تشييدٍ وشرف وضع ، هي كالقصر المشيد ، ويُصعد إليها على أدراج . والمأوى المبارك منها مغارة صغيرة في وسطها ، وهي كالبيت الصغير . وبإزائها بيت يقال : إنه مصلّى الخضر ، صلّى الله

عليه وسلّم ، فيبادر الناس للصلاة بهذين الموضعين المباركين ، ولاسيما المأوى المبارك . وله باب حديد صغير ينغلق دونه ، والمسجد يطيف بها ، ولها شوارع دائرة ، وفيها سقاية لم يُرَ أحسن منها ، قد سِيقَ إليها الماء من علو ، وماؤها ينصبّ على شاذروان [١] في الجدار متّصل بحوض من رخام يقع الماء فيه ، لم يُرَ أحسن من منظره . وخلف ذلك مطاهر يجري الماء في كل بيت منها ويستدير بالجانب المتصل بجدار الشاذروان .

وهذه الربوة المباركة رأس بساتين البلد ومَقْسِم مائه ، ينقسم فيها الماء على سبعة أنهار . يأخذ كل نهر طريقه ، وأكبر هذه الأنهار نهر يعرف بثَوْرا ، وهو يشق تحت الربوة ، وقد نُقِر له في الحجر الصلد أسفلها حتى انفتح له مُتسرّب واسع كالغار[٢] ، وربما انغمس الجسور من سبّاح الصبيان أو الرجال من أعلى الربوة في النهر واندفع تحت الماء حتى يشق متسرّبه تحت الربوة ويخرج أسفلها ، وهي مخاطرة كبيرة .

ويُشرَف من هذه الربوة على جميع البساتين الغربية من البلد ، ولا إشراف كإشرافها حسناً وجمالاً واتساع مسرح للأبصار . وتحتها تلك الأنهار السبعة تتسرّب وتسيح في طرق شتى ، فتحار الأبصار في حُسن اجتماعها وافتراقها واندفاع انصبابها . وشرفُ موضوع هذه الربوة ومجموع حسنها أعظم من أن يحيط به وصف واصف في غلُوّ مدحه . وشأنها في موضوعات الدنيا الشريفة خطير كبير .

---

(١) الشادروان متنزّه بالربوة ، والكلمة فارسية تعني الشلال أو مسيل الماء .

(٢) وهذا المتسرّب المنقور كان يُعرف باسم «المُنيقبة» ، كما ذكره في العهد المملوكي أبو البقاء البدري في كتابه نزهة الأنام ، وابن عبد الهادي في رسالته غدَق الأفكار ، وابن طولون في كتابه مفاكهة الخلاّن .

ويتصل بها أسفل منها ، بمقربة من المسافة ، قرية كبيرة تعرف بالنَّيْرَب ، قد غَطّتها البساتين ، فلا يظهر منها إلاّ ما سما بناؤه . وبها جامع لم يُرَ أحسن منه ، مفروش سطحه كله بفصوص الرخام الملوّن ، فيُخيَّل لناظره أنه ديباج مبسوط . وفيه سقاية ماء رائقة الحسن ، ومَطهرة لها عشرة أبواب ، يجري الماء فيها ويطيف بها . وفوقها لجهة القبلة قرية كبيرة ، هي من أحسن القرى ، تُعرف بالمِزَّة ، وبها جامع كبير و سقاية معينة ، وبقرية النيرب حمّام[1] ، وأكثر قرى هذه البلدة فيها الحمّامات .

وفي الجهة الشرقية من البلد ، عن يمين الطريق إلى مولد إبراهيم ، عليه السلام ، قرية تعرف ببيت لاهية ، يريدون الآلهة ، وكانت فيها كنيسة هي الآن مسجد مبارك . وكان آزر أبو ابراهيم ينحت فيها الآلهة ويصوّرها فيجيء الخليل ابراهيم ، صلوات الله عليه وعلى نبينا الكريم ، فيكسرها . وهي اليوم مسجد يجتمع فيه أهل القرية ، وسطحه كله مفروش بفصوص الرخام الملوّنة ، منتظم كله خواتيم وأشكالاً بديعة ، يخيّل لمبصرها أنها فرش متقنة مزخرفة ، وهو من المشاهد الكريمة .

وللربوة المباركة أوقاف كثيرة من بساتين وأرض بيضاء ورِباع . وهي معيّنة التقسيم لوظائفها : فمنها ما هو معيّن باسم النفقة الأُدُم للبائتين فيها من الزوار ، ومنها ما هو معيّنٌ للأكسية برسم التغطية بالليل ، ومنها ما هو معيّنٌ للطعام ، إلى تقاسيم تستوفى جميع مؤنها ، ومؤن الأمين الراتب فيها برسم الإمامة ، والمؤذّن الملتزم خدمتها ، ولهم على ذلك كله مرتب معلوم في كل شهر . وهي خطّة من أعظم الخطط .

---

(١) هو حمّام الزّمرّد المشهور، اندثر قديماً. ذكره ابن عبد الهادي وابن طولون وابن كنّان.

والأمين فيها الآن من بقيّة المرابطين المَسّوفيّين [1] ومن أعيانهم ، يعرف بأبي الربيع سليمان بن ابراهيم بن مالك ، وله مكانة من السلطان ووجوه الدولة ، وله في الشهر خمسة دنانير حاشا فائدة الربوة ، وهو متّسم بالخير ومرتسم به ، وهو متعلّق بسبب من أسباب البرّ في إيواء أهل الغرب من الغرباء المنقطعين بهذه الجهات ، يسبّب لهم وجوه المعايش من إمامة في مسجد أو سكنى بمدرسة تُجرى عليه فيها النفقة ، أو التزام زاوية من زوايا المسجد الجامع يجبى اليه فيها رزقه ، أو حضور في قراءة سُبْع ، أو سدانة مشهد من المشاهد المباركة يكون فيه ، ويجري عليه ما يقوم به من أوقافه ، الى غير ذلك من الوجوه المعاشية على هذه السبيل المباركة مما يطول شرحه . فالغريبالمحتاج هنا ، إذا كان على طريقة الخير ، مصون محفوظ غير مُريق ماء الوجه .

وسائر الغرباء ممن ليس على هذه الحال ، ممن عَهِد الخدمة والمهنة ، يسبِّبُ له أيضاً أسباب غريبة من الخدمة : إما بستان يكون ناطوراً فيه ، أو حمّام يكون عيناً على خدمته ، وحافظاً لأثواب داخليه ، أو طاحونة يكون أميناً عليها ، أو كفالة صبيان يؤدّيهم إلى محاضرِهم ويصرفهم إلى منازلهم ، إلى غير ذلك من الوجوه الواسعة .

وليس يؤتمن فيها كلها سوى المغاربة الغرباء ، لأنهم قد علا لهم بهذا البلد صِيتٌ في الأمانة ، وطار لهم فيها ذكر . وأهلها لا يأتمنون البَلَديّين . وهذا من إلطاف الله تعالى بالغرباء ، وله الحمد والشكر على ما يولي عباده . وإن شاء أحد المتعلقين بأسباب المعارف التعرض هنالك

---

(١) المسّوفيون : نسبة إلى مدينة مَسّوف من بادية التكرور بشمالي أفريقيا .

للسلطان يَقْبله ويكرمه ويُرتبه ويجري عليه بحسب قَدْره ومَنْصِبه ، قد طبِعت هذه البلاد وملوكها على هذه الفضائل قديماً وحديثاً . وقد تسلسل بنا القول إلى غير الباب الذي نحن فيه ، والحديث ذو شجون ، والله كفيل بحسن العون ، لا ربّ سواه .

وبغربيّ البلد جبّانة كبيرة تعرف بقبور الشهداء ، فيها كثير من الصحابة والتابعين الأئمة الصالحين ، رضي الله عنهم . فالمشهور بها من قبور الصحابة ، رضي الله عنهم ، قبر أبي الدَّرداء ، وقبر زوجته أم الدّرداء ، رضي الله عنهما . وموضع مبارك فيه تاريخ قديم مكتوب عليه : في هذا الموضع قبر جماعة من الصحابة ، رضي الله عنهم ، منهم فَضَالة بن عُبيد ، وسهل بن الحنظليَّة ، من الذين بايعوا رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، تحت الشجرة ، وخال أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان ، رضي الله عنه ، وقبره مُسنّم في الموضع المذكور .

وقرأت في فضائل دمشق : أنّ أم المؤمنين أم حبيبَة أخت معاوية ، رضي الله عنهما ، مدفونة بدمشق . وقبر واثلة بن الأسقع من أهل الصُّفَّة . وفي الجهة التي تلي هذا الموضع المبارك تاريخ فيه مكتوب : هذا قبر أوس بن أوس الثَّقَفي . وحول هذا الموضع المذكور ، على مقربة منه ، قبر بِلال بن حمَامة مؤذّن رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم . وفي رأس القبر المبارك تاريخ باسمه ، رضي الله عنه . والدعاء في هذا الموضع المبارك مستجاب ، قد جرَّب ذلك كثير من الأولياء وأهل الخير المتبرِّكين بزيارتهم إلى قبور كثيرة من الصحابة وسواهم من الصالحين ممن قد ذهب اسمه وغَبَرَ ذكره . ومشاهد كثيرة لأهل البيت ، رضي الله عنهم ، رجالاً ونساء ، وقد احتفل الشيعة في البناء عليهم ، ولها الأوقاف الواسعة .

ومن أحفل هذه المشاهد مشهدٌ منسوب لعلي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، قد بني عليه مسجد حفيل رائق البناء ، وبإزائه بستان كلّه نارنج ، والماء يطّرد فيه من سقاية معينة . والمسجد كلّه ستور معلقة في جوانبه صغار وكبار . وفي المحراب حجر عظيم وقد شُقَّ بنصفين والتحم بينهما ولم يَبِن النصفُ عن النصف بالكلّيّة ، يزعم الشيعة أنه انشقَّ لعليّ ، رضي الله عنه ، إما بضربة بسيفه أو بأمر من الامور الإلهية على يديه . ولم يُذكَر عن علي ، رضي الله عنه ، أنه دخل قطّ هذا البلد ، اللهمّ إلاّ إن زعموا أنه كان في النوم ، فلعلّ جهة الرؤيا تصحّ لهم إذ لا تصحّ لهم جهة اليقظة . وهذا الحجر أوجب بنيان هذا المشهد.

ومن المشاهد المكرّمة مشهد سعد بن عُبادة رئيس الخزرج ، صاحب رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم، وهو بقرية تعرف بالمَنِيحة شرقي البلد وعلى مقدار أربعة أميال منه. وعلى قبره مسجد صغير حسن البناء ، والقبر في وسطه ، وعند رأسه مكتوب : هذا قبر سعد بن عُبادة رأس الخزرج صاحب رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم.

ومن مشاهد أهل البيت ، رضي الله عنهم : مشهد أم كلثوم ابنة علي بن أبي طالب ، رضي الله عنهما ، ويقال لها زينب الصغرى . وأم كلثوم كنية أوقعها عليها النبي ، صلّى الله عليه وسلّم ، لشبهها بابنته أم كلثوم ، رضي الله عنها ، والله أعلم بذلك. ومشهدها الكريم بقرية قبلي البلد تعرف براوية على مقدار فرسخ ، وعليه مسجد كبير ، وخارجه مساكن، وله أقاف ، وأهل هذه الجهات يعرفونه بقبر الست أم كلثوم ، مشينا إليه وبتنا به وتبركنا برؤيته ، نفعنا الله بذلك.

وبالجبّانة التي بغربي البلد من قبور أهل البيت ، كثير رضي الله

عنهم ، منها قبران عليهما مسجد يقال إنهما من ولد الحسن والحسين ، رضي الله عنهما ، ومسجد آخر فيه قبر يُقال إنه لسُكَينة بنت الحسين ، رضي الله عنهما ، أو لعلها سُكينة أخرى من أهل البيت . ومن المشاهد أيضاً قبرٌ بجامع النيرب ، في بيت بالجهة الشرقية منه ، يقال إنه لأم مريم ، رضي الله عنها . وبقرية دارية قبر أبي مسلم الخولاني ، رضي الله عنه ، وعليه قبّة هي علامة القبر . وبها أيضا قبر أبي سليمان الداراني ، رضي الله عنه . وبين هذه القرية وبين البلد مقدار أربعة أميال ، وهي لجهة الغرب منه .

المشاهد الكريمة التي لم نعاينها ووُصفت لنا : قبر شيث ونوح ، وهما بالبقاع ، وهي على يومين من البلد . وحدّثنا من ذَرَعَ قبر شيث فألفى فيه أربعين باعاً ، وفي قبر نوح ثلاثين . وبإزاء قبر نوح قبر ابنة له . وعلى هذه القبور بناء ، ولها أوقاف كثيرة ، ولها قيّم يلتزمها .

ومن المشاهد المباركة أيضا بالجبّانة الغربية وبمقربة من باب الجابية ، قبر أُويس القَرني ، رضي الله عنه . وقبور خلفاء بني أمية ، رحمهم الله ، يقال : إنها بإزاء باب الصغير بمقربة من الجبّانة المذكورة ، وعليها اليوم بناء يُسكن فيه .

والمشاهد المباركة في هذه البلدة أكثر من أن تنضبط بالتقييد . وإنما رسم من ذلك ما هو مشهور ومعلوم . ومن المشاهد الشهيرة أيضاً مسجد الأقدام ، وهو على مقدار ميلين من البلد مما يلي القبلة على قارعة الطريق الأعظم الآخذ إلى بلاد الحجاز والساحل وديار مصر . وفي هذا المسجد بيت صغير فيه حجر مكتوب عليه : كان بعض الصالحين يرى النبي ، صلّى الله عليه وسلّم ، في النوم ، فيقول : ههنا قبر أخي موسى ،

عليه السلام . والكثيب الأحمر على الطريق بمقربة من هذا الموضع وهو بين عالية وعُوَيْلِية كما ورد في الأثر ، وهما موضعان . وشأن هذا المسجد في البركة عظيم ، ويقال : إن النور ما خلا قط من هذا الموضع الذي يذكر ان القبر فيه حيث الحجر المكتوب . وله أوقاف كثيرة . فأما الأقدام ففي حجارة في الطريق اليه مُعَلَّمٌ عليها ، تجد أثر القدم في كل حجر ، وعدد الأقدام تسع ، ويقال : إنها أثر قدم موسى ، عليه السلام ، والله أعلم بحقيقة ذلك ، لا إله سواه .

شهر جمادى الأولى [٥٨٠ هـ]
عرّفنا الله ببركته

استهلّ هلاله ليلة الجمعة ، بموافقة العاشر لشهر أغوشت العجمي .

ذكر جمل من أحوال البلد
عمره الله بالإسلام

لهذه البلدة ثمانية أبواب : باب شرقي ، وهو شرقي ، وفيه منارة بيضاء يقال إن عيسى ، عليه السلام ، ينزل فيها ، لما جاء في الأثر أنه ينزل بالمنارة البيضاء شرقي دمشق . ويلي هذا الباب باب توما ، وهو أيضاً في

حيّز الشرق . ثم باب السلامة . ثم باب الفراديس ، وهو شمالي . ثم باب الفرج . ثم باب النصر ، وهو غربي . ثم باب الجابية كذلك ، ثم باب الصغير ، وهو بين الغرب والقبلة .

والمسجد الجامع مائل إلى الجهة الشمالية من البلد ، والأرباض به مُطيفة إلا من جهة الشرق مع ما يتّصل بها من القبلة يسيراً . والأرباض كبارٌ، والبلد ليس بمفرط الكبر ، وهو مائل للطول . وسككه ضيّقة مظلمة . وبناؤه طين وقصب ، طبقات بعضها فوق بعض ، ولذلك ما يسرع الحريق إليه . وهو كلّه ثلاث طبقات ، فيحتوي من الخلق على ما تحتوي ثلاث مدن ، لأنه أكثر بلاد الدنيا خلقاً ، وحسنه كلّه خارج لا داخل .

وفي داخل البلد كنيسة لها عند الروم شأن عظيم ، تعرف بكنيسة مريم ، ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها . وهي حفيلة البناء ، تتضمّن من التصاوير أمراً عجيباً تبهت الأفكار ، وتستوقف الأبصار ، ومرآها عجيب ، وهي بأيدي الروم ، ولا اعتراض عليهم فيها .

وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة ، وبها مارستانان قديم وحديث ، والحديث أحفلهما وأكبرهما ، وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر ديناراً ، وله قَوَمَةٌ بأيديهم الأزمَّة المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك ، والأطبّاء يبكّرون إليه في كلّ يوم ويتفقّدون المرضى . ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكلّ إنسان منهم . والمارستان الآخر على هذا الرسم . لكن الاحتفال في الجديد أكثر . وهذا القديم هو غربيّ الجامع المكرّم . وللمجانين المعتقلين أيضاً ضرب من العلاج ، وهم في سلاسل موثَقون ، نعوذ بالله من المحنة وسوء من القَدَر . وتندُّ من بعضهم النوادر

الظريفة ، حسبما كنّا نسمع به . ومن أعجب ما حُدِّثتُ به من ذلك : أن رجلاًكان يعلِّم القرآن ، وكان يقرأ عليه أحد أبناء وجوه البلد ممن أُوتي مسحة جمال ، واسمه نصر الله ، وكان المعلّم يهيم به ، فزاد كلفه حتى اختبل وأُدِّي الى المارستان ، واشتهرت علّته وفضيحته بالصبيّ ، وربما كان يُدخله أبوه إليه . فقيل له : اخرجْ ، وعُد لما كنت عليه من القرآن . فقال متماجناً تماجُن المجانين : وأي قراءة بقيت لي ؟ ما بقي في حفظي من القرآن شيء سوى : ﴿ إذا جاءَ نَصْرُ الله ﴾ ، فضُحك منه ومن قوله . ونسأل الله العافية له ولكلّ مسلم ، فلم يزل كذلك حتى توفي سَمَح الله له .

وهذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الإسلام ، والمدارس كذلك . ومن أحسن مدارس الدنيا منظراً مدرسة نور الدين ، رحمه الله ، وبها قبره ، نوَّره الله . وهي قصر من القصور الأنيقة . ينصبّ فيها الماء في شاذروان وسط نهر عظيم ثمّ يمتدّ الماء في ساقية مستطيلة إلى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار . فتحار الأبصار في حسن ذلك المنظر ، فكلّ من يبصره يجدّد الدعاء لنور الدين ، رحمه الله . وأما الرباطات التي يسمونها الخوانق فكثيرة ، وهي برسم الصوفية . وهي قصور مزخرفة ، يطّرد في جميعها الماء أحسن منظر يُبْصَر .

وهذه الطائفة الصوفيّة هم الملوك بهذه البلاد ، لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها ، وفرّغ خواطرهم لعبادته من الفكرة في أسباب المعايش ، وأسكنهم في قصور تذكّرهم قصور الجنان . فالسعداء الموفّقون منهم ، قد حصل لهم بفضل الله تعالى نعيم الدنيا والآخرة . وهم على طريقة شريفة ، وسنّة في المعاشرة عجيبة ، وسيرتهم في التزام رُتَب الخدمة غريبة ، وعوائدهم من الاجتماع للسماع المشوّق جميلة ،

وربّما فارق منهم الدنيا في تلك الحالات المنفعلُ المثابر رقّة وتشوّقاً . وبالجملة فأحوالهم كلّها بديعة ، وهم يرجون عيشاً طيّباً هنيئاً .

ومن أعظم ما شاهدناه لهم موضع يعرف بالقصر[1] ، صرح عظيم مستقل في الهواء ، في أعلاه مساكن لم يُر أجمل إشرافاً منها ، وهو من البلد بنصف الميل ، له بستان عظيم يتصل به ، وكان متنزّهاً لأحد ملوك الأتراك . فيقال : إنه كان فيه إحدى الليالي على راحة ، فاجتاز به قوم من الصوفيّة ، فهريق عليهم من النبيذ الذي كانوا يشربونه في ذلك القصر . فرفعوا الأمر لنور الدين ، فلم يزل حتى استوهبه من صاحبه ووَقَفه برسم الصوفيّة مؤبّداً لهم . فطال العجب من السماحة بمثله ، وبقي أثر الفضل فيه مخلّداً لنور الدين ، رحمه الله .

ومناقب هذا الرجل الصالح كبيرة ، وكان من الملوك الزهّاد . وتوفي في شوال سنة تسع وستين وخمس مئة ، واستولى بعده على الأمر صلاح الدين . وهو على طريقة من الفضل شهيرة ، وشأنه في الملوك كبير ، وله الأثر الباقي شرفه من إزالة المكوس بطريق الحجاز ، ودفعه عوضاً عنها لصاحب الحجاز . وكانت الأيام قد استمرّت قديما بهذه الضريبة اللعينة الى أن محا الله رسمها على يد هذا الملك العادل ، أصلحه الله .

ومن مناقب نور الدين ، رحمه الله تعالى ، أنه كان عيّن للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك ، أوقافاً كثيرة ، منها طاحونتان وسبعة بساتين وأرض بيضاء وحمّام ودكانان بالعطارين .

---

(١) وكان يُعرف بقصر نور الدين في متنزّه «التخوت» بالربوة ، وصفه البدري كما سيمرّ لاحقا .

وأخبرني أحد المغاربة الذين كانوا ينظرون فيه، وهو أبو الحسن علي ابن سردال الجَيَّاني المعروف بالأسود : أنّ هذا الوقف المغربي يُغِلّ ، إذا كان النظر فيه جيّداً ، خمس مئة دينار في العام . وكان له ، رحمه الله ، بجانبهم فضل كبير ، نفعه الله بما أسلف من الخير ، وهيأ دياراً موقوفة لقرّاء كتاب الله عزّ وجلّ يسكنونها .

مرافق الغرباء

ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الإحصاء ، ولاسيما لحفّاظ كتاب الله عزّ وجلّ ، والمنتمين للطلب . فالشأن بهذه البلدة لهم عجيب جداً . وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم ، لكن الاحتفال بهذه البلدة أكثر والاتّساع أوجد . فمن شاء الفلاح من نَشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرَّب في طلب العِلم فيجد الأمور المُعينات كثيرة . فأولها فراغ البال من أمر المعيشة ، وهو أكبر الأعوان وأهمّها ، فإذا كانت الهمّة فقد وجد السبيل إلى الاجتهاد ، ولا عُذر للمقصِّر إلاّ من يدين بالعجز والتَّسْويف ، فذلك مَن لا يتوجه هذا الخطاب عليه ، وإنما المُخاطَب كل ذي همّة يحول طلبُ المعيشة بينه وبين مقصده في وطنه من الطلب العلمي ، فهذا المَشْرق بابه مفتوح لذلك ، فادخل أيها المجتهد بسلام ، وتغنَّم الفراغ والانفراد قبل علَق الأهل والأولاد وتقرع سِنَّ الندم على زمن التضييع ، والله يوفّق ويرشد ، لا إله سواه ، قد نصحتُ إن ألفيتُ سامعاً ، وناديتُ إن أسمعتُ مجيباً ، ﴿ وَمَنْ يَهْدِ الله فهوَ المُهْتَد ﴾ ، جلَّت

قدرته ، وتعالى جَدُّه . ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقيّة كلها إلا مبادرة أهلها لإكرام الغرباء وإيثار الفقراء ، ولا سيّما أهل باديتها ، فإنّك تجد من بِدارٍ إلى برِّ الضيف عجباً ، كفى بذلك شرفاً لها . وربما يعرض أحدهم كسْرَته على فقير فيتوقّف عن قبولها ، فيبكي الرجل ويقول : لو علم الله فيَّ خيراً لأكل الفقيرُ طعامي . لهم في ذلك سرٌّ شريف .

من عجيب أمر المشارقة

ومن عظيم أمرهم تعظيمهم للحاج ، على قرب مسافة الحجّ منهم ، وتيسير ذلك لهم ، واستطاعتهم لسبيله . فهم يتحمّسون بهم عند صدورهم ، ويتهافتون عليهم تبركاً بهم . ومن أغرب ما حُدِّثْناه من ذلك : أن الحاجّ الدمشقي مع من انضاف اليهم من المغاربة عند صدورهم الى دمشق في هذا العام الذي هو عام ثمانين ، خرج الناس لتلقّيهم : الجمّ الغفير نساء ورجالاً ، يصافحونهم ويتمسّحون بهم . وأخرجوا الدراهم لفقرائهم يتلقّونهم بها ، وأخرجوا إليهم الأطعمة . فأخبرني من أبصر كثيرا من النساء يتلقّين الحاج ويناولنهم الخبز ، فإذا عضَّ الحاجّ فيه اختطفنه من أيديهم وتبادرن لأكله تبركاً بأكل الحاج له ، ودفعن له عوضاً منه دراهم ، إلى غير ذلك من الأمور العجيبة ضدّ ما اعتدنا في المغرب في ذلك ، وصُنِع بنا في بغداد عند تلقي الحاج بها مثل ذلك أو قريب منه . ولو شئنا استقصاء هذه الأمور لخرجت بنا عن مقصد التقييد ، وإنما وقع الإلماع بلمحة دالة يُكتفى بها عن التطويل . وكلُّ من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء

للانفراد يلتزم إن أحب ضَيْعَة من الضياع فيكون فيها طيِّبَ العيش ، ناعم البال ، وينثال الخبز عليه من أهل الضيعة ، ويلتزم الإمامة أو التعليم أو ما شاء . ومتى سئتم المقام خرج الى ضَيْعة أخرى أو يصعد الى جبل لُبنان أو الى جبل الجُوديّ فيلقى المريدين المنقطعين الى الله عزّ وجلّ ، فيقيم معهم ماشاء ، وينصرف الى حيث شاء .

نصارى جبل لبنان

ومن العجب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به بعض المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم ، ويقولون : هؤلاء ممن انقطع الى الله عزّ وجل فتجب مشاركتهم .

وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا ، فيه أنواع الفواكه ، وفيه المياه المطَّردة والظِّلال الوارفة ، وقلَّما يخلو من التبتيل والزهادة . وإذا كانت معاملة النصارى لضدّ ملّتهم هذه المعاملة فما ظنّك بالمسلمين بعضهم مع بعض .

الحرب واتفاق النصارى والمسلمين

ومن أعجب ما يُحدَّث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى ، وربّما يلتقي الجمعان ويقع المُصاف بينهم ، ورفاق المسلمين

والنّصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم . شاهدنا في هذا الوقت ، الذي هو شهر جمادى الأولى ، من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكَرَك ، وهو من أعظم حصون النصارى ، وهو المعترض في طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البرّ ، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشف قليلاً ، وهو سَرارة أرض فلسطين ، وله نظر عظيم الاتساع متّصل العمارة ، يُذكر أنه ينتهي الى أربع مئة قرية ، فنازله هذا السلطان وضيّق عليه وطال حصاره .

واختلافُ القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع . واختلاف المسلمين من دمشق الى عكة كذلك . وتُجّار النصارى أيضاً لا يُمْنَع أحد منهم ولا يُعتَرَض . وللنصارى على على المسلمين ضريبة يؤدّونها في بلادهم ، وهي الأمَنَة على غاية . وتُجّار النصارى أيضاً يؤدُّون في بلاد المسلمين على سِلَعهم ، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال . وأهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس في عافية ، والدّنيا لمن غَلَب .

هذه سيرة أهل هذه البلاد في حربهم وفي الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك . ولا تُعْتَرَض الرَّعايا ولا التجَّار ، فالأمنُ لا يفارقهم في جميع الأحوال سلماً أو حرباً . وشأن هذه البلاد في ذلك أعجب من أن يُستوفَى الحديث عنه ، والله يُعلي كلمة الإسلام بمنّه .

دمشق وآثارها

ولهذه البلدة قلعةٌ يسكنها السلطان منحازة في الجهة الغربية من البلد ، وهي بإزاء باب الفَرَج من أبواب البلد ، وبها جامع السلطان يُجَمَّع فيه . وعلى مقربة منها ، خارج البلد في جهة الغرب ، ميدانان كأنّهما مبسوطان خزّاً لشدَّة خُضْرتهما ، وعليهما حلَق ، والنهر بينهما ، وغَيْضَة عظيمة من الحَور متَّصلة بهما ، وهما من أبدع المناظر . يخرج السلطان إليهما ويلعبُ فيهما بالصَّوَالجة ويسابق بين الخيل فيهما ، ولا مجال للعين كمجالها فيهما . وفي كل ليلة يخرج أبناء السلطان إليهما للرماية والمسابقة واللعب بالصوالجة .

وبهذه البلدة أيضاً قرب مئة حمَّام فيها وفي أرباضها ، وفيها نحو أربعين داراً للوضوء يجري الماء فيها كلّها . وليس في هذه البلاد كلّها بلدةٌ أحسن منها للغريب ، لأن المرافق بها كثيرة . وفي الذي ذكرناه من ذلك كفاية ، والله يبقيها دار إسلام بمنّه .

وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً وأبدعها وضعاً ، ولا سيّما قَيْسَارِيَّاتها . وهي مرتفعات كأنها الفَنَاديق مثقَّفة كلها بأبواب حديد كأنّها أبواب القصور ، وكل قيساريَّة منفردة بضبّتها وأغلاقها الجديدة . ولها أيضا سوق يُعرف بالسوق الكبير ، يتصل من باب الجابية إلى باب شرقي . وفيه بيت صغير جداً قد اتُّخذ مصلًّى ، وفي قبلته حجر يقال : إن إبراهيم ، عليه السلام ، كان يكسر عليه الآلهة التي كان يسوقها أبوه للبيع .

وحديث الدار المنسوبة لعمر بن عبد العزيز ، التي هي اليوم خانقة

للصوفية ، وهي في الدهليز الذي في الباب الشمالي المعروف بباب الناطفيين ، وقد تقدم التنبيه عليها قبل هذا ، حديث عجيب . وذلك أن الذي اشتراها وبناها - وجعل لها الأوقاف الواسعة وأمر بأن يُدفن فيها وأن يُختم على قبره القرآن كل جمعة ، وعيّن من تلك الأوقاف لمن يحضر ذلك كل جمعة رطلاً من خبز الحُوّارَى ، وهو ثلاثة أرطال من أرطال المغرب - رجلٌ من العجم يعرف بالسُّمَيْساطيّ ، وسُمَيْساط بلدة من بلاد العجم . وكان موصوفاً بالورع والزهد ، وأصل يساره وتموّله ، فيما ذُكر لنا ، أنّه ألفى يوماً من الأيام بالدهليز المذكور إزاء الدار المذكورة رجلاً أسود مريضاً مطروحاً بموضعه غير مُلتَفَت إليه ولا مُعتنى به ، فتأجَّر فيه والتزم تمريضه وخدمته والنظر له اغتناماً للثواب من الله عز وجل ، فحانت وفاة الرجل ، فاستدعى ممرّضه السميساطي المذكور فقال له : انت قد أحسنتَ إلي وخدمتني ولَطُفْتَ في تمريضي وأشفقت لحالي وغربتي ، فأنا أريد أن أكافئك على فعلك بي زائداً إلى مكافأة الله عزّ وجلّ عني في الآجل ، إن شاء الله . وذلك أني كنتُ من أحد فتيان الخليفة المعتضد العباسي ، ومعروفاً بزِمام الدار ، وكانت لي حظوة ومكانة ، فعتب عليّ في بعض الأمر ، فخرجتُ طَريداً ، فانتهيت إلى هذه البلدة ، فأصابني فيها من أمر الله ما أصابني ، فسبَّبك الله لي رحمة ، فأنا أقلّدك أمانة وأعهد إليك فيها عهداً ، إذا أنا متُّ وغسلتَني فانهض على بركة الله تعالى إلى بغداد وتلطَّف في السؤال عن دار صاحب الزمام فتى الخليفة ، فإذا أُرشدتَ إليها فصرِّف الحيلة في اكترائها ، وأرجو أن الله يعينك على ذلك ، وإذا سكنتَها فاعمد إلى موضع ، سمّاه له فيها وذكر له أمارةً عليه ، فاحفرْ فيه مقدارَ كذا وانزع اللوح الذي تجده معترضاً تحت الأرض وخُذ الذي تجده مدفوناً تحت

الأرض وصرّفه في منافعك وما يوفقك الله اليه من وجوه البرّ والخير مباركاً لك في ذلك ، إن شاء الله .

ثم توفي الرجل الموصي ، رحمه الله ، وتوجّه المُوْصَى إليه بعهده إلى بغداد . فيسَّر الله له في اكتراء الدار ، وانتهى الى الموضع المذكور فاستخرج منه ذخائر لا قيمة لها ، عظيمة الشأن ، كبيرة القدر . فدسَّها في أحمال متاع ابتاعها وخرج إلى دمشق من بغداد ، فابتاع الدار المذكورة المنسوبة لعمر بن عبد العزيز ، رضي الله عنه ، وبناها خانقة للصوفية واحتفل فيها وابتاع لها الأوقاف ضياعاً ورباعاً وجعلها برسم الصوفية ، وأوصى بأن يُدفن فيها وأن يُختم القرآن على قبره كل جمعة ، وعيّن لكل من يحضر ذلك ما ذكرناه . فوجد الغرباء والفقراء في ذلك مرفقاً كثيراً ، فتغصّ الخانقة بالقَرَأة كل جمعة ، فإذا ختموا القران دعوا له وانصرفوا ودُفع لكل واحد منهم رطل من الخبْز ، على الصفة المذكورة . وبقي للمتوفى جميل الأثر والخير ، رحمة الله ورضوانه عليه .

والكوثَريَّة التي ذكرناها أيضاً بالجامع المكرَّم والمقروءة كل يوم بعد العصر ، المعيَّنة لمن لا يحفظ القرآن كان أصلها أيضاً أن أحد ذوي اليسار توفي وأوصى بأن يُدسَّ قبره في الجامع المكرّم ، وأوقف وقفاً يغلّ مئة وخمسين ديناراً في السنة برسم من لا يحفظ القرآن ويقرأ من سورة الكوثر إلى الخاتمة ، فينقسم له أربعون ديناراً ، كلّ ثلاثة أشهر من السنة . ويُذكر أن أحد الملوك السالفين توفي أيضاً وأوصى بأن يُجعل قبره في قبلة الجامع المكرّم بحيث لا يظهر ، وعيّن أوقافاً عظيمة تغلُّ نحو الألف دينار وأربع مئة دينار في السنة وزائد لقرّاء سبُع القرآن كلّ يوم .

وموضع الاجتماع لقراءة هذا السبُّع المبارك كل يوم ، إثر صلاة

الصبح ، بالجهة الشرقية من مقصورة الصحابة ، رضي الله عنهم ، ويقال إن في ذلك الموضع هو القبر المذكور . وقراءة السبع لا تتعدى ذلك الموضع متصلاً مع جدار القبلة إلى الجدار الشرقي ، والله عزّ وجلّ لا يضيع أجر المحسنين . وبقيت هذه الرسوم الشريفة مخلّدة مع الأيام ، نفع الله بها راسميها . وناهيك فيها من بلاد يُهدى فيها لهذه الصنائع المُزْلِفة لرضوان الله ، عزّ وجلّ . وللفقراء الملتزمين الجلوس في الجانب الشرقي من الجامع المكرم ، الذين ليس لهم مأوى يأوون اليه ، وقفٌ وضعه بعض المتأخرين الموفّقين برسمهم ، إلى ما يطول ذكره من الآثار الأخرويّة الصَّدَقِيَّة التي كفل الله بها غرباء هذه الجهات .

ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد المستحسنة ، المرجو لهم فيها من الله عزّ وجلّ قبولٌ ، أنهم في كلّ سنة يتوخّون الوقوف يوم عرفة بجوامعهم إثر صلاة العصر ، يقفُ بهم أئمتهم كاشفي رؤوسهم ، داعين إلى ربهم التماساً لبركة الساعة التي يقف فها وفد الله عزّ وجلّ وحجيج بيته الحرام بعرفات . فلا يزالون واقفين داعين متضرّعين الى الله عزّ وجلّ ، وبحجّاج بيته الحرام متوسّلين ، إلى أن يسقط قرص الشمس ويقدّروا نَفْرَ الحاجّ فينفصلوا باكين على ما حُرموه من ذلك الموقف العظيم بعرفات وداعين إلى الله عزّ وجلّ في أن يوصلهم إليها ولا يُخليهم من بركة القبول في فعلهم ذلك .

من أعظم مناظر الدنيا

من أعظم ما شاهدناه من مناظر الدنيا الغريبة الشأن ، وهياكلها الهائلة البنيان ، المعجزة الصنعة والإتقان ، المعترف لوصفها بالتقصير لسانُ كلّ بيان : الصعود الى أعلى قبّة الرصاص المذكورة في هذا التقييد ، القائمة وسط الجامع المكرَّم ، والدخول في جوفها ، وإجالة لحظ الاعتبار في بديع وضعها ، مع القبة التي في وسطها كأنها كرة مجوفة داخلة كرةً أخرى أعظم منها ؛ صعدنا إليه في جملة من الأصحاب المغاربة ضحوة يوم الاثنين الثامن عشر لجمادى الأولى المذكورة من مرقىً في الجانب الغربي من بلاط الصحن كان صومعةً في القديم ، وتمشَّينا على سطح الجامع المكرم ، وكله ألواح رصاص منتظمة ، كما قد تقدّم الذكر لذلك ، وطول كل لوح أربعة أشبار ، وعرضه ثلاثة أشبار ، وربما اعترض في الألواح نقص أو زيادة ، حتى انتهينا الى القبة المذكورة ، فصعدنا إليها على سلَّم منصوب ، وريح المُيَّد تكاد تطير بنا . فحبونا في الممشى المطيف بها ، وهو من رصاص ، وسعته ستة أشبار ، فلم نستطع القيام عليه لهول الموقف فيه ، فأسرعنا الولوج في جوف القبة على أحد شراجيبها المفتَّحة في الرصاص . فأبصرنا مرأى تحار فيه العقول ، وتقف دون إدراك هيبة وصفه الأفهام ، وجُلْنا في فرش من الخشب العظام حول القبة الصغيرة الداخلة ، في جوف القبة الرصاصية على الصفة التي ذكرناها ، ولها طيقان يُبصر منها الجامع ومنْ فيه ، فكنا نبصر الرجال فيه كأنهم الصبيان في المحاضر .

وهذه القبة مستديرة كالكرة وظاهرها من خشب قد شُدَّ بأضلاع من الخشب الضخام موثقة بنُطُقٍ من الحديد ، ينعطف كلُّ ضلع عليها كالدائرة

وتجتمع الأضلاع كلُّها في مركز دائرة من الخشب أعلاها . وداخل هذه القبة ، وهو ما يلي الجامع المكرم، خواتيمُ من الخشب منتظمٌ بعضها ببعض قد اتصل اتصالاً عجيباً ، وهي كلّها مذهبة بأبدع صنعة من التذهيب، مزخرفة التلوين ، بديعة القَرْنَصة يرتمي الأبصارَ شُعاعُ ذهبها ، وتتحيّر الألباب في كيفية عقدها ووضعها لافراط سموِّها . أبصرنا من تلك الخواتيم الخشبية خاتماً مطروحاً جوفَ القبّة ، لم يكن طوله أقلّ من ستة أشبار في عرض أربعة . وهي تلوح في انتظامها للعين كأن دور كل واحدة منها شبر أو شبران - الغاية لعظم سموِّها . والقبّة الرصاص محتوية على هذه القبة المذكورة وقد شُدَّت أيضاً بأضلاع عظيمة من الخُشُب الضخام ، موثقة الأوساط بنُطُق الحديد ، وعددها ثمان وأربعون ضلعاً ، بين كل ضلع وضلع أربعة أشبار ، قد انعطفت انعطافاً عجيباً، واجتمعت أطرافها في مركز دائرة من الخشب أعلاها ، ودور هذه القبة الرصاصية ثمانون خطوة ، وهي مئتا شبر وستون شبراً ، والحال فيها أعظم من أن يبلغ وصفها ، وإنما هذا الذي ذكرناه نبذةٌ يُستدلُّ بها على ما وراءها .

وتحت الغارب المستطيل المسمى النسر ، الذي تحت هاتين القبتين ، مدخل عظيم هو سقف للمقصورة ، بينه وبينها سماء جصّ مزيّنة، وقد انتظم فيه من الخشب ما لا يُحصى عدده وانعقد بعضها ببعض ، وتقوَّس بعضها على بعض ، وتركّبت تركيباً هائلاً منظره . وقد أُدخلتْ في الجدار كله دعائم للقبتين المذكورتين . وفي ذلك الجدار حجارة، كل واحد منها يزن قناطير مقنطرة ، لا تنقلها الفيلة فضلاً عن غيرها . فالعجب كل العجب من تطليعها إلى ذلك الموضع المفرط السموّ ، وكيف تمكنت القدرة البشرية لذلك ، فسبحان من ألهم عباده الى هذه الصنائع العجيبة ،

ومُعينهم على التأتي لما ليس موجوداً في طبائعهم البشرية ، ومُظهر آياته على أيدي من يشاء من خلقه ، لا إله سواه .

والقبتان على قاعدة مستديرة من الحجارة العظيمة قد قامت فوقها أرجل قصار ضخام من الحجارة الصمّ الكِبار ، وقد فُتح بين كل رجل ورجل شمسية ، واستدارت الشمسيات باستدارتها ، والقبتان في رأي العين واحدة ، وكنّينا عنها باثنتين لكون الواحدة في جوف الأخرى ، والظاهر منها قبة الرصاص .

ومن جملة عجائب ما عايناه في هاتين القبتين أن لم نجد فيهما عنكبوتاً ناسجاً على بُعد العهد من التفقّد لهما من أحد والتعاهد لتنظيف مساحتهما ، والعنكبوت في أمثالهما موجود كثير . وقد كان حُقّق عندنا أن الجامع المكرَّم لا تنسج فيه العنكبوت ، ولا يدخله الطير المعروف بالخُطّاف ، وقد تقدَّم ذكرنا لذلك في هذا التقييد . فانصرفنا منحدرين ، وقد قضينا عجباً عُجاباً من هذا المنظر العظيم شأنه ، المعجز وضعه ، المترفّع عن الإدراك وصفُه . ويقال : إنه ما على ظهر المعمور أعجب منظراً ولا أبعد سمواً ولا أغرب بنياناً من هذه القبَّة إلا ما يُحكى عن قبة بيت المقدس ، فإنّه يُحكى أنها أبعد في الارتفاع والسمو من هذه . وجملة الأمر أن منظرها والوقوف على هيئة وضعها وعظيم الاستقدار فيها عند مُعاينها بالصعود إليها والولوج داخلها من أغرب ما يُحدَّث به من عجائب الدنيا ، والقدرة لله الواحد القهّار ، لا إله سواه .

رتبهم في جنائزهم

ولأهل دمشق وغيرها من هذه البلاد في جنائزهم رتبةٌ عجيبة ، وذلك أنهم يمشون أمام الجنائز بقُرَّاء يقرأون القرآن بأصوات شجيَّة ، وتلاحينَ مُبكية ، تكاد تنخلع لها النفوس شجواً وحناناً ، يرفعون أصواتهم بها ، فتتلقاها الآذان بأدمع الأجفان . وجنائزهم يصلّى عليها في الجامع قبالة المقصورة ، فلا بُدَّ لكل جنازة من الجامع ، فاذا انتهوا إلى بابه قطعوا القراءة ، ودخلوا الى موضع الصلاة عليها ، إلاّ أن يكون الميت من أئمة الجامع أو من سدنته ، فإن الحالة المميّزة له في ذلك أن يدخلوه بالقراءة الى موضع الصلاة عليه . وربّما اجتمعوا للعزاء بالبلاط الغربي من الصحن بإزاء باب البريد ، فيصلُّون أفراداً أفراداً ، ويجلسون وأمامهم ربَعات من القرآن يقرأونها ، ونقباء الجنائز يرفعون أصواتهم بالنِّداء لكل واصل للعزاء من محتشمي البلدة وأعيانهم ويُحلُّونهم بخِطَطِهم الهائلة التي قد وضعوها لكل واحد منهم بالإضافة الى الدين ، فتسمع ما شئت من صدر الدين أو شمسه أو بدره أو نجمه أو زَيْنه أو بهائه أو جماله أو مجده أو فخره أو شرفه أو مُعِينه أو مُحْيِيه أو زَكيِّه أو نجيبه، الى ما لا غاية له من هذه الألفاظ الموضوعة . وتتَبعُها ، ولا سيّما في الفقهاء ، بما شئتَ أيضاً من سيّد العلماء وجمال الأئمّة وحُجَّة الإسلام وفخر الشريعة وشرف الملَّة ومفتي الفريقَيْن ، إلى ما لا نهاية له من هذه الألفاظ المُحالية . فيصعد كل واحد منهم الى الشريعة ساحباً أذياله من الكبر ، ثانياً عطْفه وقَذَالَه . فإذا استكملوا وفرغوا من القراءة وانتهى المجلس بهم منتهاه قام وُعَّاظُهم واحداً واحداً بحسب رُتبهم في المعرفة فوعظ وذكَّر ونبّه على خُدَع الدنيا وحذّر ،

وأنشد في المعنى ما حضر من الأشعار ، ثمّ ختم بتعزية صاحب المصاب والدعاء له وللمتوفى تم قعد ، وتلاه آخر على مثل طريقته الى أن يفرغوا ويتفرّقوا . فربما كان مجلساً نافعاً لمن يحضره من الذكرى .

ومخاطبة أهل هذه الجهات قاطبة بعضُهم لبعض بالتمويل والتسويد[1] وبامتثال الخدمة وتعظيم الحَضْرَة . وإذا لقي أحدٌ منهم آخر مسلّماً يقول : جاء المملوك أو الخادم برسم الخدمة ، كنايةً عن السلام ، فيتعاطون المُحال تعاطياً . والجِدُّ عندهم عنقاء مُغْرِب . وصفة سلامهم إيماء للركوع أو السجود ، فترى الأعناق تتلاعب بين رَفْعٍ وخَفْضٍ ، وبسطٍ وقَبْضٍ ، وربما طالت بهم الحالة في ذلك ، فواحد ينحطُّ وآخر يقوم ، وعمائهم تَهْوي بينهم هُوِياً . وهذه الحالة من الانعكاف الركوعي في السلام كنّا عهدناه لقَيْنات النساء ، وعند استعراض رقيق الإماء ، فيا عجباً لهؤلاء الرجال ، كيف تحلّوا بسمات ربّات الحِجال ، لقد ابتذلوا أنفسهم فيما تأنف النفوس الأبيّة منه ، واستعملوا تكفير الذميّ المنهيّ في الشرع عنه ! لهم في هذا الشأن طرائق عجيبة في الباطل . فيا للعجب منهم ، إذا تعاملوا بهذه المعاملة وانتهوا إلى هذه الغاية في الألفاظ بينهم فبماذا يخاطبون سلاطينهم ويعاملونهم ؟! لقد تساوت الأذناب عندهم والرؤوس ، ولم يُمَيَّز لديهم الرئيسُ والمرؤوس ! فسبحان خالق الخلق أطواراً ، لا شريك له ، ولا معبود سواه .

ومن عجب حال الصغير عندهم والكبير ، بجميع هذه الجهات كلّها ، أنهم يمشون وأيديهم إلى خلف قابضين بالواحدة على الأخرى ،

(١) أي أن يخاطب أحدهم الآخر باسم : مولانا أو سيّدنا .

ويركعون للسلام على تلك الحالة المشبَّهة بأحوال العُناة مهانةً واستكانة ، كأنهم قد سِيْموا تعنيفاً ، وأُوثقوا تكتيفاً ، وهم يعتقدون تلك الهيئة تمييزاً لهم في ذوي الخصوصية وتشريفاً ، ويزعمون أنهم يجدون بها نشاطاً في الأعضاء ، وراحة من الإعياء . والمحتشم منهم من يسحب ذيله على الأرض شبراً ، أو يضع خلفه اليد الواحدة على الأخرى ، قد تَخِذوا هذه المشية بينهم سَنناً ، وكل منهم قد زُيِّن له سُوءُ عمله فرآه حسنا ، أستغفر الله منهم ! فإن لهم من آداب المصافحة عوائد تجدّد لهم الإيمان ، وتستوهب لهم من الله الغفران ، لما بشّر به الحديث المأثور عن رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، في المصافحة ، فهم يستعملونها إثر الصلوات ، ولا سيما إثر صلاة الصبح وصلاة العصر .

وإذا سلَّم الإمام وفرغ من الدعاء أقبلوا عليه بالمصافحة ، وأقبل بعضهم على بعض يصافح المرءَ عن يمنيه وعن يساره ، فيتفرّقون عن مجلس مغفرة ، بفضل الله عزّ وجلّ . وقد تقدم الذكر فيما سلف من هذا التقييد أنهم يستعملونها عند رؤية الأهلَّة ، ويدعو بعضهم لبعض بتعرّف بركة ذلك الشهر ويمنه ، واستصحاب السعادة والخير فيه وفيما مرّ يعود عليه من أمثاله . وتلك أيضاً طريقة حسنة ينفعهم الله بها لما فيها من تعاطي الدعوات وتجديد المودَّات ، ومصافحة المؤمنين بعضهم بعضاً رحمة من الله تعالى ونعمة .

شهر جمادى الآخرة [٥٨٠ هـ]
عرّفنا الله بركته

استهلّ هلالُه ليلة الأحد التاسع من شهر شتنبر العجمي ونحن بدمشق ، حرسها الله ، على قدم الرحلة إلى عكّة ، فتحها الله ، والتماس ركوب البحر مع تجّار النصارى وفي مراكبهم المُعَدَّة لسفر الخريف المعروف عندهم بالصَّلِيبية ، عرَّفنا الله في ذلك معهود خيرته ، وتكفَّلنا بكلاءته وعصمته ، بعزّته وقدرته ، إنه سبحانه الحنَّان المنَّان ، وليّ الطول والإحسان ، لا ربَّ غيره . وكان انفصالنا منها عشيَّ يوم الخميس الخامس من الشهر المذكور ، وهو الثالث عشر من شهر شتنبر المذكور ، في قافلة كبيرة من التجّار المسافرين بالسلع إلى عكّة .

ابن جبير ، الرحلة ص ٢٣٤ - ٢٧١ طبعة بيروت



الكاتب الاديب البارع اللبيب

أبي الحسين محمد بن أحمد بن جبير

الكناني الاندلسي البلنسي

تغمده الله برحمته



رحلة ابن جبير



دار صادر
للطباعة والنشر

دار بيروت
للطباعة والنشر

بيروت

١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م



للقزويني (٦٠٠-٦٨٢هـ)-(١٢٠٣-١٢٨٣م)

هو ابو عبد الله زكريا بن محمد بن محمود القاضي جمال الدين ابو يحيى الانصاري القزويني. ولد حوالى سنة (٦٠٠ هـ) في مدينة قزوين وطاف في ايران والعراق والشام وتولى قضاء واسط والحلة في زمن المستعصم، آخر الخلفاء العباسيين، فسقطت بغداد وهو في ذلك المنصب. وتوفي سنة ٦٨٢ هـ (١٢٨٣م) وقد خلف كتابين كبيرين الاول في التاريخ وتقويم البلدان وما يتصل بهما ويسمى «آثار البلاد واخبار العباد» والثاني في الفلك والجغرافية الطبيعية عند العرب ويسمى «عجائب المخلوقات» ويعد هذا الاخير من اجل ما انتجه علماء العصور الوسطى في هذا الميدان.

• مقتطفات من كتاب (آثار البلاد واخبار العباد) •

«... إن الأرض جرم بسيط متشابه الأجزاء، وبسبب تأثير الشمس فيها ونزول المطر عليها وهبوب الرياح بها ظهرت فيها آثار عجيبة، وتختص كل بقعة بخاصية لا توجد في غيرها، فمنها ما صار حجراً صلداً ومنها ما صار طيناً حراً، ومنها ما صار طينة سبخة، ولكل واحد منها خاصية عجيبة وحكمة بديعة... وكرة الارض اربعة ارباع، ربعان جنوبيان وربعان شماليان، فالربع الشمالي المكشوف يسمى ربعاً مسكوناً، والربع المسكون مشتمل على البحار والجزائر والأنهار والجبال والمفاوز والبلدان والقرى... وهذا الربع المسكون قسموه سبعة اقسام كل قسم يسمى اقليماً كأنه بساط مفروش من الشرق الى الغرب طولاً ومن الجنوب الى الشمال عرضاً... على ان ما بقي منها (اي الكرة الارضية) تحت قطب الشمال قطعة غير مسكونة من افراط البرد وتراكم الثلوج... فإن البرد هناك مفرط جداً لأن سنة الدهر هنالك شتاء وليل فيظلم الهواء ظلمة شديدة ويجمد الماء لشدة البرد فلا حيوان هناك ولا نبات، وفي مقابلها من ناحية الجنوب يكون ستة اشهر صيفاً نهاراً كله فيحمى الهواء ويصير ناراً سموماً يحرق كل شيء فلا نبات ولا حيوان هناك، واما جانب المغرب فيمنع البحر المحيط السلوك فيه لتلاطم الامواج، واما جانب المشرق فيمنع البحر والجبال الشاهقة فاذا تأملت وجدت الناس محصورين في الاقاليم السبعة وليس لهم علم بحال بقية الارض...»

• بتحقيق الدكتور أحمد سوسة •

المحيط

جبل قاف

جبل قاف

جبل قاف

جبل قاف

المحيط

ملحوظة. ان الخارطة الاصلية كانت مقلوبة على الطريقة القديمة اي ان الشمال في اسفل الخارطة والجنوب في اعلاها وقد عكسناها مجاراة للطريقة الحديثة في رسم الخرائط لتسهيل المراجعة

- ٣٦ -

ابن سعيد الأندلسي
عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن سعيد
(توفي ٦١٧ هـ/ ١٢٢٠م)

هو عمّ علي بن موسى بن سعيد الأندلسي الشهير، مؤلّف كتاب «المُغرِب في حلى المَغْرِب». رحل عبد الرحمن إلى المشرق حتى بلغ بخارى، ومنها كتب إلى أهله يخبرهم بما رآه وصادفه في رحلته، فوصف الإسكندريّة والقاهرة ودمشق وحلب والموصل وبغداد. وقد حفظ لنا المقّري نصّ رسالته هذه إلى أهله، وذلك في كتابه الشهير «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب». أما تاريخ ولادة ابن سعيد فغير معروف، ولكنه قُتل في بخارى لمّا دخل إليها التتار أيام جنكيز خان عام ٦١٧ هـ.

المصادر:

نفح الطيب للمقّري، طبعة عبد الحميد ٣/ ١٣٢-١٣٤
المُغرِب لابن سعيد، طبعة شوقي ضيف ٢/ ١٧٢
مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجّد ١٨٣

دمشق

ومِلْتُ إلى حاضرة الشام دمشق، والنفس بالسوء أمّارة، فهنالك بعتُ الزيارة بالأوزار، وآلت تلك التجارة إلى ما حكمت به الأقدار. إذ هي كما قال أحد من عاينها:

أمّا دمشقُ فجنَّاتٌ مُعجَّلَةٌ للطالبين بها الولدانُ والحُورُ

فللّه ما تضمّن داخلها من الحور والولدان، وما زُيّن به خارجها من الأنهار والجنان. وبالجملة فإنها حِمىً تتقاصر عن إدراكها أعناق الفصاحة، وتقصر عن مناولتها في ميدان الأوصاف كلّ راحة.

نفح الطيب للمقّري ٣/ ١٣٤

- ٣٧ -

ياقوت الحموي

ياقوت بن عبد الله الرومي

(توفي ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩م)

ولد ياقوت في بلاد الروم ، أي اليونان ، عام ٥٧٥ هـ ولكن لا يُعرف أي شيء عن أسرته أو بلده أو أصوله ، سوى أنه أسِر صغيراً وحُمل إلى بغداد فابتاعه فيها تاجر حموي مقيم في بغداد اسمه عسكر ، وسُمّي بياقوت ، وهو من الأسماء الشائعة التي تطلق على الرقيق ، ونظراً لأن أباه الرومي كان غير معروف فقد جعلوه عبداً من عبيد الله ، وصار اسمه بالتالي ياقوت بن عبد الله الرومي ، وألحقوا به «الحموي» نسبة إلى مولاه ، لا لأنه ولد بحماة .

نال ياقوت تعليماً جيداً ، وعني سيده بتثقيفه لينتفع به ككاتب لأعماله التجارية . واصطحبه في أسفاره التجارية تارة ، وأرسله بمفرده أطواراً أخرى ، فكان غلاماً حين كان يتردّد إلى جزيرة كيش في المحيط الهندي وإلى عُمان في الجزيرة العربية ، ثم كان يعود إلى الشام إبّان تألّقها ببني أيوب . وكان لهذه الأسفار أبعد الأثر في نفس الفتى ياقوت ، مما طبع

في نفسه حب الترحال وأدّى إلى توسيع أفقه الجغرافي .

فلمّا كانت سنة ٥٩٦ هـ ، وكان ياقوت في الحادية والعشرين من عمره ، جرت بينه وبين مولاه نبوة فأعتقه وأبعده ، ثم عاد بينهما حبل الودّ حتى وفاة عسكر عام ٦٠٦ هـ . ومنذ ذيّاك الحين استقرّ ياقوت ببغداد واحترف بها مهنة استنساخ الكتب وتجارتها ، وقادته هذه المهنة إلى الاطلاع على موارد الثقافة الإسلامية ومعرفة العلماء والأعيان . غير أنه ما لبث أن عاد بدءاً من عام ٦٠٩ هـ إلى حياة الأسفار والرحلات دون أن يتخلى عن مهنته الجديدة . فجال في إيران وبلاد العرب وآسيا الصغرى ومصر والشام وبلاد ما وراء النهر .

وبدأ ياقوت تجواله ماراً بتبريز والموصل في طريقه إلى الشام ومصر ، ثم بعد عدة سنوات عاد إلى دمشق في عام ٦١٣ هـ ثم غادرها إلى حلب فإربل ثم أرمية فتبريز ومنها إلى إيران الشرقية . وأمضى عامين بنيسابور حيث علق قلبه حبّ فتاة من أهلها ، ثم غادرها إلى هرات وسرخس وخراسان وخوارزم إلى أن بلغ مرو ، فأمضى بها عامين متنقلاً بين مكتباتها الشهيرة ، ولم يلبث أن قرّر الاستقرار بها نهائياً ، وخاصة أن فكرة وضع معجمه الشهير قد غلبت على تفكيره هناك عام ٦١٥ هـ .

ويلوح من كلامه أنه أفاد من خزائن مرو إفادة كبيرة وكان مقامه فيها خصباً مفيداً ، فقد حدّثنا عنها بقوله في معجم البلدان : وأقمتُ بها ثلاثة أعوام . . . ولولا ما عرا من ورود التتر إلى تلك البلاد وخرابها ما فارقتُها إلى الممات ، لما في أهلها من الرِّفد ولين الجانب وحُسن العشرة وكثرة الكتب الأصول المتقنة . فإني فارقتها وفيها عشر خزائن للوقف لم أر في الدنيا مثلها كثرة وجودة . . . وكانت [الكتب] سهلة التناول لا يفارق منزلي

منها مائتا مجلد أو أكثر بغير رهن . . . فكنت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها ، وأنساني حبّها كل بلد وألهاني عن الأهل والولد . وأكثر فوائد هذا الكتاب [أي معجم البلدان] وغيره مما جمعتُه ، فهو من تلك الخزائن .

والمعروف أن ياقوتاً لم يدوّن أخبار رحلاته ، ولا ريب في أن ما شاهده في أسفاره وما جمعه من الخزائن التي نقّب فيها كان خير عدّة له في تأليف كتابه «معجم البلدان» . وكان الباعث له على تأليف هذا الكتاب ، كما يروي في مقدّمته ، أنه حضر يوماً بمرو في عام ٦١٥ هـ مناظرة علمية بمجلس الإمام عبد الرحيم السمعاني ، فتذاكر معه بعض الحضور في ضبط أسماء بعض المواضع وجرى نقاش حاد وتمسّك كلٌّ برأيه ، فقال ياقوت : فألقي حينئذ في روعي افتقار العالم إلى كتاب في هذا الشأن مضبوطاً . . . وشُرح صدري لنيل هذه المنقبة التي غفل عنها الأولون ولم يهتدِ لها الغابرون .

وقدّم ياقوت لمعجمه بمقدّمة وافية هامة على خمسة أبواب ، بسط فيها القول على صفة الأرض والفلك ، أو ما يعرف في المصطلح العلمي الحديث بالكوزموغرافيا ، فنقل أقوال الأقدمين واليونان والفُرس كأرسطاطاليس ودورينوس وأزدشير ، والمسلمين كالبيروني والخوارزمي . ومما جاء فيها : والذي يعتمد عليه جماهيرهم أن الأرض مدوّرة كتدوير الكرة ، موضوعة في جوف الفلك كالمُحَّة في جوف البيضة ، والنسيم حول الأرض جاذب لها من جميع جوانبها إلى الفلك . . .

ثم فصّل الحديث على الأقاليم السبعة والبروج الإثني عشر والمصطلحات والألفاظ الجغرافية التي يتكرر ذكرها في كتابه وفي كتب الجغرافيين عامة ، وأردف ذلك بذكر أحكام الفيء والخراج وجُمل من

أخبار البلدان ، ولم ينس التنويه بذكر المنهج العلمي الذي اتّبعه في الجمع والنقل والنقد . ثم رتّب كتابه على حروف الهجاء ، فجاء أثراً ضخماً وسفراً نفيساً يمتاز بدقته واتساعه وجمعه بين الجغرافيا والتاريخ والطبيعة والأدب .

وفرغ ياقوت من تأليف هذا المعجم بحلب عام ٦٢١ هـ في مسوّدته الأولى ، وقدّمه إلى ابن القفطي وزير السلطان الظاهر بن صلاح الدين الأيوبي ، ولم يكن لأحد في عصره مثل عنايته بنوادر الكتب وانتخاب القيّم والنفيس منها . ثم بعد أن جال في فلسطين ومصر عاد إلى حلب وشرع في عام ٦٢٥ هـ بتهذيب المعجم ، غير أن المنيّة عاجلته فتوفي بحلب عام ٦٢٦ هـ وهو لمّا يتجاوز الخمسين من عمره .

والحق أن ياقوتاً يستحق أعمق التقدير والإعجاب على هذا الأثر النفيس الذي تركه لنا ، ففيه تبدو معالم ثقافته الشخصية التي حازها بنفسه في تنقلاته الواسعة رغم كونه رقيقاً بالأصل ورغم النكبات التي أصابته عند هروبه من خوارزم يوم اجتاحها التتر . وفيه يبدو مؤرخاً للبلدان وإخبارياً ولغوياً وجغرافياً ونسّابة وأديباً ، فجاء كتابه بعد ذلك كما يقول هو نفسه فيه : أوحداً في بابه . ولكن مما يؤسف له أننا لا نستطيع أن نحدد مقدار ما أفاده من رحلاته تحديداً دقيقاً ، فإنه نقل عن كثير من الجغرافيين والرحالين والمؤرخين ولم يعيّن الأقاليم التي زارها بنفسه وكتب عنها مشاهداته الخاصة ، مع أنه كان من أكثر العلماء تطوافاً في عصره ومن أشدّهم عناية بالتاريخ الطبيعي ومظاهر الثقافة الشاملة ، ومن أبعدهم عن الأخذ بالخرافات والأساطير ، فقد امتاز بحيازته لملكة النقد وإبداء رأيه الشخصي فيما يرى ويسمع وينقل .

ومهما يكن من أمر ، فإن معجم البلدان يبقى أثراً فريداً في بابه ونسيج وحده لا غنى عنه لكل دارس وباحث في تاريخ الحضارة العربية والإسلامية وتراثها ، حتى أن المستشرق الفرنسي كاراً دى ڤو Carra de Vaux قال فيه إنه من المؤلفات التي يحق للإسلام أن يفخر بها كل الفخر .

والواقع أن كثيراً من الجغرافيين اللاحقين لياقوت حاولوا النسج على منواله ، كصفي الدين البغدادي الذي اختصره في «مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع» ، والحِمْيَري الذي قلّده في «الروض المعطار في خبر الأقطار» ، والمؤرخ الدمشقي علم الدين البرزالي صاحب «معجم البلدان والقرى» .

ونال المعجم كل عناية من المستشرقين الأوروبيين ، وأول نشرة علمية كاملة له كانت على يد المستشرق الألماني ڤستنفلد Wüstenfeld وطبع في لايپتسيك بألمانيا عام ١٨٦٠ . ثم توالت له طبعات أخرى كان من أشهرها طبعة دار السعادة بمصر عام ١٩٠٦ في ثمانية مجلدات ، أضاف إليها ناشرها محمد أمين الخانجي ذيلاً في جزأين بعنوان : «منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان» ، طبع عام ١٩٠٧ . وكذلك طبعة دار صادر في ٢٠ جزءاً ببيروت عام ١٩٥٥-١٩٥٧ التي اعتبرت في وقتها مثالاً يحتذى لفن الطباعة العربية . غير أن كلا الطبعتين الأخيرتين منقول بحذافيره عن طبعة لايپتسيك الأصلية . ويندر اليوم أن ترى مكتبة كبرى عامة أو خاصة إلا وفيها معجم البلدان بإحدى هاتين الطبعتين .

هذا وقد ترك لنا ياقوت كتاباً آخر لا يقل كثيراً بالشهرة والأهمية عن معجمه ، وهو «إرشاد الأريب إلى معرفة الأريب» الذي يعرف أيضاً باسم «معجم الأدباء» ، وقد جمع فيه مؤلفه تراجم أدباء عصره وعلمائه

وأخبارهم . نشره للمرة الأولى المستشرق الانكليزي مرگوليوث Margoliouth بمصر عام ١٩٠٧-١٩٢٥ ، ثم أعاد نشره بالاستناد إلى الطبعة السابقة الدكتور أحمد فريد رفاعي في ٢٠ جزءاً وصدر عن دار المأمون بمصر ١٩٣٦-١٩٣٨ . ومن مؤلفاته أيضاً : «المشترك وضعاً والمفترق صقعاً» و«المقتضب من كتاب جمهرة النسب» و«المبدأ والمآل» في التاريخ وكتاب «الدول» و«أخبار المتنبّي» و«ومعجم الشعراء» .

أما دمشق فقد قدّمنا القول أن ياقوتاً زارها مراراً في مطلع القرن السابع الهجري ، وكانت تحت حكم بني أيوب ، ولذا فإن وصفه لها ذو أهمية كبرى بحكم كونه شاهد عيان لما كتب . فقمنا بنقل ما أورده في معجمه عن دمشق ، ورجعنا في ذلك إلى طبعة لايپتسيك الأصلية وطبعة بيروت .

وكان في خطتنا بالأصل أن نتجاوز ذلك إلى تجميع النصوص التي وردت في المعجم عن القرى المضافة إلى ريف دمشق ، ولكن اتضح لنا عند المحاولة أن هذا كان ليرهق القارئ ويثقل على الكتاب ، وأنه في الحق بحاجة إلى سِفر مفرد مستقل ، فأحجمنا واكتفينا بهذا القدر الآن .

المصادر :

معجم البلدان لياقوت ، طبعة دار صادر الأولى ، مقدمة المؤلف ٧-٤٨
معجم الأدباء لياقوت ، طبعة دار المأمون ، المقدمة ١٨-٤٤
إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي
مرآة الجنان لليافعي ٦٣-٥٩/ ٤
وفيات الأعيان لابن خلكان ٢١٠/ ٢
تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ٣٤٤-٣٣٥
روّاد الشرق العربي في العصور الوسطى لزيادة ٦٠-٥٨
الرحالة المسلمون في العصور الوسطى لزكي محمد حسن ١٠٢
مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجد ١٦٣
أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب للمنجد ٥٩
أعلام الجغرافيين العرب لحميدة ٣٥٠
الرحلة والرحالة المسلمون لأحمد رمضان ١٧٧
الأعلام للزركلي ١٥٧/ ٩

دمشق

دِمَشقُ الشام : بكسر أوله، وفتح ثانيه، هكذا رواه الجمهور، والكسر لغة فيه، وشين معجمة وآخره قاف : البلدة المشهورة قصبة الشام، وهي جنة الأرض بلا خلاف، لحسن عمارة، ونضارة بقعةٍ، وكثرة فاكهة، ونزاهة رقعة، وكثرة مياه، ووجود مآرب .

قيل : سميت بذلك لأنهم دَمْشَقوا في بنائها أي أسرعوا ؛ وناقة دَمْشق ، بفتح الدال وسكون الميم : سريعة، وناقة دمشقة اللحم : خفيفة ؛ قال الزَّفيان :

* وصاحبي ذاتُ هَبابٍ دَمْشَقُ *

قال صاحب الزيج : دمشق طولها ستون درجة ، وعرضها ثلاث وثلاثون درجة ونصف ، وهي في الإقليم الثالث .

وقال أهل السير : سُمِيت دمشق بدماشق بن قاني بن مالك ابن أرفخشد بن سام بن نوح ، فهذا قول ابن الكلبي .

وقال في موضع اخر : ولد يقطان بن عابر سالف وهم السلف، وهو الذي بنى قصبة دمشق .

وقيل : إن أول من بناها بيوراسف .

وقيل : بُنيت دمشق على رأس ثلاثة آلاف ومائة وخمس وأربعين سنة من جملة الدهر الذي يقولون إنه سبعة آلاف سنة، وولد إبراهيم الخليل، بعد بنائها بخمس سنين .

وقيل : إن الذي بنى دمشق جيرون بن سعد بن عاد بن إرم ابن سام

بن نوح، عليه السلام، وسماها إرَم ذات العماد .

وقيل : إن هوداً، عليه السلام، نزل دمشق وأ سّس الحائط الذي في قبلي جامعها . وقيل : إن العازر غلام إبرهيم، عليه السلام، بنى دمشق وكان حبشياً وهبه له نمرود بن كنعان حين خرج ابراهيم من النار، وكان يسمّى الغلام دمشق فسماها باسمه، وكان إبراهيم، عليه السلام، قد جعله على كل شيء له .

وسكنها الروم بعد ذلك .

وقال غير هؤلاء : سُمّيت بدماشق بن نمرود بن كنعان وهو الذي بناها، وكان مع إبراهيم عليه السلام . كان دفعه اليه نمرود بعد أن نجّى الله تعالى ابراهيم من النار .

وقال آخرون : سُميت بدمشق بن إرم بن سام بن نوح، عليه السلام، وهو أخو فلسطين وإيلياء وحمص والأردن ، وبنى كل واحد موضعاً فسمّي به .

وقال أهل الثقة من أهل السير : ان آدم، عليه السلام، كان ينزل في موضع يُعرف الآن ببيت أبْيات ، وحَوّاء في بيت لِهْيا ، وهابيل في مَقْرَى، وكان صاحب غنم ، وقابيل في قَيْنِيَة، وكان صاحب زرع، وهذه المواضع حول دمشق، وكان في الموضع الذي يعرف الآن بباب الساعات عند الجامع صخرة عظيمة يوضع عليها القُربان ، فما يقبل منه تنزل نار تحرقه ، وما لا يقبل بقي على حاله، فكان هابيل قد جاء بكبش سمين من غنمه فوضعه على الصخرة فنزلت النار فأحرقته ، وجاء قابيل بحنطةٍ من غلّته فوضعها على الصخرة فبقيت على حالها . فحسد قابيل أخاه وتبعه إلى الجبل المعروف بقاسيون المُشرف على بقعة دمشق وأراد قتله ، فلم يدر

كيف يصنع . فأتاه إبليس فأخذ حجراً وجعل يضرب به رأسه . فلما رآه أخذ حجراً فضرب به رأس أخيه فقتله على جبل قاسيون ، وأنا رأيت هناك حجراً عليه شيءٌ كالدم يزعم أهل الشام أنه الحجر الذي قتله به ، وأنّ ذلك الاحمرار الذي عليه أثر دم هابيل ، وبين يدبه مغارة تزار حسنة يقال لها مغارة الدم ، كذلك رأيتها في لحف الجبل الذي يعرف بجبل قاسيون .

وقد روى بعض الأوائل أن مكان دمشق كان داراً لنوح ، عليه السلام ، ومنشأ خشب السفينة من جبل لبنان ، وأنّ ركوبه في السفينة كان من عين الجَرّ من ناحية البقاع .

وقد رُوي عن كعب الأحبار : أن أول حائط وُضع في الأرض بعد الطوفان حائط دمشق وحَرّان .

وفي الأخبار القديمة عن شيوخ دمشق الأوائل : أن دار شدَّاد ابن عاد بدمشق في سوق التبن يفتح بابها شآماً إلى الطريق ، وأنه كان يزرع له الريحانُ والوردُ وغير ذلك فوق الأعمدة بين القنطرتين قنطرة دار البَطّيخ ، وقنطرة سوق التبن ، وكانت يومئذ سقيفة فوق العُمُد .

وقال أحمد بن الطيِّب السَّرَخْسي : بين بغداد ودمشق مائتان وثلاثون فرسخاً .

وقالوا في قول الله عز وجلّ : ﴿ وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين﴾ قال : هي دمشق ذات قُرار وذات رُخاءٍ من العيش وسعة ، ومعين كثيرة الماء .

وقال قَتادة في قول الله عز وجل ﴿ والتينِ ﴾ قال : الجبل الذي عليه دمشق ، ﴿ والزيتونِ ﴾ الجبل الذي عليه بيت المقدس ، و﴿ طورِ سينين ﴾ : شعب حسن ، ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ : مكة ، وقيل : إرم ذات

العماد دمشق .

وقال الأصمعيُّ : جنات الدنيا ثلاث : غوطة دمشق ونهر بَلْخ ونهر الأُبُلَّة، وحشوش الدنيا ثلاثة : الأُبُلَّة وسيراف وعُمان .

وقال أبو بكرمحمد بن العباس الخوارزمي الشاعر الأديب : جِنان الدنيا أربع : غوطة دمشق، وصُغْد سمرقند، وشعب بَوّان ، وجزيرة الأُبُلَّة . وقد رأيتها كلها وأفضلها دمشق .

وفي الأخبار : أن إبراهيم ، عليه السلام ، وُلد في غوطة دمشق في قرية يقال لها بَرْزَة في جبل قاسيون .

وعن النبي، صلّى الله عليه وسلّم، أنه قال : إن عيسى، عليه السلام، ينزل عند المنارة البيضاء من شرقيّ دمشق .

ويقال : إن المواضع الشرقية بدمشق التي يُستجاب فيها الدعاء مغارة الدم في جبل قاسيون، ويقال : إنها كانت مأوى الأنبياء ومصلاّهم . والمغارة التي في جبل النَّيرَب يقال : إنها كانت مأوى عيسى، عليه السلام. ومسجدا إبراهيم، عليه السلام، أحدهما في الأشعريّين والآخر في بَرْزَة . ومسجد القَدَم عند القطيعة، ويُقال : إن هنا قبر موسى، عليه السلام، ومسجد باب الشرقي الذي قال النبى، صلّى الله عليه وسلّم، إن عيسى، عليه السلام، ينزل فيه . والمسجد الصغير الذي خلف جَيرُون يقال إن يحيى بن زكرياء، عليه السلام، قُتل هناك. والحائط القبلي من الجامع يقال إنه بناه هود، عليه السلام. وبها من قبور الصحابة ودورهم المشهورة بهم ما ليس في غيره من البلدان، وهي معروفة إلى الآن.

قال المؤلف : ومن خصائص دمشق التي لم أرَ في بلد آخر مثلهاكثرة الأنهار بها وجريان الماء في قنواتها ، فقَلَّ أن تَمُرَّ بحائط إلا

والماء يخرج منه في أنبوب إلى حوض يُشرب منه ويَستقي الوارد والصادر، وما رأيت بها مسجداً ولا مدرسةً ولا خانقاهاً إلا والماء يجري في بركة في صحن هذا المكان ويسحّ في مِيضَأة. والمساكن بها عزيزة لكثرة أهلها والساكنين بها وضيق بقعتها. ولها ربضٌ دون السور محيط بأكثر البلد يكون في مقدار البلد نفس. وهي في أرض مستوية تحيط بها من جميع جهاتها الجبال الشاهقة، وبها جبل قاسيون ليس في موضع من المواضع أكثر من العبّاد الذين فيه، وبها مغاور كثيرة وكهوف وآثار للأنبياء والصالحين لا توجد في غيرها. وبها فواكه جيدة فائقة طيبة، تُحمل إلى جميع ما حولها من البلاد من مصر إلى حَرّان وما يقارب ذلك فتَعُمُّ الكل، وقد وصفها الشعراءُ فأكثروا، وأنا أذكر من ذلك نبذة يسيرة.

وأما جامعها فهو الذي يُضرب به المثل في حسنه، وجملة الأمر أنه لم توصف الجنة بشيء إلا وفي دمشق مثله، ومن المحال أن يُطلب بها شيء من جليل أعراض الدنيا ودقيقها إلا وهو فيها أوجد من جميع البلاد. وفتحها المسلمون في رجب سنة ١٤ بعد حصار ومنازلة. وكان قد نزل على كل باب من أبوابها أمير من المسلمين فَصَدَمَهم خالد بن الوليد من الباب الشرقي حتى افتتحها عنوة، فأسرع أهل البلد إلى أبي عبيدة بن الجرّاح ويزيد بن أبي سفيان وشرُحبيل بن حَسَنة، وكان كل واحد منهم على رُبع من الجيش، فسألوهم الأمان فأمنوهم وفتحوا لهم الباب، فدخل هؤلاء من ثلاثة أبواب بالأمان، ودخل خالد من الباب الشرقي بالقهر، وملكوهم وكتبوا إلى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، بالخبر وكيف جرى الفتح، فأجراها كلها صلحاً.

وأما جامعها فقد وصفه بعض أهل دمشق فقال: هو جامع

المحاسن كامل الغرائب معدود إحدى العجائب ، قد زُوِّرَ بعض فرشه بالرخام ، وأُلِّفَ على أحسن تركيب ونظام ، وفوق ذلك فَصٌّ أقداره متفقة وصنعته مؤتلفة ، بساطه يكاد يقطر ذهباً ويشتعل لهباً ، وهو منزّه عن صور الحيوان إلى صنوف النبات وفنون الأغصان ، لكنها لا تجنى إلا بالأبصار ، ولا يدخل عليها الفساد كما يدخل على الأشجار والثمار ، بل باقية على طول الزمان مدركة بالعيان في كل أوان ، لا يمسها عطش مع فقدان القطر ، ولا يعتريها ذُبول مع تصاريف الدهر ، وقالوا : عجائب الدنيا أربع : قنطرة سنجة ، ومنارة الإسكندرية ، وكنيسة الرُها ، ومسجد دمشق . وكان قد بناه الوليد بن عبد الملك بن مروان ، وكان ذا همَّة في عمارة المساجد ، وكان الابتداء بعمارته في سنة ٨٧ ، وقيل سنة ٨٨ . ولمّا أراد بناءه جمع نصارى دمشق وقال لهم : إنا نريد أن نزيد في مسجدنا كنيستكم ، يعني كنيسة يوحنا ، ونعطيكم كنيسة حيث شئتم ، وان شئتم أضعفنا لكم الثمن . فأبوا وجاؤوا بكتاب خالد بن الوليد والعهد وقالوا : إنا نجد في كتبنا أنه لا يهدمها أحد إلا خُنِقَ ، فقال لهم الوليد : فأنا أول من يهدمها ، فقام وعليه قباء أصفر فهدم وهدم الناس . ثم زاد في المسجد ما أراده ، واحتفل في بنائه بغاية ما أمكنه وسهل عليه إخراج الأموال ، وعمل له أربعة أبواب : في شرقيه باب جَيرون ، وفي غربيه باب البريد، وفي القبلة ياب الزيادة، ويباب الناطفانيين مقابله ، ويباب الفراديس في دبر القبلة .

وذكر غيث بن علي الأرمنازي في كتاب دمشق على ما حدثني به الصاحب جمال الدين الأكرم أبو الحسن علي بن يوسف الشيباني ، أدام الله أيامه : أن الوليد أمر أن يُستقصى في حفر أساس حيطان الجامع ، فبينا هم يحفرون إذ وجدوا حائطاً مبنياً على سمْتِ الحفر سواء . فأخبروا الوليد

بذلك وعرّفوه إحكام الحائط واستأذنوه في البنيان فوقه، فقال : لا أحب إلا الإحكام واليقين فيه ولست أثق بإحكام هذا الحائط حتى تحفروا في وجهه إلى أن تدركوا الماء، فإن كان محكماً مرضياً فابنوا عليه وإلا استأنفوه . فحفروا في وجه الحائط فوجدوا باباً وعليه بلاطة من حجر مانع ، وعليها منقوركتابة، فاجتهدوا في قراءتها حتى ظفروا بمن عرفهم أنه من خط اليونان وأن معنى تلك الكتابة ما صورته :

«لما كان العالم محدثاً لاتصال أمارات الحدوث به وجب أن يكون له مُحْدِث لهؤلاء كما قال ذو السّنين وذو اللّحيين . فوجدت عبارة خالق المخلوقات حينئذ. أمر بعمارة هذا الهيكل من صلب ماله محبّ الخير على مضي سبعة آلاف وتسعمائة عام لأهل الأسطوان فإن رأى الداخل إليه ذكر بانيه بخيرٍ فعلَ والسلام».

وأهل الأسطوان : قوم من الحكماء الأُول كانوا ببعلبك ، حكى ذلك أحمد بن الطيّب السرخسي الفيلسوف .

ويُقال : إن الوليد أنفق على عمارته خَراج المملكة سبع سنين ، وحُملت إليه الحسبانات بما أُنفق عليه على ثمانية عشر بعيراً فأمر بإحراقها ولم ينظر فيها وقال : هو شيء أخرجناه لله فلم نتبعه . ومن عجائبه أنه لو عاش الإنسان مائة سنة وكان يتأمله كل يوم لرأى فيه كل يوم ما لم يره في سائر الأيام من حسن صنائعه واختلافها . وحُكي أنه بلغ ثمن البقل الذي أكله الصنّاع فيه ستة آلاف دينار . وضجّ الناس استعظاماً لما أنفق فيه وقالوا: أخذ بيوت أموال المسلمين وأنفقها فيما لا فائدة لهم فيه. قال فخاطبهم وقال : بلغني أنكم تقولون وتقولون ، وفي بيت مالكم عطاء ثماني عشرة سنة إذا لم تدخل لكم فيها حبَّة قمح. فسكت الناس . وقيل :

إنه عمل في تسع سنين ، وكان فيه عشرة آلاف رجل في كل يوم يقطعون الرخام ، وكان فيه ستمائة سلسلة ذهب . فلما فرغ أمَرَ الوليد أن يسقَّف بالرصاص ، فطُلب من كل البلاد وبقيت قطعة منه لم يوجد لها رصاص إلا عند امرأة وأبت أن تبيعه إلا بوزنه ذهباً ، فقال : اشتروه منها ولو بوزنه مرتين . ففعلوا ، فلما قبضت الثمن قالت : إني ظننت أن صاحبكم ظالم في بنائه هذا ، فلما رأيت إنصافه فأشهدكم أنه لله ! وردّت الثمن . فلما بلغ ذلك إلى الوليد أمر أن يكتب على صفائح المرأة : لله . ولم يُدخله فيماكتب عليه اسمه . وأنفق على الكرمة التي في قبلته سبعين ألف دينار . وقال موسى بن حماد البربري : رأيت في مسجد دمشق كتابة بالذهب في الزجاج محفوراً سورة : ﴿ ألهاكُمُ التّكاثُر ﴾ إلى آخرها ، ورأيت جوهرة حمراء ملصقة في القاف التي في قوله تعالى : ﴿ حتى زُرْتُم المقابر ﴾ . فسألت عن ذلك فقيل لي : إنه كانت للوليد بنت وكانت هذه الجوهرة لها ، فماتت فأمرت أمها أن تُدفن هذه الجوهرة في قبرها ، فأمر الوليد بها فصيِّرت في قاف ﴿ المقابر ﴾ من : ﴿ ألهاكُمُ التّكاثُرُ حتّى زُرْتُم المقابر ﴾ ، ثم حلف لأمها أنه قد أودعها المقابر فسكتت .

وحكى الجاحظ في كتاب البلدان قال : قال بعض السلف ما يجوز أن يكون أحدٌ أشدُّ شوقاً إلى الجنة من أهل دمشق لما يَرَوْنه من حُسن مسجدهم .

وهو مبنيٌّ على الأعمدة الرخام طبقتين ، الطبقة التحتانية أعمدةكبار ، والتي فوقها صغار ، في خلال ذلك صورة كل مدينة وشجرة في الدنيا بالفُسَيْفساء الذهب والأخضر والأصفر ، وفي قبليّه القُبَّة المعروفة بقبَّة النسر ، وليس في دمشق شيءٌ أعلى ولا أبهى منظراً منها ، وله ثلاث

منائر إحداها وهي الكبرى ، كانت ديدباناً للروم وأُقرَّت على ما كانت عليه وصُيِّرت منارة ، ويقال في الأخبار : إن عيسى ، عليه السلام ، ينزل من السماء عليها . ولم يزل جامع دمشق على تلك الصورة يبهر بالحسن والتنميق الى أن وقع عليه حريق في سنة ٤٦١ هـ فأذهب بعض بهجته ، وهذا ماكان في صفته ، قال أبو المطاع بن حمدان في وصف دمشق :

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها ... فلي بجنوب الغوطتين شجون
وما ذقت طعم الماء إلا استخفني ... إلى بردى والنيربين حنين
وقد كان شكي في الفراق يعوقني ... فكيف أكون اليوم وهو يقين؟
فوالله ما فارقتكم قاليا لكم ... ولكن ما يقضى فسوف يكون

وقال الصنوبري :

صفت دُنيا دمشق لقاطنيها ... فلست ترى بغير دمشق دنيا
تفيضُ جداولُ البِلَّورِ فيها ... خلالَ حدائقٍ يُنْبِتنَ وَشْيا
مكلّلةٌ فواكههنَّ أبهى الـ ... ـمناظر في مناظرنا وأهيا
فمن تفّاحةٍ لم تَعْدُ خداً ... ومن أترجَّة لم تعدُ ثديا

وقال البحتري :

أمّا دمشقُ فقد أبدتْ محاسنَها ... وقد وفى لك مُطريها بما وعدا
إذا أردتَ ملأتَ العينَ من بلدٍ ... مُستحسنٍ وزمانٍ يشبهُ البلدا

يُمسي السحابُ على أجبالها فرقاً ويصبحُ النبتُ في صحرائها بَدَدا
فلستَ تُبْصرُ إلا واكفاً خَضِلاً أو يانعاً خَضِراً أو طائراً غَرِدا
كأنما القَيْظُ ولّى بعد جيئته أو الربيعُ دنا من بعد ما بَعُدا

وقال أبو محمّد عبد اللّه بن أحمد بن الحسين بن النقّار يمدح دمشق:

سقى اللّهُ ما تحوي دمشقُ وحيّاها فما أطيبَ اللذاتِ فيهاوأهناها
نزلنا بها واستوقفتنا محاسنٌ يحنُّ إليها كلُّ قلبٍ ويهواها
لبسنا بها عيشاً رقيقاً رداؤه ونلنا بها من صفوة اللهو أعلاها
وكم ليلةٍ نادمتُ بدرَ تمامها تقضَّت وما أبقت لنا غير ذكراها
فآهاً على ذاك الزمان وطيبه وقلَّ له من بعده قولتي واها
فيا صاحبي إمّا حملتَ رسالةً إلى دارِ أحبابٍ لها طابَ مغناها
وقُلْ ذلك الوجدُ المبرِّحُ ثابتٌ وحُرمةُ أيّام الصِبا ما أضعناها
فإن كانت الأيامُ أنْسَتْ عهودَنا فلسنا على طول المدى نتناساها
سلامٌ على تلك المعاهدِ إنّها مَحَطٌّ صباباتِ النفوسِ ومثواها
رعى اللّه أيّاماً تقضَّت بقربها فما كان أحلاها لديها وأمراها

وقال آخر في ذمّ دمشق[1]:

---

(١) خمسة أبيات في قدح دمشق وجدنا فيها من الرقاعة والفحش ما يتنافى مع الذوق السليم فأسقطناها.

قال : ولما ولي عمر بن عبد العزيز ، رضي الله عنه ، قال : إني أرى في أموال مسجد دمشق كثرة قد أنفقت في غير حقها ، فأنا مستدرك ما استدركت منها فرادُّه الى بيت المال . أنزعِ هذا الرخام والفسيفساء ، وأنزع هذه السلاسل وأصيِّر بدلها حبالاً . فاشتد ذلك على أهل دمشق ، حتى وردت عشرة رجال من ملك الروم الى دمشق فسألوا أن يؤذن لهم في دخول المسجد ، فأذن لهم أن يدخلوا من باب البريد ، فوكّل بهم رجلاً يعرف لغتهم ويستمع كلامهم وينهي قولهم الى عمر من حيث لا يعلمون ، فمرّوا في الصحن حتى استقبلوا القبلة ، فرفعوا رؤوسهم الى المسجد فنكس رئيسهم رأسه واصفرّ لونه ، فقالوا له في ذلك فقال : إنا كنا معاشر أهل روميّة نتحدث أن بقاء العرب قليل ، فلما رأيت ما بنوا ، علمت أن لهم مدة لا بد أن يبلغوها . فلما أُخبر عمر بن عبد العزيز بذلك قال : إني أرى مسجدكم هذا غيظاً على الكفار . وترك ما همَّ به ، وقد كان رصّع محرابه بالجواهر الثمينة وعلق عليه قناديل الذهب والفضة .

وبدمشق من الصحابة والتابعين وأهل الخير والصلاح الذين يزارون في ميدان الحصى ، وفي قبلي دمشق قبر يزعمون أنه قبر أم عاتكة ، أخت عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، وعنده قبر يروون أنه قبر صهيب الرومي وأخيه ، والمأثور أنّ صهيباً بالمدينة . وأيضاً بها مشهد النارنج في قبلته قبر مسقوف بنصفين وله خبر مع علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، وفي قبلي الباب الصغير قبر بلال بن حمامة ، وكعب الأحبار ، وثلاث من أزواج النبي ، صلّى اللّه عليه وسلّم ، وقبر فضة جارية فاطمة ، رضي الله عنها ، وأبي الدرداء وأم الدرداء ، وفضالة بن عبيد ، وسهل بن الحنظلية ، وواثلة بن الأسقع ، وأوس بن أوس الثقفي ، وأم الحسن بنت جعفر الصادق ، رضي

الله عنه ، وعلي بن عبدالله ابن العباس ، وسلمان بن علي بن عبدالله بن العباس ، وزوجته أم الحسن بنت علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، وخديجة بنت زين العابدين وسُكينة بنت الحسين ، والصحيح أنها بالمدينة ، ومحمد بن عمر بن علي بن أبي طالب . وبالجابية قبر أويس القرني ، وقد زرناه بالرَّقة ، وله مشهد بالإسكندرية وبديار بكر ، والأشهر الأعرف أنه بالرقة ، لأنه قتل فيما يزعمون مع علي بصِفّين . ومن شرقي البلد قبر عبد الله ابن مسعود ، وأُبيّ بن كعب . وهذه القبور هكذا يزعمون فيها ، والأصح الأعرف الذي دلّت عليه الأخبار أن أكثر هؤلاء بالمدينة ، مشهورة قبورهم هناك ، وكان بها من الصحابة والتابعين جماعة غير هؤلاء ، قيل : ان قبورهم حُرثت وزُرعت في أول دولة بني العباس نحو مائة سنة ، فدرَست قبورهم فادّعى هؤلاء عوضاً عما درس . وفي باب الفراديس مشهد الحسين بن علي ، رضي الله عنهما ، وبظاهر المدينة عند مشهد الخضر ، قبرمحمد بن عبدالله بن الحسين بن أحمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، رضي الله عنه ، وبدمشق عمود العُسر في العلبيّين يزعمون أنهم قد جرَّبوه ، وعمود آخر عند الباب الصغير في مسجد يُزار وينذر له .

وبالجامع من شرقيه مسجد عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، ومشهدعلي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، ومشهد الحسين وزين العابدين . وبالجامع مقصورة الصحابة وزاوية الخضر ، وبالجامع رأس يحيى بن زكرياء ، عليه السلام ، ومصحف عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، قالوا : انه خطّه بيده . ويقولون : إنَّ قبر هود ، عليه السلام ، في الحائط القبلي ، والمأثور أنه بحضرمَوْت ، وتحت قبة النسر عمودان مُجزّعان زعموا أنهما من عرش بلقيس ، والله أعلم . والمنارة الغربية

بالجامع هي التي تعبّد فيها أبوحامد الغزالي وابن تُومَرْت ملك الغرب ، قيل إنها كانت هيكل النار وإن ذؤابة النار تطلع منها ، وسجد لها أهل حَوْران . والمنارة الشرقية يقال لها : المنارة البيضاء التي ورد أن عيسى بن مريم ، عليه السلام ، ينزل عليها ، وبها حجر يزعمون أنه قطعة من الحجر الذي ضربه موسى بن عمران ، عليه السلام ، فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً . ويقال إن المنارة التي ينزل عندها عيسى ، عليه السلام ، هي التي عند كنيسة مريم بدمشق . وبالجامع قبة بيت المال الغربية ، يقال : إن فيها قبر عائشة ، رضي الله عنها ، والصحيح أن قبرها بالبقيع . وعلى باب الجامع المعروف بباب الزيادة قطعة رمح معلقة يزعمون أنها من رمح خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ، وبدمشق قبر العبد الصالح محمود بن زنكي ملك الشام ، وكذلك قبر صلاح الدين يوسف بن أيوب بالكلاّسة في الجامع .

وأما المسافات بين دمشق وما يجاورها فمنها إلى بعلبك يومان ، وإلى طرابلس ثلاثة أيام ، وإلى بيروت ثلاثة أيام ، وإلى صيدا ثلاثة أيام ، وإلى أذرعات أربعة أيام ، وإلى أقصى الغوطة يوم واحد ، وإلى حوران والبَثَنيّة يومان ، وإلى حمص خمسة أيام ، وإلى حماة ستة أيام ، وإلى القدس ستة أيام ، وإلى مصر ثمانية عشر يوماً ، وإلى غزة ثمانية أيام ، وإلى عكا أربعة أيام ، والى صور أربعة أيام ، و إلى حلب عشرة أيام .

وممن يُنسب إليها من أعيان المحدّثين عبد العزيز بن أحمد بن محمد بن سلمان بن ابراهيم بن عبد العزيز أبومحمد التميمي الدمشقي الكتاني الصوفي الحافظ ، سمع الكثير وكتب الكثير ، ورحل في طلب الحديث ، وسمع بدمشق أبا القاسم صدقة بن محمد بن محمد القرشي .

وتمام بن محمد، وأبا محمد بن أبي نصر. وأبا نصر محمد بن أحمد بن هارون الجندي. وعبد الوهاب بن جعفر الميداني وغيرهم، ورحل إلى العراق فسمع محمد بن مخلد، وأبا علي بن شاذان وخلقاً سواهم، ونسخ بالموصل ونصيبين ومنبج كثيراً، وجمع جموعاً، وروى عنه أبو بكر الخطيب، وأبو نصر الحميدي، وأبو القاسم النسيب، وأبو محمد الأكفاني وأبو القاسم بن السمرقندي وغيرهم، وكان ثقة صدوقاً، قال ابن الأكفاني: ولد شيخنا عبد العزيز بن الكتاني في رجب سنة ٣٨٩، وبدأ بسماع الحديث في سنة ٤٠٧، ومات في سنة ٤٦٦، وقد خرّج عنه الخطيب في عامة مصنفاته، وهو يقول: حدثني عبد العزيز بن أبي طاهر الصوفي.

وأبو زرعة عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان بن عمرو البصري الدمشقي الحافظ المشهور شيخ الشام في وقته، رحل وروى عن أبي نُعيم، وعفان، ويحيى بن معين وخلق لا يحصون، وروى عنه من الأئمة أبو داود السجستاني وابنه أبو بكر بن أبي داود، وأبو القاسم بن أبي العقب الدمشقي، وعبدان الأوزاعي، ويعقوب بن سُفيان الفَسَوي، ومات سنة ٢٨١.

ويُنسب اليها من لايحصى من المسلمين.

وألّف لها الحافظ ابن عساكر تاريخاً مشهوراً في ثمانين مجلدة.

وممن اشتهر بذلك فلا يعرف إلا بالدمشقي، يوسف بن رمضان ابن بندار أبو المحاسن الدمشقي الفقيه الشافعي، كان أبوه قُرْقُوبيّاً من أهل مراغة، وولد يوسف بدمشق وخرج منها بعد البلوغ إلى بغداد، وصحب أسعد الميهني وأعاد له بعض دروسه، ثم ولي تدريس النظامية ببغداد مدة،

وبنيت له مدرسة بباب الأزج ، وكان يذكر فيها الدرس ، ومدرسة أخرى عند الطُّيوريّين ورحبة الجامع ، وانتهت اليه رياسة أصحاب الشافعي ببغداد في وقته ، وحدّث بشيء يسير عن أبي البركات هبة الله بن أحمد البخاري ، وأبي سعد اسماعيل بن أبي صالح ، وعقد مجلس التذكير ببغداد ، وأرسله المستنجد الى شِمْلَةَ أمير الأشتر من قُهستان ، فأدركته وفاته وهو في الرسالة في السادس والعشرين من شوال سنة ٥٦٣ .

معجم البلدان، نشرة فستنفلد، ٢ : ٥٨٧ - ٥٩٨

معجم البلدان

للشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله
الحموي الرومي البغدادي

المجلد الأول

دار صادر
للطباعة والنشر

دار بيروت
للطباعة والنشر

بيروت
١٣٧٤ هـ ١٩٥٥ م

- ٣٨ -

الجوبري
عبد الرحيم بن عمر
(توفي بعد ٦٦٣ هـ/ ١٢٦٥م)

زين الدين عبد الرحيم بن عمر الشافعي الجوبري الدمشقي ، نسبته إلى قرية جَوْبَر شرقي دمشق . لا يُعرف تاريخ ولادته ولا وفاته ، ولا تفيد المصادر العربية عن سيرة حياته أي شيء ، والمعلومات الوحيدة عنه هي المستقاة من مؤلفاته القليلة . ومن ذلك يتضح لنا أن الجوبري عالم مؤلّف درس دراسة مستفيضة ، وعاش عيشة العالم المتجوّل في جميع بلاد الإسلام حتى بلغ الهند ، وسافر كثيراً في النصف الأول من القرن السابع الهجري ، فقد زار مصر كما يذكر في كتابه مرات عدّة عام ٦٠٧هـ وعام ٦١٧هـ و عام ٦٢٣هـ و ٦٢٦هـ ، كما زار آمد وأنطاكية ثم حرّان عام ٦١٣هـ ، والرّها عام ٦١٦هـ ، وساحل جدّة والحجاز واليمن والصعيد وعيذاب وجال في المغرب وتونس وكذلك الهند وهندبار .

وفي عام ٦٢٩هـ قصد الجوبري بلاط الملك الأرتقي مسعود ابن مودود صاحب آمد وحصن كيفا الذي ولي الحكم عام ٦١٨هـ أو ٦١٩هـ ، وأقام لديه مدّة فكان يتردّد على مجلسه . وذكر أن الملك المسعود طلب

إليه تأليف كتاب له عن أسرار أرباب الصنائع والعلوم ، على غرار كتاب ابن شهيد المغربي المشتهر آنذاك : «كشف الدك وإيضاح الشك» ، فقام بوضع كتابه المعروف بكتاب «المختار في كشف الأسرار وهتك الأستار» على ثلاثين فصلاً ، سجّل فيه ما خبر من تدليس وحيل من صادفهم في رحلاته من الرحّالين والدجّالين وأصحاب الكيمياء والصيارفة ، فكان هذا الكتاب بحق كنزاً لمن يرغب بدراسة عادات أهل ذلك العصر كما يرى المستشرق الألماني بروكلمان .

وكان البغدادي في كتابه «هدية العارفين إلى أسماء المؤلفين» قد ذكر أن الجوبري فرغ من تأليف كتابه عام ٦٦٣ هـ، وهذا وهم على اعتبار أن زيارة المؤلف لبلاط الملك المسعود كانت عام ٦٢٩ هـ، وفي نفس ذلك التاريخ طلب إليه تصنيف الكتاب، فلا يستقيم أن يكون أمضى في تأليفه ٣٤ عاماً .

وأول طبعة للكتاب ظهرت في دمشق عام ١٣٠٢هـ ، وأعقبتها طبعة أخرى في اسطنبول دون ذكر لتاريخ الطبع ، ثم أعيد طبعه في القاهرة مرتين أولاهما عام ١٣١٦هـ والثانية مغفلة التاريخ (حوالي ١٩٠٨م) . وأخيراً صدرت في بيروت عام ١٩٩٢ طبعة تجارية منقولة ومبتورة المتن . وله من المؤلفات أيضاً : «الصراط المستقيم في علم التنجيم» و«كشف أسرار المحتالين ونواميس الخيّالين» .

قمنا بنقل بعض النصوص المتعلقة بدمشق من كتاب المختار ، بالاعتماد على طبعة دمشق القديمة وطبعة القاهرة الأولى ، بعد تصحيح ما بهما من أغلاط . ولهذه النصوص أهمية خاصة لأن مؤلفها ذكر فيها بعض مشاهداته الشخصية بدمشق آنذاك ووقائع مما لا نجد له مثيلاً لدى مؤرخي

ذلك العصر ، ومنها الحكاية الطريفة التي جرت للسلطان نور الدين مع العجمي، والتي انفرد الجوبري بذكرها دون غيره من المؤرخين .

وقُصارى القول أن هذا الكتاب يبقى واحداً من أطرف وأثمن مصادر تراثنا في التاريخ الاجتماعي، وهو ما زال ينتظر حظه للظهور في طبعة علمية مستوفية لشروط النشر والتحقيق العلمي .

المصادر :

كتاب المختار للجوبري ، مقدمة المؤلف

دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية ، مادة الجوبري لبروكلمان

هدية العارفين للبغدادي ١ : ٥٢٤

وصف دمشق في القرن السابع عشر للإيبش ٦٦ ، ١٠٩

من فصل كشف أسرار الذين يدّعون المشيخة

وقد ظهر بدمشق رجل يُقال له المقصود فادّعى المشيخة ، وكان يُظهر الثمار في أوقات لا يمكن أن توجد فيها . فلمّا استفحل أمره ادّعى النبوة وأنه عيسى بن مريم ، فربط جماعة من كبار البلد ومن جملتهم أهل سوق المرحّلين وأهل المِزَّة وكفرسُوسه وغيرهم . فلمّا كثر الرَّهج فيه سكن في موضع يُعرف بالصّفاف ، وذلك في دولة الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، وذلك مشهور بدمشق .

المختار في كشف الأسرار ٢٤

وقد كان ظهر بدمشق رجل يعرف بالشيخ علي ، وسكن أرض حوران وادّعى المشيخة وتبعه خلق كثير . وكان أصل مذهبه أنه يقول لمن يريد أن يتتلمذ له : لا تمنع النفس شيئاً من حظّها ، فمهما طلبتْ نفسك فهو حقّها فابلُغها ذلك ! . وله أحاديث عجيبة . وهذا الرجل ظفر به السلطان الأشرف وحبسه في حصن عرقا ، فأقام حتى مات السلطان . والأمور يطول شرحها .

المختار في كشف الأسرار ٣٠

من فصل كشف أسرار الرهبان

ومن ذلك أيضاً الكنيسة التي بصيدنايا ، وهي قرية من عمل دمشق، ولهايوم تجتمع الناس فيه ، ولهم فيها بركة الزيت يؤخذ منها في ذلك اليوم شيء عظيم للبركة . وقد ارتبط عليها جميع الطوائف ، وذلك أنهم أخذوا قرمة نخلة ، ثم نزلوا عليها بالمدقات حتى صارت مثل السفنج، ثم غشوا عليها بثوب شعر مثل المنخل ، ثم وضعوها في ذلك الموضع . فإذا جاء العيد الذي لها سقوا تلك القرمة بالزيت ، ثم ثقّلوها بشيء يوازن بروز ذلك ، فتبقى ذلك اليوم ترشح طول النهار . والناس يأخذونه للبركة وإزالة الأمراض ، فصار لها ذكر وشأن .

المختار في كشف الأسرار ٤٠

من فصل كشف أسرار أهل الكاف
وهي الكيمياء

ومن أعجب ما صادفته وأغرب ما وقفت عليه ، أنه كان لي بدمشق صديق نصراني صائغ يُعرف بابن ميسرة . وبينما هو في بعض الأيام جالس في الدكّان إذ قد أتى إليه رجل متميزٌ فسلّم عليه ثم ناوله سبيكة فضّة مقدار

ثلثماية درهم، وقال : لعلّ منادياً يبيع لي هذه السبيكة . فأخذها منه وقال يا سيّدي على الحِمى ؟ قال : نعم ، وعلى الرُّوباص . وأعطاها للمنادي فنادى عليها وباعها المائة بمائة وعشرين . هذا وقد أصعده إلى الدكان وأجلسه في جانبه ، فلمّا قبض الثمن دفع للمنادي أجرة وافرة ، ثم شال خمسة دراهم وقال للصائغ : سيِّرلنا بعض أجراك يشتري لنا بهذه شيئاً ناكله بحسب الممالحة ، والحرام يلزمني لا بدّ من ذلك . فبعث واشترى شيئاً من المأكول فأكلوا وتحدّثوا ساعة ، ثم نزل وقد جعل تحت نطع الصايغ عشرة دراهم .

وغاب أياماً ، ثم عاد وسلّم وصعد وقد فرح به الصائغ ، فتحدّثوا ، ثم طالع سبيكة أكبر من الأولى ، فقال : ادفعها للمنادي ، فدفعها له فبيعت المائة مائة وخمسة وعشرين . فقال للصائغ : إن كنتَ تحتاجها فخذها وزناً بوزن فأخذها منه . ثم عمل مثل المرّة الأولى ، فمنعه من ذلك، فقال : يا فلان لأيّ سبب تفرّط بهذه الفضّة ؟ فقال له : يا هذا هذه السّبيكة تكلف عليّ المائة درهم ونصف ، فما عسى أن يروح منها ؟ . . فلمّا سمع الصائغ ذلك عظم في عينيه .

ثم غاب أياماً وأتى ولم يصطحب معه سبيكة ، فسلّم وصعد فتحدّثوا . وكلّما عب شيء مثل حلاوة أو غيرها يشتري ويدفع القيمة للبائع كما يطلب ، وياكل هو ومن في الدكان . فأقام يتردّد أياماً ولم يصحب معه شيئاً من السبائك ، فسأله الصائغ فقال: والله كنت قد عملتُ إكسيراً وفرغ . . فلمّا سمع الصائغ ارتبط ، ثم تحدّث معه ساعة ، وقال : أشتهي منك أن تجبر قلبي وتاكل عندي خبزاً وملحاً في داري . فقال : ما أكلفك! فأقسم عليه ، فقال : إذا كان ولا بدّ من ذلك فهذه عشرون درهماً اعمل لنا

بها شيئاً نأكل ، والحرام يُلزمني لا بدّ من ذلك . ثم تواعدوا إلى الغد .

فلمّا كان الغد جاء الرجل إلى الدكان فوجد ابن الصائغ قاعداً في الانتظار ، فأخذه وراح به إلى الدار ، ولمّا استقر به الجلوس قدّم شيئاً كثيراً فأكلوا ، ثم أحضروا حلْوا وأكلوا . فقال الصائغ : يا سيّدي أما تعمل إكسيراً ؟ فقال : يا أخي عندي نفقة كثيرة وما أنا محتاج إلى عمله في هذا الوقت ، وليس لي في هذه البلدة مكان ولا صاحب ، وأنا وحدي ما أقدر أدبّر هذا . فقال له الصائغ : هذه القاعة هي ملكي ومالي فيها نساء ولا حريم ، وإنما هي برسم صديق أو ضيف يأتيني ، وأنا أخليها لك وأساعدك وأخدمك ، وابني يكون في الدّكان ، وما تحتاج أحضره لك . فقال : أكثر ما أريد عشرة دراهم أعملها إكسيراً ، ومتى صار يُعمل منه قناطير ، إلاّ أنه يريد تعباً وطول روح وأنا اليوم مالي همّة للعمل لأن عندي شيئاً أنفقه سنة وعشرة . ثم تمنّع عليه وهو يسأله ، ثم مسكه تلك الليلة عنده وتمكّن منه بالحديث ولم يزل يُلحّ عليه حتى تقرّر بينهم الأمر . ثم تحالفوا على وفاء العهد وأن الصائغ يقنع من الإكسير بأيسر ما يكون والباقي له ، فقال له : بل أنا أقنع منه بمثقال وخُذ أنت الباقي . ففرح الصائغ ، وحسب أنه يتعلّم الإكسير .

ثم اتفقوا إلى يوم واجتمعوا ، واشتروا الحوايج ووزن الرجل ثمنها ، ولم يخلّ الصائغ يخسر شيئاً . فلمّا حصلت الحوائج وسحقوا ما أمكن سحقه وهيأوا حوائجهم ، قال الرجل للصائغ : تريد أن تعمل إكسير ذهب أو فضّة ؟ فقال : من ذا شيئاً ومن ذا شيئاً ، فقال : اقسم هذه الحوائج نصفين ثم هات ما أمكن من الذهب والفضّة حتى ننقعها في ماء هذه الحوائج ثلاثة أيام ، ثم ناخذ ماءها ونسقي به الأدوية ، الذهب للذهب

والفضّة للفضّة .

فعمد الصائغ إلى ستمائة دينار فدفعها له ، فربطها في منديل أمامه ثم جعلها في وعاء فيه ماء ، ثم قال : هات فضّة . فأحضر له ألفين وخمسمائة درهم ، ففعل بها كما فعل بالذهب . ثم أقاموا سبعة أيام يخدمون تلك الحوائج . ثم بعد ذلك قال له : قُمْ واطلع إلى جبل المِزَّة واجمع من الحصا الذي يُعرف ببُزاق القمر مقدار رطل واحد وتعال . فقام الصائغ وصعد إلى الجبل ينقّي بُزاق القمر قدر حاجته . وأما ذلك الرجل فإنه فتح صرّة الذهب والفضّة وأخذهم ، ووضع مكانهم فلوساً وقعد . فلمّا جاء الصائغ بالبزاق قال : هذا يريد يتكلّس في أتون الزُّجاج ليلة ، ثم يُخدم نصفه بماء الذهب ونصفه بماء الفضّة ، وإذا تكلّس اقسمه واخدمه ، وها أنا خارج لصلاة الجمعة . ومضى واستقبل الدرب فلم يطلع له خبر .

فأقام الصائغ ينتظره مدّة ثلاثة أيام لم يفتح صرّة الذهب ولا الفضّة ، فقال له ابنه : قد يكون أخذ الذهب وراح ! فقال : ما أجهلك . . وحقّ المسيح يقدر أن يعمل خزائن وأموالاً ، وهذا غير محتاج إلى ذهبنا . فقال له ابنه : كُن عاقلاً وافتقد الذهب . فقال : أنت قصدك تفسد علينا الشغل ؟ فقال : افتقد الذهب وخلّ عنك الطمع . فلم يفعل ، فقام ابنه وخالفه وفتح الصرّة وقد قارنت له ولأبيه النحوس ، وإذا بالذهب والفضّة قد صار فلوساً ! . فلطما على الرؤوس حتى ذهبت منهما النفوس . فقال : أنت ما سمعت مني الخبر . فابصر هذا الدهاء والمكر والحيل لهذه الطائفة .

المختار في كشف الأسرار ٦٤ – ٦٨

[حكاية العجمي والسلطان نور الدين]

ومن أعظم ما وقفت عليه وأظرف ما جرى للسلطان الملك العادل نور الدين بن زنكي رحمه الله تعالى ، حديثٌ يُكتب بماء الذهب .

وذلك أن بعض العجم جاء إلى دمشق فأخذ ألف دينار مصرية فبَرَدَها ، ثم أخذ لها دقّ الفحم وعقاقبر وطحن الجميع ثم عجنه بغراء السمك ، وجعله بنادق وجفّفه جفافاً بالغاً . ثم لبس دِلقاً وتزيّا بزيّ الفقراء وجعل تلك البنادق في مخلاة . ثم أتى إلى بعض العطّارين فقال : تشتري مني هذا ؟ فقال : وأيّ شيء هذا ؟ ، قال : طَبَرْمَك خُراساني! (وهذه كلمة مصحفة معناها طترمك)، قال العطار : وهذا لأيّ شيء ينفع ؟ ، قال: ينفع من السموم ، ويدخل في جميع الأدوية التي تدفع الأخلاط ، وله نفع عظيم . ولولا أن أدركتني الحاجة ولم أقدر على حمله ما بعته لأنه يساوي وزناً بوزن عند من يعرفه ! فقال العطار : بكم هو ؟ قال : بعشرة دراهم . قال له العطار : بثلاثة . فأبى ، ثم اشتراه منه بخمسة دراهم ، وجعله في برنيّة . وأخذ العجمي الدراهم وراح . فانظر إلى هذا الرجل وما أجسره ، باع ألف دينار بخمسة دراهم فهذه جسارة عظيمة ، وقد قال القائل: من خاطر بنفيس ملك نفيساً .

فلمّا انفصل عنه لبس بزّة حسنة من ملابس الوزراء ، ورتّب خلفه مملوكاً ونزل أكبر دار تصلح لوزير ، وصار يمشي في الجامع ويتعرّف بالأكابر من أهل البلد ، ويعمل السماعات ويخسر جملة ، ويدّعي الوصول في علم الصَّنعة وأنه يقدر أن يعمل في يوم واحد جملة من المال . وشاع ذلك في دمشق ، فسأله الكبراء أن يعمل عندهم ، فكان يقول : ما أنا

محتاج إلى أحد ، فالذي يريدني أعمل عنده أي شيء حاجتي إليه ؟ وأنا قد آليتُ أن لا أعمل شيئاً إلاّ لملك ، ومع هذا فإني لا أعمل شيئاً حتى يحلف لي أن مهما عملته لا ينفقه إلاّ في سبيل الله .

فاتّصل خبره بالوزير ، فأحضره وآنسه ثم ذاكَرَهُ بشيء من ذلك ، فقال : قد كان من أمري أني حلفتُ أن لا أعمل شيئاً إلاّ لملك ، بعد أن يعاهدني أنه لا ينفق منه شيئاً إلاّ في سبيل الله تعالى . فإن حصل هذا الشرط عملتُ وإلا فلا سبيل إلى عمل شيء .

ولما سمع الوزير ذلك افتكر وقال : والله هذه سعادة للمسلمين وللسلطان ، هذه البلاد كلها للأفرنج إلى بانياس ، وكل يوم الغارات تصل إلى ديارنا ، فاذا عمل شيئاً نفتح به هذه البلاد وهذه نعمة عظيمة! . ثم قال: أعرّف السلطان ؟ قال : نعم ، إلاّ أنك تجمع بيني وبينه حتى أستوثق منه باليمين . ثم ركب الوزير فاختلى بالسلطان ، ثم عرّفه ذلك ، فقال : والله قد هجس في فكري أنه لا بدّ من شيء يوصلنا إلى قلع شأن هؤلاء الملاعين . فأحضر الرجل في غاية الكرامة .

فأخذ له خلعة حسنة وبغلة بسرج ملجمة ، فألبسه الخلعة وأركبه إلى جانبه ، ثم صعد واجتمع به السلطان . ثم تحدّثا فقال : أصحيح ما قاله الوزير عنك ؟ قال : نعم يا مولانا ، لكن كل من ادّعى هذه الدرجة فهو كذّاب نصّاب دكّاك ، بل أنا شَرطي مع السلطان أن لا أمسّ بيدي شيئاً ، بل أكون بعيداً من مولانا وأقول له : افعل كذا واصنع كذا ، ومولانا يفعل . فلمّا تقرّر الأمر على هذه القاعدة قال السلطان : باسم الله اشرع على بركة الله .

فأخذ العجمي ورقة وكتب لهم استدعاء الحوائج ، من العقار

الفلاني كذا [ومن العقار الفلاني كذا] ، ثم قال : من الطَّبَرْمَك الخُراساني مائة مثقال . ثم دفع الورقة لأستاذ الدار ، وقال له : أحضر هذه الحوايج . فأحضر الجميع إلاّ الطَّبرمك ، فقال إنّه ما وُجد عند العطّارين . فقال العجمي : في مثل دمشق يعدم الطَّبرمك ؟ فقال السلطان : ما لنا شيء يُغني عنه ؟ فقال : لا والله ، ولا تخلو دمشق منه . بل إن مولانا السلطان يتقدّم إلى المحتسب بتفتيش دكاكين العطّارين ، فإذا كان الغد ركبت أنا وهو وشهود عدول نفتح حانوتاً حانوتاً نفتّشه ، فلا بدّ أن نجده . فقال : نعم .

وكان المحتسب يُقال له القائد ، فأرسلوا إليه ففعل ذلك ، وركب العجمي من الغد وأخذ معه العدول ونزلوا مع القائد ، ثم جعلوا يفتحون دكاكين العطّارين حتى انتهوا إلى دكّان الذي باعه العجمي الطّبرمك . فقعد الشهود والمحتسب ، ونزل صاحب الدّكان وجعل يضع قدّامهم برنيّة بعد برنيّة ، إلى أن جاءت البرنيّة التي فيها الدكّة . فلمّا رآها العجمي تهلّل وجهه فرحاً وقال : هذا السلطان سعيد ! ثم قال للشهود والمحتسب : اختموا عليها بختومكم ثم ابعثوا بها إلى القلعة . ففعلوا ذلك .

فقال لصاحب الدّكان : من أين لك هذه ؟ فقال : ابتعتها من رجل فقير . قال : بكم ؟ قال : بخمسة دراهم . فأخذ منديله وقال : هذه عشرة دراهم من عندي ، ولا تبطل شغلك ولا تطلع إلى الديوان .

ثم ركبوا جميعهم وطلعوا إلى القلعة وعرّفوا السلطان . وقال له العجمي : هذه أوّل سعادتك ، هذا يعمل شيئاً كثيراً ، فيشرع مولانا من الليلة وبالله التوفيق .

فلمّا أمسى عليهم المساء استدعوا ما يحتاجون إليه من الآلة ، ثم قعد السلطان وخادم في صفّة والعجمي قد اعتزل عنهم في ناحية . ثم قال :

يزن مولانا من العقار الفلاني كذا ومن الآخر كذا ، وجعل يعدّ العقاقير جميعها ، ثم قال : ومن الطَّبرمك مائة مثقال . ففعل ذلك حتى احترقت جميع تلك الحوايج ودار الذّهب . ثم قال : اقلب على بركة الله تعالى . فقلب البودقة فنزلت سبيكة ذهب مصري لا يكون شيء أحسن منه ، فلمّا نظر السلطان إلى ذلك حار ودهش ثم قدّم له تلك الليلة شيئاً يساوي ألف دينار .

ولم يزالوا يعملون حتى فرغ ذلك الطَّبرمك ، فطلبوه فلم يجدوه . فقال السلطان : كيف نعمل بالطبرمك ؟ فقال العجمي : نبعث نجيب منه من خُراسان ، فإنه معدن في الجبل في مغارة إذا أراد إنسان أن يحمل منه ألف حمل جمل . وأنا دخلتُ إليها وأخذتُ منها شياً كثيراً وعندي في داري منه مقدار قنطار . فلمّا سمع السلطان قوله قال : ما لهذا الأمر غيرك ، فإن تعذّر الوصول إلى المغارة فاحمل الذي عندك ، وإن وصلت إلى المغارة فاحمل مهما قدرت . وأنا أكتب معك كتاباً إلى السلطان الأعظم لايمنعك أحد من ذلك .

فلمّا سمع العجمي قال : إن رأى السلطان أن يبعث غيري ، فأنا قد طابت لي دمشق وخدمة السلطان ، قال : لا غِنا عن رواحك ، فإن لك في ذلك أعظم الأجر . ولم يزل عليه حتى أنعم بالسفر ، فلمّا شرع يتجهّز جهّزه بستين حمل منها شُرُب عمل تنيس ودمياط ومن عمل اسكندريّة ، ومنها سكر بالأحمال والجمال والجمّالين ، ثم أعطاه خيمة ومطبخاً وفرّاشين ونفقة الطريق إلى بغداد وإلى العجم ، وكتب معه كتباً إلى سائر البلاد بالمراعاة والخدمة والإعانة . ثم خرج السلطان وأرباب الدولة إلى وداعه ، وراح وقد وصل هذا إلى الحجر المكرّم وحصل له الإكسير

الأعظم .

ومن أعجب ما في هذه القضيّة أنه كان بدمشق رجل يكتب أسماء المغفّلين المُخارفين ، فسمع بهذه القضيّة ، فكتب في رأس جريدته السلطان نور الدين محمود بن زنكي رأس المغفّلين . فشاع ذلك ولم يعلم أحد باطن القضيّة ، حتى قيل للسلطان : قد كتبكَ شخصٌ رأسَ المغفّلين ، فقال : وأيّ شيء أبصر من تغفّلي حتى يكتب اسمي ؟ هاتوه ! فنزلت إليه الجنداريّة وقالوا له : باسم الله ، كلّم السلطان . فأخذ الجريدة في كمّه ومشى معهم . فلمّا وقف أمام السلطان قال : أنت فلان الذي تكتب أسماء المغفّلين؟ ، قال : نعم ، قال : وكتبتني ؟ ، قال : نعم ، وهذا اسمك . . ثم أظهره . فقال: وما بان لك من تغفّلي حتى كتبتني ؟ ، فقال : ومن يكون أغفل منك ؟ جاءك عجمي نصّاب عمل عليك حيلة ودكّ عليك ألف دينار أخذ بها مال المسلمين وراح ! فقال : راح يأتي بطبرمك وكأنك به وقد جاء ومعه الطّبرمك نعمل منه أموالاً لا تُحصى . فقال له : يا خوند إن رجع العجمي وجاء محيتُ اسمك من الجريدة وكتبتُ اسمه ، وما يكون في الأرض أغفل منه ! . .

فلمّا سمع السلطان ذلك ضحك وقال : اعطوه شيئاً ينفقه عليه فأعطوه شيئاً وراح . وكان كلّما أفلس أخذ الجريدة ووقف على باب القلعة ، فإذا ركب السلطان فتح الجريدة ويقول : ما جاء ، وهذا اسم السلطان مكتوب ! فيضحك ، ويُطلق له شيئاً . فانظر إلى هذا الدكّ والجسارة على بيع ألف دينار بخمسة دراهم . فأقام السلطان على ذلك حتى مات والطّبرمك لم يأتِ .

المختار في كشف الأسرار ٦٨ - ٧٤

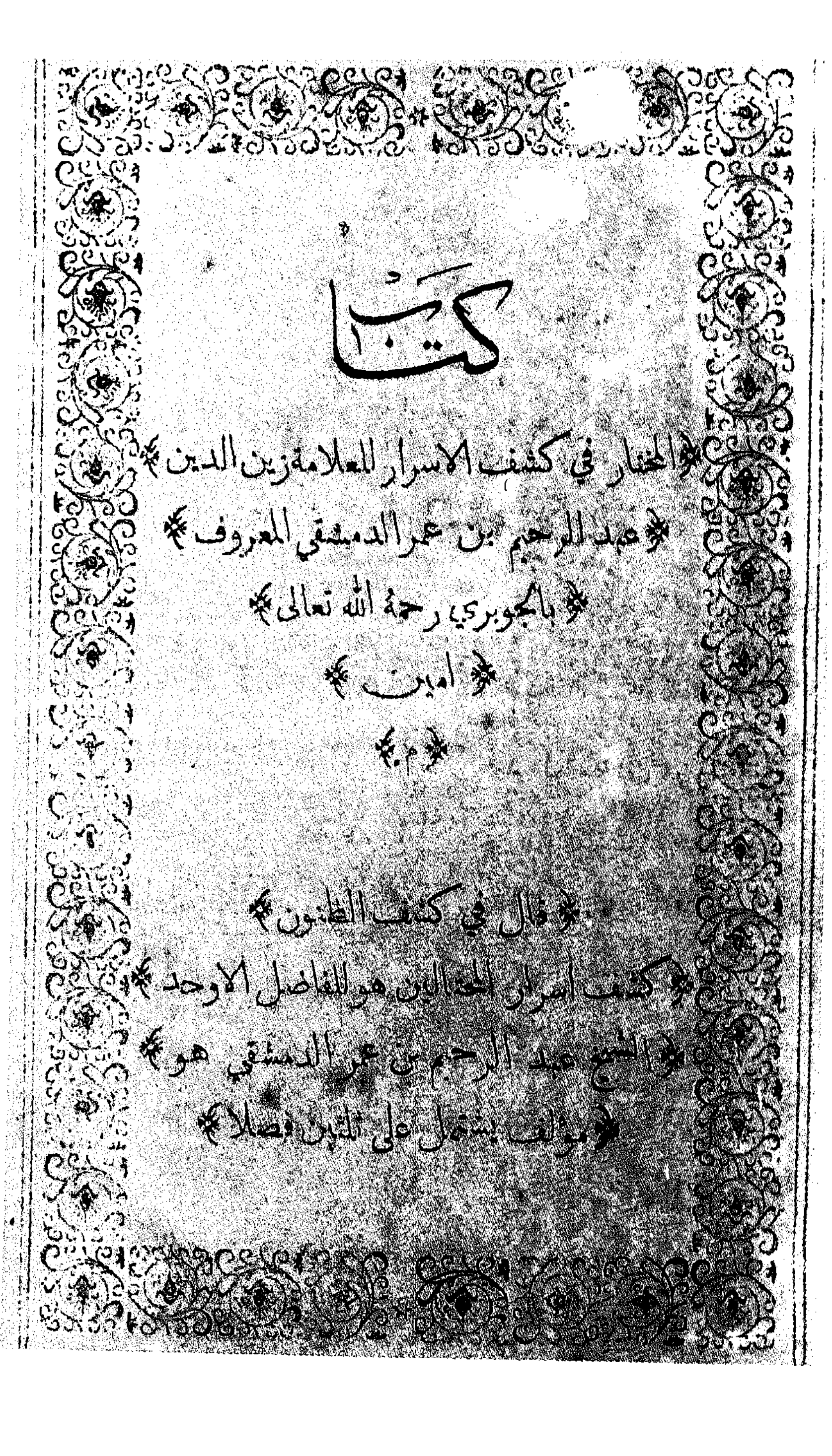
من فصل كشف أسرار الصيارف
والدكّ عليهم

ومنهم من يدكّ على الصيارف ، فاعلم أن هؤلاء لم يكن في الطوائف أرجل منهم ، وذلك أنهم يدكّون على من هم أشطر الطوائف . فإن الصّيارف يتعيّشون على كل الناس وهؤلاء يتعيّشون عليهم ، فهذه عين الشطارة .

وقد رأيت بدمشق رجلاً من أهل حلب يُعرف بجمال الدين يوسف بن النقّاش ، وهو متميّز وعليه حشمة ظاهرة ، ورأيته يدكّ على الصيارف . فإذا أراد ذلك أتى إلى الصيرفي ومعه دينار أو درهم ، فإن كان ديناراً يكون بُهْرُج ، وإن كان درهماً يكون نحاساً . ثم إنه يكون معه إما دينار أو درهم جيّد على قدر ما يريد أن يدكّ ، ويكون على نقد ذلك الزغل الذي معه . فيقف على الصيرفي وبدفع إليه الدينار الجيّد ، ويقول : إدفع لي بهذا دراهم . فيأخذ الصّيرفي الدينار ثم ينقده ، ويزنه ويدفع إليه الدراهم ، فيقول : كم وزنت ؟ فيقول : كذا وكذا ، فيقول : ما آخذ إلاّ كذا وكذا ، فيقول : ما أعطيك إلاّ هذا القدر ، فيقول : هات الدينار . فيناوله الدينار بمقدار ما يحصل في يده وقد جعله موضع الدينار البُهْرُج وخلّف له البهرج ، وقال : هات وهذا ناقص عن حقّي !

فيكون الصّيرفي قد وزن الدينار ونقده ، فياخذه ويرميه في صندوقه ويدفع له الدراهم طيّب القلب بوزنِه ونقدِه ، وكذلك الدرهم أيضاً ، فافهم ذلك ترشد .

المختار في كشف الأسرار ، ١٣٦ - ١٣٧



كتاب

المختار في كشف الاسرار للعلامة زين الدين

عبد الرحيم بن عمر الدمشقي المعروف

بالجوبري رحمه الله تعالى

امين

م

قال في كشف الظنون

كشف اسرار المحتالين هو للفاضل الاوحد

الشيخ عبد الرحيم بن عمر الدمشقي هو

مؤلف يشتمل على ثلثين فصلا

كتاب

المختار في كشف الاسرار العلامة
زين الدين عبد الرحيم بن عمر [illegible]
الدمشقي المعروف
بالجوبري رحمه
الله تعالى
آمين

ويليه الكتاب المسمى بالسحر الحلال في الالعاب السيماوية
وبعض فوائد صناعية مجربة

﴿قال في كشف الظنون﴾

﴿كشف أسرار المحتالين هو للفاضل الاوحد الشيخ عبد الرحيم بن
عمر الدمشقي وهو مؤلف يشتمل على ثلاثين فصلا﴾

- ٣٩ -

القزويني
زكريّا بن محمّد
(توفي ٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣ م)

زكريّا بن محمّد بن محمود القزويني، مؤرّخ وجغرافي كبير وقاضٍ فقيه، ولد بقزوين (في إيران) عام ٦٠٠ هـ، ورحل في شبابه إلى العراق والشام، وتولى قضاء الحلّة وواسط أيام المستعصم العبّاسي، ولعله بقي في منصبه حتى دخول التتار بغداد عام ٦٥٦ هـ. وكانت له صداقة وطيدة في الموصل مع ضياء الدين ابن الأثير، الكاتب الأديب المعروف، وتوفى القزويني عام ٦٨٢ هـ.

ألّف « آثار البلاد وأخبار العباد »، وهو كتاب جغرافي يعتمد على المشاهدة، وفيه معلومات غزيرة. وتلمح في مقدّمته إشارات إلى فلسفة العمران، مما سنجده فيما بعد مفصّلاً عند ابن خلدون.

نشر هذا الكتاب المستشرق الألماني ڤستنفلد Wüstenfeld في كوتنكن بألمانيا عام ١٨٤٨ - ١٨٤٩، وأعادت دار صادر طبعه في بيروت عام ١٩٦٠.

وللقزويني كتاب آخر اسمه «عجائب المخلوقات وغرائب

الموجودات»، وهو كتاب جغرافي طبيعي، وفيه عجائب السماء والفضاء والأرض. كان له أثر في الفن الإسلامي، لأنه فتح للفنّانين ميداناً للتصوير واسعاً، ومنه مخطوطات كثيرة بالعربية والفارسية مصوّرة بالمنمنمات .

ونشر هذا الكتاب ڤستنفلد أيضاً عام ١٨٤٩ في گوتنگن، كما ترجم إلى التركية والفارسية والألمانية والفرنسية، ثم نشر في القاهرة عدّة مرات، وأعيد نشره في بيروت عام ١٩٧٢ .

وكنا قد نشرنا بدمشق عام ١٩٨٣ من كتابي القزويني النصوص المتعلقة بالشام ودمشق وبعض أرباضها، وأضفنا إليها نصوصاً لشيخ الربوة وابن فضل الله العمري وابن طولون عن القصر الأبلق، وصدرت بعنوان: وصف دمشق في أيام الملك الظاهر بيبرس.

وللقزويني مؤلفات أخرى، منها «خطط مصر»، لم ينشر.

أما أسلوب القزويني في كتابته فهو طليّ ممتع، يمزج فيه بين الأوصاف الدقيقة للمشاهد الجغرافية والعمرانية، وبين الطرف والنوادر العجيبة (منها على سبيل المثال قصة بائعي السنانير ورهان الأكل في أردبيل، بكتابه آثار البلاد). وهذا ما يجعل كتبه كنزاً ثميناً من كنوز تراثنا الأدبي الجغرافي.

ولم يفت القزويني أن يخصّ دمشق بما يلائمها من ذكر ووصف في كتابيه المذكورين، وكان قد زارها مراراً، رغم أننا لا نعلم كم من المرات زارها ومتى كان ذلك. لكنه يخبرنا في كتابه «آثار البلاد» أنه زار دمشق سنة ٦٣٠ هـ، أيام سلطنة الكامل الأيوبي بمصر، وقابل بها المتصوّف المشهور محيي الدين بن عربي، وكان عمر القزويني إذ ذاك ثلاثين عاماً، ولا شك أنه زارها مرات أخرى فيما بعد. والملاحظ أن هذه الزيارة كانت قبل دخول

التتار لدمشق وتخريبهم لبعضها عام ٦٥٨ هـ.

وعلى ذلك يمكننا أن نعتبر وصف القزويني لدمشق صورة صادقة عنها، في الفترة التي تمتد بين أواخر عهد الأيوبيين وأوائل عهد المماليك، ومن ضمن ذلك فترة حكم السلطان الظاهر بيبرس الذي تميّزت دمشق في عهده بأهمية مدنية كبيرة، رغم أن العاصمة كانت القاهرة.

وقد نقلنا فيما يلي بعض النصوص التي كتبها القزويني في وصف الشام ودمشق وبعض أرباضها، في كتابيه «آثار البلاد» و«عجائب المخلوقات». وقد رجعنا في ذلك إلى طبعتي بيروت المنقولتين عن نشرتي ڤستنفلِد في گوتنكن.

المصادر:

تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوڤسكي ١/ ٣٦٠

مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجّد ١٨٥

الرحّالة المسلمون لزكي ١٢٦

حديث السندباد لفوزي ١١٠

جهود المسلمين في الجغرافيا لنفيس أحمد ٩٠

الأعلام للزركلي، ط٢، ٣/ ٨٠

وصف دمشق في أيام الملك الظاهر للإيبش ٥ - ٨

دمشق

دمشق قصبةُ بلاد الشام ، وجنةُ الأرض لما فيها من النّضارة وحُسن العمارة ، ونزاهة الرُّقعة ، وسعة البُقعة ، وكثرة المياه والأشجار ، ورخص الفواكه والثمار .

قال أبو بكر الخوارزمي : جنانُ الدنيا أربع : غوطة دمشق ، وصغد سمرقند ، وشعب بوّان ، وجزيرة الأُبُلّة . وقد رأيتُ كلّها ، فأفضلُها دمشق .

وأهل السيَر يقولون : إن آدم ، عليه السلام ، كان ينزل في موضع بها يُقال له الآن بيت الأبيات ، وحوّاء في بيت لِهيا ، وهابيل في مقرى ، وقابيل في قينية (١) .

وكان في الموضع الذي يُعرف الآن بباب الساعات ، عند الجامع ، صخرةٌ عظيمة كانت القرابين توضع عليها . فما قُبِل نزلت نارٌ أحرقته ، وما لم يقبل بقي على حاله .

وقتل قابيلُ هابيلَ على جبل قاسيون ، وهو جبل على باب دمشق . وهناك حجر عليه مثل أثر الدم يزعم أهل دمشق أنه الحجر الذي رضّ به قابيل رأس هابيل . وعند الحجر مغارة يُقال لها مغارة الدم لذلك .

---

(١) بيت الأبيات كانت قرية في سفح قاسيون، صار مكانها محلة طاحون الأشنان في بساتين أبي جرش شرقي ركن الدين اليوم. وبيت لهيا كانت قرية مكانها اليوم في حي القصاع. ومقرى كانت قرية في سفح قاسيون غربي بيت الأبيات. وقينية كانت قرية مكانها اليوم عند نهاية حي باب سريجة.

والمدينة الآن عظيمة ، ذات سور وخندق ، وقهندز (١) . والعمارات مشتبكة من جميع جوانبها ، والبساتين محيطةٌ بالعمارات فراسخ . وقلّما ترى بها داراً أو مسجداً أو رباطاً أو مدرسة أو خاناً إلاّ وفيها ماءٌ جار .

ومن عجائبها الجامع . وصفه بعض أهل دمشق فقال : هو أحدُ العجائب ، كامل المحاسن جامع الغرائب . بسط فرشه بالرخام ، وأُلّف على أحسن تركيب وانتظام ، أقدار فصوصه متفقة ، وصنعته موتلفة . وهو منزّه عن صور الحيوان إلى صور النبات ، وفنون الأغصان تجنى ثمرتها بالأبصار ، ولا يعتريها حوائج الأشجار ، والثمار باقية على طول الزمان ، مدركة في كل حين وأوان . لا يمسها عطش مع فقدان القطر ، ولا يصيبها ذبول مع تصاريف الدهر .

عمَره الوليد بن عبد الملك . وكان ذا همّة في أمر العمارات وبناء المساجد . أنفق على عمارته خراج المملكة سبع سنين ، وحمل اليه الدساتير بما أنفق عليه على ثمانية عشر بعيراً فلم ينظر اليها ، وأمر بإبعادها . وقال : هو شيء أخرجناه لله فلا نتبعه .

قالوا : من عجائب الجامع لو أن أحداً عاش مئة سنة ، وكان يتأمله كل يوم ، لرأى في كل يوم ما لم يره من حسن الصنعة ومبالغة التنميق .

وحُكي أنه بلغ ثمن البقل الذي أكله الصنّاع ستين ألف دينار ، فضجّ الناس استعظاما لما أُنفق فيه ، وقالوا : أنفقت أموال المسلمين فيما لا فائدة لهم فيه . فقال : إن في بيت مالكم عطاء ثماني عشرة سنة ، إن لم

(١) قهندز (أو : كهن دز) كلمة فارسية ، معناها قلعة أو حصن .

يدخل فيه حبة قمح ، فسكت الناس . فلما فرغ أمر بتسقيفه بالرصاص . وإلى الآن سقفُهُ من الرصاص . ورأيتُ الصانع يرقعها بالرصاص المذاب . قالوا : إن طيراً يذرق على الرصاص فيحرقه ، فيحتاج إلى الإصلاح لدفع ماء المطر .

قال موسى بن حماد : رأيتُ في جامع دمشق كتابة بالذهب في الزجاج محفوراً فيها سورة ﴿ ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر ﴾ . ورأيتُ جوهرة حمراء نفيسة ملصقة في قاف ﴿المقابر﴾ ، فسألت عن ذلك فقالوا : ماتت للوليد بنت كانت هذه الجوهرة لها . فأمرت أمها أن تدفن هذه الجوهرة معها . فأمر الوليد بها فصيّرت في قاف ﴿المقابر﴾ ، وحلف لأمها أنه أودعها المقابر .

والمسجد مبني على أعمدة رخام طبقتين : التحتانية أعمدة كبار ، والفوقانية أعمدة صغار . في خلال ذلك صور المدن والأشجار بالفسيفاء والذهب والألوان .

ومن العجب العمودان الحجريان اللذان على باب الجامع ، وهما في غاية الإفراط طولاً وعرضاً . قيل : هما من عمل عاد ، إذ ليس في وسع أبناء زماننا قطعهما ولا نقلهما ولا إقامتهما .

وفي الجانب الغربي بالجامع عمودان على الطبقة العليا من الأعمدة الصغار يقولون إنها من الحجر الدهنج (1) .

وفي جدار الصحن القبلي حجرٌ مدوّرٌ شبه درَقَة منقّطة بأبيض وأحمر ، قالوا : بذل الفرنج فيه أموالاً فلم يُجابوا إليه .

---

(1) الدهنج : كلمة فارسية ، معناها جوهر أخضر كالزبرجد (عجائب المخلوقات ، ص ٢٦١) .

وللجامع أوقافٌ كثيرة ، وديوانٌ عظيم . وعليها أرزاقُ كثيرٍ من الناس . منهم صنّاع يعملون القسي والنبال للجامع ويدّخرونها ليوم الحاجة ، وذكروا أن دَخْل الجامع كل يوم ألف ومائتا دينار . يُصرف المائتان إلى مصالح الجامع ، والباقي ينقل الى خزانة السلطان .

وأهلُ دمشق أحسنُ الناس خُلُقاً وخَلقاً وزيّاً ، وأميلُهم إلى اللهو واللعب . ولهم في كلٍ يوم سبت الاشتغال باللهو واللعب . وفي هذا اليوم لا يبقى للسيّد على المملوك حجر ، ولا للوالد على الولد ، ولا للزوج على الزوجة ، ولا للأستاذ على التلميذ . فإذا كان أولّ النهار يطلب كلّ واحد من هؤلاء نفقة يومه ، فيجتمع المملوك بإخوانه من المماليك ، والصبيّ بأترابه من الصبيان ، والزوجة بأخواتها من النساء ، والرجل أيضاً بأصدقائه . فأما أهل التمييز فيمشون إلى البساتين ، ولهم فيها قصورٌ ومواضع طيّبة . وأما سائر الناس فإلى الميدان الأخضر [1] . وهو محوط ، فرشه أخضر ، صيفاً وشتاء ، من نبتٍ فيه ، وفيه الماء الجاري .

والمتعيّشون يوم السبت ينقلون إليه دكاكينهم . وفيها حلقُ المشعبذين والمساخرة والمغنّين والمصارعين والفصّالين [2] . والناس مشغولون باللعب واللهو إلي آخر النهار . ثم يفيضون منها إلى الجامع ويصلّون به المغرب ، ويعودون إلى أماكنهم .

---

(١) الميدان الأخضر ، أو المرج الأخضر كان أحد أشهر متنزّهات دمشق قديماً على ضفة بردى . تشغله اليوم أبنية التكية السليمانية والمتحف الوطني ومعرض دمشق الدولي .

(٢) عند كلام المؤرّخ ابن طولون على متنزّه الربوة (ذخائر القصر ، ورقة ٢ و) ذكر اجتماع «الحلقيّة والمشعبذين والمخايليّة والحكويّة» ، فلعل المقصود بالفصّالين والمخايليّة واحد ، يراد به اللاعبون بخيال الظل .

وبهـا جـبل الـربوة [1] ، جـبلٌ على فـرسخ من دمـشق . قـال المفسّرون : إنها هي المذكورة في قوله تعالى : ﴿وآويناهما إلى ربوةٍ ذاتِ قرارٍ ومَعين﴾ [2] . وهو جبلٌ عالٍ ، عليه مسجدٌ حسن وسط البساتين . ولما أرادوا إجراء ماء بردى وقع هذا الجبل في الوسط ؛ فنقبوا تحته وأجروا الماء فيه . ويجري على رأسه نهر يزيد ، وينزلُ من أعلاه الى أسفله ، وفي المسجد الذي على أعلى الجبل الماء الجاري ، وله مناظر إلى البساتين ، وفي جميع جوانبه الخضرة والأشجار والرياحين .

ورأيتُ في المسجد [3] ، في بيت صغير ، حجراً كبيراً ذا ألوان عجيبة . حجمه كحجم صندوق مدوّر ، وقد انشق بنصفين ، وبين شقّيه مـقـدارُ ذراع ، لم ينفصل أحد الشقّين عن الآخر ، بل متصل به كرُمّان مشقوق . ولأهل دمشق في ذلك الحجر أقاويل كثيرة [4] .

آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ١٨٩ - ١٩٢ طبعة بيروت

---

(١) أورد المؤلف ذكر الربوة في كتابه «عجائب المخلوقات» ، وزاد فيه : وفي هذا الجبل كهف صغير ، زعموا أن عيسى عليه السلام ولد فيه .

(٢) سورة المؤمنون - ٥٠ .

(٣) لعله يقصد مسجد الربوة ؟ وهناك خبر مشابه عن حجر في مسجد النارنج قرب تربة الباب الصغير . انظر رحلة ابن جبير ، ص ٢٥٩ .

(٤) حول هذه الأقاويل انظر المرجع الآنف الذكر .

جبل قاسيون

مشرف على دمشق، فيه آثار الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ومغارات وكهوف. منها مغارة تُعرف بمغارة الدم، قالوا: فيها قتل قابيل هابيل. وهناك حجر يزعمون أنه الحجر الذي فلق به هامته.

وفيه مغارة أخرى يسمّونها مغارة الجوع، يقولون إنه مات فيها أربعون نبياً جوعاً.

عجائب المخلوقات للقزويني ٢١٥

الغوطة

الكورة التي قصبتها دمشق. وهي كثيرة المياه، نضرة الأشجار، متجاوبة الأطيار، مونقة الأزهار، ملتفة الأغصان، خضرة الجنان. استدارتُها ثمانية عشر ميلاً، كلّها بساتين وقصور. تحيط بها جبال عالية من جميع جهاتها. ومياهها خارجة من تلك الجبال. وتمتد في الغوطة عدة أنهر، وينصب فاضلها في أجمة هناك. والغوطة كلّها أنهار وأشجار متصلة قلّما يوجد بها مزارع.

وهي أنزه بلاد الله وأحسنها. قال أبو بكر الخوارزمي: جنان الدنيا أربع: غوطة دمشق، وصغد سمرقند، وشعب بوآن، وجزيرة الأبلّة. وقد رأيتها كلها، فأحسنها غوطة دمشق.

آثار البلاد وأخبار العباد ٢٣٢

المِزَّة

قرية كبيرة غنّاء في وسط بساتين دمشق، على نصف فرسخ منها. من جميع جهاتها أشجار ومياه وخُضرة، وهي من أنزه أرض الله وأحسنها. يقال لها مزّة كلب [1]. يقصدها أرباب البطالة للهو والطرب.

آثار البلاد وأخبار العباد ٢٦٣

(١) نسبة إلى قبيلة كلب التغلبية اليمانية التي نزلت بها.

- ٤٠ -

ابن شدّاد
محمد بن علي
(توفي ٦٨٤ هـ/ ١٢٨٥م)

أبو عبد اللّه محمد بن علي بن ابراهيم الحلبي، عزّ الدين ابن شدّاد، وينبغي الانتباه إلى أنه ليس نفس كاتب سيرة صلاح الدين الأيوبي بهاء الدين ابن شدّاد الذي سبق مؤلّفنا بقرن من الزمان. وأصل عز الدين ابن شدّاد من حلب، ولد بها عام ٦١٣ هـ وشغل منذ مطلع شبابه مناصب إداريّة لدى الأيوبيين وكان يُعدّ خبيراً في شؤون الميزانيّة والمالية، الأمر الذي ينعكس بجلاء في كتابه. ولقد عاش عزّ الدين في أزمنة خطيرة، وشارك في أحداث عصره فأسهم في الجهاد ضد الزحف المغولي. ثم في عام ٦٥٨ هـ عندما استولت جحافل المغول على حلب هاجر عزّ الدين إلى القاهرة حيث تمتّع برعاية السلطان الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون. وفي عام ٦٧٦ هـ تمكّن من زيارة دمشق، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى القاهرة وتوفي بها عام ٦٨٤ هـ.

وترجع شهرة ابن شدّاد كمؤرّخ إلى مصنفّه الأكبر الذي يحمل اسم «الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة»، وهذه التسمية لا تعبّر بدقّة عن فحوى الكتاب، فهو لا يقتصر على تاريخ هاتين المنطقتين، بل

يُمثّل في الواقع دراسات مستقلّة ذات طابع تاريخي جغرافي للمقاطعات والمدن المختلفة، الأمر الذي يُذكّرنا بنمط الخطط المصريّة.

هذا وقد بدأ ابن شدّاد بتأليف الكتاب وهو بمصر، وهو أشبه بخلاصة للوضع في العالم العربي شرقي البحر الأبيض المتوسط قبل تحركّات المغول التي تكاثفت في خاتمة القرن السابع الهجري بقيادة قازان. وقد أتم ابن شدّاد الجزء الأول الذي أفرده لشمالي الشام في عام ٦٧٣ هـ، أما الثاني المفرد لجنوبي الشام فقد أتمّه عام ٦٧٤ هـ، بينما أنهى الجزء الثالث الخاص بالجزيرة في عام ٦٧٥ هـ. وبشكل عام تمت مسوّدات الكتاب النهائية عام ٦٧٩ هـ.

ويشتمل الجزء الأول من الكتاب على ثلاثة أقسام، يتناول الأول منها الكلام على منطقة حلب، بينما يختص الثاني بقنّسرين والثغور وحمص، أما القسم الثالث الخاص بأمراء حلب فهو مفقود. وينقسم الجزء الثاني من الكتاب إلى عدد مماثل من الأقسام، فالقسم الأول منه مخصص لدمشق، والثاني لمدن الشام الجنوبية وفلسطين، أما الثالث المفرد لأمراء دمشق فهو أيضاً مفقود. والجزء الثالث المكرّس للجزيرة ينقسم بدوره أيضاً إلى ثلاثة أقسام وفقاً لمناطق ديار مضر وديار ربيعة وديار بكر، مع وصف لأهم المدن التابعة لكل منطقة.

وهذا التقسيم المذكور وإن كان في جوهره متعدّد الجوانب إلا أنه يغلب عليه الطابع التاريخي الجغرافي. ومن مزاياه أن مصادره متنوّعة وقيّمة للغاية، وهو يفيدنا بالتعرّف على مؤلّفات كثيرة لم تصلنا، غير أن الغريب أنه لم يُشر أبداً إلى معجم ياقوت الشهير والمتداول في عصره، ويرى المستشرق الروسي كراتشكوفسكي أن مردّ ذلك فيما يبدو كان عدم

معرفته بالكتاب. لكننا نرى أن ذلك من غير المحتمل، ولعل سبباً آخر ثناه عن النقل منه أو الإشارة إليه. وتجدر الملاحظة أن ابن شدّاد كان حتى عام ٦٢٩ هـ يعتمد اعتماداً كلياً على رواية الغير، ولكن ابتداءً من ذلك التاريخ أخذ يبدو على عرضه طابع الأصالة التامّة الذي يعكس بجدارة اتساع تجربته وملاحظته الشخصيّة.

هذا ولم يُفد المؤرّخون المتأخّرون كثيراً من كتاب ابن شدّاد، باستثناء الأقسام المتعلّقة بالشام وبدمشق بصفة خاصّة، والتي اجتذبت اهتمام جميع من عالجوا الكتابة في أمثال هذه الموضوعات. وتعتبر مادّة ابن شدّاد في تاريخ دمشق وخططها من أكمل ما قدّمه عصره، وقد تردّد صدى ذلك عند جميع المؤلّفين الذين كتبوا عن فضائل دمشق في العصور التالية له. وتنبغي الإشارة هنا إلى أن ابن شدّاد اعتمد عند تفصيله لخطط دمشق وفضائلها على كتاب مؤرّخ دمشق الكبير الحافظ ابن عساكر، رائد هذا الأسلوب التاريخي في القرن السادس الهجري، وزاد عليه ما استجدّ في عصره. ومما يزيد في أهمية ابن شدّاد أنه يكاد يكون الممثّل الأخير للجغرافية التاريخيّة على الأساس الإقليمي الذي درس الشام في وحدة عضويّة مع أرض الجزيرة.

وأما القسم المتعلّق بدمشق من كتاب «الأعلاق الخطيرة» فقد أدرجه ابن شدّاد على عشرة أبواب هي:

١ - في ذكر اشتقاق اسمها.
٢ - في ذكر من بناها وعدّة أبوابها وقلعتها.
٣ - في ذكر مسجدها الجامع.

٤ - في ذكر مساجد دمشق وعدّتها.
٥ - في ذكر المزارات بها بباطنها وظاهرها.
٦ - في ذكر الخوانق والربط بباطنها وظاهرها.
٧ - في ذكر المدارس.
٨ - في ذكر ما بدمشق وظاهرها من الكنائس والاعمار.
٩ - في ذكر الحمّامات بباطن دمشق وظاهرها.
١٠ - في ذكر فضلها وما مُدحت به نثراً ونظماً.

هذا وقد لفت كتاب الأعلاق انتباه كثير من البحّاثين المستشرقين والعرب، فأشاروا إليه في أبحاثهم ونوّهوا به ونشروا منه قطعاً غير كاملة، ومن هؤلاء المستشرق السويسري أمدروز H. F. Amedroz والباحث العربي حبيب الزيّات والأب شارل لُودِي Ch. Ledit والمستشرق الفرنسي كلود كاهن C. Cahen والمستشرق الفرنسي الشهير جان سوڤاجيه J. Sauvaget.

غير أن أول من بدأ بنشر الكتاب بشكل منهجي ومحقّق كان المستشرق الفرنسي دومينيك سُورديل D. Sourdel، الذي نشر القسم الأول من الجزء الأول من الأعلاق، وهو المخصّص لتاريخ مدينة حلب، وصدر عن منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق عام ١٩٥٣م. ثم تلاه الدكتور سامي الدهّان بتحقيق الجزء الثاني من الكتاب، الذي يختص بتاريخ مدينة دمشق، ونشره المعهد الفرنسي بدمشق في قسمين، الأول منهما عام ١٩٥٦ والثاني عام ١٩٦٤. ثم قام بتحقيق الجزء الثالث منه، وهو الخاص بتاريخ الجزيرة والموصل، الأستاذ يحيى عبّارة

وصدر بقسمين عن مطبوعات وزارة الثقافة بدمشق عام ١٩٧٨ . وأخيراً أعاد الأستاذ عبّارة نشر الجزء الأول من الكتاب بقسميه، ضمن منشورات الوزارة عام ١٩٩١ .

وختاماً، لا نرى من ضرورة لإعادة التأكيد على أهميّة «الأعلاق الخطيرة» كواحد من أهم مصادر التأريخ العمراني لمدينة دمشق في العصور الإسلاميّة الوسيطة. وجُلّ ما يتبقى الإشارة إليه أن القسم المختص بخطط مدينة دمشق، وهو القسم الأول من الجزء الثاني من الأعلاق، يمثل كتاباً مستقلاً كبير الحجم، فقد بلغت نشرة الدكتور سامي الدهان له ٤٧٣ صفحة من القطع المتوسط، بما في ذلك مقدّمة التحقيق والفهارس العلمية .

ونظراً لذلك، فقد اكتفينا هنا بمجرّد الإشارة إلى ابن شدّاد وكتابه الأعلاق، من غير أن نعمد إلى النقل منه لضخامة مادته. ونحيل القارىء الكريم إلى نصّه الكامل في الكتاب المذكور، وذلك أسوة بما تقدّم لدينا عند ذكر مؤرخ دمشق الحافظ ابن عساكر .

* * * * *

المصادر :

الأعلاق الخطيرة لابن شدّاد، جزء ١ ، مقدّمة سُورديل بالفرنسيّة
الأعلاق الخطيرة لابن شدّاد، جزء ٢ ، مقدّمة د. سامي الدهّان
الأعلاق الخطيرة لابن شدّاد، جزء ٣، مقدّمة يحيى عبّارة
البداية والنهاية لابن كثير ١٣/ ٣٠٥
مرآة الجنان لليافعي ٤/ ٢٠١
شذرات الذهب لابن العماد ٥/ ٣٨٨
تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ١/ ٣٦٩

- ٤١ -

ابن سعيد الغرناطي
علي بن موسى
(توفي ٦٨٥ هـ/ ١٢٨٦م)

أبو الحسن علي بن موسى الغرناطي الشهير بابن سعيد، أحد كبار علماء الأندلس وأدبائها في القرن السابع الهجري. سبق لنا ذكر عمّه ابن سعيد الأندلسي عبد الرحمن بن محمد. ولد في قلعة يحصب قرب غرناطة حوالي عام ٦١٠هـ، وتلقّى العلم بإشبيلية ثم أمضى الجانب الأكبر من حياته متنقّلاً في طلب العلم، فقد جال من المغرب الأقصى إلى الخليج العربي والتقى بأكابر العلماء ودرس خيرة الكتب والتآليف.

صحب أباه عام ٦٣٨ هـ في رحلة إلى شمال أفريقية ومصر التي بقي بها حتى عام ٦٤٨ هـ، ثم غادرها إلى الشام وأقام حيناً بالموصل وبغداد والبصرة وزار إيران. وقبل تدمير هولاكو لبغداد بأعوام قليلة حظي ابن سعيد بالدراسة في مكتباتها البالغ عددها ٣٦ مكتبة، ثم رحل إلى حلب ودمشق بصحبة المؤرّخ الشهير ابن العديم، كما حجّ إلى مكّة، وعاد إلى الإسكندرية وحلب وأرمينيا. وذكر بعض المؤرّخين أنه توفي بدمشق في طريق عودته من رحلته الأخيرة عام ٦٧٣ هـ، بينما المقبول به عموماً أنه توفي بتونس عام ٦٨٥ هـ.

يُعتبر ابن سعيد بصفة عامّة من أخصب الكتّاب على الرغم من أسفاره التي لم تنقطع، هذا إلى جانب ميوله نحو الأدب والشعر والتاريخ. وأما في الجغرافيا فلم يصل إلينا ما كتبه عن رحلاته المشرقيّة، ولكنّه اشتهر بمختصره لكتاب بطليموس في الجغرافيا الذي سمّاه «كتاب الجغرافية في الأقاليم السبعة»، وهو يُعدّ من الآثار الكبرى التي ظهرت في محيط الأدب الجغرافي العربي عقب الغزو المغولي للمشرق الإسلامي.

وعلى الرغم من الطابع النقلي الذي يغلب على الكتاب، إلا أنه مصدر غنيّ حافل وبخاصّة عن آسيا الصغرى وسواحل أفريقية، وأوروپا الغربية كفرنسا وهنغاريا وجنوب إيطاليا وجزرها مثل سردينيا وكورسيكا، كما عن أوروپا الشرقية والصقالبة والروس وجبال القفقاس والصين.

قام بنشر كتاب «الجغرافية في الأقاليم السبعة» المستشرق الإسپاني خوان خينيس J. V. Gines، تحت عنوان: «بسط الأرض في الطول والعرض»، وصدر عن معهد مولاي الحسن بتطوان عام ١٩٥٨. ومنه أخذنا النصّ المتعلّق بدمشق.

المصادر:

الجغرافية في الأقاليم السبعة لابن سعيد الغرناطي، مقدّمة خينيس
المُغرِب في حلى المَغرب للغرناطي، مقدّمة شوقي ضيف
تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ١/ ٣٥٦
مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجّد ١٩٢
تاريخ الفكر الأندلسي للمستشرق بالنثيا ٢٤٧

دمشق

وتقع قاعدة الشام دمشق حيث الطول ستّون درجة والعرض أربع وثلاثون، وفي الأصطرلاب ثلاث وثلاثون، مثل بغداد وتونس. وإنما كثر الثلج فيها من الجبال التي في جهاتها، لا يبرح الثلج عليها.

ويقال: جِنان العالم أربع: صُغْدُ سَمَرقند، وشُعْبُ بَوّان، وأُبُلّةُ البَصْرة، وغُوطَة دمشق. قال أبو بكر الخوارزمي: والغوطة تفضُل على هذه الجهات الثلاث، كما تفضُل الثلاثُ على سائر جِنان العالم.

الجغرافية في الأقاليم السبعة لابن سعيد ٨٥

لسان العرب

للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم
ابن منظور الافريقي المصري

المجلد الأول

دار صادر
للطباعة والنشر

دار بيروت
للطباعة والنشر

بيروت
١٩٥٥م ١٣٧٤هـ

- ٤٢ -

ابن منظور
محمد بن مكرّم بن علي
(توفي ٧١١ هـ/ ١٣١١م)

أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقي، من نسل رُويفع بن ثابت الأنصاري. الإمام اللغوي الحجّة، ولد بمصر، وقيل في طرابلس الغرب، عام ٦٣٠ هـ، وخدم في ديوان الإنشاء بالقاهرة، ثم ولي القضاء في طرابلس، وعاد إلى مصر فتوفي بها عام ٧١١ هـ.

قال ابن حجر: كان مغرى باختصار كتب الأدب المطولّة. وقال الصفدي: لا أعرف في كتب الأدب شيئاً إلا وقد اختصره. ترك بخطه نحو خمسمائة مجلّد، أخصّها معجمه الشهير «لسان العرب» الذي جمع فيه أمهات كتب اللغة فكاد يغني عنها جميعاً. جعله في عشرين مجلّداً. وله مؤلّفات أخرى عديدة، منها: «مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر» و«مختصر تاريخ بغداد للسمعاني» و«مختار الأغاني للأصبهاني» و«نثار الأزهار في الليل والنهار» و«لطائف الذخيرة» اختصر به كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسّام الشَّنْتَريني، و«اختصار كتاب الحيوان للجاحظ» و«أخبار أبي نوّاس»، وغير ذلك كثير.

أمّا «لسان العرب» فهو إلى أيّامنا أحد أهم وأوسع معاجم اللغة العربية، إلى جانب «القاموس المحيط» للفيروزابادي، والشرح الذي وضعه عليه الزبيدي باسم «تاج العروس في شرح جواهر القاموس».

وأول طبعة صدرت للسان العرب كانت بالمطبعة الأميريّة في بولاق بالقاهرة عام ١٣٠٠ هـ/ ١٨٨٢م، في ٢٠ جزءاً. ثم توالت طبعاته، فنشرته دار صادر ببيروت عام ١٩٥٥، في ١٥ جزءاً ضخماً بطباعة فخمة أنيقة، اعتبرت في حينها مثالاً يحتذى للطباعة العربية. وعن هاتين الطبعتين الشهيرتين ظهرت طبعات عديدة مصوّرة بالأوفست في مصر وبيروت.

ومؤخراً صدرت عن اللسان طبعة جديدة عن دار المعارف بمصر عام ١٩٨١، تمتاز بجودة الضبط والتشكيل والفهرسة. ومن هذه الطبعة أخذنا ما ذكره ابن منظور عن مدينة دمشق، وهو ما يمثّل بعض أوجه الاشتقاق اللغوي لاسم المدينة.

المصادر:

فوات الوفيات للصلاح الصفدي ٢/ ٢٦٥

الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني ٤/ ٢٦٢

حسن المحاضرة للسيوطي ١/ ٢١٩

مفتاح السعادة لطاشكپري زاده ١/ ١٠٦

تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ١/ ٤١

الأعلام لخير الدين الزركلي ٧/ ٣٢٩

دمشق

دَمْشَقَ عَمَلَهُ: أسرع فيه. ودَمْشَقَ الشَّيءَ زيَّنَه، قال أبو نُخَيْلَة:

دُمْشِقَ ذاكَ الصَّخرُ المُصَخَّرُ

والدِّمْشَقُ: النَّاقَةُ الخفيفَةُ السَّريعةُ، وأنشد أبو عُبَيْدَةَ قول الزَّفيان:

ومَنْهَلٍ طـامَ عليهِ الغَلْفَقُ
يُنيرُ أو يُسْدي به الخَوَرْنَقُ
وَرَدْتُهُ واللَّيـلُ داجٍ أبْلَقُ
وصَاحِبِي ذاتُ هِبابٍ دَمْشَـقُ
كأنَّها بَعْدَ الكَـلالِ زَوْرَقُ

قال: وكذلك ناقةٌ دِمَشْقٌ مثال حِضَجْر

ودِمَـشْقُ مَـدينةٌ، من هذا أُخِـذ، قيـل: فَـدَمْشِـقُـوها، أي ابنوها بالعَجَلَة. قال الجوهري: دِمَشْقُ قَصَبَةُ الشَّامِ. قال الوليد بن عُقْبَة:

قَطَعْتَ الدَّهْرَ كالسَّدِرِ المُعَنَّى تُهَدِّرُ في دِمَشْقَ وما تَرِيْنُ

ويُروى: تُهَدِّدُ. التهذيب: دِمَشْقُ اسمُ جُنْدٍ من أجْنادِ الشَّامِ.

ودَمْشَقْتُ في الشَّيءِ أسْرَعْتُ. الأزهريّ في ترجمة دَشَقَ: جَمَلٌ دَوْشَقٌ إذا كان ضَخْماً، فإن كان سريعاً فهو دَمَشَقٌ.

لسان العرب لابن منظور ١٤٢٢

- ٤٣ -

الوطواط
محمد بن ابراهيم بن يحيى الورّاق
(توفي ٧١٨ هـ/ ١٣١٨م)

محمد بن ابراهيم بن يحيى بن علي الأنصاري الكتبي جمال الدين المعروف بالوطواط، أديب مترسّل كتبي من العلماء. من أهل مصر، ولد عام ٦٣٢ هـ وكانت صناعته الوراقة وبيع الكتب. صنّف كتباً منها «غرر الخصائص الواضحة» و«مباهج الفِكَر ومناهج العبر» في الكيمياء والطبيعة، وقد ضمّنه أموراً جغرافية كثيرة في ستة مجلدات، و«الدرر والغرر» ورسائل سمّاها «عين الفتوّة ومرآة المروّة». توفي بالقاهرة عام ٧١٨ هـ.

أما كتابه «مباهج الفكر» فلمّا يزل مخطوطاً، وفيه نبذة عن دمشق وبعض أوصافها. وقد نقل هذه النبذة أستاذنا الجليل الدكتور صلاح الدين المنجّد عن مخطوطة مكتبة كوپريلي Köprülü باسطنبول، رقم: 1170.

المصادر:

الوافي بالوفيّات للصفدي ٢/ ١٨
مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجّد ١٩٤

دمشق

وأمّا جند دمشق، فمدينة تسمى جِلَّق، وهي مدينة أزلية عادية سهلية جبلية، زعم بعض المفسرين للكتاب العزيز إنها إرَمُ ذات العماد. ولها الجامع الذي هو أحد عجائب الدنيا ومبانيها، والنهر الذي ينبعث منه عدة أنهار وهي: نهر يزيد، ونهر باناس، ومنه مياه البلد التي تجري في شوارعها ودورها، والقلعة، ونهر القنوات. ويسمى عمود النهر بَرَدَاً، ومنبعه من حيث تنبع عين الفيجة، وهي في واد بين جبلين، تكون مسافته من حيث ينبع إلى حيث يصبّ في بُحيرة المرج، شرقي دمشق يومين، ولدمشق من البلاد بعلبك وهي مدينة... الخ.

مباهج الفكر للوطواط، مخطوطة كوپريلي ١/ ٤٤٤
نقلاً عن د. صلاح الدين المنجّد

- ٤٤ -

ابن رُشَيْد الفهْري
محمد بن عمر بن محمد
(توفي ٧٢١ هـ/ ١٣٢١م)

أبو عبد الله محمد بن عمر الفِهْري الأندلسي، عالم أندلسي كبير برع في الأدب والحديث. ولد في سَبْتة بالمغرب عام ٦٥٧ هـ، وتلقى العلم في جامعة القرويين بمدينة فاس عاصمة بني مرين، وأقام بها حيناً ثم انتقل إلى المدينة البيضاء الملاصقة لها التي أسسها السلطان يعقوب. وخرج من المريّة لأداء فريضة الحج، فمرّ في طريقه بشمال أفريقية ومصر والشام. وعند عودته اشتغل بالتدريس في غرناطة، ثم أمضى بقية عمره بفاس إلى أن توفي بها عام ٧٢١ هـ.

وإذا كان ابن جبير أول رحالة أندلسي كتب وقائع رحلته الحجازيّة، فإن ابن رُشيد بالمثل هو أول رحالة من العدوة المغربية سجّل انطباعاته برحلته الحجازيّة كذلك. واشتهر عن الفِهري رحلتان تضمّان أخبار جولاته في المشرق، أما الأولى فيصف فيها طريقه في أفريقيةومصر والشام والحجاز، وعنوانها: «ملء العيبة مماً جُمع بعد طول الغيبة، في الوجهة الواجهة إلى الحرمين مكّة وطَيْبة».

ومن الرحلة أجزاء مخطوطة في مكتبة دير الإسكوريال وأصلها في خمسة أجزاء، ومن المؤسف أن الجزء الرابع الذي يذكر فيه دمشق وعلمائها مفقود، وكان زارها عام ٦٨٤ هـ أوائل عهد المماليك. وفي الجزء الخامس يتحدّث عمّا رآه بعد خروجه من دمشق. على أن المقّري حفظ لنا قطعة من رحلته تتعلق بدار الحديث الأشرفية، ونعل الرسول التي كانت فيها.

أما الرحلة الثانية ففيها عن علماء الأندلس، فرغ منها عام ٦٨٩ هـ. وتمتاز كتابات ابن رُشيد بغزارة المعلومات التي جمعها عن الأحوال الاجتماعية للبلاد التي زارها، وخاصّة مكّة والمدينة. والجدير بالذكر أن في مكتبات مكّة المكرّمة عدّة نسخ مخطوطة من رحلتي الفهري.

نقلنا نصّ الفِهري عن دمشق من «ملء العيبة» عن د. المنجّد من مخطوطة الإسكوريال رقم ١٧٣٦، والنصّ الذي أورده المقّري في «فتح المتعال في وصف النعال» عن د. المنجّد من مخطوطة ڤاروج سلاطيان التي كتبت عام١٠٣٣ هـ مع معارضتها بطبعة حيدر أباد بالهند عام ١٢٣٤هـ.

كما نشير إلى أن جزئين من «ملء العيبة» قد نُشرا مؤخّراً، وهما:

الجزء الثاني: تونس عند الورود، تحقيق محمّد الحبيب بن الخوجة، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٢.

الجزء الخامس: الحرمان الشريفان ومصر والإسكندرية عند الصدور، تحقيق محمّد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٨.

المصادر:

الدرر الكامنة لابن حجر ٤/ ١١١
تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ١/ ٣٦٨ و ٣٨٢
مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجّد ١٩٦
الرحّالة المغاربة وآثارهم لمحمد الفاسي ٤
رحلة الفِهري للفاسي، مجلة معهد المخطوطات مجلّد ٥، ١٩٥٩
الفكر الأندلسي للمستشرق الإسپاني بالانثيا ٣١٨

ميدان الحصا بدمشق

ثم توجّهنا من دمشق حماها الله إلى مدينة النبي، أهلّ هلال شوّال ليلة الجمعة عام ٦٨٤ هـ، وكان سفرنا من ظاهر دمشق من الموضع المعروف بميدان الحصا، عصر يوم الإثنين الحادي عشر من شوّال. وعاينّا في ذلك اليوم عند خروج الناس للوداع ما يُسيل الدموع. فبتنا تلك الليلة بالموضع المعروف بالقيساريّة على ضفّة النهر، ورحلت سحر اليوم الثاني عشر. ونزلنا منازل بالطريق، سالكين إلى مدينة بُصْرى، وهي مدينة حوران. وضبط هذا الإسم بضمّ أوله وإسكان ثانيه، وفيه يقول المتُلمِّس:

لم تدرِ بُصْرى بما آلَيْتُ من قَسَمٍ ولا دمشق إذا دِيْسَ الكَراديسُ

أراد دِيسَ زرعُ الكراديس، وهو موضع بدمشق. وفيها يقول أيضاً:

فبيدُ المثاني والمشارفُ دونَهُ فروضةُ بُصرى أعرضتْ فسبيلُها

ورأيتُ بلداً محكم الأسوار قديم الآثار، أبواب دُوره من منحوت الأحجار. . . ولم نلق بها أحداً من العلماء، ومنها يتزوّد الناس بالماء إلى الموضع المعروف بوادي الأزرق. ولقينا هناك الشيخين الفاضلين عفيف الدين عبد الرحيم بن بدر الدين الزجّاج وابن أخيه أبا القاسم، قدما من بغداد.

ملء العيبة، الجزء الخامس، مخطوطة الإسكوريال

نعل الرسول بدمشق

ونقل المقّري عن الرحلة فقال:

وقال ابن رُشيد في ملء العَيْبة عند ذكره المدرسة الأشرفيّة وأنها إحدى المدارس الحافلة، مع علو ساحتها وتشديد بنيانها وإتقان أبوابها، ما نصّه:

وبها إحدى نعليّ النبي صلّى الله عليه وسلّم، فقصدتُها للتبرك بها والشفاء من مرض أصابني، فوجدتُ بركتها. وهذه المدرسة ابتُني في قبلتها بيتان: أحدهما عن يمين المحراب وُضع فيها نسخٌ من المصاحف، والآخر عن يساره فيه النعل الكريمة، فردة واحدة. وقد وُضع لهذا البيت بابٌ مصفّح بالنحاس الأصفر كأنه صفايح ذهب، وعلّق عليه كِلَلُ حرير ثلاث خضراء وحمراء وصفراء. ووُضعت النعل الكريمة على كرسي من آبنوس، ثم وُضع على النعل لوح من آبنوس، ونُقر في وسط اللوح بمقدار ما ظهرت النعل الكريمة منخفضةً عن اللوح بمقدار النقر. ولا شكّ أنه بقي منها تحت أطراف اللوح مقدار ما ثُبّت به تحت اللوح، وما أخذته المسامير التي طوّقت به. فإن الدائر المحيط بها كلّه مكوكب بمسامير فضّة. ويُملأ ذلك الظاهر منها الذي هو منقور عليه بأنواع الطيب، حتى إن الذي يلثمها يمرّغ فمه من طيبها. فإذا أراد أن يحذو عليها مثالها جاء بكاغد ورق ووضعه على مقدار النقر، وحزّه بظفره فارتسم مقدارُ النعل مثالاً. وقد

وُكِّل بها قيّم، له عليها مرتّب بلغنا أنه أربعون درهماً ناصريّة، وأمر بفتح يوم الإثنين ويوم الخميس للناس يتبرّكون بلثمها.

فاتّفق أني جئتُ إلى الشيخ زين الدين الفارقي شيخ التدريس بها في غير هذين اليومين، فألفيْتُه مريضاً لزيماً للفراش. فتحفّى وأمر الخديم القيّم بفتحها لي، ففعل. وتمكنتُ من لثمها والتبرّك بها.

وكان من قصّة هذه النعل حسبما أخبرني به صاحبنا المقرىء أبو عبد الله محمد بن علي بن القصّاب في الحادي والعشرين من شعبان المكرّم عام سبعة وسبعين وستّماية. . . أن القدم التي قاس عليها كانت مما تصيّرت لميمونة بنت الحارث الهلاليّة أم المؤمنين مما تركه النبيّ (ص)، فتوارثها ورثتُها من بعدها إلى أن حصل بيد بني أبي الحديد. ولم يزالوا يتوارثونه إلى آخرهم موتاً، فترك ثلاثين ألف درهم وترك ذلك القدم، وولدين له. فقال أحدهما للآخر: تأخذ المال أو تأخذ القدم؟ فاصطلحا على أن أخذ أحدهما المال والآخر القدم. فذهب به إلى أرض العجم، فكان يغدو به على الملوك يتبرّكون به، حتى رجع إلى بلاد خلاط، فبعث به إلى الملك الأشرف ابن العادل يتبرّك به، فطلب منه أن يقطع منه قطعة يتبرّك بها. ثم إن الملك تحرّى عن ذلك، فطلب منه أن يعوّضه منه قرية ويعطيه إيّاه. وقال له: أنت شيخ كبير فما تصنع به؟ فأجابه إلى ذلك.

ثم إن الملك الأشرف مَلَك الشام، واستوطن مدينة دمشق، فابتنى دار الحديث الأشرفيّة ووقف لها وقفاً كثيراً، وجعل الجانب القبليّ منها مسجداً للصلاة، وجعل شرقيّ محراب المسجد بيتاً لتلك النعل المذكورة. فسمّرها بمسامير فضّة على تابوت من أبنوس، وجعل له قفلاً من فضّة، وأرخى عليه ثلاث ستور من حرير أخضر وأحمر وأصفر، كل سترٍ منها

بمال، وجعل له باباً كبيراً مصفّحاً بالنّحاس، كأنه الذهب. وجعل عليه فيما رتّب له أربعين درهماً ناصريّة، مبلغها ثمانون درهماً من دراهمنا كل شهر، يفتح في كل يوم اثنين وكل يوم خميس لمن يتبرك به.

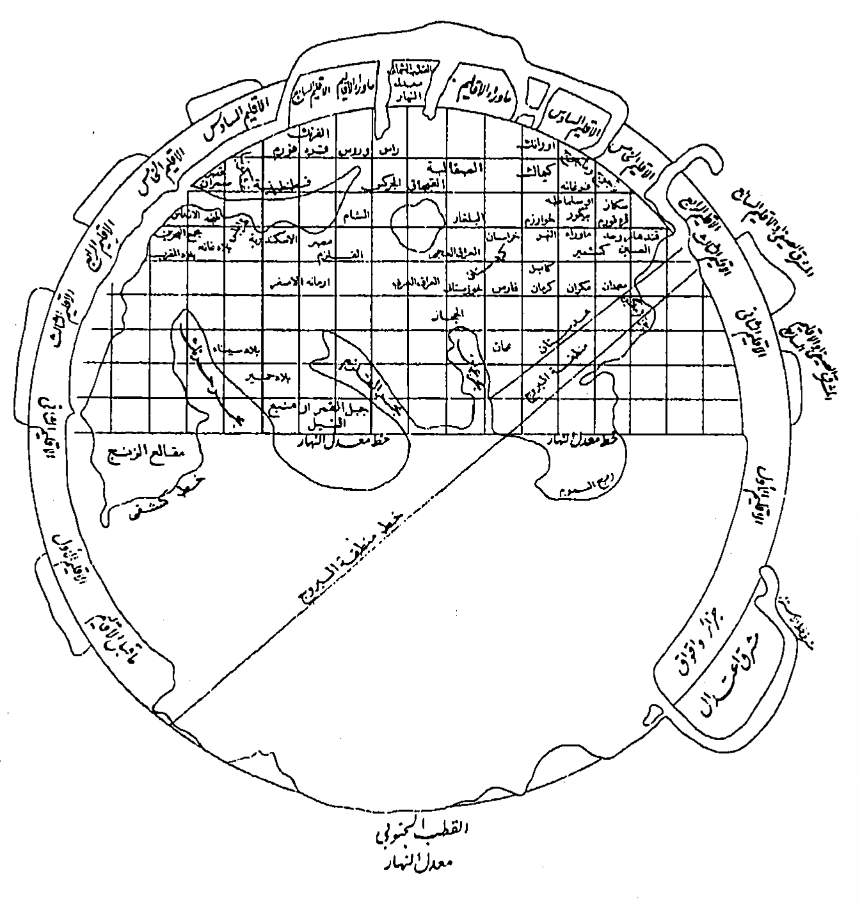
فتح المتعال في وصف النعال للمقّري
مخطوطة ڤاروج سلاطيان، نقلاً عن
د. المنجّد، وقوبلت بطبعة الهند

خارطة العالم

للمستوفي (٧٤٠ هـ) (١٣٣٩م)

هو حمد الله الفارسي القزويني الملقب بالمستوفي، له كتاب «نزهة القلوب» وضعه بالفارسية في سنة ٧٤٠ هـ (١٣٣٩م)، نشر القسم الجغرافي منه المستشرق البريطاني «لي سترانج»، من ضمن سلسلة منشورات گيب التذكارية (نشرة رقم ٢٣ لسنة ١٩١١) فنشر النص الفارسي في القسم الأول من هذه النشرة ونشر ترجمته الانكليزية في القسم الثاني منها. وفي هذا الكتاب وصف جغرافي لإيران والعراق في عهد السلطان ابي سعيد الأيلخاني، وبحكم وظيفة المستوفي في مصلحة الواردات العامة فقد تمكن من تدوين مقدار واردات كل من الأقطار التي وصفها في كتابه هذا بصورة مفصلة ودقيقة لم يسبقه اليها احد. وله ايضاً كتاب «تاريخ گزيده» مخطوط مصنف حسب طبقات وعهود الخلفاء طبع متنه الفارسي المستر أي. جي. براون من ضمن منشورات گيب التذكارية ايضاً (نشرة رقم ١٤ لسنة ١٩١٣) ونشر في القسم الثاني من النشرة خلاصة مترجمة الى الانكليزية مع الفهارس.

• بتحقيق الدكتور احمد سوسة •



ملاحظة: ان الخارطة الأصلية كانت مقلوبة على الطريقة القديمة أي ان الشمال واقع في الاسفل والجنوب في الاعلى وقد عكسناها وفقاً للطريقة الحديثة في رسم الخرائط لتسهيل المراجعة

- ٤٥ -

شيخ الربوة الدمشقي
محمد بن أبي طالب الأنصاري

(توفي ٧٢٧ هـ/ ١٣٢٧م)

شمس الدين محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي، من علماء القرنين السابع والثامن للهجرة. ولد بدمشق عام ٦٥٤ هـ، أي قبل سقوط بغداد بيد التتار بعامين، فعاصر منذ بداية حياته موجة أحداث حاسمة عصفت بالعالم الإسلامي، كما تزامن ذلك مع قيام دولة المماليك البحرية بمصر والشام. وأمضى صاحبنا معظم حياته بمسقط رأسه دمشق إماماً بمسجد الربوة غربي دمشق، ولاّه عليه نائب الشام آقوش الأفرم، ومن هنا غلب عليه لقب «شيخ الربوة»، كما عُرِف بالصوفي لميوله الصوفيّة. ويبدو أن هذه الميول هي التي أدّت إلى اعتزاله العالم في أواخر حياته، فقد أقام ببعض نواحي فلسطين متزهداً إلى أن توفي بصفد عام ٧٢٧ هـ، أي قبل وفاة الجغرافي أبي الفدا بخمسة أعوام.

كان شيخ الربوة ذكياً فطناً حلو الحديث متقشّفاً صبوراً على الفقر والوحدة، ينظم الشعر ويُصنّف في شتّى العلوم لفرط ذكائه، وترك عدة مؤلّفات من أشهرها كتاب «السياسة في علم الفراسة»، اشتهر في حينه.

على أن اسم شيخ الربوة ارتبط بكتابه الكوزموغرافي الشهير: «نُخبة الدهر في عجائب البرّ والبحر»، وهو من أثمن الكتب وأغزرها مادّة. وطريقة تصنيف الكتاب تنطبق على طريقة القزويني بشكل عام، غير أن بعض المستشرقين اعتبروا شيخ الربوة دون القزويني وسواه بكثير، إلا أنه يفضل كتاب أبي الفدا من حيث تبويب مادّته. وهو على كل حال يضم معلومات غير قليلة نفتقدها في المؤلّفات الأخرى، وبخاصّة فيما يتعلّق بموطنيه الشام وفلسطين، ويُعتبر كتابه مصدراً أساسياً لجغرافيتها وتاريخها، وبالتالي فهو من أكمل ما عُرف في هذا الصدد.

ووصف دمشق وضواحيها وأنهارها ومسجدها يحتل أهميّة خاصّة بين ما كتب عن المدينة في عصر شيخ الربوة، وبخاصّة وصفه الدقيق لصناعة تقطير الورد عند الدماشقة.

قام بنشر كتاب «نخبة الدهر» المستشرق الدنماركي ميرن Mehren عام ١٨٦٦م، كما صدرت له طبعة أخرى في سان بطرسبورغ عام ١٨٨٦م. ثم أعيد طبعه في لايبتسيك عام ١٩٢٣م بتحقيق ميرن أيضاً مع ترجمة فرنسيّة. وعن هذه الطبعة أخذنا النصّ المتعلّق بدمشق.

المصادر:

نخبة الدهر لشيخ الربوة، مقدّمة ميرن بالفرنسيّة
الدرر الكامنة لابن حجر ٣/ ٤٥٨
تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ١/ ٣٨٦
مدينة دمشق عند الجغرافيين للمنجّد ٢٠٢

دمشق

والقسم الأول من الثمانية وبه دار الإمارة الكبرى في عصرنا دمشق، وتسمّى جلِّق الخضراء والغُوطة وذات العماد. وهي مدينة عاديّة أزليّة سهليّة جبليّة، من أنزه بلاد الأرض وأطيبها وأحسنها وأبهجها. وبها الجامع المتفرّق الحُسن والجمال والكمال، ومن أعاجيب الدنيا، يوقد فيه في ليلة النصف من شعبان إثنا عشر ألف قنديل بخمسين قنطاراً دمشقيّة زيت الزيتون، غير ما يوقد بالمدارس والمساجد والتُّرب والخَوانق والرُّبط والمارستانات. وترخيم حيطانه من أعجب شيء يراه الإنسان. والرّخام في غالب حيطانه، وفوق الرّخام تفصيص بشبك الزجاج المصبوغ والمُذهب والمفضّض وعروق اللؤلؤ ما هو ملؤ الجامع من داخل حيطانه. وسائره منقوش بتلك الأصباغ على صور الأشجار والمدن والحصون والبحار، وكل ما أمكن تصويره من غير المحرَّم منه.

ويقال إن عمر بن عبد العزيز لمّا ولي الخلافة قال: لو علمتُ أن هذا الفسيفساء يردّ ما أنفق عليه قلعتُه. والمنفوق على زخرفته في أيام سليمان بن عبد الملك بن مروان أربعون صندوقاً من الذهب الأحمر، غير الرّخام والبناء القديم.

وسعة الجامع طولاً من المشرق إلى المغرب مائتان واثنان وثمانون ذراعاً، وعرضه مائتان وعشرة أذرع. وعلى سطحه الرّصاص ألواح مفروشة بدلاً من الطين، كل لوح من نصف قنطار دمشقي إلى ما دونه.

ومن خصائصه أنه لا يوجد فيه عنكبوت أصلاً لا في سقوفه ولا في حيطانه، ولا يفرّخ فيه عصفور مع كثرته فيه، ولا يعشش فيه، ولا يوجد فيه

وزغة، وشهرته تغني عن وصفه.

ودمشق مقسومة ثلاث قسمات: قسم مبثوث العمارة في غوطتها، لو جُمع لكان مدينة عظيمة ما بين جواسق وقصور وقاعات واسطبلات وطواحين وحمّامات وأسواق ومدارس وتُرَب وجوامع ومساجد ومشاهد، غير القرى والضياع الأمّهات، وهذا الذي ذكرناه لا يوجد بغيرها أصلاً.

والقسم الثاني تحت الأرض منها مدينة أخرى من متصرّفات المياه والقنيّ وجداول ومسارب ومخازن وقنوات تحت الأرض كلّها، حتى لو حفر الإنسان أين ما حفر من أرضها وجد مجاري الماء تحته مشتبكة طبقات يمنة ويسرة شيئاً فوق شيء.

والقسم الثالث مسوّرها وما فيه وحوله من المعمور. وكأنما هي في وصفها طائر أبيض في مرج أخضر يترشّف ما يصل إليه من الماء أولاً فأولاً.

ومن خصائص دمشق أيضاً أن الحيّات لا تلدغ داخل سورها أبداً وهنّ قليلات الوجود فيها، وفي غوطتها ونواحي أرضها. وعدد بساتينها مائة ألف وواحد وعشرون ألف بستان، تسقى بماء واحد يأتي إليها من أرض الزبداني.

ومن وادي بردى عين تنحدر من أول الوادي، ومن عين الفيجة. وينبعث نهراً واحداً يسمّى بردا، ثم يتفرّق سبع فرقات كل فرقة نهر تسمّى باسم، منها نهر يزيد فتحه يزيد بن معاوية فسُمّي به، ونهر ثورة فتحه ملك من ملوك الروم اسمه ثورة فسمّي باسمه، ونهر باناس فتحه باناس الحكيم اليوناني فسُمّي باسمه، ونهر القنوات، وكلاهما يجريان إلى داخل المدينة ويتفرّقان في المصارف والبرك والقنيّ والحمّامات والطهارات، ونهر مِزَّة

منسوب إلى قرية تُسمّى المِزّة. وكان اسمها المَنْزَه لما بها من صحّة الهواء وصفاء الماء وحسن القصور وطيبة الثمار وكثرة الزهور والورد واستخراج الماء منه، حتى أن حُراقته تُلقى على الطرقات وفي دروبها وأزقتها كالمزابل فلا يكون لرائحته نظير، ويكون ألذّ من المسك إلى مدّة انقضاء الورد(١).

ثم نهر داريّا سادس النهور، وهو أرفعها مجرى وأبعدها مقسماً. وداريّا قرية عظيمة المُغلّ والأرض، وبها قبر أبي مُسلم الخولاني، وقبر أبي سليمان الدّاراني. وممّا ورّخه المؤرخون في سنة تسع وتسعين وستماية أن الزرّاع زرعوا المباطخ بغرارتين ونصف بزر بطيخ أصفر، ثم أصابه البرد فأهلكه فاستأنفوا زرعه بمثله بزراً. وحضر ذلك مُشِدّ الشام بلَبان الجَوكَندار الذي كان نائب قلعة صفد أخبر به ووُرِّخ عنه.

وسابع النهور نهر البَرَدا الجاري في قرارة الوادي. ولا يقبل إلا الارتفاع من مجراه، منه تقسّمت الأنهار المذكورة، ثم ينقسم من هذه الأنهار فرق وجداول وتتفرّق متشعّبة بأراضي الغُوطة، حتى لا يبقى منها بقعة يمكن وصول الماء إليها إلا ويصل، ويركبها سقياً لها بحساب وتسقيط معلوم في الليل والنهار، بساعات معلومة لا تزيد ولا تنقص. ثم يخرج عمود بعد ذلك وينبعث في جهة الشرق ويسقي قرايا وضياعاً وأراضي مَرجيّة وصحراويّة حتى يصبّ آخره في بحيرة شرقيّ دمشق، بأرض عَذراء ينبت بها القصب. وهذه البحيرة يصب فيها نهر آخر يُسمّى الأعوج، يجتمع عند تحليل الثلج ومن عصارات المياه والمواصي فيكون نهراً كبيراً.

---

(١) يذكر المؤلّف هنا صفة تقطير ماء الورد بدمشق، وقد أخّرنا ذلك إلى ما بعد نهاية النصّ.

ومن الأقاليم والكور والأحواز والرساتيق لدمشق تسعون إقليماً، وهي بالغُوطة: إقليم داريّا، وإقليم بيت لهيا، وإقليم المزّة، وإقليم الزنار، وإقليم برزة. وإقليم الغُوطة، وإقليم المرج، وإقليم الجبهة، وإقليم سنير، وإقليم لبنان، وإقليم القران. وحول ذلك: وادي التَّيْم، وجبّة عسال، وقارى، والنبك، والقُطَيْفة، وصَدَد، ومهين، ووادي بردا، والكفور، والصحرا، وبيت جنّا، والعجر، وُالجولان، وعقربا، والجيدور حول ذلك. ونوى، والشعرا من اللجاة، والسماوة، وبوارش، وبقاع العزيز، وبقاع بعلبك.

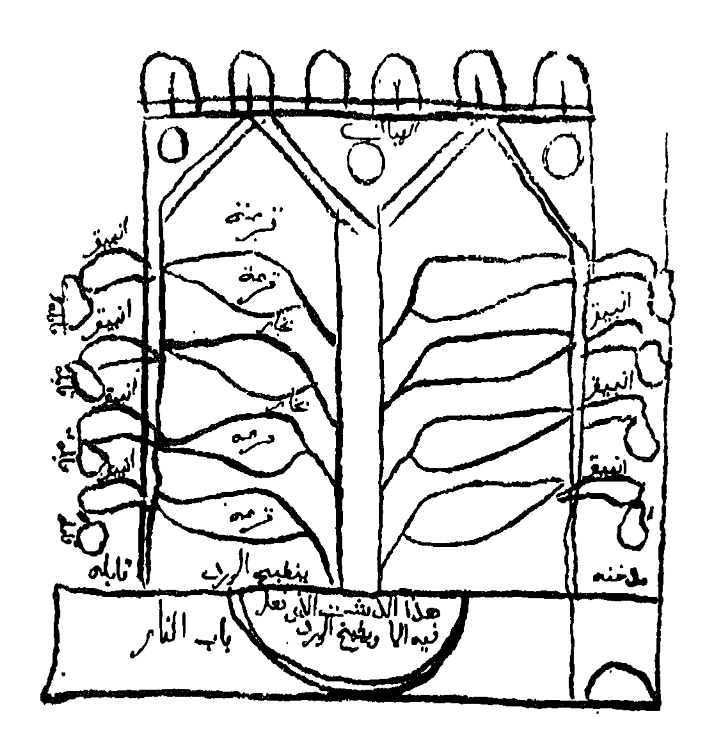
نخبة الدهر لشيخ الربوة ١٩٣ - ٢٠١

[تقطير ماء الورد بدمشق]

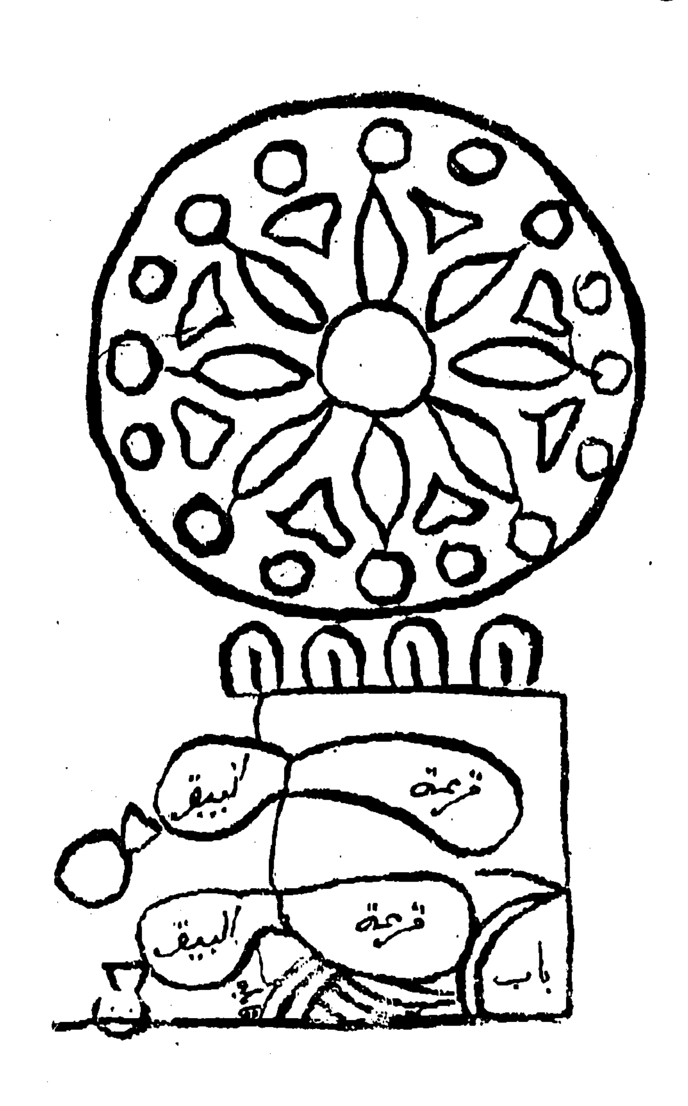
وصفة إخراجه في الكرَكات: وهو أن البانين يحفرون في الأرض حفيرة قدر ذراعين ونصف في مثلها، ويعقدون عليها بالطوب أزَجاً له باب من جهة ومنفس للهواء من جهة، وله منفس من أعلاه يصعد منه بعض بخار. ثم يضعون دستاً كبيراً فوق الأزج ويوقدون تحته بجزل الحطب، ويبنون على الدست طاراً كصورة خزانة الحمّام، ارتفاعه نحو نصف ذراع. ثم يرصّون فوقه من القصب الفارسي الحيّ القوي الغليظ شباكاً محكماً، ثم يضعون فوق القصب المشتبك القرعيّات الزجاج ويجعلون حلوقها

وأفواهها إلى خارج .

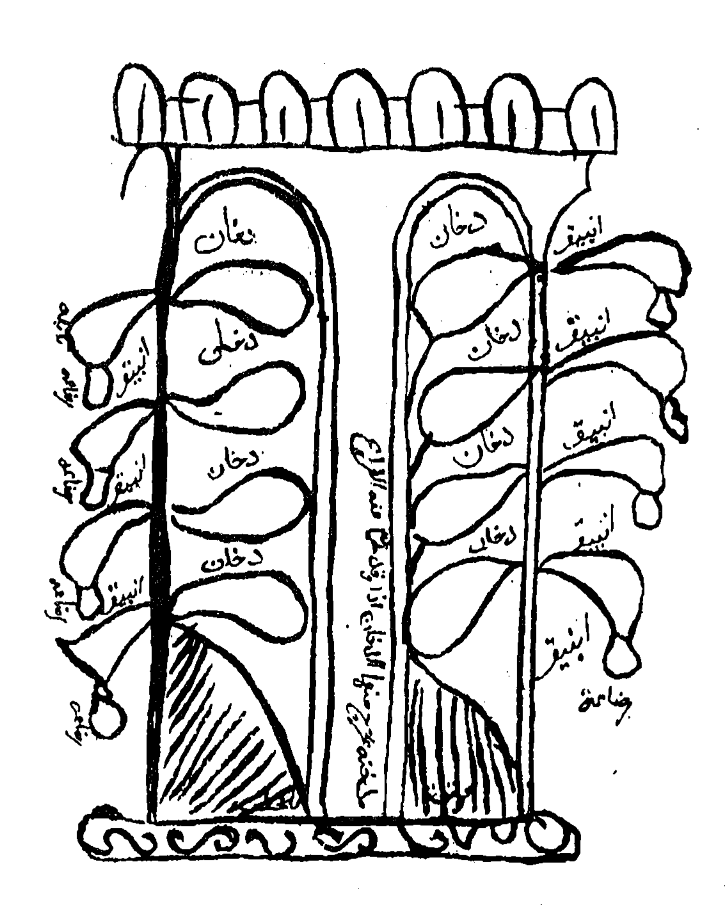
فإذا أداروها دوراً وكمل دورها بنوا على طار مثله مرفعين فيه إلى أن يرتفع نحواً من أربع أصابع مطبوقة ، ثم يرصّون قصباً فارسيّاً تانياً ثم قرعيّات كذلك . ثم يبنون عليها فوق الطار مرفعين البناء كذلك إلى أن يشرف البناء على طول قامة الإنسان ونصف قامته ، سافاً قرعيّات وسافاً قصباً شباكاً . ويكون في الوسط قد أقاموا عموداً من الخشب قائماً من وسط الدست إلى أعلى البناء مسقوف عليه سقف قبّته كهذه الهيئة ، فاعلم ذلك إن شاء اللّه تعالى ، وبه التوفيق .



ثم يعلّقون القوابل، وتسمّى الرضّاعات، وذلك بعد حشو القِراع من الورد أو مثله ممّا يُستخرج ماؤه. كلّما مُلئت رضّاعة فرغت في وعاء كبير زجاج يسمّى قرابة، أو في وعاء كبير من نحاس يُقال له قُمْقُم.



وغير هذه الكركة كركة أخرى يُستخرج منها الماورد وغيره من المياه بلا ماء بوقود الحطب، وذلك بعد حشو القِراع بالورد وبلسان الثور وبزهر النوفر أو البان أو زهر النارنج والشقيق والهندبا أو بورق القرنفل المزروع بدمشق. وهذه صورتها فافهم ذلك إن شاء اللّه تعالى وبه التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل.

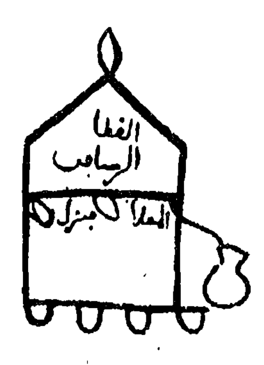


وهو أنهم يبنون أزجاً أتوناً موقداً مجموعاً في صورة بئر مقلوبة يصعد فيها اللهب والدخان كالمدخنة، ويحيطون عليه بسور مبني مثله كهيئة الدائرتين، ثم يضعون القراع المزجّجة بين السور وبين البئر أسفلهن إلى البئر وحلوقهنّ خارجات من السور. ويبخشون بين القرعيّات في البئر أبخاشاً يخرج منها الحمو والدخان، ويدور تحت القرعيّات فيحمين بهنّ بمقدار الحاجة.

ثم يرفعون البناء من البئر والسور والقِراع أبداً كذلك بمقدار أن يكون البناء أزيد من قامة إنسان، ثم يسقفون ما بين البئر والسور ويضيّقون رأس البئر الذي هو المدخنة ويوقدون بالحطب الجزل دون غيره.

وأمّا الذي يخرج من الماء البيتونيّ فإنه في تنور الورد وفي المقلى الرصاص مبني مثل البرج الصغير طبقتين: الأولى فيها نار الفحم الدقّ وغيره والحطب الجزل، والثانية للحطب من فوقه، وهي مبخّشة لصعود الدخان منها والحرارة إلى القِراع، وهو من الأربعة إلى الثلاثة فما دونها.

وأما المقلى الرصاص فإنه يتّخذ شبكاً في قوالب من تراب، فإذا جمل كان كهذه الصورة:



ويسمّونه اليونان أثال، وله غطاء وهو إنبيقه، وقد يكون الغطاء زجاجاً وقد يكون رصاصاً. فإذا حرّروا عمله جعلوا تحته فرشاً من الملح والطوب، ثم يوقدون النار من تحت ذلك فيقطر ماؤه معتدلاً حسن اللون والنضج والرائحة.

وأما الزجاج الحكميّ فإنه من آلات اليونان وأهل الحكمة، والاستقطار فيه لا يكون إلا ببخار الماء المغلي تحته. وهذه صورة مثاله كما ترى:



ويُحمل الورد المستخرج بالمزّة إلى سائر البلاد الجنوبيّة كالحجاز وما وراء ذلك، وكذلك يُحمل زهر الورد المزّي إلى الهند وإلى بلاد السند وإلى الصين وإلى وراء ذلك، ويسمّى هناك الزهر. وممّا أرّخوه أنه كان لقاضي قضاة الحنفيّة ولأخيه الحريري قطعة بأرض تسمّى «شور الزهر»، طولها مائة وعشر خطوات وعرضها خمس وسبعون خطوة، أباع منها عشرين قنطاراً باثنين وعشرين ألف درهم، وذلك سنة خمس وستين وستماية. وهذا لم يُسمع بمثله.

نخبة الدهر لشيخ الربوة ١٩٥ - ١٩٨

من الفصل الثالث من الباب الثالث
في ذكر الأنهار الجرّارة والعيون والآبار وينابيعها المختلفة

ونهر دمشق، وسيأتي وصفه عند وصفها.

وانبعاثه من مرج الزبداني ومن عين الدلّة [1] من فوق الزبداني ومن عين الفيجة ومن أعين في طول وادي بردا. وأصل عين بَرَدا من تحت جبل

(١) لا يوجد بهذا الاسم نبع ماء في أيامنا، إلا أن وادي الدلّة ما يزال معروفاً بنفس الاسم شمالي بلدة الزبداني، وبه تجري مياه من عدة عيون تتجمع فتحمل اسم (نهر الدلّة). انظر: الريف السوري لأحمد وصفي زكريا ٢: ٢٦٨.

في مرج الزبداني بجنب قرية يقال لها السّفيرة [1]، وفي هذا الجبل هوّة عظيمة لم يُعلم لها قرار [2]، بل يؤخذ حجر عظيم يحمله رجلان أو ثلاثة فيُلقى في هذه الهوّة لم يُسمع له حس . ومن عجائبه أنه إذا طلع من الهوّة بخار ولو كان في أيام الصيف يخرج السحب وتمطر ، وهذا صحيح مجرّب .

نخبة الدهر ١١٤

---

(١) لا وجود لقرية فعلية بهذا الاسم في أيامنا ، إلا أن هناك تلاً باسم (تل السفيرة) جنوب غرب الزبداني على الطريق الآخذ إلى نبع بردى .

(٢) ينفرد شيخ الربوة بذكر هذه الهوّة العجيبة التي تخلو من ذكرها جميع المصادر الجغرافية والتاريخية القديمة والمعاصرة أيضاً ، وهي ما تزال ماثلة في إحدى ظهرات جبل الشير منصور ، ويعرف موقعها باسم (ظهر الهوّة) . وهي بشكل نقب شاقولي مهول عميق جداً (١٦٧ متراً حتى قعرها المرئي ، يضاف إليها حوالي ٣٠٠متر وصولاً إلى الحوض الجوفي لنبع بردى) . وهذه الهوّة من أعمق الآبار الكارستية الطبيعية في سورية ، تليها في ذلك هوّة مضايا (حوالي ٣٠٠ متر) . وكنا قد قمنا باستكشاف هاتين الهوّتين وزرناهما مراراً .

من الفصل الرابع من الباب الثالث
في وصف الأعين والمنابع وذكر بقاعها العجيبة وخواصّها وما فيها من العجائب

وبثنيّة العقاب من أرض دمشق بأعلى الثنيّة كهف معبد فيه نقرة منقورة بقدر الطاسة الكبرى ، لا تزال ملآنة ماءً لو أخذ منها ألف رجل درّت بما يكفيهم ، وإذا تُركت كان ماؤها واقفاً لا يزيد ولا ينقص . ولا عمق ولا خرق فيها سوى أن النقرة مملوءة ماءً .

نخبة الدهر ١٢٠

COLLECTIO EDITIONUM RARIORUM ORIENTALIUM

NOVITER IMPRESSARUM

II

ED-DIMICHQUI

NUKHBAT AD DAHR FÎ 'ADSCHÂ'IB AL BARR WAL BAHR

COSMOGRAPHIE

PUBL. PAR

A. Mehren

OTTO HARRASSOWITZ, LEIPZIG

1928

فهرس الجزء الأول

الصفحة



طبع في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٨

سعر النسخة داخل القطر
٣٠٠ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل
٦٠٠ ل.س